

بناء الأسرة المسلمة

في ضوء القرآن والسنّة

إعداد وتصنيف
الشيخ خالد عبد الرحمن العك

دار المعرفة
بيروت ـ لبنان

بناء الأسرة المسلمة

في ضوء القرآن والسنة

من بحوث العلماء

بناء الأسرة المسلمة

في ضوء القرآن والسنة

إعداد وتصنيف
الشيخ خالد عبد الرحمن العك
عضو هيئة التدريس الديني في
إدارة الإفتاء العام بدمشق

دار المعرفة
بيروت - لبنان

الطبعة الاولى : ١٤١٨هـ ١٩٩٨م





مستديرة المطار، شارع البرجاوي، ص.ب. ٧٨٧٦، هاتف ٨٣٤٣٠١ - ٨٣٤٣٣٢، فاكس ٦٠٣٣٨٤، برقياً معرفكار بيروت - لبنان
Airport Square, P.O.Box: 7876, Tel: 834332, 834301, Fax: 603384, Beirut - Lebanon

الإهـداء

إلـى

زوجتي الفاضلة «وفيقة الدّباغ».

أختـي الكريـمة «وداد العـك».

بناتي العزيزات: «رباب ـ أميرة ـ كوثر».

وإلـى

كلِّ زوجةٍ وأختٍ وفتاة...

أهدي هذا الكتاب ليكون نبراساً لهنّ في حياتهنّ.

مـع فـائـق الإجـلال والتّـوقـيـر والاحتــرام...



المقدمة

إنّ الحمدَ لله نَحمَدُه ونستعينُهُ ونستغفِرُهُ ونتُوبُ إليه، ونعوذُ بالله من شُرورِ أنفسِنَا ومن سيِّئاتِ أعمالنا.

مَنْ يهدِه ٱلله فلا مُضِلَّ لهُ، ومَنْ يُضْلِلْ فلا هادِيَ لهُ.

وأشهـدُ أنْ لا إلٰـه إلاّ الله وَحْـدَهُ لا شـريـكَ لـهُ، وأشهـدُ أنّ محمّـداً عبـدُهُ ورسولُهُ ﷺ.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾[1].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾[2].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ۝ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾[3].

أمّا بَعْدُ: فإنّ أصْدَقَ الحَديثِ كتابُ الله، وخيرَ الهَدْيِ هَدْيِ محمّدٍ ﷺ، وشرَّ الأمُورِ مُحْدَثاتها، وكلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وكلَّ بدعةٍ ضلالَةٌ، وكلَّ ضلالَةٍ في النّارِ.

نسألُ الله تعالى أن يُحيينا على هَدْيِ كتابهِ وسنّةِ رسولهِ ﷺ وجميعَ المسلمين.

هذا.. وإنّ الإسلام بمصدريه «القرآن والسّنّة» يهدفُ إلى بناءِ الأُسرةِ المسلمةِ

---

(١) سورة: آل عمران، الآية: ١٠٢.

(٢) سورة: النساء، الآية: ١.

(٣) سورة: الأحزاب، الآيتان: ٧٠ ـ ٧١.

بناءً قوياً متيناً، حيثُ جعلَها أصلَ المجتمعاتِ؛ فإنْ صلحتْ صلحَ المجتمعُ، وإنْ فسدتْ فسدَ المجتمعُ، والمجتمعُ الصّالحُ هو مظهرُ الحياةِ السّعيدةِ الآمنةِ المطمئنّةِ، والمجتمعُ الفاسدُ هو مظهرُ الشّقاءِ والتّعاسةِ والضّلال.

ومن هنا كانتْ عنايةُ الإسلامِ بنشأةِ الأسرةِ المسلمةِ بالغةَ الأهميةِ؛ لأنّ أفرادَها هم أفرادُ المجتمع!!!.

وحيث كان الزّوجُ والزّوجةُ هما المؤسّسين في بناءِ الأسرةِ المسلمةِ، وجّهَ إلى كلٍّ واحد منهما خطابهُ التّكليفي بوجوب القيام بما أسدىٰ إليه من أعمالٍ ومهامٍّ تتناسَبُ معَ إمكانياتِ وقُدُراتِ كلٍّ منهما!!.

فأوجبَ على الزّوجِ حقوقاً تجاهَ زوجتِهِ، وأوجبَ على الزّوجةِ حقوقاً تجاهَ زوجِها، وكانتْ تلكَ الحُقوقُ الضّمانَ المتينَ لتحقيقِ التّوازنِ في تحمّلِ المسؤولياتِ وأداءِ الواجباتِ، فإنْ أخلَّ أحدُ الزّوجين بقيامِهِ فيما أُوجِبَ عليه، اختلَّ التّوازنُ في تحمّلِ المسؤوليات، وبدأ التّظالُم يفشو في جَنَباتِ الحياةِ الزّوجيةِ، وإنْ كان الخللُ منهما تفاقمَ الظلمُ إلى أن يطولَ جميعَ أفراد الأسرةِ، فتتهدّمَ شيئاً فشيئاً إلى أن تحلَّ الكارثةُ الرّهيبةُ، المتمثّلةُ بفراقِ الزّوجين «بالطّلاق»! وهنا تبدأ المُعَاناةُ القاسيةُ في حياةِ الأطفال والأولادِ، في فقدِ الرُكْنِ الذي كانُوا يركنُون إليه، والسّند الذي كانُوا يأْوُونَ إليه؛ «الأمّ العطوفةَ الرّحيمةَ الحانيةَ»، ولن تستقيمَ حياةُ الأطفالِ ولا الأولادِ بدونِ هذا الرّكنِ العظيم!!!.

وإنّ هذا الكتابَ الذي أُقَدّمُهُ بينَ أيدِي القُرّاءِ قد جمعتُ فيه مِنْ بُحوثِ العلماءِ والدُّعاةِ والمُصلحين والأُدباءِ، ما يكونُ بياناً شافياً لمعالجةِ قضايا الأُسرةِ المُسلمةِ في كافّةِ مراحلِها، وعامّةِ شؤونِها، حَدَاني إلى تدوينِها قولُ «موسى الكليم» عليه السّلامُ، فيما يرويه لنَا رسولُ الله ﷺ[1] عن أبي هريرة عن رسولِ الله ﷺ أنّه قال: «سألَ موسى ربَّهُ عن ستِّ خصال: [التي منها] قال: فأيُّ عبادِكَ أعلمُ؟ قال: عالمٌ لا يشبعُ مِنَ العلمِ، يَجْمَعُ عِلْمَ النّاسِ إلى علمِه..» الحديث.

(١) صحيح ابن حبان برقم ٦٢١٧ ـ بإسناد حسن.

فهذا ما يجبُ أن يكونَ عليه الباحثُ في العُلومِ الإسلاميّةِ وثقافتِها أن يجمعَ إلى تحصيله تحصيلَ مَنْ سبقَهُ من العلماءِ والباحثين؛ لتكونَ أبحاثُهُ أقربَ إلى الاكتمال، ولتكونَ مُعَالجتُهُ للقضايا التي يبحثُ في مُعَالجةِ مُشكلاتِها أكثرَ نجاحاً وسَدَاداً، فإنّ الإنسانَ بمفردهِ ضعيفٌ، فإنِ استعانَ بأهلِ العلمِ والخبرةِ والمشورةِ؛ قَوِيَ بهم، واشتدَّ ساعدُهُ بمؤآزرتِهم!!!.

وهذا ما ابتغيتُهُ في «منهاج بناءِ الأسرةِ المسلمةِ في ضوء القرآن والسّنّة» أن يكونَ حاوياً لأصحِّ الدّرَاساتِ والأبحاثِ في هذا المجالِ الهامّ الجليل!!.

إنّ هـذا المنهـاجَ ضـروريٌ لـوقـايـةِ بنـاءِ الأسـرةِ المسلمـةِ مـن أنْ يتصـدَّعَ أو يتخلخل!!! وإنّهُ ضروريٌ لنجاح أفرادِ الأسرةِ في الحياةِ؛ وذلك أنّ الفَشَلَ فيها فشَلٌ في تحقيق السّعادةِ والهناءِ والطّمأنينة!!؟.

وإنّ هذا المنهاجَ ضروريٌ لبناءِ المجتمعِ المسلم والأُمّةِ المسلمة!! ذلك لأنّ الأسرةَ من مؤسّساتِ المجتمع، ومن خلايا الأُمّةِ؛ حيثُ لا تتكوّنُ الأُمّةُ إلا مِنَ المجتمعاتِ، ولا تتكوّنُ المجتمعاتُ إلا مِنَ الأسرة!! ولكنْ أيَّ أُسرةٍ هذه؟! إنّها «الأسرةُ المسلمةُ» التي تستظلُّ بظِلاَلِ القرآنِ وظلالِ السّنّةِ!!!.

ولْنَدَعْ أبحاثَ هذا الكتابِ الهامِّ تتكلّمُ بلهجتِها الصّادقةِ، ومِن منظُورِها الوَاضح، ومِن مُنطلقَاتِها الثّابتةِ، ومن أصولِها المتينةِ، ومِن قواعدِها الرّاسخةِ؛ «من هدي القرآن العظيم والسُّنّة النّبويّة المُطهّرة»!!!.

وإنّي لأشكر القائمين على إدارة «دار المعرفة» في بيروت العامرة الأستاذ محمد إبراهيم فولادكار، والأستاذ عدنان إبراهيم فولادكار المحترمين الذين قامُوا بخدمة هذا الكتاب على أحسنِ ما يُرَامُ ويُرتجَى من العنايةِ والضّبطِ والإتقانِ، وهذا شأنُهم في كلِّ ما يقومُون بنشرهِ من الكتبِ الإسلاميةِ الجليلةِ، جزاهُمُ الله تعالى كلَّ خيرٍ، وأمدَّهُم بالعافيةِ والصّحةِ والتّوفيقِ والنّجاحِ والسّداد والرّشاد، اللَّهم آمين!.

إنّ هـذه الـدّراسـاتِ الجادة التي تُعـالـجُ قضـايـا المسلـم المعـاصـرِ، والأسـرةِ المعاصرةِ، يجبُ أن تنالَ من اهتمامِ المسلمين القدرَ الأكبرَ، لِمَا لها من الآثارِ النّافعة في النّفوسِ والقلُوبِ والعُقولِ؛ من تصحيحِ المفاهيمِ الخاطئةِ، والاتّجاهاتِ المنحرفةِ،

والتّصرّفاتِ السّيّئةِ، في القضايا الاجتماعيةِ عُموماً، والقضايا الأُسريّةِ خصوصاً!!!.

إنّنا حينَ نرَى الإسَاءاتِ المتبادلةَ من أفرادِ المجتمع، ومن أفرادِ الأسرةِ، ولا نرى أثراً لإصلاحها، نجزمُ بأنّ مَسارَهم نحو الهلاكِ يزدادُ باطّرادٍ، وهذا يعني فسَادَ الأُسَرِ وفسَادَ المجتمع!؟!.

فلا بدّ من زيادةِ الاهتمام بقراءة هذه الدّراساتِ والبحُوث لتحقيق الإصلاح في نفوسنَا، وفيما بينَ النّاس، والله عزّ وجل يأمُرُنا بقوله الحكيم: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾[1] وقال سبحانه: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[2].

نسألُ الله تبارك وتعالى فعلَ الخيراتِ، وتركَ المنكراتِ، وإصلاحَ ذاتِ البَيْنِ، وأنْ يجعلَ أعمالَنا صالحةً، وأنْ يتقبّلها، وأنْ يُثيبنَا عليها يومَ نلقاهُ، يومَ لا ينفعُ مالٌ ولا بنون إلاّ مَنْ أتَى الله بقلبٍ سليم، فاللّهمَّ اغرِسْنَا في دينِك واسْتَعْمِلْنَا في طاعَتِك، اللّهمَّ آمين، والحمدُ لله ربِّ العالمين.

دمشق ١٥/ المحرّم/ ١٤١٨ هـ

خادم الشرع بدمشق/ الشّام

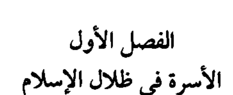
خالد بن عبد الرحمٰن العك

غفر الله تعالى له ولوالديه ولجميع المسلمين

---

(١) سورة: المائدة، الآية: ٢.

(٢) سورة: الأنفال، الآية: ١.



الفصل الأول
الأسرة في ظلال الإسلام

المبحث الأوّل: حماية الإسلام للأسرة.

المبحث الثّاني: الأسرة الصّالحة المؤسّسة الأولى للإنسانيَّة.

المبحث الثّالث: نظام الأسرة في الإسلام.

المبحث الرّابع: الأسس المتينة لبناء الأسرة السّليمة.

المبحث الخامس: بناء البيت السّعيد.

المبحث السّادس: تحصين الشّريعة للأسرة بحمايتها للزّوجة من عوادي الفِتن.

المبحث السّابع: تحذير الشّريعة للزّوجين من عواقب الخطيئة الفاحشة.

المبحث الثّامن: ضوابط زواج المسلم بالمرأة الكتابية وأخطاره.

البحث الأول:

حماية الإسلام للأسرة[1]

اهتمّ الإسلامُ بحماية الأسرة من آفات الفساد والهدم، وأقام سدًّا يعصمها من البوار والتّلف. وحماية الأسرة في الأصل من واجبات راعيها، الذي عليه أن يدفع عنها السّوءَ، وأن يقيَهَا المهالك والشّرور. «كلُّكُمْ راعٍ وكلُّكُم مسؤول عن رعيته، فالرجلُ راعٍ في أهل بيتهِ وهو مسؤولٌ عن رعيّتهِ..»[2]. على الرجل أن يستيقظ لأعبائه، فيحدّ بصره ويرهف سمعه ولا يغفل، ويتلمح عواقب الأمور، فلا يتهاون ولا يعبث، ولا يدع بيته تجتاحه الرياح اللّوافح والعواصف المدمّرة.

عليه أن يرعى زوجته، فلا يذرها تنحرف وهو شاهد، ولا تعبث وهو لاهٍ ساهٍ ولا يُمْلي لها حتى تلج ميادين الشّرّ وساحات الهدم، بل لا بد من وعي الرقابة وحسن القيادة وتأمين الطريق، والمبادرة قبل استفحال الخطر واستمكان الداء.

وعليه أن يحسن قيادة ذريته، وأن يتحرى في تنشئتهم مناهج الاستقامة وخصائص الفطرة، وأن يحميهم من مفاسد البيئة وأمراضها، وأن يزودهم بطاقات التحمل والكفاح ويجهزهم بأسلحة النّضال والفوز وأن يكون قدوة لهم في السّلوك والاتّجاه.

ثم راعى الإسلام حماية الأسرة من خارج...

حمايتها من جرائيم البيئة وعدواها، وحجب أفرادها من التعرض للإغراء والاختطاف، حتى لا تتصدع الأسرة وتنهار.

---

(١) الأسرة في الإسلام ـ عرض عام لنظام الأسرة في ضوء الكتاب والسنة: للدكتور مصطفى عبد الواحد، ص ٨٧ ـ ٩٠، ط مكتبة المتنبي ـ القاهرة.

(٢) متفق عليه.

فالزوجة يمنع الإسلام عنها تيار الفتنة والاجتناب، فينهى عن إفسادها، وتحريضها على زوجها، وتأميلها بحياةٍ أرغد وعيش أهنأ.

فإن فاعل ذلك شريرٌ ملعونٌ.

قال النبي ﷺ: «ليس منّا مَنْ خبّبَ امرأةً على زوجها» رواه أبو داود. أي أفسدها عليه.

وهذا إيصاد لباب واسع يجلب للأسرة الشّقاء والتّعاسة والخراب، حين تتعرّض الزوجة لدعوات الإغراء وتتطلع إلى إلحاح الفتنة، فتندفع لهدم بيتها وتنخدع بالأماني والأحلام الكاذبة.

وفي سبيل ذلك يمنع عنها أسباب الغواية، ويُطفىء مبادىء الشّرور.

البحث الثّاني:

الأسرة الصالحة المؤسّسة الأولى للإنسانيّة[1]

وجوب تنظيم الأسرة وضبطها من البداية حتى النّهاية:

حرص التّشريع الإسلامي على تنظيم مؤسسة الأسرة؛ وضبط الأمور فيها، وتوزيع الاختصاصات، وتحديد الواجبات؛ وبيان الإجراءات التي تتخذ لضبط أمور هذه المؤسسة؛ والمحافظة عليها من زعازع الأهواء والخلافات؛ واتقاء عناصر التهديم فيها والتدمير، جهد المستطاع: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾[2]. ولا بدّ ـ قبل الدّخول في تفسير هذه النّصوص القرآنية، وبيان أهدافها النفسية والاجتماعية ـ من بيان مجمل لنظرة الإسلام إلى مؤسسة الأسرة، ومنهجه في بنائها والمحافظة عليها، وأهدافه منها... بيان مجمل بقدر الإمكان: إنّ الذي خلق هذا الإنسان جعل من فطرته «الزوجية» شأنه شأن كل شيء في هذا الوجود: ﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝٤٩﴾[3].

ثم شاء أن يجعل الزّوجين في الإنسان شطرين للنّفس الواحدة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾[4]. وأراد بالتقاء شطري النّفس الواحدة ـ بعد ذلك ـ فيما أراد، أن يكون هذا اللّقاء سكناً للنّفس، وهدوءاً للعصب، وطمأنينةً للرّوح، وراحة للجسد... ثم ستراً وإحصاناً وصيانةً... ثم مزرعةً للنّسل وامتداد الحياة مع ترقيها المستمر، في رعاية المحضن الساكن الهادىء المطمئن المستور المصون:

---

(١) دستور الأسرة في ظلال القرآن: لأحمد فائز، ١٢٩ ـ ١٤٠، ط مؤسسة الرسالة ـ بيروت.
(٢) سورة: النساء، الآية: ٣٤.
(٣) سورة: الذّاريات، الآية: ٤٩.
(٤) سورة: النساء، الآية: ١.

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾[١] ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ﴾[٢] ﴿ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ وَقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُمْ وَاتَّقُواْ اللَّهَ ﴾[٣] ﴿ يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ﴾[٤] ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ﴾[٥].

ومن تساوي شطري النّفس الواحدة في موقفهما من الله، ومن تكريمه للإنسان، كان ذلك التكريم للمرأة، وتلك المساواة في حقوق الأجر والثّواب عند الله، وفي حقوق التّملك والإرث، وفي استقلال الشخصية المدنية.

ومن أهميّة التقاء شطري النّفس الواحدة، لإنشاء مؤسسة الأسرة ومن ضخامة تبعة هذه المؤسسة أولاً: في توفير السّكن والطمأنينة والسّتر والإحصان للنّفس بشطريها. وثانياً: في إمداد المجتمع الإنساني بعوامل الامتداد والتّرقي... كانت تلك التّنظيمات الدّقيقة المحكمة التي تتناول كل جزئية من شؤون هذه المؤسسة وقد احتوت سورة النساء جانباً من هذه التنظيمات، كما احتوت سورة البقرة جانباً آخر.

واحتوتْ سُوَرٌ أخرى من القرآن، وعلى الأخص سورة النّور في الجزء الثامن عشر وسورة الأحزاب في الجزئين الحادي والعشرين والثّاني والعشرين وسورة الطّلاق وسورة التّحريم في الجزء الثّامن والعشرين... ومواضع أخرى متفرّقة في السّور، جوانب أخرى تُؤلّف دستوراً كاملاً شاملاً دقيقاً لنظام هذه المؤسسة الإنسانية؛ وتدل بكثرتها وتنوعها ودقتها وشمولها، على مدى الأهمية التي يعقدها المنهج الإسلامي للحياة الإنسانية على مؤسسة الأسرة الخطيرة!.

ونرجو أن يكون قارىء هذه الصّفحة على ذكر مما يأتي في صفحات الكتاب

---

(١) سورة: الروم، الآية: ٢١.
(٢) سورة: البقرة، الآية: ١٨٧.
(٣) سورة: البقرة، الآية: ٢٢٣.
(٤) سورة: التحريم، الآية: ٦.
(٥) سورة: الطور، الآية: ٢١.

نفسه، عن طفولة الطفل الإنساني، وطولها، وحاجته في خلالها إلى بيئة تحميه أوّلاً حتى يستطيع أن يكسب رزقه للمعاش؛ وأهم من هذا أن تؤهله بالتربية، إلى وظيفته الاجتماعية والنّهوض بنصيبه إلى ترقية المجتمع الإنساني، وتركه خيراً مما تسلمه حين جاء إليه! فهذا الكلام ذو أهمية خاصة في بيان قيمة مؤسسة الأسرة؛ ونظرة المنهج الإسلامي إلى وظائفها، والغاية منها، واهتمامه بصيانتها، وحياطتها من كل عوامل التدمير من قريب ومن بعيد. . .

وفي ظل هذه الإشارات المجملة إلى طبيعة نظرة الإسلام للأسرة وأهمّيتها، ومدى حرصه على توفير ضمانات البقاء والاستقرار والهدوء في جوها. . . إلى جانب ما أوردناه من تكريم هذا المنهج للمرأة؛ ومنحها استقلال الشّخصية واحترامها؛ والحقوق التي أنشأها لها إنشاءً ـ لا مُحَابَاة لذاتها ولكن لتحقيق أهدافه الكبرى من تكريم الإنسان كله ورفع الحياة الإنسانية ـ نستطيع أن نتحدث عن الموضوع الذي قدمنا للحديث عنه بهذا الإيضاح: إن هذا النّص ـ في سبيل تنظيم المؤسسة الزوجية وتوضيح الاختصاصات التنظيمية فيها لمنع الاحتكاك فيها بين أفرادها؛ بردهم جميعاً إلى حكم الله لا حكم الهوى، والانفعالات والشخصيات ـ يحدد أنّ القِوَامة في هذه المؤسسة للرّجل؛ ويذكر من أسباب هذه القوامة: تفضيل الله للرجل؛ بمقومات القوامة، وما تتطلبه من خصائص ودربة، و. . . تكليف الرجل الإنفاق على المؤسسة. وبناء على إعطاء القوامة للرجل، يحدّد كذلك اختصاصات هذه القوامة في صيانة المؤسسة من التّفسّخ؛ وحمايتها من النّزوات العارضة؛ وطريقة علاج هذه النزوات ـ حين تعرض في حدود مرسومة: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡۚ﴾[1]. إنّ الأسرة ـ كما قلنا ـ هي المؤسّسةُ الأولى في الحياة الإنسانيّة الأولى من ناحية أنها نقطة البدء التي تُؤثّر في كلِّ مراحل الطريق. والأولى من ناحية الأهميّة لأنّها تزاول إنشاء وتنشئة العنصر الإنساني، وهو أكرم عناصر هذا الكون، في التّصور الإسلامي.

إذا كانت المؤسسات الأخرى الأقل شأناً، والأرخص سعراً؛ كالمؤسّسات المالية

---

(١) سورة: النساء، الآية: ٣٤.

والصّناعية والتّجارية... وما إليها... لا يوكل أمرها ـ عادة ـ إلاّ الأكفّاء المرشّحين لها، ممن تخصّصُوا في هذا الفرع علمياً، ودربوا عليه عملياً، فوق ما وهبوا من استعدادات طبيعية للإدارة والقوامة...

إذا كان هذا هو الشّأن في المؤسسات الأقل شأناً والأرخص سعراً... فأوْلَى أن تتبع هذه القاعدة في مؤسّسة الأسرة، التي تنشىء أثمن عناصر الكون... العنصر الإنساني... والنّوع البشري...

والمنهج الرّبّانّي يُراعي هذا. ويُراعي به الفطرة، والاستعدادت الموهوبة لشطري النّفس لأداء الوظائف المنوطة بكلٍّ منهما وفق هذه الاستعدادات، كما يُراعي به العدالة في توزيع الأعباء على شطري النّفس الواحدة... والعدالة في اختصاص كل منهما بنوع الأعباء المهيّأ لها، المُعَانِ عليها من فطرته واستعداداته المتميزة المتفردة... والمُسلَّمُ به ابتداءً أنّ الرجل والمرأة كلاهما من خلق الله تعالى، وأنّ الله ـ سبحانه ـ لا يريد أن يظلم أحداً من خلقه، وهو يهيّـئُهُ ويُعدُّه لوظيفةٍ خاصّةٍ، ويمنحه الاستعدادات اللازمة لإتقان هذه الوظيفة!.

وقد خلق الله النّاس ذكراً وأنثى... زوجين على أساس القاعدة الكلّيّة في بناء هذا الكون... وجعل من وظائف المرأة أن تحمل وترضع وتكفل ثمرة الاتصال بينها وبين الرجل... وهي وظائف ضخمة أولاً وخطيرة ثانياً.

وليست هينة ولا يسيرة، بحيث تؤدّى بدون إعداد عضوي ونفسي وعقلي عميق غائر في كيان الأنثى! فكان عدلاً كذلك أن ينوط بالشطر الثاني ـ الرجل ـ توفير الحاجات الضرورية، وتوفير الحماية كذلك للأنثى؛ كي تتفرّغَ لوظيفتها الخطيرة، ولا يحمل عليها أن تحمل وتضع وترضع وتكفل... ثم تعمل وتكد وتسهر لحماية نفسها وطفلها في آن واحد! وكان عدلاً كذلك أن يمنح الرجل من الخصائص في تكوينه العضوي والعصبي والعقلي والنفسي ما يُعينه على أداء وظائفه هذه. وأن تُمنح المرأةُ في تكوينها العضوي والعصبي والعقلي والنّفسي ما يُعينها على أداء وظيفتها تلك.

وكان هذا فعلاً... ولا يظلم ربك أحداً... ومن ثَمَّ زُوّدتِ المرأةُ ـ فيما زُوّدتْ به من الخصائص ـ بالرقة والعطف، وسرعة الانفعال والاستجابة العاجلة لمطالب

الطفولة ـ بغير وعي ولا سابق تفكير ـ لأن الضّروريات الإنسانية العميقة كلها ـ حتى في الفرد الواحد ـ لم تترك لأرجحة الوعي والتفكير وبطئه، بل جعلت الاستجابة لها غير إرادية! لتسهل تلبيتها فوراً وفيما يشبه أن يكون قسراً.

ولكنّه قسرٌ داخلي غير مفروض من الخارج؛ ولذيذ ومستحب في معظم الأحيان كذلك: لتكون الاستجابة سريعة من جهة ومريحة من جهة أخرى ـ مهما يكن فيها من المشقة والتّضحية! صنع الله الذي أتقنَ كلّ شيء.

وهذه الخصائص ليست سطحية. بل هي غائرة في التكوين العضوي والعصبي والعقلي والنفسي للمرأة... بل يقول كبار العلماء المختصّين: إنّها غائرة في تكوين كلّ خليةٍ. لأنّها عميقة في تكوين الخليّة الأولى، التي يكون من انقسامها وتكاثرها الجنين، بكل خصائصه الأساسية!.

وكذلك زوَّدَ الرّجل ـ فيما زوّدَه به من الخصائص ـ بالخشونة والصلابة، وبطء الانفعال والاستجابة، واستخدام الوعي والتّفكير قبل الحركة والاستجابة. لأنّ وظائفه كلّها من أوّل الصّيد الذي كان يُمارسه في أول عهده بالحياة إلى القتال الذي يُمارسه دائماً لحماية الزوج والأطفال إلى تدبير المعاش... وإلى سائر تكاليفه في الحياة... لأن وظائفه كلّها تحتاج إلى قدرٍ من التروّي قبل الإقدام؛ وإعمال الفكر، والبطء في الاستجابة بوجهٍ عام!... وكلُّها عميقة في تكوينه عمق خصائص المرأة في تكوينها.

وهذه الخصائص تجعله أقدر على القِوَامة، وأفضل في مجالها... كما أنّ تكليفه بالإنفاق ـ وهو فرع من توزيع الاختصاصات ـ يجعله بدوره أولى بالقِوَامة، لأن تدبير المعاش للمؤسّسة ومَنْ فيها داخل في هذه القوامة؛ والإشراف على تصريف المال فيها أقرب إلى طبيعة وظيفته فيها... وهذان هما العنصران اللّذان أبرزهما النّص القرآني، وهو يُقرِّرُ قِوَامَةَ الرّجال على النّساء في المجتمع الإسلامي؛ قِوَامة لها أسبابها من التكوين والاستعداد، ولها أسبابها من توزيع الوظائف والاختصاصات، ولها أسبابها من العدالة في التّوزيع من ناحية؛ وتكليف كل شطر ـ في هذا التوزيع ـ بالجانب الميسَّر له، والذي هو معان عليه من الفطرة، وأفضليته في مكانها... في الاستعداد للقِوَامة والدّربة عليها... والنّهوض بها بأسبابها... لأنّ المؤسسة لا تسير بلا قوامة ـ كسائر المؤسّسات الأقل شأناً والأرخص سعراً ـ ولأن أحدَ شطري النّفس البشرية مهيأ لها،

مُعانٌ عليها، مكلف تكاليفها. وأحدُ الشّطرين غير مهيّأ لها، ولا مُعَانٌ عليها... ومن الظلم أن يُحمّلَها ويحمل تكاليفها إلى جانب أعبائه الأخرى... وإذا هُيّىء لها بالاستعدادات الكامنة، ودُرِّب عليها بالتّدريب العلمي والعملي، فسد استعداده للقيام بالوظيفة الأخرى... وظيفة الأمومة... لأنّ لها هي الأخرى مقتضياتها واستعداداتها. وفي مقدمتها سرعة الانفعال، وقرب الاستجابة. فوق الاستعدادات الغائرة في التّكوين العضوي والعصبي، وآثارها في السّلوك والاستجابة!.

إنّها مسائل خطيرة... أخطر من أن تتحكّم فيها أهواء البشر... وأخطر من أن تُترَك لها يخبّطون فيها خَبْط عشواءِ... وحين تُركتْ لهم ولأهوائهم في الجاهليات القديمة والجاهليات الحديثة، هَدّدتِ البشريّةَ تهديداً خطيراً في وجودها ذاته؛ وفي بقاء الخصائص الإنسانيّة؛ التي تقوم بها الحياة الإنسانية وتتميز. ولعلّ من الدّلائل التي تشير بها الفطرة إلى وجودها وتحكّمها، ووجود قوانينها المتحكّمة في بني الإنسان: حتى وهم ينكرونها ويرفضونها ويتنكّرُون لها... لعلّ من هذه الدّلائل ما أصاب الحياة البشرية من تخبّطٍ وفسادٍ، ومن تدهورٍ وانهيارٍ؛ ومن تهديد بالدّمار والبوار، في كل مرّة خولفتْ فيها هذه القاعدة. فاهتزّت سلطة القِوَامة في الأسرة، أو اختلطت معالمها، أو شذت عن قاعدتها الفطرية الأصلية!.

ولعلّ من هذه الدلائل توقان نفس المرأة ذاتها إلى قيام هذه القِوَامة على أصلها الفطري في الأسرة. وشعورها بالحرمان والنّقص والقلق وقلة السعادة؛ عندما تعيش مع رجل، لا يزاول مهام القِوامة؛ وتنقصه صفاتها اللازمة؛ فيكل إليها هي القوامة! وهي حقيقة ملحوظة تسلم بها حتى المنحرفات الخابطات في الظلام!.

ولعلّ من هذه الدّلائل أن الأطفال ـ الّذينَ ينشأون في مؤسسة عائلية القوامة فيها ليست للأبِ؛ إمّا لأنّه ضعيف الشخصية، بحيث تبرز عليه شخصية الأمّ وتُسيطر عليه، وإمّا لأنّه مفقود: لوفاته ـ أو لعدم وجود أبٍ شرعي! ـ قلما ينشأون أسْوياء، وقلّ ألاّ ينحرفوا إلى شذوذٍ ما، في تكوينهم العصبي والنّفسي، وفي سلوكهم العملي والخُلُقي.. فهذه كلها بعضُ الدّلائل التي تُشير بها الفطرة إلى وجودها وتحكّمها، ووجود قوانينها المتحكّمة في بني الإنسان، حتى وهم ينكرونها، ويرفضُونها ويتنكّرُون لها!.

إنّ لقِوَامةِ الرّجال مقوماتها ومبرّراتها، وضرورتها وفطريتها كذلك... ولكن ينبغي أن نقول: إنّ هذه القِوَامة ليس من شأنها إلغاءُ شخصيّة المرأة في البيتِ ولا في المجتمع الإنساني؛ ولا إلغاء وضعها «المدني».

وإنّما هي وظيفة ـ داخل كيان الأسرة ـ لإدارة هذه المؤسسة الخطيرة، وصيانتها وحمايتها. ووجود القيِّم في مؤسّسةٍ ما لا يلغي وجودَ ولا شخصية ولا حقوقَ الشّركاء فيها، والعاملين في وظائفها، فقد حدد الإسلام في مواضع أخرى صفة قِوَامة الرّجل وما يُصاحبها من عطفٍ ورعايةٍ، وصيانةٍ وحماية، وتكاليف في نفسه وماله، وآدابٍ في سلوكه مع زوجه وعياله.

ففي الاستقرار البيتي قطعاً لدابر الفوضى والنِّزاع فيه، جعل الإسلام القوامة للرجل فيه، وذلك تمشياً مع سياسة التّنظيم الّتي يحرص عليها الإسلام حرصاً شديداً، والتي جعلت الرَّسُولَ ﷺ يأمر الرّجالَ أن يُؤمِّرُوا عليهم حتى ولو خرج اثنان في أمرٍ فأحدُهُما أميرٌ!!.

إنّ توحيد القيادة ضروري لأمن السفينة وفي سفينة البيت لا بدّ من قيادة، تتحمل التَّبِعَةَ وتحفظُ النّظامَ أن ينفلتَ، وما في هذا شذوذ على القاعدة الإسلامية العامّة في عالم الرّجال أيضاً. فأي الزّوجين كان المنطق كفيلاً بأن يسلمه القيادة؟ والمرأة المشبوبة بالعواطف والانفعال بحكم وظيفتها الأولى في رعاية الأطفال وتعطير جوّ البيت بالجمال؟ أمّا الرّجل الذي كلفه الإسلام بالإنفاق لتخلو المرأة إلى عبئها الضّخم، وتنفق فيه طاقتَها ووسعها؟ لقد جعل الإسلام القِوَامة تحقيقاً لنظامه المطرد أن تكون في كل عمل قيادة وقِوَامةٍ، واختاره لأنه بخلقته وتجاربه أصلح الاثنين لهذه الوظيفة. وهكذا حين تُعرض المسألة في بساطتها هذه وفي وُضُوحها، ينكشف ذلك اللغط الهاذر الذي تلوكه ألسنة الفارغين والفارغات في هذا الزّمان حول هذا النّظام، ويتجلّى أن فراغ الحياة وفراغ القلوب وفراغ العقول، هو الذي ينشيء ذلك اللّغط، ويجعله موضوع جدل. وهو نظام قصد به الإسلام أن يكون حلقة من حلقات السلام في البيت، ضمانة للاستقرار فيه والنّظام. ولكن في عهود الانتكاس وفي فترات الفراغ من جديّات الأمور، لا يبقى للمجتمع ما يحفل به إلا الفُتَات والقُشُور.

إنّ الضّرورة تقتضي أن يكون هناك قيّم توكل إليه الإدارة العامّة لهذه الشركة

القائمة بين الرجل والمرأة، وما ينتج عنها من نسل، وما تستتبعه من تبعات وقد اهتدى النّاس في كل تنظيماتهم إلى أنّه لا بدّ من رئيس مسؤول وإلاّ ضربتِ الفوضى أطنَابَها، وعادت الخسارة على الجميع. وهناك ثلاثة أوضاع يمكن أن تُفترض بشأن القِوامة في الأسرة؛ فإمّا أن يكون الرّجل هو القيّم، أو تكون المرأة هي القيّمة، أو يكونا معاً قيّمين، ونستبعد الفرض الثالث منذ البدء لأنّ التجربة أثبتت أن وجود رئيسين للعمل الواحد أدعى إلى الفساد من ترك الأمر فوضى بلا رئيس، والقرآن يقول عن السماء والأرض: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾[1]. . . ﴿ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾[2] فإذا كان الأمر هكذا بين الآلهة المتوهمين، فكيف هو بين البشر العاديين؟.

وعلم النّفس يُقرّر أنّ الأطفال الذين يتربّوْن في ظل أبوين يتنازعان على السّيادة، تكون عواطفهم مختلة، وتكثر في نفوسهم العقد والاضطرابات. بقي الفرضان الأولان. وقبل أن نخوض في بحثهما نسأل هذا السّؤال: أيهما أجدر أن تكون له وظيفة القِوَامة، بما فيها من تبعات: الفكر أم العاطفة؟ فإذا كان الجواب البديهي هو الفكر، لأنّه هو الذي يُدبّر الأمور في غيبة عن الانفعال الحادّ، الذي كثيراً ما يلتوي بالتّفكير، فيحيد به عن الطريق المباشر المستقيم، فقد انحلت المسألة دون حاجة إلى جدال كثير.

فالرّجل بطبيعته المفكرة لا المنفعلة، وبما زودته به الحياة من قدرة على الصّراع، واحتمال أعصابه لنتائجه وتبعاته، أصلح من المرأة فى أمر القِوَامة على البيت، بل إنّ المرأة ذاتها لا تحترم الرّجل التي تسيّره هي فيخضع لرغباتها، بل تحتقره بفطرتها ولا تقيم له أيَّ اعتبارٍ، فإذا كان هذا من أثر التربية القديمة التي تترك طابعها في اللاشعور، كيف مشاعر المرأة دون وعي منها، فهذه هي المرأة الأميريكية بعد أن ساوت الرّجل مساواة كاملة في الحقوق الاقتصادية، وصار لها كيان ذاتي مستقل، عادت فاستعبدت نفسها للرجل، وهذه هي كما تتحدّث الاعترافات التي تنشرها الصّحف الأميريكية، وكما يشهد الذين زاروا تلك البلاد، تتحسس عضلات الرّجل

---

(١) سورة: الأنبياء، الآية: ٢٢.
(٢) سورة: المؤمنون، الآية: ٩١.

وتتطلع إلى صدره العريض وذراعيه المفتولين، ثم تُلْقِي بنفسها بين أحضانه، حين تطمئن إلى قوّته بالقياس إلى ضعفها، أي حينَ تتلبّس النتوءات والمنحنيات ليتألف منها مزاج مؤتلف متناسق.

على أن المرأة إذا تطلعت «للسيادة» في أول عهدها بالزّواج، وهي فارغة البال من الأولاد وتكاليف تربيتهم التي ترهق البدن والأعصاب، فسرعان ما تنصرف عنها حين تأتي المشاغل وهي آتية بطبيعة الحال، فحينذاك لا تجد في رصيدها العصبي والفكري ما تحتمل به مزيداً من التّبعات.

وليس مؤدّى هذا أن يستبدّ الرّجلُ بالمرأة أو بإدارة البيت، فالرئاسة التي تقابل التّبعة، لا تنفي المشاورة ولا المعاونة، بل قد يكون العكس هو الصحيح. فالرّئاسة النّاجحة هي التي تقوم على التّفاهم الكامل، والتعاطف المستمر. وكل توجيهات الإسلام تهدف إلى إيجاد هذه الروح في داخل الأسرة، حتى لينفّر النّبيّ ﷺ الرّجال من استعمال حقوقهم في تأديب زوجاتهم النّاشزات ـ تلك الحقوق التي صرّح لهم بها القرآن ـ إلاّ في حالات الضّرورة القصوى التي تبيح كل شيء. فهو يقول لهم: «أمَا يستحي أحدكم أن يضرب زوجته أوّلَ النّهار ثم يُضَاجِعُها آخرَهُ؟» فيدعُو إلى تغليب الحُبّ والتّفاهم على النّزاع والشّقاق. ويجعل مقياسَ الخير عند الرّجل هو طريق معاملته لزوجته حيث يقول الرسول ﷺ: «خيرُكم خيرُكم لأهلِه». ومن حقّ القِوَامة نشأ في الإسلام أن يكون الرّجل هو الذي له حق الطّلاق لا المرأة، وتقول النّسوة اللائي احترفنَ إقامة المؤتمرات للإعلان: إنّ هذا ظلمٌ، وإنّه كان ينبغي أن تُعطى المرأة أيضاً هذا الحق فتُطَلِّق الرّجلَ حين تُريدُ.

والمسألة أبسط من أن تقوم فيها المماحكة. فلتسأل كل امرأة نفسها كم مرّة وافقت في حياتها على الشيء بكلّيتها ثم رفضته هو ذاته حين تغيرت عاطفتها نحوه... ولتتصور بعد ذلك كم مرّة كانت ستطلق زوجها ثم تعود فتردّه، ثم تعود فتطلقه، وهكذا وهكذا. بحيث لا يقرّ للبيت قرارٌ، وتختل نفوسُ الأولاد من هذه الحركةِ الدّائمة من النّقيض إلى النّقيض.

وليس معنى هذا أنه لا يوجد رجال يصنعون ذلك ففي كلا الجنسين قدراً من طباع الآخر يزيد أو ينقص، ولكن الأحكام العامة في مثل هذه الأحوال تكون موكلة

بالأغلبية السّاحقة، لا بالحالات الفردية التي تدخل في باب الشّذوذ، وهذه شهادة «الدكتور ألكسيس كاريل» في كتابه الذي يُسمّيه «القوانين الطّبيعية» ونحن نسميه «قوانين الفطرة التي فطرَ الله النَّاسَ عليها» فنرى أنْ ندعه هو يُدلي بشهادته العلمية دون تعليق:

«إنّ الاختلافات الموجودة بين الرّجل والمرأة لا تأتي من الشكل الخاص للأعضاء التّناسلية، ومن وجود الرحم والحمل، أو من طريقة التّعليم. إذْ أنّها ذات طبيعة أكثر أهمية من ذلك... إنها نشأت من تكوّن الأنسجة ذاتها، ومن تلقيح الجسم كله بموادّ كيماوية محددة يفرزها المبيض... ولقد أدى الجهل بهذه الحقائق الجوهرية بالمدافعين عن الأنوثة، إلى الاعتقاد بأنه يجب أن يتلقّى الجنسان تعليماً واحداً، وأن يُمنحَا سلطاتٍ واحدة ومسؤوليات متشابهة... والحقيقة أنّ المرأة تختلف اختلافاً كبيراً عن الرّجل. فكل خليّة من خلايا جسمها تحملُ طابعَ جنسها. والأمرُ نفسه صحيح بالنّسبة لأعضائها. وفوق كلّ شيء بالنّسبة لجهازها العصبي. فالقوانين الفُسيُولوجيّة غير قابلة للّين، شأنُها شأنُ قوانين العالم الكوكبي. فليسَ في الإمكان إحلال الرّغبات الإنسانية محلّها.

ومن ثَمَّ فنحن مضطرون إلى قبولها كما هي، فعلى النّساء أن ينمين أهليتهنَّ تبعاً لطبيعتهن، دون أن يحاولن تقليد الذّكور، فإنّ دورهنّ في تقدّم الحضارة أسْمَى من دور الرّجال. فيجبُ عليهنّ ألاّ يتخلين عن وظائفهنّ المحدّدة». إنّ الأب والأم يُساهمان بقدرٍ مُتساوٍ في تكوين نواة البويضة، التي تُولِّد كلَّ خلية من خلايا الجسم الجديد. ولكن الأم تهب علاوة على نصف المادة النّووية كل البروتوبلازم المحيط بالنّواة... وهكذا تلعب دوراً أهم من دور الأب في تكوين الجنين.

«إنّ دور الرّجل في التّناسل قصير الأمد، أمّا دور المرأة فيطولُ إلى تسعة أشهر. وفي خلال هذه الفترة يُغَذّى الجنينُ بمواد كيماوية ترشحُ من دم الأمّ من خلال أغشية الخلاص. وبينما تمدّ الأمُّ جنينَها بالعناصر التي تتكون منها أنسجته فإنّها تتسلم مواد معينة تُفرزها مخلوقاً من أصل غريب ـ جزئياً ـ قد اتخذ له مأوًى في جسم المرأة. فتتعرض المرأة لتأثيره خلال فترة الحمل. وقد تتّسم المرأة في بعض الأحيان بواسطة جنينها، كما أن أحوالها الفُسيولوجيّة والسُّيكُولوجيّة تعدّلُ به دائماً... وعلى أيّ حال يبدو أن النّساء ـ من بين الثّدييات ـ هُنّ فقط اللاّتي يصلنَ إلى نموهنَّ الكامل بعد حمل

أو اثنين. كما أنّ النّساء اللاّتي لم يلدنَ لَسْنَ متزنات توازناً كاملاً كالوالدات. فضلاً عن أنّهنّ يصبحنَ أكثر عصبية منهنّ... وصفوةُ القول: إنّ وجود الجنين، الذي تختلف أنسجته اختلافاً كبيراً عن أنسجة الأمّ، بسبب صغرها، ولأنّها ـ جزئياً ـ من أنسجة زوجها، تُحدث أثراً كبيراً في المرأة.

إنّ أهمية وظيفة الحمل والوضع بالنّسبة للأمّ لم تُفهم حتّى الآن إلى درجة كافية. مع أنّ الوظيفة لازمة لاكتمال نمو المرأة... ومن ثَمَّ فمن سُخْف الرأي أن نجعل المرأة تتنكر للأمومة. ولذا يحق أن تُلَقَّنَ الفتاة التّدريب العقلي والمادّي، ولا أن تبث في نفسها المطامع التي يتلقاها الفتيان وتبث فيهم... يجب أن يبذل المربُّون اهتماماً شديداً للخصائص العضوية والعقلية في الذكر والأنثى. كذا لوظائفها الطّبيعية. فهناك اختلافاتٌ لا تنقضي بين الجنسين، ولذلك فلا مناصَ من أن نحسب حساب هذه الاختلافات في إنشاء عَالَم مُتمدّن».

فمن هذا نعلم علماً يقيناً أنّ المرأةَ أساسُ الأسرة الصّالحة، وأنّ المرأة الصّالحة هي وحدَها أكثرُ نجاحاً في تأسيس الأسرة الهانئة، وهي وحدَها أكثرُ تفوّقاً في تحقيق السّعادة لأفراد الأسرة فهي الرّكن الرّكين والأساس المتين في بناء الأسرة السّعيدة الكريمة!.

البحث الثّالث:

نظام الأسرة في الإسلام[1]

حقائق وتأملات في قانون «نظام الأسرة في الإسلام»!.

يقولُ الله سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ۝١﴾[2]. إنّه الخطاب «للنّاس»... بصفتهم هذه، لردهم جميعاً إلى ربِّهم «الذي خلقهم»... والذي خلقهم «من نفسٍ واحدة»... «وخلق منها زوجَها. وبثَّ منهما رجالاً كثيراً ونساءً».

إن هذه الحقائق الفطرية البسيطة هي حقائق كبيرة جداً، وعميقة جداً، وثقيلة جداً... ولو ألقىٰ النّاس أسماعهم وقلوبهم إليها لكانت كفيلة بإحداث تغييرات ضخمة في حياتهم، وبنقلهم من الجاهلية ـ أو من الجاهليات المختلفة ـ إلى الإيمان والرّشد والهدى وإلى الحضارة الحقيقية اللائقة «بالنّاس» واللائقة «بالنّفس» واللائقة بالخلق الذي ربُّـهُ وخالقُهُ هو الله تبارك وتعالى...

إنّ هذه الحقائق تجلو للقلب والعين مجالاً فسيحاً لتأملات شتّى:

أولاً: إنها ابتداءً تُذكِّر «النّاس» بمصدرهم الذي صدروا عنه؛ وتردُّهم إلى خالقهم الذي أنشأهم في هذه الأرض... هذه الحقيقة التي ينساها «النّاس» فينسون كلَّ شيء! ولا يستقيم لهم بعدها أمر!.

إنّ النّاس جاؤوا إلى هذا العالم بعد أن لم يكونوا فيه... فمن الذي جاء بهم؟ إنّهم لم يجيئوا إليه بإرادتهم. فقد كانوا قبل أن يجيئوا عدماً لا إرادة له... لا إرادة له

---

(١) دستور الأسرة في ظلال القرآن: لأحمد فائز، ص ٤٩ ـ ٧٢، ط مؤسسة الرسالة ـ بيروت.

(٢) سورة: النساء، الآية: ١.

تقرر المجيء أو عدم المجيء. فإرادة أخرى ـ إذن ـ غير إرادتهم، هي التي جاءت بهم إلى هنا... إرادة أخرى ـ غير إرادتهم ـ هي التي قررت أن تخلقهم. إرادة أخرى ـ غير إرادتهم ـ هي التي رسمت لهم الطّريق، وهي التي اختارت لهم خط الحياة... إرادة أخرى ـ غير إرادتهم ـ هي التي منحتهم وجودهم ومنحتهم خصائص وجودهم، ومنحتهم استعداداتهم ومواهبهم ومنحتهم القدرة على التعامل مع هذا الكون الذي جيء بهم إليه من حيث لا يشعرون! وعلى غير استعداد؛ إلاّ الاستعداد الذي منحتهم إياه تلك الإرادة التي تفعل ما تريد. إن هذه الإرادة التي جاءت بهم إلى هذا العالم، وخطت لهم طريق الحياة فيه، ومنحتهم القدرة على التّعامل معه، هي وحدها التي تملك لهم كل شيء، وهي وحدها التي تدبّرُ أمرَهم خيرَ تدبير. وأنّها هي وحدها صاحبة الحق في أن ترسم لهم منابع حياتهم، وأن تشرع لهم أنظمتهم وقوانينهم، وأن تصنع لهم قيمهم وموازينهم، وهي وحدها التي يرجعون إليها وإلى منهجها وشريعتها وإلى قيمها وموازينها عند الاختلاف في شأن من هذه الشؤون، فيرجعون إلى النهج الواحد الذي أراده الله ربُّ العالمين.

ثانياً: أنّها توحي بأنّ هذه البشريـة التي صدرت من إرادة واحدة، تتصل في رحم واحدة، وتلتقي في وشيجة واحدة، وتنبثق من أصل واحد، وتنتسب إلى نسب واحد: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ﴾[1] ولو تذكر النّاس هذه الحقيقة، لتضاءلت في حسهم كل الفروق الطّارئة، التي نشأت في حياتهم متأخرة، ففرّقت بين أبناء «النفس الواحدة»، ومزّقت وشائج الرحم الواحدة. وكلّها ملابسات طارئة ما كان يجوز أن تطغى على مودة الرحم وحقها في الرعاية، وصلة النفس وحقها في المودة وصلة الربوبية وحقها في التقوى...

ثالثاً: الحقيقة الأخيرة التي تتضمنها الإشارة إلى أنه من النّفس الواحدة «خلق منها زوجها»... كانت كفيلة ـ لو أدركتها البشرية ـ أن توفر عليها تلك الأخطاء الأليمة، التي تردت فيها، وهي تتصور في المرأة شتى التصورات السخيفة، وتراها منبع الرجس والنجاسة، وأصل الشّر والبلاء... وهي من النفس الأولى فطرة وطبعاً،

(١) سورة: النساء، الآية: ١.

خلقها الله لتكون لها زوجاً، وليبثّ منهما رجالاً كثيراً ونساءً، فلا فارق في الأصل والفطرة، إنّما الفارق في الاستعداد والوظيفة... ولقد خبطت البشرية في هذا التّيه طويلاً. جُرّدت المرأة من كل خصائص الإنسانية وحقوقها فترة من الزمان تحت تأثير تصوّر سخيف لا أصل له. فلما أن أرادت معالجة هذا الخطأ الشنيع اشتطت في الضفة الأخرى، وأطلقت للمرأة العنان، ونسيت أنها إنسان خلقت لإنسان، ونفس خلقت لنفس، وشطر مكمل لشطر، وأنهما ليسا فردين متماثلين، إنّما هما زوجان متكاملان.

والمنهج الرّباني القويم يرد البشرية إلى هذه الحقيقة البسيطة بعد ذلك الضلال البعيد.

رابعاً: تُوحي الآية بأن قاعدة الحياة البشرية هي الأسرة، فقد شاء الله أن تبدأ هذه النّبتة في الأرض بأسرةٍ واحدةٍ. فخلق ابتداء نفساً واحدة، وخلق منها زوجها. فكانت أسرة من زوجين.

﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾[1] الآية. ولو شاء الله لخلق في أول النّشأة رجالاً كثيراً ونساءً، وزوّجهم، فكانوا أسراً شتّى من أوّل الطريق، لا رحم بينهم من مبدأ الأمر، ولا رابطة تربطها إلا صدورها عن إرادة الخالق الواحد، وهي الوشيجة الأولى. ولكنه ـ سبحانه ـ شاء لأمر يعلمه ولحكمة يقصدها، أن يضاعف الوشائج، فيبدأ بهما من وشيجة الربوبية ـ وهي أصل وأول الوشائج ـ ثم يثني بوشيجة الرّحم، فتقوم الأسرة الأولى من ذكرٍ وأنثى ـ هما من نفس واحدةٍ وطبيعةٍ واحدةٍ وفطرةٍ واحدةٍ ـ ومن هذه الأسرة الأولى يبث رجالاً كثيراً ونساًء، كلهم يرجعون ابتداء إلى وشيجة الربوبية، ثم يرجعون بعدها إلى وشيجة الأسرة التي يقوم عليها نظام المجتمع الإنساني، بعد قيامه على أساس العقيدة.

ومن ثم هذه الرعاية للأسرة في النّظام الإسلامي، وهذه العناية بتوثيق عُراها، وتثبيت بُنيانها، وحمايتها من جميع المؤثّرات التي توهن هذا البناء ـ وفي أول هذه المؤثّرات مجانبة الفطرة، وتجاهل استعدادات الرّجل واستعدادات المرأة وتناسق هذه الاستعدادات مع بعضها البعض، وتكاملها لإقامة الأسرة من ذكر وأنثى.

---

(١) سورة: النساء، الآية: ١.

وقد حشد التّشريع الإسلامي في القرآن الكريم والسّنّة النّبويّة حشداً كبيراً من مظاهر تلك العناية بالأسرة في النظام الإسلامي... وما كان يمكن أن يقوم للأسرة بناء قوي، والمرأة تُلَقَّى المعاملة الجائرة، وتلك النظرة الهابطة التي تلقّاها في الجاهلية ـ كلٌ جاهليةٍ ـ ومن ثم كانت عناية الإسلام بدفع تلك المعاملة الجائرة ودفع هذه النظرة الهابطة. إنّ أحكام نظام الأسرة لا تذكر مجردة. كلا! إنها تجيء في جوٍّ يُشعر القلب البشري أنّه يُواجه قاعدةً كبرى من قواعد المنهج الإلهي للحياة البشرية، وأصلاً كبيراً من أصول العقيدة التي ينبثق منها النّظام الإسلامي. وإن هذا الأصل موصول بالله سبحانه مباشرة. موصول بإرادته وحكمته ومشيئته في النّاس، ومنهجه لإقامة الحياة على هذا النحو الذي قدره وأراده لبني الإنسان. ومن ثم هو موصول بغضبه ورضاه، وعقابه وثوابه، وموصول بالعقيدة وجوداً وعدماً في حقيقة الحال!.

ومنذ اللحظة الأولى يشعر الإنسان بخطر هذا الأمر وخطورته؛ كما يشعر أن كل صغيرة وكبيرة فيه تنال عناية الله ورقابته، وأن كل صغيرة وكبيرة فيه مقصودة كذلك قصداً لأمر عظيم في ميزان الله تعالى. وأنّ الله يتولّى بذاته ـ سبحانه ـ تنظيم حياة هذا الكائن، والإشراف على تنشئة الجماعة المسلمة تنشئةً خاصّة تحت عينيه، وإعدادها ـ بهذه النشأة ـ للدّور العظيم الذي قدره لها في الوجود. وإن الاعتداء على هذا المنهج يغضب الله ويستحق منه شديد العقاب.

إنّ هذه الأحكام تذكر بدقة وتفصيل، ثم تجيء التّعقيبات الموحية بعد كل حكم، وأحياناً في ثنايا الأحكام، منبئةً بضخامة هذا الأمر وخطورته، وتلاحق الضّميرَ الإنساني ملاحقةً موقظةً مُحْيِيَةً مُوحيةً. وبخاصّة عند التّوجيهات التي يناط تنفيذها بتقوى القلب وحساسية الضّمير، لأنّ الاحتيال على النّصوص والأحكام ممكن بغير هذا الوازع الحارس المستيقظ.

الأسرة قاعدة التّكوين الأولى:

إنّ دستور الأسرة جانب من التّنظيم للقاعدة الرّكنيّة التي تقوم عليها الجماعة المسلمة، ويقوم عليها المجتمع الإسلامي. هذه القاعدة التي أحاطها الإسلام برعايةٍ ملحوظةٍ، واستغرق تنظيمها وحمايتها وتطهيرها من فوضى الجاهلية جهداً كبيراً، نراه

متناثراً في سور شتى من القرآن، محيطاً بكل المقومات اللازمة لإقامة هذه القاعدة الأساسية الكبرى.

إنّ النّظام الاجتماعي الإسلامي نظامُ أسرةٍ، بما أنّه نظام ربّانيّ للإنسان ملحوظٌ فيه كلُّ خصائص الفطرة الإنسانيّة وحاجاتها ومقوّماتها. وينبثق نظام الأسرة في الإسلام من معين الفطرة وأصل الخِلْقة، وقاعدة التّكوين الأولى للأحياء جميعاً وللمخلوقات كافّة... تبدو هذه الفطرة واضحة في قوله تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾﴾[1]. ومن قوله سبحانه: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾[2].

ثم تتدرج النظرة الإسلامية للإنسان فتذكر النفس الأولى التي كان منها الزوجان، ثم الذّرية، ثم البشرية جميعاً: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾[3]... ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾[4]... ثم تكشف عن جاذبية الفطرة بين الجنسين، لا لتجمع بين مطلق الذكران ومطلق الإناث، ولكن لتتجه إلى إقامة الأسر والبيوت: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾[5]... ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾[6]... ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ۖ وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلَاقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾﴾[7]... ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾[8]... فهي الفطرة تعمل، وهي الأسرة تُلبّي هذه الفطرة العميقة في أصل

---

(١) سورة: الذاريات، الآية: ٤٩.
(٢) سورة: يّس، الآية: ٣٦.
(٣) سورة: النساء، الآية: ١.
(٤) سورة: الحجرات، الآية: ١٣.
(٥) سورة: الروم، الآية: ٢١.
(٦) سورة: البقرة، الآية: ١٨٧.
(٧) سورة: البقرة، الآية: ٢٢٣.
(٨) سورة: النحل، الآية: ٨٠.

الكون وفي بنية الإنسان. ومن ثم كان نظام الأسرة في الإسلام هو النّظام الطبيعي الفطري المنبثق من أصل التكوين الإنساني. بل من أصل تكوين الأشياء كلِّها في الكون، على طريقة الإسلام في ربط النّظام الذي يقيمه للإنسان بالنظام الذي أقامه الله للكون كله ومن بينه هذا الإنسان. . .

والأسرة هي المحضن الطبيعي الذي يتولّى حماية الفراخ النّاشئة ورعايتها، وتنمية أجسادها وعقولها وأرواحها، وفي ظله تتلقى مشاعر الحبّ والرحمة والتّكافل، وتنطبع بالطابع الذي يُلازمها مدى الحياة؛ وعلى هديه ونوره تتفتَّحُ للحياة، وتُفسِّر الحياة، وتتعامل مع الحياة. والطّفل الإنساني هو أطول الأحياء طفولة، تمتد طفولته أكثر من أي طفل آخر للأحياء الأخرى.

ذلك أنّ مرحلة الطّفولة هي فترة إعدادٍ وتهيّؤٍ وتدريبٍ للدّور المطلوب من كلِّ حيٍّ باقٍ على حياته. ولما كانت وظيفة الإنسان هي أكبر وظيفة، ودوره في الأرض هو أضخم دور. . . امتدتْ طفولتُه فترةً أطول ليحسن إعداده وتدريبُهُ للمستقبل. . .

ومن ثَمَّ كانت حاجته لملازمة أبويّه أشد من حاجة أي طفل لحيوان آخر، وكانت الأسرة المستقرّة الهادئة ألزم للنّظام الإنساني، وألصق بفطرة الإنسان وتكوينه ودوره في هذه الحياة!.

وقد أثبتت التّجارب العملية أن أيّ جهاز آخر غير جهاز الأسرة لا يُعوّض عنها، ولا يقومُ مَقَامَهَا، بل لا يخلو من أضرار مفسدة لتكوين الطّفل وتربيته، وبخاصّة نظام المحاضن الجماعية التي أرادت بعض المذاهب المصطنعة المتعسفة أن تستعيض بها عن نظام الأسرة في ثورتها الجامحة الشاردة المتعسفة ضد النّظام الفطري الصّالح القويم الذي جعله الله للإنسان، أو التي اضطرت بعض الدّول الأوروبية اضطراراً لإقامتها بسبب فقدان عددٍ كبيرٍ من الأطفال لأهليهم في الحرب الوحشية المتبربرة التي تخوضها الجاهلية الغربية المنطلقة من قيود التّصور الدّينيّ، والتي لا تفرق بين المسالمين والمحاربين في هذه الأيام؟! أو التي اضطروا إليها بسبب النظام المشؤوم الذي يدفع الأمهات إلى العمل، تحت تأثير التّصورات الجاهلية الشائعة للنظام الاجتماعي والاقتصادي للإنسان. هذه اللّعنة تحرم الأطفال حنَانَ الأمهات ورعايتهنّ في ظل الأسرة

الهائنة الحانية؛ لتقذف بهؤلاء المساكين إلى المحاضن، التي يصطدم نظامها بفطرة الطفل وتكوينه النفسي، فيملأ نفسه بالعُقَدِ والاضطرابات... وأعجب العجب أن انحراف التصورات الجاهلية ينتهي بناس من المعاصرين إلى أن يعتبروا نظام العمل للمرأة تقدماً وتحرّراً وانطلاقاً من الرجعية! وهو هو هذا النّظام الملعون، الذي يُضحي بالصّحة النّفسية لأغلى ذخيرة على وجه الأرض وهي «الأطفال» الّذين هم رصيدُ المستقبل البشري... وفي مقابل ماذا؟ في مقابل زيادة في دخل الأسرة، أو في مقابل إعالة الأمّ، التي بلغ من جحود الجاهلية الغربية والشّرقية المعاصرة وفساد نظمها الاجتماعية والاقتصادية أن تنكل عن إعالة المرأة التي لا تنفق جهدها في العمل، بدلَ أن تنفقه في رعاية أعزّ رصيدٍ إنساني وأغلى ذخيرةٍ على وجهِ هذه الأرض!؟.

ومن ثَمَّ نجدُ النّظام الاجتماعي الإسلامي، الذي أراد الله به أن يدخل المسلمون في السّلم، وأن يستمتعوا في ظلّه بالسّلام الشّامل... يقوم على أساس الأسرة، ويبذل لها من العناية ما يتفق مع دورها الخطير... ومن ثَمَّ نجد في سُوَرٍ شَتّى من القرآن الكريم تنظيمات قرآنية للجوانب والمقوّمات التي يقوم عليها هذا النظام المُحْكم المتين.

إنّ الإسلام أقام نظام الأسرة على أساس ثابتٍ دقيقٍ مستمدٌّ من الواقع. وهو في الوقت ذاته يقيم بناء المجتمع على قاعدة حقيقية قوية بما فيها من الحقّ ومن مطابقة الواقع الفطري العميق... وكل نظام يتجاهل حقيقة الأسرة الطبيعية هو نظام فاشلٌ، ضعيفٌ مزوَّر الأُسُس لا يمكن أن يعيش حياةً كريمةً هانئةً مستقرّةً. ولقد عني الإسلام بصيانة الأسرة وروابطها من كل شبهة ومن كل دخيلٍ؛ وحياطتها بكل أسباب السّلامة والاستقامة والقوّة والثّبوت ليقيم عليها بناءَ المجتمع المتماسك السّليم النّظيف العفيف.

إنَّ القرآن يبني الأسرةَ ليُشكّل منها مجتمعاً يقوم على أمانة دين الله في الأرض، ومنهجه في الحياة، ونظامه في النّاس. ولم يكن بُدٌّ أن يبني نفوسها أفراداً ويبنيها جماعةً، ويبنيها عملاً واقعياً... كلها في آن واحد... فالمسلم لا يبني فرداً إلاّ في جماعة، ولا يُتصور الإسلام قائماً إلاّ في محيط جماعةٍ منظّمةٍ ذات ارتباطٍ، وذات نظامٍ، وذات هدفٍ اجتماعي منوطٍ في الوقتِ ذاتهِ بكلّ فرد فيها. هو إقامة هذا المنهج

الإلٰهي في الضّمير وفي العمل مع إقامته في الأرض، وهو لا يقوم في الأرض إلاّ في مجتمع، وهو لا يقوم في مجتمع إلاّ في أسرةٍ تعيش وتتحرك وتعمل في حدود ذلك المنهج الإلٰهي. لذلك عني الإسلامُ بتنظيم شؤون الأسرة، وإقامتها على أساس ثابت من موحيات الفطرة؛ وحمايتها من تأثير الملابسات العارضة في جو الحياة الزوجية، وحمايتها كذلك وحماية المجتمع معها من انتشار الفاحشة والاستهتار بالحرمات، ووهْن الروابط العائلية. لقد أقام الإسلام تنظيمه للأسرة على قواعد الفطرة. واعتبر هذا الموضوع أساسي وهام، الذي يترتب تنظيمه جريان الحياة الإنسانية في مجراها الفطري الهادىء الصّالح، كما يترتب على انحرافها فساد في الأرض كبير.

لقد حدد الإسلام الطريقة التي يحب الله أن يجتمع عليها الرجال والنساء في مؤسسة الأسرة النظيفة، ويكشف عمّا في هذه الطّريقة من تيسير على النّاس وتخفيف، إلى جانب نظافتها وطهارتها. ويقرّر القواعدَ التّنظيمية التي تقوم عليها تلك المؤسّسة الأساسية، والحقوق والواجبات المُلقَاة على عاتق الطرفين المتعاقدين فيها.

ومما يلاحظ أن القرآن يربط ربطاً دقيقاً بين هذه التنظيمات والأحكام وبين الأصل الأول الكبير للإيمان: وهو أنَّ هذه التّنظيمات والأحكام صادرة من الله، وهي مقتضىٰ ألوهيته. فأخصّ خصائص الألوهية هو حاكميّة الشّريعة، والتّشريع للبشر، ووضع الأُسس التي تقوم عليها حياتُهم وارتباطاتُهم.

والقرآنُ ما فتىء يُكرر هذا الارتباط الدّقيق؛ ويُنبّه إلى هذه الخاصيّة من خصائص الألوهية. ويُكرر كذلك الإشـارة إلى صدور هذه التّنظيمات عن العليم الحكيم... وهي إشارة ذات مغزى... فالأمرُ في هذا المنهج الإلٰهي كله هو قبل كل شيء أمر العلم الشّامل الكامل، والحكمة المدرِكَةُ البصيرة... هذه الخصائص الإلٰهية التي يفقدها الإنسان، فلا يصلح بعدها أبداً لوضع المنهج الأساسي لحياة الإنسان! ومن هنا شقوة الإنسان في الأرض كلّما حادَ عن منهج العليم الحكيم، وراح يخبط في التيه بلا دليل، ويزعم أنه قادر، بجهله وطيشه وهواه، أن يختار لنفسه ولحياته خيراً مما يختاره الله!!!.

والأمر الآخر الذي يؤكده القرآن ويكرره: هو أن منهج الله هذا أيسر على الإنسان وأخف وأقرب إلى الفطرة، من المناهج التي يريدها البشر ويهوونها، وأنّه من رحمة الله

بضعف الإنسان أن يشرع له هذا المنهج، الذي تكلفه الحيدة عنه عنتاً ومشقة، فوق ما تكلفه من هبوط وارتكاس. ونرى مصداق هذه الحقيقة في واقع البشر التّاريخي وهي حقيقة واضحة في هذا الواقع، لولا أنّ الهوى يطمس القلوب، ويُعمي العُيون، عندما تُلقي الجاهليةُ على القلوب والعُيون غَبَشَها وطُغيانَها، وتحول بينها وبين الحقائق.

البحث الرابع:

الأسس المتينة لبناء الأسرة السّليمة

لا يكفي حُسْنُ اختيارِ الشّريك الصّالح لبناء البيت السعيد، بل لا بدّ مع ذلك من وضع أهداف حسنة خيرة للزواج ولبناء البيت، وذلك ليكون بناء البيت محكماً قوياً شامخاً، لا يتزعزع لهزات الأهواء والنزوات والأغراض الشّخصية، ولا يتهدم لعواطف الشهوات الطّارئة تهبّ من هنا وهناك، ثم لتستمر حياة البيت في هدوء وسكون.

لهذا وذاك رأينا من الأهمية بمكان أن نذكر هنا أهم تلك الأهداف التي يجب أن تكون واضحة أمام المُقْدِمين على الزواج وعلى بناء البيت السّعيد، ونُحدّدها بالأهداف الآتية:

أولاً: تكوين رباط اجتماعي متين:

ذلك أنه عن طريق الزواج تتكوّن الأسرة، وعن طريقه أيضاً تتكون الروابط بين الأسر ثم بين المجتمع، ثم بين المجتمع والأجناس والشعوب والقبائل المختلفة، ولعل الحكمة من زواج الرّسول ﷺ من قبائل مختلفة هي الرّبطُ فعلاً بين هذه القبائل والتآلف بينها، وقد أمر الإسلام المسلمين بالتّعارف على اختلاف قبائلهم وأجناسهم، فقال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾[1] والزواج وسيلة من وسائل التّعارف والتآلف والتّرابط، ولعل من أهداف الرّسولِ ﷺ في أمرِهِ بالزّواج من غيرِ الأقارب هو هذا التّرابط، وأخذُ هذا في الاعتبار له أهمية إذ أنه من عوامل دوام الرّباط الزوجي لأن قطع هذا الرباط لبعض الدواعي يؤدي إلى قطع الرباط بين الأسرتين أو أكثر.

هذه الفكرة تجعلهما يتحملان ما يقع بينهما من مشاحنات أو أذى، ولا يُقدمان

---

(١) سورة: الحجرات، الآية: ١٣.

على الافتراق مراعاةً لِما بين الأسرتين من التّرابط والتآلف. وهناك جانب آخر من الرباط وهو ربط الفرد بغيره بزوجه وأولاده، وهذا مهمٌّ جداً في حياة الفرد إذ أنّه يقضي على شعور الفرد بالوحدة، ويزيد من غير أنّه من الممكن معالجة هذه الأمراض وتلك الحالات. وهنا أمرٌ يتعلّق بهذا الموضوع وهو أن بعض الأفراد من الجنسين قد يشعر في نفسه بضعف الدافع الجنسي ويدفعه هذا إلى الإعراض عن الزواج، هذا الإعراض عن الزواج خطأ في النّظرة الإسلامية، لأنّ رسالة الزّواج ليس أمراً فردياً فقط كما قلنا بل هي أمرٌ اجتماعي أيضاً، لأنّ الله تعالى عندما خلقَهُ خلَقَ مقابلاً له من الجنس الآخر، فإذا هو استطاع الحياة بدون الزواج فقد لا يستطيع الآخر ذلك، وبالتّالي فإنّ عدم زواجه يسبب حرمان الآخر أو وقوعه في الحرام، ولهذا شجّعَ الإسلامُ على الزّواج واعتبر المعرض عنه معرضاً عن سنّة الإسلام.

فليس للأفراد حرية في أن يتصرَّفُوا في أنفسهم كما يشاؤون في المسألة. . . هذا هو الجانب البيولوجي من الحاجة، وهناك الجانب السيكولوجي: النفسي من الحاجة إلى الزّواج أيضاً، والجانبان مرتبطان، فكما أنّ عدم إشباع هذا الدافع يُؤدي من الناحية البيُولُوجيّة إلى تقليل نشاط الغدد الجنسية التي تؤدي بدورها إلى تقليل نشاط الجسم، كذلك تؤدي من النّاحية السيكُولُوجيّة إلى بعض الاضطرابات النفسية، والقلق، والانحراف عن السواء في بعض المظاهر السلوكية، وهذا مرتبط أيضاً بالعوامل البيُولُوجيّة والبيئيّة والسيكُولُوجيّة.

ويمكن تقليل حدة الشهوة وأثرها عن طريق الابتعاد عن الأجواء المثيرة، وعدم تناول الأطعمة المقوية لها، وعن طريق الصوم، وتربية النّفس، إلاّ أنّه ليس هناك طريق أسلم من طريق الزّواج، ولهذا قال تعالى وهو أعلم بخلقه: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾[1].

فالسّكنُ النّفسي والمودّة والرّحمة أعانتْهُ على تحمّل المسؤوليات، وجعلتْهُ يُواجه الحياة بشجاعة وبسالة وتزيد إحساسه بالسرور ويزيد نشاطه في العمل، لأنّه يشعر في

(١) سورة: الروم، الآية: ٢١.

قرارة نفسه بأنه يعمل لنفسه ولأحب النّاس إليه وهم أولاده الذين انفصلوا عن نفسه وعن فلذات كبده، والشّعور بالوحدة في داخل المجتمع يُقلّل نشاطه وفاعليته وحبّه للنّاس، وهذا يُؤدي بدوره إلى الانتحار عند مواجهة عظائم الصعوبات القاهرة والأزمات الشديدة في الحياة.

ولهذا كانت نسبة المتحرين من العُزّاب أكثر من المتزوجين، ويُرجِّحُ العلماء السببَ إلى ما بيّنّاه، يقول «دور كايم» المفكر الاجتماعي الفرنسي: «فالمرء يزداد تعرضاً لخطر الانتحار كلّما انفصمت العُرى التي تربطه بجامعة أيًّا كانت، أي كلّما أوغل في الحياة الأنانية، ولذلك نرى أن الانتحار بين العُزّاب يكاد يبلغ ثلاثة أضعاف عددِه بين المتزوّجين، ولا شك أن الفرد عندما يشعر بالروابط المتينة والوشائج العظيمة، وتراوده فكرة الانتحار عند مواجهة الأزمات يشعر أنّه بذلك لا يقضي على حياته فقط بل يقضي على حياة أولاده وزوجته، وهذا يجعله يتحمل المسؤوليات والصّعاب، ولا يقدم على الانتحار. ويُقرر «دور كايم» أيضاً: أنّ نسبة الانتحار تتصاعد كلّما قلّت نسبة عدد العائلة، وأنّه بين الأزواج الذين لم ينجبوا أطفالاً أكثر من نسبته بين الأزواج الذين لهم أطفالاً، وكلّما يكثر عدد أطفالهم كلما تقلُّ نسبة الانتحار».

ثانياً: تحقيق حاجات الطّبيعة الإنسانية:

إنّ الله خلق هذا الإنسان وأودع فيه حاجات أولية، سواء كانت عضوية أو نفسية وهي الحاجات التي لا بدّ من إشباعها، وعدم إشباعها يؤدي إلى أضرار تقاس بدرجة ضرورتها. من هذه الحاجات الحاجة إلى الجنس أو الدافع الجنسي، وقوة هذا الدافع كما ذكرها العلماء تأتي في الدّرجة الثالثة بعد الدافع إلى الطعام، ودافع الأمومة، ويختلف الأفراد في درجة قوة هذا الدافع سواء كان سبب هذا الاختلاف الوراثة أو العوامل البيئيّة، وقد يفقد الفرد هذا الدافع كلياً أو جزئياً، نتيجة بعض العوامل المرضية التي يشعر بها الإنسان إزاء زوجه تعتبر من الحاجات السيكولوجية التي لا يستغني الإنسان عنها ولا يجدها في غير الزواج، هذا السكن ليس هو السكن العقلي، أي الخلو من المشكلات والمشاغل الذّهنية وليس هو السكن المادي، أي الاستقرار على شيء مريح، بل هو سكن روحي وقلبي، سكن روح إلى روح من جنسه، وسكن قلب إلى قلب من جنسه، فتُصبح الروحان روحاً واحدة، ويُصبح القلبان قلباً واحداً.

والمودة هنا ليست من نوع المودة بين الآباء والأبناء ولا من نوع المودة التي توجد بين الأصدقاء، وكذلك الرحمة هذه الرحمة الخاصة بين الزوجين غيرها بين النّاس الآخرين، وإنّما هي أمور خاصة بالحالة الرّوحية بين الزوجين، وكلُّها تعبيرٌ خاص عن العلاقة الخاصّة بين الزّوجين، ولا نستطيع الكشف عن ذلك فهي لذلك سرٌّ من أسرار الله تعالى، ولهذا كانت آيةً من آياته يجدها آيةَ مَنْ يُفكر فيها ويتدبّرها، ومَنْ يسعى بزواجه لبناءِ أسرة مؤمنة، ومَنْ يسعى إلى رفد المجتمع بالأعضاء الصّالحين؛ ليقوم هذا المجتمع على الخير والبرّ والتقوى، وغايتُهُ إتمام أمرِ الله وتحقيقُ حكمتِهِ وآياتِهِ، ومن هنا قال بعضُ علماء النّفس: إنّ الاتصال غير الشّرعي بين الرجل والمرأة يتم فيه اتصال الجسد بالجسد ولا يتم فيه اتصال الروح بالروح، لأنّ الزّانية تُعطي بِضْعَها ولا تعطي قلبها وروحها، ولتتم السعادة لا بدّ من الاتصال الجسمي والروحي معاً ولهذا فالاتصال غير الشرعي اتصال ناقص بالإضافة إلى ما يعتوره من الخوف من العار ومن عدوى الأمراض، والشعور بالذنب وتأنيب القلب.

وهكذا نجد أنّ الزّواج أمرٌ فطري في الإنسان وسنّة الإسلام الموافقة لسنّة الحياة والكون، قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ۝٣٦﴾[1] وقال الرسول ﷺ: «مَنْ أحبَّ فطرتي فليستنّ بسنّتي وإنّ مِنْ سُنّتي النّكاح»[2].

وهكذا جاء الإسلام موافقاً للفطرة ولسنّة الكون، وهكذا تلتحم سنّةُ الإسلام مع سنة الكون في هذه الرابطة الزوجيّة المباركة.

ثالثاً: تحقيق الوقاية من الأمراض والانحرافات:

لقد أقرَّ جميع الأطباء أن هناك أمراضاً كثيرة معدية تنتقل وتنتشر عن طريق الاتصال غير الشرعي أو بتعبير آخر عن طريق الفوضى الجنسية، ويخصون انتقال بعض الأمراض بالزّنا ويسمونها بالأمراض الزهرية أو السّرية. وهناك ما هو أخطر منها هو مرض «الإيدز» الخطير.

---

(١) سورة: يّس، الآية: ٣٦.

(٢) الجامع الصغير، ص ١٦٠، وهو حديث صحيح.

ولا أستطيع هنا تفصيل كل أنواع هذه الأمراض الأخيرة وأعراضها وأضرارها، لأنّ مجالها واسع قد كتب فيها كتب متخصصة كتبها الأطباء المتخصصون. فمن شاء التّوسع فيها فليرجع إليها، ولكن سأعطي هنا فكرة موجزة عن واحد من هذه الأمراض، وهو مرض السفلس «الزهري» ليعرف النّاس الأضرار اللاحقة بهم وبذريّاتهم من ارتكاب جريمة الزنا، واستفحال أمرها في المجتمع التي لا وسيلة للقضاء عليها إلاّ بالزواج، كما أمر الإسلام ويمنع الفوضى الجنسية في المجتمع.

ومرضُ السّفلس من الأمراض الخبيثة لم يستطع الأطباء القضاء عليها، ويتم انتقال هذا المرض وانتشاره في ٩٠٪ من حالاته عن طريق الزنا، و٨٪ عن طريق القبلات و٢٪ عن طريق استعمال أدوات المصاب به. وجراثيم هذا المرض أدق ما يكون، ولهذا تنتقل حتى من القُبلات التي تحدث في الجلد خدشات لا نراها بأعيننا ولا نحس بها، ومن خبثه أيضاً أنه قد لا تظهر أعراضه القاتلة أحياناً بسرعة إذ قد تظهر بعد عشرين سنة من إصابته مما يجعله في هذه الحالة مستحيل المعالجة، وكلّما يتأخر كلّما تصعب المعالجة ولا تظهر بسرعة حتى يعرض المريض نفسه للطبيب، وبعض أعراضه الأولية قد يبدو بسيطاً بحيث لا يرى المصاب ضرورة للرجوع إلى الطبيب، وأهم أعراض هذا المرض تشويه الخلقة وظهور البثورات القارحة وآلام تفتت عظام الجمجمة، وأحياناً يؤدي إلى التهاب الشرايين في المرحلة الثانية من إصابته. وفي المرحلة الثالثة إذا لم يُدَاوَ يُؤدّي إلى الأمراض العصبية بانحلال النخاع الشوكي والشلل العام. كما يسبب الجنون إذا انتقلتْ جراثيمه إلى المخ عن طريق الدم. وأخيراً يكون سبباً للإجهاض وقليل من الأطفال يعيشون إذا أصيبوا وهم أجنة في أرحام أمهات مصابات به، وهكذا لا يجني هؤلاء الزناة على أنفسهم بل يجْنون على أولادهم وعلى أزواجهم.

وأخطرُ من هذا المرض «مرضُ الإيدز» الذي يقضي على جهاز المناعة في الجسم، ليدعَ الجسم مُعرَّضاً للفتك به من أيّ مرضٍ يُواجهه في أقرب وقت، ولا علاج له، ولا سبيل إلى التخلّص منه إلا بموت المصاب، حتى لا ينقله إلى غيره. وأكثر ما ينتشر هذا المرض بين الزّناة وأصحاب الفاحشة.

الزواج في الإسلام وقاية من المهالك:

لقد كانت سنّة الله أنْ بدأت الحياةُ الاجتماعية بالزّواج بين آدم وحواء، قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ﴾[1]. فالزّواج هو القانون الاجتماعي السليم، ولن يجد الناس بديلاً لهذا القانون، ولهذا فقد اتفقت الرسالات السّماوية في هذا المبدأ وفي تحريم الاتصال غير الشرعي.

وقد ينظر الشبان والفتيات إلى عدم الزّواج نظرة الحرية، وقد يُحبِّذُونه ويجذبهم مبدأ قضاء شهواتهم مع مَنْ شاؤوا وكيفما أرادوا وفي أي وقتٍ رغبوا، هذه النّظرة وتلك الفكرة قد تبدو لهؤلاء في عنفوان شبابهم نظرة سليمة وفكرة لامعة إلاّ أنّ الأمر عندما يؤول إلى واقع عملي وبعد زوال طيش الشباب، فإنهم يدركون عاقبتها الوخيمة ويدركون جيداً أنّه ليس هناك فكرة أكثر فتكاً بكيان الفرد والمجتمع من هذه الفكرة، لأنّ من ورائها شيوع الأمراض الفتّاكة بالبشر.

ولننظر إلى بعض المجتمعات التي تحولت فيها تلك الفكرة إلى حياة عملية لنرى النتيجة، ولنضرب لذلك مثلاً بروسيا التي سادت فيها تلك الفكرة، وخاصة عند الشباب في المراحل الأولى من حياة الفكرة الشيوعية، وبوجه خاص شيوعية النّساء والدعوة إلى أنه لا حاجة إلى الأسرة، ولا حاجة كذلك إلى الزواج، وليس هناك حبّ حقيقي روحي وإنّما هي تعبير عن حياة جنسية مادّيّة.

وعندما انغمس الشّباب في الحياة الجنسية دون قيد أو شرط، وصرفوا كلَّ اهتمامهم نحو الإباحية، أدرك العقلاء والأطباء أنهم متّجهُون نحو الهلاك لا محالة. وكان لا بدّ لكل عاقل أنْ لا يرضى أن يكون إباحيًّا، وتأبى نفسه أن ينظر إلى المرأة لمجرد كونها أنثى يتخذها أداةً لقضاء شهواته ولذّاته بالحرام والدّنس.

أخطار الإباحة الجنسيّة على الأزواج:

حين انتشرت فكرة الإباحية الجنسية في أوروبا وأمريكا وجدتْ رواجاً، والذين تحمّسوا لهذه القضية فقد انتحر كثير من الأزواج عندما وجد شريكتَه مع الغير، وهذا

(١) سورة: فاطر، الآية: ١١.

قول أحدهم قبل الانتحار: «زملائي وحكومتي لا أزال مؤمناً بتعاليمي وجهادي في القضاء على الغَيرة الجنسيّة، ولكنّي رغم تقدمي في السّنّ أحببتُ زوجتي الجميلة حُبًّا مفرطاً، ولمّا كانت خيانتها الزوجية وارتماؤها في أحضان سِوَايَ أمراً لم أعد أُطيقه، فقد ارتطمتْ سفينةُ حياتي بصخورٍ صدّعتها ولم يكن للحياة بعد ذلك معنى، وكان لا بدّ من أخذ حياتي بيدي فمعذرةً، الوَدَاع» ثم انتحر!؟.

وهكذا لا يجد الزّوج الذي تخونه زوجته ولا يستطيع على منعها من ممارسة الإباحة الجنسية «أي ممارسة الخيانة الزوجية» لا يجد أمام ذلك إلاّ أن يُنهي حياته بيده، ولا عقوبة أفظع من حكم الإنسان على نفسه بنفسه بالإعدام، مع تنفيذه بيده!!.

لذلك لا بدّ من الحيلولة بين هذه الإباحية المنكرة، وبين الحياة الزوجية، حفاظاً على كيانها، وإبقاءً على أفرادها.

وبعد هذا كله نُؤكّد للشّباب مرة أخرى أنّهم عندما ينساقون وراء هذه الفكرة ـ فكرة الإباحية أو الفوضى الجنسية ـ فإنّهم عند ذلك لن يجدوا حدوداً لقضاء شهواتهم من ناحية، ولن يجدوا الاطمئنان النفسي من ناحية أخرى، ولن يستطيعوا أن يحتفظوا بصحتهم من ناحية ثالثة، لأنّ الشّهوة طاقةٌ للإنسان، فإذا زالت الحواجز والضوابط لها تبددت هذه الطاقة، وتلاشت، والإنسان إذا تجرّد من الضّوابط التي تحميه، فلن يستطيع أن يقف أمام شهوته الدافعة، فكل امرأة يراها ويعجب بها يحاول قضاء وطره فيها، وإذا هي لم ترغب فيه يجد الكآبة في نفسه لأنَّهُ لم يستطع تحقيق غرضه وإشباع دوافعه، وإذا تحقق مطلبه في كل مرة فإنّه يُبدد قواه ويفقد صحته، ثم يفقد إرادته والسيطرة أمام رغباته وشهواته الطّاغية، وبالإضافة إلى هذا يصبح همه وهم أمثاله السعي وراء النّساء يلهثون وراءهنّ في الشّوارع كالكلاب، وقد تفعل النّساء مثل ذلك، وهكذا سيبحث كل واحد عن ليلاه. والتي يعتبرها ليلاه قد لا تقبل أن تكون ليلاه والعكس صحيح وهكذا دواليك.

ثم إنّ تحكّم الشّهوات في حياة الإنسان يضيع السموّ الروحي والاهتمامات اللائقة بالإنسانية فيضيع العمل الجاد المخلص من أجل المجتمع ومن أجل الأمّة ومن أجل الإنسانية جمعاء ومن ثم لتختفي الجوانب الرفيعة من الحياة وتتحول الحياة إلى

حياة نتنةٍ وإلى وباءٍ مستفحل وإلى ظلام دامسٍ يقعُون فيه ثم يحاولون الخروج فلا يستطيعُون!.

وقد يظن البعض أنني بذلك مبالغ في الوصف، غير أنني أقول: إنّ ما كتبتُهُ هنا لا يساوي عشر ما كتبه كبار الأطباء والاجتماعيين في الغرب عن مضار الزنا وآثاره، وتحول الناس عن الزواج الطّاهر وحياة البيت السليمة ثم ما آلت إليه الحياة الأُسريّة من عدم الاستقرار وما إلى ذلك، وإنّي ما اختبرت من هؤلاء الذين سلكوا هذا الطريق الخاطىء إلاّ ورأيتهم نادمين على فعلتهم وغير راضين عن مسلكهم، يحسب الرّائي من بعيد أنّهم في سعادة، ولكن في الحقيقة ظاهرهم سعيد وباطنهم جحيم. ولهذا فلا نكون متعصّبين للإسلام إذا قلنا إنّه خير دين جاء بقوانين أو تشريعات ناجحة في هذا المجال، إنّه جاء بنظام يحتفظ النّاس فيه بصحتهم البيُولُوجيّة والسيكُولُوجيّة، فلا يُبدِّدُون طاقتهم لأنّه منع من الافتتان وحرم الزنا وأباح الزّواج، والزّواج لا يهلك الطاقة، لأنه ليس هناك مثيرات فاتنة، يلقاها الإنسان كل يوم فالزوجة مثيرةٌ عادية. ثم إنّه وجّهَ الإنسانية إلى الحياة الرفيعة والسّمو والعمل من أجل النّاس ومن أجل الدِّين ومن أجل الإنسانية.

ولهذا كان الإسلام نوراً أمام النّاس ونهجاً سليماً للحياة الفردية والاجتماعية، وصدق الله العظيم: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾[1].

والزواج أخيراً في نظر الإسلام ليس كله تكاليف، وإنّما إلى جانب التكاليف فيه متعة، فالغُنم بالغُرم مبدأ من مبادىء الإسلام والأمل في التمتع يدفع الإنسان دائماً إلى النشاط والاستمرار في العمل وتحمل المسؤوليات والقيام بالأعباء.

والإنسان بحاجة إلى التمتع في الحياة، أحياناً تكون الحاجة إليه جسميّة وأخرى نفسيّة وثالثة روحيّة، ولأنّه يُرفِّهُ عن الإنسان ويُسرِّي عنه.

ولهذا أباح الإسلام التّمتّع في جميع مناحي الحياة، ولكن في حدود الحلال أو

(١) سورة: الأنعام، الآية: ١٢٢.

التّمتّع الطّيّب لا الخبيث منه، فقال تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾[١]. وقال الرّسول ﷺ: «الدّنيا مَتاعٌ، وخيرُ متاعُها المرأةُ الصّالحةُ»[٢] وقال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾[٣].

رابعاً: إنجاب ذريّة صالحة لبناء أمّة صالحة:

هناك غرضان هامّان من الإنجاب، الأول تحقيق حاجة في نفس الفرد، فالإنسان يُحب أنْ يرى صورةَ نفسهِ في ولده، ويرغب أن يخلفه في الأرض يرثه ويأكل ثمار أتعابه، فمن هنا كانت الأولاد زينةً كما أنّ المال والجاه زينةٌ قال تعالى: ﴿ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾[٤] والتّمتّع بزينة الدنيا مباحٌ ـ كما قلنا ـ طالما نُؤدّي حقّ الله وحقّ العبادِ.

والغرض الثاني: هو إنجاب ذرّيّة صالحة لتعمير الأرض، واستمرار الأمّة ودوامها، فإنّ الله خلق هذه الدنيا وخلقَ الناس وأمرَ بالزواج لتدومَ هذه الحياة على نحوٍ ما، ويعيش النّاسُ على نمط من الحياة الاجتماعية الصّالحة. وقد دعا الإسلام إلى تحقيق هذا الهدف النّبيل بوسائل: منها تشجيعُ الآباء على التّربية الصّالحة، واعتبر تكوين ذرّيّة صالحة صدقةً جاريةً له بعد حياته، يناله ثواب آثارها ما دامت قائمة صالحةً، فقال الرّسول ﷺ: «إذا ماتَ ابْنُ آدمَ انقطعَ عملُهُ إلاّ مِنْ ثلاثةٍ، صدقةٍ جاريةٍ، أو علمٍ يُنتفَعُ بهِ، أو ولدٍ صالحٍ يَدْعُو لهُ»[٥].

وفي الأثر: «ما وَرَّث والدٌ وَلَداً خيراً مِنْ أدبٍ حسنٍ»[٦].

---

(١) سورة: الأعراف، الآية: ٣٢.
(٢) رواه مسلم ج٢، ص١٠٩٠ كتاب الرضاع.
(٣) سورة: الروم، الآية: ٢١.
(٤) سورة: الكهف، الآية: ٤٦.
(٥) صحيح مسلم بشرح النووي ج ١١ ص ٨٥، باب الوصية بشرح النووي.
(٦) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ج ٨، ص ١٠٦ كتاب الأدب.

وباعتبار أن البيت المدرسة الأولى لتعليم الأولاد، دعا الرسول ﷺ إلى تربية مَنْ ليس لهم من يُربيهم من أبناء وبنات المسلمين، فقال: «مَنْ عَالَ ثلاثَ بناتٍ فأدّبهُنَّ وزوّجهُنَّ وأحسنَ إليهنَّ فله الجنّةُ»[١]. وذلك أمر لا بدّ منه لبناء خير أمةٍ صالحةٍ.

خامساً: تطبيق مبادىء إسلامية وسنّة نبوية:

من أجل كل ما سبق جعل الإسلامُ الزّواج مبدأ من مبادئه وجزءاً من شريعتِهِ؛ فمَنْ عدَلَ عن الزواج وتركه من غير عذرٍ فقد تركَ جزءاً من الدِّين، ولهذا دعا الرسول ﷺ الشباب إلى الزواج فقال: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء»[٢]. ولقد حدّد الرسول ﷺ في هذا الحديث الغاية الدينيّة من الزواج في هدفين:

الأول: أنّه يجعل النّاس يغضُّون أبصارهم عن النّظر إلى المحرمات.

والثاني: أنّه وسيلة لحفظ النّاس من الوقوع في الزّنا. غير أنّ الإسلام إذا كان قد شجع على الزّواج فليس ذلك على الإطلاق بل إنّه مقيد بشرط توفر الإمكانيات للقيام بأعباء الزّواج وقد عبّر الرسول الكريم ﷺ عن هذه الإمكانية بالباءَةِ وهي الكفاية للقيام بالمسؤوليات الزّوجية، ومن لم تتوفر عنده هذه الكفاية فليس مطالباً دينياً بالزّواج، ولا يكون مسؤولاً عن عدوله عنه، بل إنّ الإقدام على الزّواج بدون توفر الشّرط لا يجوز وقد نتج عن زواج هؤلاء الذين لا يملكون هذه الكفاءة مشكلات اجتماعية فلم يضروا أنفسهم فقط بل أضرُّوا أولادهم ومجتمعهم وزوجاتهم أيضاً، فكم نرى من أولاد هؤلاء هائمين على وجوههم في الشوارع لا يجدون مأكلاً ولا ملجأً ثم يخرجون عالةً على المجتمع. ولهذا فقد أمرَ الله هؤلاء بالاستعفاف وعدم الزّواج فقال تعالى: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾[٣].

وهنا تحدث مشكلة عند عدم وجود المال وهي ماذا يفعل الشاب في عنفوان

---

(١) سنن أبي داود ج ٤، ص ٤٥٩ كتاب الأدب.

(٢) فتح الباري بشرح البخاري ١١، ص ٨ كتاب النكاح. صحيح مسلم ج ٢، ص ١٠١٨، كتاب النكاح.

(٣) سورة: النور، الآية: ٣٣.

شبابه؟ وقد قلنا إن عدم إشباع هذا الدافع يضره فإذا منعناه عن إشباعه يحصل عنده كبت وهذا ضار وإذا أبيح من غير زواج فهذا ممنوع في الإسلام. لننظر إلى الإسلام، كيف حل هذه المشكلة: وسنجد أنّه قد حلّها بثلاثة طرق:

الطريق الأول: الصّوم، فالصّوم يقلّل وطأة الشّهوة ويضعف دافعَها، وقد يزول هذا الدافع مدّة الصّوم، وبذلك لا تبقى هناك مشكلة لأنّ المشكلة تحدث عندما يرغب الإنسان في الوصول إلى هدف ويحول بينه عائقٌ يعجزعن إزالته، وبذلك لا يحدث عنده أيُّ صراع نفسي. هذا من جهةٍ ومن جهةٍ أخرى، فالصّوم له إيحاء ذاتي لأنّ الصّائم يشعر بأنّه يتعبّدُ الله ويرضي خالقَهُ، وأنّه سَيُدَبِّرُ لهُ ما يُحقّق رغبتَهُ، وأنّه إن لم يتزوج في هذه الحياة فإنّه سيتمتع في الآخرة، بما هو خير وأبقى، وما دام الإنسان يشعر بأنّ مشكلته ستحل إنْ عاجلاً أو آجلاً فإنّها لا تُسبّب أمراضاً نفسيّةً، وبذلك فالصّوم يحل المشكلة من النّاحية العضوية والنّفسيّة معاً.

والطريق الثاني: الاستعفاف والاستعلاء، وهو كف النفس عن ارتكاب جريمة الزنا تسامياً بالنفس واستعلاءً على الرّغبات الشّهويّة الدنيئة وحباً للفضيلة ويقول علماء النفس إن ترك إشباع الدافع الجنسي خوفاً من السلطة يؤدي إلى الكبت، أمّا إذا كان بسبب الاستعلاء أي عن طريق النّظرة إليه على أنّه أمر قبيح لا يليق به وأنّه ضار بالصّحة، فهذا لا يضرُّ لأنه في هذه الحالة لم تبق مشكلة نفسية.

وقد تكلم علماء النّفس عن أثر العفة في حياة الإنسان إذا وُجّهتْ تلك الطاقة الشهوية إلى الخير كان لها نتائج عظيمة في ميدان العلم والآداب والتّقدم في العلوم، ويقول وليم مكدوجل أيضاً: «وبدلاً من أن ينغمس الإنسان في نزعاتهِ الجنسيّة مع أيّة امرأةٍ تخطر لخياله الهائم فقد يمكن أن يصبحَ محبًّا وفياً باذلاً الطاقة التي تنبع من قوة مشاعره في إنتاج أعمال فنية رائعة... وقد يبدأ في أن يكوّن لنفسه مكانة في المجتمع أو يقوم بإنجاز عمل عظيم أو ينال من المجتمع شرفاً له واعترافاً... وقد يضاعف جهوده في فنون الرياضة أو في عالم التجارة أو الفنّ أو في دنيا العلوم وفي كل أوجه نشاطه هذه تكون الطاقة التي تدعم عملياته العقلية وتضاعف من حيويّته هي نشاط نزعته الجنسية وعوضاً عن أن يجد الدافع الجنسي منفذاً عملياً مباشراً له تنتشر طاقته وتنصرف في عدة مسالك للنشاط الأكثر سمواً».

ولهذا كلّه فقد رفع الإسلام شأن العفة والاستعلاء حيث وصفَ الزّنا بالفاحشة فقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقۡتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ٢٢﴾[١]. فقد استقبح شأن الزنا أو عملية الزنا ونفَّرَ النفس الإنسانية منها وحثّها على الاستعلاء على الغريزة وهذا الحل من النّاحية النفسية أفضل لكن مع ذلك قد يعترض هنا بأن العفة تقلل من النشاط الجنسي نقول وليس في ذلك ضرر إذْ أنّه سيعود إلى وضعه الطبيعي بعد الزّواج.

الطريق الثالث: أمرَ الإسلام أولياء الأمور بتيسير تزويج بناتهم وأبنائهم إن كانوا فقراء لا يستطيعون الإنفاق فقال تعالى: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلۡأَيَٰمَىٰ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنۡ عِبَادِكُمۡ وَإِمَآئِكُمۡۚ إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغۡنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ٣٢﴾[٢]. وقال الرسول ﷺ: «وإذا خطب إليكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه»[٣].

وقال ﷺ: «ثلاثةٌ حقٌّ على الله عونُهُمْ: المجاهد في سبيل الله والمكاتب الذي يريد الأداءَ، والنّاكح الذي يريد العفاف»[٤].

وقال الفقهاء إن لم يعن أولياء الأمور على تزويج هؤلاء العاجزين عن المال فعلى بيت المال أن ينفق عليهم ويزوجهم، لأنّ الزّواج كما قلنا ضرورة فردية واجتماعية فلا ينبغي إهماله.

وعلى المجتمع أن يساعد الفقراء سواء بالبذل أو إيجاد عمل لهم حتى لا يبقوا بدون الزّواج ويكون ذلك سبباً لانتشار الزنا وبالتالي لانتشار الأمراض[٥].

فالزواج كما هو ضرورة اجتماعية فهو كذلك من واجبات المجتمع نحو أفراده.

الطريق الرابع: أن يبذل الفرد كل إمكانياته وطاقته للحصول على مكسب حلال يستطيع به أن يقوم بنفقات الزّواج، ومن جد وجد، ولو تأخر في ذلك وعلى المرء أن

---

(١) سورة: النساء، الآية: ٢٢.
(٢) سورة: النور، الآية: ٣٢.
(٣) صحيح الترمذي ج٣، ص ٣٠٥.
(٤) التاج الجامع للأصول في أحاديث الرسول ـ كتاب النكاح ج٢، ص ٢٧٩.
(٥) رياض الصالحين ـ باب الكرم والجود، ٢٤٥.

يعمل لينفق لا ليأخذ فقال الرسول ﷺ: «اليد العُلْيَا خيرٌ من اليَدِ السُّفْلَى». وقال أيضاً: «إن الله يحب لكم معاني الأمور وأشرافها ويكره سفافها»[١].

ثم إنّ الحرمان من الحياة الزوجية وشعور المرء بأن الاتصال غير الشرعي حرام يدفعانه إلى الجد والمثابرة لإعداد حياة كريمة يستطيع فيها تحقيق متعة الحياة الزّوجية الشّريفة.

وهكذا نجد أن الإسلام لا يجد حلاً للمشكلات بل يجد ويقدم عدّة حلول ليأخذ كل فرد بما يراه مناسباً ولائقاً به حسب ظروفه وإمكانياته. والله ولي التّوفيق.

(١) الجامع الصغير ج١، ص ٧٥.

البحث الخامس:

بناء البيت السّعيد[١]

إنّ السعادة لا تأتي بمجرّد الرّغبة فيها، ولا تأتي بمجرّد اعتناق مبادئها، بل لا بدّ من العمل الجاد والالتزام الدائم المستمر بمبادئها، والسير في طريقها، وتحقيق شروطها، وقبل بيان ذلك كله ينبغي تحديد مفهوم السعادة أوّلاً.

مفهوم السعادة:

إذا نظرنا مفهوم السعادة لدى الدارسين وجدناهم قد اختلفوا فيه اختلافاً كثيراً، ويطول بنا المقام لو ذكرنا ذلك كله، ولهذا أرى الاقتصار هنا على المفهوم الذي خرجت به نتيجة لدراستي الخاصة. وهذا المفهوم هو «ذلك الشعر المستمر بالغبطة والطمأنينة والأريحية والبهجة». وهذا الشعور لا يأتي إلا نتيجة الإحساس الدائم بخيرية الذات وخيرية الحياة وخيرية المصير.

ليستطيع الإنسان أن يشعر بخيرية ذاته أو ليأتيه هذا الشعور لا بدّ من تحقيق الشّروط.

شروط تحقيق السعادة:

الشرط الأول: أن تكون نيات الإنسان وغاياته جميعها خيرة في حياته كلها: لأن من ينوي سوء أو أراد شراً فلا يمكن أن يأتيه الإحساس بأنه إنسان خير ثم إن هذه النيات السّيّئة لا تؤثر على تعكير صفو حياته النفسية الباطنية فحسب بل تؤثر على حياته الحسّية الظّاهرة أيضاً وهذا ما يقرره أيضاً العلم الحديث. ويقول العلماء هنا: «مثلاً ولكي نكفل لذواتنا جهازاً عصبياً صحيحاً وجسماً مُعَافَى سليماً يجب أن نُرَوِّض عقولنا

---

(١) بناء البيت السعيد في ضوء الإسلام: للدكتور مقداد يالجن ط دار المريخ الرياض، ص ١١ ـ ٢٤.

على الأفكار الصّالحة البريئة من الآثام لأن الأفكار الشريرة الدنسة تضعف العقل وتفسده وتجره إلى الجنون.

الشّرط الثاني: أن يكف عن جميع الشرور والرّذائل الأخلاقية: ذلك أنه إذا كان مجرد إرادة الشر يكون له ذلك التّأثير فإن فعل الشّرور والرّذائل أدهىٰ وأمر.

ولهذا نجد الحكماء وعلماء النّفس ينصحون دائماً بتجنب الإنسان جميع الشرور والرذائل إذا أراد أن يبعد نفسه عن الأمراض النفسية التي تترتب على عذاب الوجدان الذي يحس به الإنسان نتيجة ارتكابه الشّرور فيقول أفلاطون مثلاً: «يكون الرجل تعيساً لأنّه يعمل الشّر». ويقول الدكتور عادل العوا عن عذاب الوجدان: «أمّا عذاب الوجدان فإنّه يبدو أول ما يبدو وكأنّه أخرس طفيف... ولكن هذا الألم المعنوي الأخلاقي ألم عميق في الواقع فهو يستولي على النفس كلها بصورة تدريجية ويتصف بعدئذ بأنّه لا يزول ولا يهدأ ولا يمحى أبداً... ولذا فإنّه يشبه لظى جحيم لا يبرد... وربما يصحبه انحطاط عضوي يشتد ويقوى حتى يفسد الجسم ويتلف أعضاءه وينذر بأمراض خطيرة تؤدي إلى الموت.

وقال أيضاً: وأمّا عذاب الوجدان أو وَخز الضّمير وتأنيبه فهو الذكرى التي تعض القلب المجرم ولا تفارقه ليلَ نهارٍ. ولهذا أيضاً وردَ في الأثر هذا القول: «البرُّ لا يبلى والذنب لا يُنسى، والدّيّانُ لا يموتُ، فكن كما شئتَ فكما تدينُ تُدان» وقال رسول الله ﷺ: «مَنْ جعل الهمُومَ همًّا واحداً؛ همَّ المعادِ، كفاهُ الله سائرَ هُمُومِهِ، ومَنْ تشعبتْ به الهُمُومُ مِنْ أحوالِ الدّنيا لم يُبالِ الله في أيّ أوْدِيَتِها هَلَكَ»[1].

الشّرط الثالث: فعل الخيرات بالنّيّات الخيّرة: لأن الشّعور بخيرية الذات لا يأتي إلا إذا فعل الإنسان الخيرات أولاً، وأن يكون فعله له بالنّيّات الخيرة إذ لا يمكن أن يقول له ضميره في الدّاخل بأنك خير إذا فعل الخيرات بالنّيّات السيئة أو للمراءآة، أو ليصل إلى غاية دنيوية فإن هذا العمل أو ذاك يدخل في المعاملة التجارية ولا يدخل في المعاملة الأخلاقية، ولهذا قال الرسول ﷺ: «إنّما الأعمالُ بالنّيّات، وإنّما لكلِّ امرىءٍ ما نوى، فمَنْ كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته

(١) صحيح الجامع الصغير.

إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه»[١]. ثم إنّ الله يوفق الذين يعملون الصّالحات بالنّيّات الصّالحة في إقامة الحياة الطّيّبة وتيسير أمورهم فيها ولهذا قال تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ﴾[٢].

﴿ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ ﴾[٣] ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾ ﴾[٤].

وقال سبحانه: ﴿ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾[٥].

أمّا فيما يتعلّق بتحقيق الإحساس بخيرية الحياة فيتحقق بشرطين أساسيين أولهما:

تحقيق الإحساس بخيرية الذّات وبأصول منشئها؛ لأنّ من لم يشعر بخيريّة ذاته لا يستطيع أن ينظر إلى الحياة على أنّها خير لأن الإنسان ينظر بمنظار نفسه إلى الحياة وإنّ داخلَ الإنسان ينعكس على ظاهره.

ثانيهما: تحقيق الصّحة الكاملة وهي الصّحة الجسمية والعقلية والنّفسية والروحية وأهمّ مبادىء الصّحة الجسمية هي:

١ ـ تناول الأغذية اللازمة بقدر الضّرورة دون إفراط أو تفريط لأنّ تناولها أكثر من الحاجة ضارّ، كما أنّ تناولها أقلّ من الحاجة ضارٌّ أيضاً، وتنتج أمراضٌ خاصّةٌ لكلّ حالةٍ من حالات التّطرف، وهذا ما يقرّره الأطباء، ولهذا قال تعالى: ﴿ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ ﴾[٦].

---

(١) حديث صحيح.
(٢) سورة: النحل، الآية: ٩٧.
(٣) سورة: الكهف، الآيتان: ٨٨ ـ ٨٩.
(٤) سورة: الليل، الآيات: ٥ ـ ١٠.
(٥) سورة: المائدة، الآية: ٦٩.
(٦) سورة: الأعراف، الآية: ٣١.

٢ ـ الابتعاد عن المرضى المصابين بالأمراض المعدية وتجنب الأماكن الموبوءة. وهذا من أهم المبادىء الصّحية في الطّبّ ولهذا أيضاً أمر الإسلام بذلك فقال الرسول ﷺ: «لا يُوردُ مُمْرِضٌ على مصحٌ»[١]. وقال ﷺ: «إذا سمعتُم بالطّاعون بأرضٍ فلا تَدْخُلُوها»[٢]. وقال ﷺ: «فِرَّ مِنَ المجذومِ فِرَارَكَ مِنَ الأسد»[٣].

٣ ـ الاعتدال في الأعمال، لأنّ الإفراط في العمل يُؤدّي إلى الإرهاق، والإرهاق يُؤدّي إلى أمراض جسميّة ونفسيّة وعصبية وعقلية كما يقرر ذلك الأطباء، ولهذا قال الرسول ﷺ: «عليكم برخصة الله التي رخّصَ لكم»[٤]. وقال أيضاً: «أيُّها النّاسُ عليكم بالقصد، عليكم بالقصد»[٥]. وكما يضرّ الإرهاق، يضرّ الكسل أو عدم العمل أيضاً. وهناك أمراضٌ تنتج عن الكسل يُحدّدها الأطباء.

ولهذا كان الرّسول يستعيذ من الكسل قائلاً: «اللّهم إنّي أعوذ بك من العجز والكسل والجبن والبخل»[٦]. وكان يقول: «اللّهمّ بارِكْ لأمتي في بكُورها»[٧]، وذلك لتغدو إلى كسب رزقها في جدٍّ ونشاط، وهذا يكون في البكور في أوّل النّهار.

٤ ـ مراعاة النّظافة والطّهارة، لأنّ معظم الأمراض تنشأ عن القذارة كما يقرر ذلك الأطباء، ونحن نعلم مدى اهتمام الإسلام بالنّظافة لدرجة أنّه جعلها شطر الإيمان فقال الرسول ﷺ: «الطَّهُورُ شَطْرُ الإيمانِ» وقال ﷺ: «الغُسْل يوم الجمعة واجبٌ على كلِّ مُسْلم، والسّواك، ويمسُّ من الطّيب ما قدر عليه، ولو من طيبِ زوجته»[٨].

٥ ـ تجنّب الأسباب النّفسية المرضية التي تُودي إلى الأمراض العضوية ذلك أنّ

---

(١) حديث صحيح.
(٢) حديث صحيح.
(٣) حديث صحيح.
(٤) حديث صحيح.
(٥) حديث صحيح.
(٦) حديث صحيح.
(٧) حديث صحيح.
(٨) حديث صحيح.

هناك كثيراً من الأمراض الجسمية سببها الحالات النّفسية المرضية منها عذاب الوجدان الذي ذكرنا آثاره على الأمراض الجسمية.

أمّا الصّحة العقلية فتتحقّق بإبعاد العقل عمّا يسبب له أمراضاً مختلفة.

وأهم تلك الأسباب بيُولُوجيّة، وأخرى سيكُولُوجيّة. أمّا الأسباب البيُولُوجيّة أو العضوية فكثيرة، من هذه الأسباب جميع أنواع المسكرات والمخدّرات. وقد بيّن المؤتمر الدّولي المنعقد في بلجيكا الأمراض التي تُسبّبها المسكرات والمخدرات وكيف أنّها لا تُؤثّر على صحة المدمنين فحسب، بل تؤثر على عقول ذُرّياتهم أيضاً.

ولذلك حرَّمَ الإسلامُ جميع أنواع المسكرات والمخدّرات، فقال الرسول ﷺ: «كلُّ مسكرٍ خَمْرٌ، وكلُّ خمرٍ حَرامٌ»[1]. ومنها أيضاً بعضُ الأمراض مثل الزّهري الذي يؤدّي إلى الجنون إذا انتقلتْ جراثيمه إلى المخّ. ويؤدي إلى الشلل العام إذا انتقلت جراثيمه إلى النّخاع الشوكي. إن هذا المرض الخبيث يرجع ٩٨٪ من نسبة الإصابة به إلى انتشار الزّنا أو أعمال الفاحشة كما يُقرر ذلك الأطباء، ولذلك حرَّمَ الإسلامُ الزّنا فقال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾[2]. وأمّا الأسباب السيكولُوجيّة التي تُؤدّي إلى الأمراض العقلية فهي كثيرة أيضاً وأهمّها اختلال التوازن العاطفي الذي يُرجّح الدكتور «ألكسيس كارل» سببه إلى عدم تبني المرء لنظام اعتقادي أخلاقي سليم، أو لعدم وجود مثل هذا النظام في الحياة الاجتماعية. ولذلك جاء الإسلام بنظام اعتقادي سليم. ومن أهم هذه الأسباب أيضاً تزعزع العقيدة أو فقدان الإيمان بالمبادىء الروحية الثابتة.

ويُؤيّد ذلك أيضاً الفيلسوف الألماني ليبتز قائلاً: «ولإزالة القلق النّفسي والروحي أن يُؤمن المرءُ بالله عن طريق العقل، وأن يملأ نفسَهُ بسرورٍ عقلي لأن القلق ناتج عن الشّك، والشك وسيلة لتفتيت القلب». ولقد صوَّرَ الله تعالى خطورة تزعزع العقيدة بقوله: ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ

---

(١) حديث صحيح.

(٢) سورة: الإسراء، الآية: ٣٢.

﴿أَوْ تَهْوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾﴾[١]. وأخيراً من أهم تلك الأسباب وجود تناقضات في حياة المرء الاجتماعية مثل التناقض بين مسلكه وبين عقيدته أو عدم استطاعة المرء أن يتخذ اتّجاهاً معيناً من بين تلك الاتجاهات المتناقضة ولهذا ينصح علماء النّفس بتوحيد ذات الإنسان عن طريق توحيد وجهتها لتكوين شخصية قوية متماسكة.

يقول هنا الدكتور «ألكسيس كارل»: «إن الأحوال التي تساعد على تزايد الضعف العقلي والجنون الدوري تظهر على الأخص في البيئات الاجتماعية التي تكون فيها الحياة قلقة مضطربة وغير منظمة».

ويقول ليبنتز: «يتركب أسعد النّاس من مجموعة متناسقة من أوجه النشاط العقلي والخلقي».

والإسلام جاء بنظام اعتقادي أخلاقي للحياة الفردية والاجتماعية لو طبّقه النّاس أفراداً وجماعات في حياتهم الخاصة والعامة لما وجد مكاناً لمثل هذه الحالات المرضية. ولهذا قال تعالى: ﴿۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾[٢]. ﴿وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾﴾[٣].

وأمّا تحقيق الصّحة النّفسية الرّوحيّة فيتوقف على تحقيق الصّحة الأخلاقية والصحة العقلية التي بيّنّا أسبابها، ثم لا يدفع ذلك من تجنب الأسباب التي تُؤدي إلى الأمراض النّفسية والرّوحية. ففيما يتعلق بتحقيق الصّحة الرّوحية، فأهمّ الوسائل التي لا بدّ من مراعاتها هي ملازمة الحياة الروحية وفقاً للعقيدة التي تقوم عليها الحياة الروحية أو تنبع منها، لأن الحياة الروحية غذاء للروح أو حاجة روحية في طبيعة الإنسان وكما أن الجسم يصاب بخلل إذا حرمت من حاجاتها الأساسية، هذه الحقيقة انتهيت إليها بعد دراسة خاصّة لطبيعة الإنسان من النّاحية السيكولُوجيّة والبيولُوجيّة. كما انتهى إليها كثير من الفلاسفة والعلماء.

---

(١) سورة: الحج، الآية: ٣١.
(٢) سورة: لقمان، الآية: ٢٢.
(٣) سورة: الزمر، الآية: ٥٤.

ولهذا يرجع معظم علماء النّفس الأمراض الرّوحية والنّفسية إلى ترك النّاس الحياة الرّوحية وانغماسهم في الحياة المادّية وارتكابهم الرّذائل والجرائم.

ولهذا قرر الإسلام الحياة الرّوحية وجعلها واجباً على كل فرد يجب مراعاتها كما يجب مراعاة الحياة المادية ويبيّن أنّه لا يمكن أن يجد الإنسان الطمأنينة والراحة النّفسية بدون ممارسة هذه الحياة، فقال تعالى: ﴿ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ۝٢٨ ﴾[1] ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾[2] ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝١٣ ﴾[3] ﴿ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ۝٥٤ ﴾[4].

ويقرر ذلك أيضاً «وليم جيمس» عندما يقول: «إنّ الإيمانَ بالله هو الذي يجعلُ للحياة قيمةً، وهو الذي يُمكّننا من أن نستخرج من الحياة كل ما فيها من لذة وسعادة. ومن أهم وسائل الشقاء النّفسي أيضاً وجود تناقضات في الحياة الفردية والاجتماعية مثل التّناقض بين مسلك المرء وعقيدته أو عدم تبني المرء اتجاهاً معيناً من بين الاتجاهات المتعارضة والمتناقضة.

هنا نجد الفيلسوف الألماني «ليبنتز» يُقرّر ذلك عندما يقول: «يتركب أسعد النّاس من مجموعة متناسقة من أوجه النّشاط العقلي والخُلُقي».

ولهذا كله نجد الإسلامَ جاء بنظام اعتقادي وأخلاقي ودعا إلى الالتزام بهما نظرياً وعملياً فقال تعالى: ﴿ ۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ﴾[5].

وقال تعالى: ﴿ فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ۝١٢٣ ﴾[6].

---

(١) سورة: الرعد، الآية: ٢٨.
(٢) سورة: طه، الآية: ١٢٤.
(٣) سورة: الأحقاف، الآية: ١٣.
(٤) سورة الزمر، الآية: ٥٤.
(٥) سورة: لقمان، الآية: ٢٢.
(٦) سورة: طه، الآية: ١٢٣.

وأخيراً من أهمّ الأمور التي تُشْقِي النّفس والتي يجب تجنبها لتحقيق السعادة النّفسية: «هو التّشاؤم وتوجس الشر، ذلك أن روح التّشاؤم إذا كان موجوداً في الإنسان أو كان معتنقاً الاتجاه التّشاؤمي المعروف لدى بعض رجال الفكر مثل الفيلسوف «شوبنهور» الذي كان يرى أنّ الحياةَ وَهْمٌ أليم، والتّشاؤم صبغةُ الوجود وجوهر الحياة».

كما كان يرى أن الألم يستغرق كل شيء وأن الإرادة الكونيّة عمياء ولا خلاص إلا بالتّغلّب على هذه الإرادة إذا كان روح التّشاؤم موجوداً في الإنسان بهذه الصّورة فإنّه لا يمكن أن يشعر بالطمأنينة والبهجة في هذه الحياة ثم إن التّشاؤم لا يعوق الشعور بالسعادة فحسب بل إنّه يضر الصّحة أيضاً ويسبب أمراضاً نفسيّة وعصبية، كما يُقرّر ذلك علماء النّفس فيقول مثلاً الدكتور «عزيز فريد»: «أنّه يتحمل بفعل اتجاهه التّشاؤمي هذا متاعب هي أشد وقعاً على نفسه وأعصابه من وقع الكوارث أو الملمات أو المآسي التي يتوقع حدوثها. ويستهلك اتجاهه التّشاؤمي من الطّاقات عبثاً لأنه لا يستطيع أن يتحكم في اتجاهه الخاطىء بأعمال قوة الإرادة ذلك لأن بواعث التشاؤم هي أبعد وأعمق من أن تنالها الإرادة الواعية».

ولهذا نجد الإسلام يدعو إلى التفاؤل على أساس أن الله خلق الكون بعناية وخلق الإنسان برعاية وخلق الأشياء لصالح الإنسان لا لضده ولا لشقاوته بل لسعادته ثم لم يوجد الكون عبثاً أو صدفة أو أن كل شيء جاء ضد آخر كما يرى البعض ولهذا نجد الإسلام يُقرّر ذلك، وقد جاءت آياتٌ كثيرة في القرآن تبيّن أنّ الله خلق كل شيء في الكون للإنسان وسخره له فمن تلك الآيات قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾[1].

ثم دعا الإسلام إلى الابتهاج بالجمال الذي خلقه الله في الكون وفي السماء.

---

(١) سورة: إبراهيم، الآيات: ٣٢ ـ ٣٤.

﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦ ﴾[1].

﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ۝٦ ﴾[2]. وكذلك الجمال الذي خلقه في النّباتات.

﴿ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ ﴾[3]. ﴿ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ ﴾[4]. كما خلق الله حيوانات في صورة جميلة انظروا إلى جمال تلك الطيور ذات الرّياش الملونة والحيوانات مختلفة الأشكال والألوان... ولهذا قال تعالى: ﴿ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝٦ ﴾[5] ﴿ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ ﴾[6].

يقول هنا الفيلسوف الألماني «ليبنتز»: «وما من مرّةٍ ترى فيها أحد مصنوعات الله إلا وجدناه غاية في الكمال ويجب أن نبدي إعجابنا بجماله ورقة صنعه». ويقول «جون روسكين» أستاذ الفنون الجميلة بجامعة اكسفورد: «الإنسان الذي يتأمّلُ الجمالَ في الطبيعة وفي الفن إنّما يتحد بالتعاطف مع الجمال الذي صنعه الله والجمال الذي صنعه الفنّان وهذا الاتحاد يسبغ على نفس الإنسان حُلّة من السّمو الخلقي فيشعر المرء بإتقان نبيل وسمو رفيع ويعيش في سعادةٍ مطلقةً سعادة الجمال».

ثم إنّ الله لم يكتف بتجميل ما خلقه وما صنعه حتى أحسنَ خَلْقَ الإنسان نفسه. فقال تعالى: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ﴾[7] ﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ﴾[8].

---

(١) سورة: قّ، الآية: ٦.
(٢) سورة: الصافات، الآية: ٦.
(٣) سورة: النمل، الآية: ٦٠.
(٤) سورة: الأنعام، الآية: ١٤١.
(٥) سورة: النحل، الآيتان: ٥ ـ ٦.
(٦) سورة: النحل، الآية: ٨.
(٧) سورة: التين، الآية: ٤.
(٨) سورة: غافر، الآية: ٦٤.

ثم إنّ الإسلام دعا بعد ذلك إلى أن يجمل الإنسان نفسه ويأخذ زينته قال تعالى: ﴿ ۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾[١] ﴿ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ﴾[٢].

كما دعا إلى النّظافة والتّعطر والابتسام عند مقابلة النّاس. وهذا من آداب الإيمان، وأخلاق الإسلام.

وجعل الرسول ﷺ التّطيّب والتّعطر سنّة خاصّة في أيام الجمعة. بل أكثر من هذا دعا الإسلام إلى أنْ يكون الإنسان جميلاً في مقابلته للنّاس فقال الرسول ﷺ: «وتبسّمُكَ في وجه أخيكَ لكَ صدقةٌ»[٣]، وفي مناقشته ومجادلته معهم: ﴿ وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ ٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾[٤] ﴿ ۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾[٥].

وكما دعا الإسلام إلى التبشير لا التنفير فقال الرسول ﷺ: «بَشِّرُوا ولا تُنفِّرُوا»[٦]. وكان يُعجبه الفألُ الحسن ويكره الغيرة. ولهذا نفى الغُولَ والهَامَةَ، وما إلى ذلك من الأشياء التي كان العرب يتشاءمون منها وذلك كله لكي لا يرى الإنسان من أخيه الإنسان إلاّ خيراً وجميلاً ولا يشم منه إلا ريحاً طيّباً ولا يسمع إلاّ كلاماً حسناً مبشّراً حتى يكون الإنسان متفائلاً ومبتهجاً في نظرته إلى الطبيعة وإلى الإنسان وإلى حياة الإنسان جميعاً.

وأخيراً فإن الإسلام بعد ذلك دعا إلى حُسْن الظّنّ، حُسْنِ الظّنِّ بالنّاس، وبالله، لأنّ سُوء الظّنّ يُثير في نفس الإنسان القلقَ والتّوجس بالشّرّ وانتظار الإساءةَ من الغَير باستمرار وما دام الأمر كذلك فلا يهدأ له البال ولا يطمئنّ له القلب. ﴿ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ﴾[٧].

---

(١) سورة: الأعراف، الآية: ٣١.
(٢) سورة: الأعراف، الآية: ٣٢.
(٣) حديث صحيح.
(٤) سورة: الإسراء، الآية: ٥٣.
(٥) سورة: العنكبوت، الآية: ٤٦.
(٦) حديث صحيح.
(٧) سورة: الحجرات، الآية: ١٢.

﴿ ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلۡمَغۡفِرَةِۚ هُوَ أَعۡلَمُ بِكُمۡ إِذۡ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ ﴾[١].

بعد هذا كله هناك وسيلتان مهمّتان لتحقيق السعادة لا بدّ من مراعاتهما: أوّلهما: تنظيم الإنسان علاقته بالمجتمع بحيث لا يعاشر ولا يُصادق الأشرار بل يجب الابتعاد عنهم، لأنّ الشرير لا يأتي منه إلاّ الشّر، بل أكثر من هذا فإنّه يجعل الإنسان يكره النّاس ويتشاءم منهم، ومقابل ذلك يجب أن يُعاشر ويُصادق الأخيار؛ لأنّ الخيِّر لا يأتي منه إلاّ الخير، بل الخير يفيض منه كما يفيض النور من السّراج ولهذا دعا الرّسُول ﷺ إلى معاشرة الأخيار والصّالحين وترك معاشرة الأشرار فقال ﷺ: «مَثَلُ الجليس الصّالح، وجليس السّوء كحاملِ المسك ونافخ الكير، فحاملُ المِسْك إمّا أن يُحذيَكَ، وإمّا أنْ تبتاعَ منه، وإمّا أن تجد منه ريحاً طيبةً، ونافخ الكير إمّا أن يحرق ثيابك، وإمّا أن تجد منه ريحاً خبيثةً»[٢].

إنّ امتلاكَ الإنسان قوّةَ الإرادة بحيث يستطيعُ تطبيق كلِّ المبادىء السّابقة بدقةٍ وانتظامٍ، ويستطيع بها السّير في طريق السّعادة على الرّغم من وجود بعض المعوّقات والمشكّلات التي تعترضه من حينٍ إلى آخر، فهي من ملاكِ الأمور وعزائمها.

لكن كيف يستطيع الإنسان أن يمتلك قوّة الإرادة إن لم يكن مالكها، الحقيقة أنّ هذه مشكلة يجب السّعي إلى حلّها، ليستطيع المؤمن القدرة على التّخلّص من كلِّ ضعفٍ يُوهنه عن القيام بالواجب نحو ربّه ونحو عباده.

---

(١) سورة: النجم، الآية: ٣٢.
(٢) حديث صحيح.

البحث السّادس:

تحصين الشّريعة للأسرة بحمايتها للزّوجة من عَوادي الفِتن

مؤدى هذا: تحريم التّفكير في الفاتنات من النّساء، ومنع الاختيار من مجاله، بل منع اختراق سياجهِ الحصين.

ألم ترَ إلى التّعبير القرآني البليغ كيف وصفهنّ بالمحصنات دون الاكتفاء بوصف المتزوجات؟!. ليس هذا فحسب!؟.

بل لقد بلغ احتياط الشّريعة في هذا الأمر أمداً بعيداً، يدل على مدى إعزازها للأسرة، وحفاظها على ما ينبغي لها من أخلاق وقيم، وحمايتها ممّا يتهدد مسيرها ومصيرها.

فكان المبدأ العام هو تقرير الحرمة الكاملة للمسلم في دمه وعرضه وماله. «كلُّ المسلمِ على المسلمِ حرامٌ: دمُهُ، ومالُهُ، وعرضُهُ»[1].

وفي بعض المروى عنه ﷺ ألفينا التعبير النبوي مسايراً للتعبير القرآني البليغ فيما ألمعنا إليه، فهو ﷺ يقول في حجة الوداع: «المؤمنُ حرامٌ على المؤمن، كحرمةِ هذا اليوم: لحمُهُ عليه حرامٌ أن يأكله أو يغتابه بالغيب، وعرضه عليه حرام أن يخرقه...»[2].

وكان اعتراف الإسلام بالمرء، وقبوله في زمرة المؤمنين، ودلالة سلوكه على كمال إيمانه: أن يُحبّ لأخيه ما يُحب لنفسه ويكره له ما يكره لها.

---

(١) صحيح مسلم: كتاب البر والصلة والآداب: باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ٤/ ١٩٨٦ من حديث أبي هريرة.

(٢) أورده ابن رجب الحنبلي في كتابه جامع العلوم والحكم ص ٢٤٣. وأورده الهيثمي عن الطبراني من طريقين ضعيفين ٣/ ٢٦٨، ٢٧٢، غير أنه أورد شواهد عديدة وصحيحة لحرمة الدماء والأموال والأعراض.

وقد روى البخاري ومسلم عن أنس رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال: «لا يُؤمن أحدُكم حتى يُحبَّ لأخيه ما يُحب لنفسه»[١].

ومَنْ ـ غير الديّوث ـ يُحبُّ أن يتلصص العابثون بالمصائر والقيم إلى حصنه المنيع، وحرمه الآمن، حتى يفعل هو ذلك بغيره؟ «مَنْ خَبَّبَ امرأةً على زوجها».

لقد تبرّأ النّبيّ ﷺ باسم المؤمنين جميعاً ممن يُفسد امرأةً على زوجها ـ مهما تكن غايته من وراء هذا الإفساد زواجاً أو غير زواج!؟.

وهذا أبو هريرة رضي الله عنه يروي عن النّبيّ ﷺ قوله: «ليس منّا مَنْ خَبَّبَ امرأةً على زوجها، أو عبداً على سيده»[٢].

وقد تركب هذه المرأةُ رأسَها. فتسأل زوجَها طلاقها، لتمضي في طريق الغواية والمُجُون، وتلهو وتعبث باسم القانون؟!. بيد أنّها في الوقت ذاته تكون قد أتمت للشيطان صفقتَهُ، وحقّقتْ له غايتَهُ. وأخرجت نفسها من جنّة الزّوجية الوادعة الكريمة المتسامية، فتحق عليها اللّعنةُ والخزي في الدنيا، ولا تجدُ ريحَ الجنّةِ في الآخرةِ.

«مَنْ تسألُ زوجها طلاقها»:

وهذا هو ثوبان رضي الله عنه يروي عن النّبيّ ﷺ قوله: «أيُّما امرأةٍ سألت زوجَها طلاقها من غير بأس فحرامٌ عليها رائحة الجنـّة»[٣].

وما تقرُّ عينُ إبليس بشيءٍ كهذا؟!.

وقد روى جابر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إنّ إبليسَ يضعُ عرشَهُ على الماء، ثم يبعث سراياهُ، فأدْناهم منه أعظمهم فتنةً، يجيء أحدُهم فيقول: فعلتُ كذا

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الإيمان: باب «من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه» ١/٤٨ ـ ٤٩. ومسلم في كتاب الإيمان: باب «الدليل على أن من خصال الإيمان أن يحب لأخيه المسلم ما يحب لنفسه» ١/ ٦٧ ـ ٦٨.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب صفات المنافقين وأحكامهم: باب: تحريش الشيطان وبعثه سراياه لفتنة الناس ٤/٢١٦٧. وأورده المنذري في الترغيب والترهيب ٣/ ٩٣ ـ ٩٤.

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك ٣/ ١٩٦. وصححه على شرط البخاري وأقره الذهبي.

وكذا فيقول: ما صنعتَ شيئاً، ثم يجيء أحدُهم فيقولُ: ما تركتُهُ حتّى فرّقتُ بينَهُ وبينَ امرأتِهِ، فيُدنيهِ ويقولُ: نَعَم أنت!!»[١].

قال الأعمش: أُراه قال: فتلتزِمُهُ: أي يضمُّه إلى نفسه ويُعانقه.

«مَن يسرقُ امرأة من زوجها»:

إنّ مَنْ تتبَّعَ عورات المسلمين تتبَّعَ الله عورتَهُ هتكاً وفضحاً!. ومن تسور بعينه على النّاسِ وأعراضِهِم، وتلصص بناظره استراقاً لأسرارهم، وإشباعاً لفضوله ومجونه على حسابهم ـ فإن الشّريعة تهدر حرمته وكرامته، وتسقط عن المنظورين ديته لو صَوَّبُوا إليه شيئاً ففقأُوا عينَهُ؛ عن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ رسولَ الله ﷺ قال: «مَنِ اطّلَعَ في بيتِ قوم بغير إذنِهِم فقَدْ جُعِلَ لهم أنْ يفقأوا عينَهُ». رواه مسلم وأورد له متابعات عديدة منها: «لَو أنّ رجلاً اطّلع عليك بغير إذنٍ فقَذَفْتَهُ بحصاةٍ ففقأتَ عينَه ما كان عليك من جُنَاحٍ»[٢].

فكيف بمن لا يكتفي بلسانه ولا بطَرْفِهِ، بل يُسارق رجلاً زوجَةُ ابتغاءَ الزّواج بها، أو العبث معها، دونَ ما رادعٍ من دينٍ أو ضمير؟!.

«حُرمَةُ المُحْصَنة»؛ وهي «المتزوّجة»:

إنّ المحصنة من النّساء لها ولزوجها؟ ولبنيها وبيتها، حصانةً ينبغي أن تُراعىٰ وحرمة تستوجب أن تُصان!.

ولذلك حرمتِ الشّريعةُ الزّواجَ بها، وحرصتْ على سدِّ جميع الذّرائع المغرية به، واحتاطت لذلك بكل ما أشرنا إليه!.

«حُرمَةُ المُحْصَن»؛ وهو «المتزوّج»:

وإذا كان للمحصنة من النساء تلك الحرمة، فإنّ للمحصَنِ من الرجال كذلك

---

(١) رواه الترمذي وقال حديث حسن ٣/٤٩٣، وأحمد في المسند في مواطن كثيرة منها ١٢/٢٣٩ ـ ٣٤١، ١٤/١١٧، ١٥/٣٢٦ (المعارف) وقال المحقق إنّ إسناده صحيح، والحاكم في المستدرك ٢/ ٢٠٠، وصححه على شرط الشيخين، وأقره الذهبي.

(٢) ١٤٠/١٣٦ ـ ١٣٨ من النووي ورواه أحمد بإسناد صحيح ١٤/ ٤٤ (المعارف).

حَرَماً آمِناً يحرمُ على المرأةِ أن تقتحمَ سياجَهُ، أو تخترق نطاقه.

«لا تسألُ امرأة طلاقَ أختها»:

وماذا يكون من المرأة التي تعابث زوجاً؟

أتعبث معه فحسب أم تتزوّجه مع ذلك؟

ثم ماذا؟ أتضيفُ عليه أعباءَ جديدةً، أم تُسوِّل له طلاقَ امرأتِه تلك؟ وهو ما سوف تسعى إليه جهدها؟!..

لقد نهى النّبيّ ﷺ عن هذا التّدبير الآثم، وأبان أنّ ما يختاره الله عز وجل للمرء خير ممّا يختاره المرء لنفسه، أو يسعى إليه بجهده، وسط ظلام المكر، ودروب الخيانة؟ والعياذ بالله!!.

وكأنما تستفرغ المرأةُ حينئذٍ ما في إناء أختِها، أو ما بينَها وبينَ زوجها من الودّ والصفاء، والسّكينة والرّحمة، لتضعه في إنائِها، أو لتستأثر به دونها.

روى الإمام أحمد في مسنده عن أبي هريرة أنّ النّبيّ ﷺ «نهى أنْ يبيعَ حاضرٌ لبادٍ، أو يتناجَشُوا، أو يخطب الرّجلُ على خِطْبَةِ أخيهِ، أو يبيعَ على بيعِ أخيهِ، ولا تسألُ المرأةُ طلاقَ أختِها لتكتفىءَ ما في صَحْفَتِها، أو إنائها، ولْتَنْكِحْ، فإنّما رزقُها على الله».

«لا تصفُ امرأة أختَها لزوجِها»:

وكما حرمتِ الشّريعةُ أن تُسَبّبَ المرأة في طلاق أختها بطريق مباشر حرمت أن تتوسل إلى ذلك بطريق غير مباشر.

إن المخاطبة المتداخلة بين المرأة والمرأة، والتي تفضي بكل منهما إلى أن ترى مفاتن الأخرى، وتكشف عن محاسنها، وتنعتها لزوجها كأنّما ينظرُ إليها، لها أثرها البعيد في إشعال عواطف الرّجل نحوها، وإشغال فكره بها، وأن عسى أنْ تكون تلك المرأة زوجاً أو خليلةً، وأن يبحث الرّجل عن وسيلة للعَبَثِ معها، أو الزواج بها، ولهذا حرّم الشرع وَصْفَ المرأة للرجل دون سبب شرعي.

فأي طائف يطوفُ بالأسرتين حينئذٍ؟

وفيمَ تتسبّب تلك التي تنعتُ أختَها لزوجها؟.

ولذلك سدَّتِ الشّريعةُ هذه النّافذة، التي قد تسدد منها سهام الأهواء والفتن نحو المرأة المُحْصَنةُ.

وفي هذا يروي الترمذي عن عبد اللّه بن مسعود أن النّبيّ ﷺ قال: «لا تُباشرُ المرأةُ المرأةَ حتّى تصفَها لزوجها كأنّه ينظرُ إليها»[1].

---

(١) رواه الترمذي وقال: حسن صحيح، وروى نحو معناه عن أبي سعيد، ٥/١٠٩، وأحمد في المسند ٥/٢١٦، ٦/١٠٢، ١٠٩، ١٨٣، المعارف وقد صحح محققه إسناده. ورواه البخاري ٩/٢٧٧، ٢٧٨.

البحث السابع:

تحذير الشّريعة للزوجين من عَواقب الخطيئة الفاحشة

ولم تألُ الشّريعةُ جُهداً في توكيد حُرْمة الأُسرة، وتوسيع نطاق السّياج الخُلُقي حولَها، وتوفير المناخ النّفسي الملائم لها، والذي تنمو فيه براعم التّرابط والتآزر، وعوامل التّكيّف والتّوافق بين الزوجين، حيث تُـفَرّغُ الأسرةُ لرسالتَها المنوطة بها.

ولم تكتف بتحريم المُحْصَناتِ مِنَ النّساء، ولا بالنّهي عن الوسائل المفضية إلى الزّواج بهنّ، أو التعابث معهنّ، وإنّما تعدّتْ هذا وذاك إلى أمرٍ آخر.. إلى تقويم الإثم ذاته من هؤلاء المحصنات أنفسهِنّ.

إنّ الزّنا جريمةٌ منكرةٌ في الإسلام، ذاتُ عقوبةٍ محدودة، قال الله تعالى: ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٢ ﴾[1].

بيد أنّها ممّن أُحصن أفظعُ جُرْماً، وانكرُ إثماً، وأنكى أثاماً!! إنّها انتهاك لحرمة مسلم، وهدم لكيان أسرةٍ، ونبذٌ لقيم مجتمع، ونقض لميثاقٍ غليظ!! ومن هنا اختلفَ تقويمُ الإثم، وتغيّرَ تقديرُ العقوبة، فارتقى إلى الأشدّ الأشدّ!.

وقد روى عبد اللّه بن مسعود عن النّبيّ ﷺ قوله: «لا يحلُّ دَمُ امرىءٍ مسلم يشهدُ أنْ لا إله إلاّ الله، وأنّي رسولُ الله إلاّ بإحْدَى ثلاثٍ: الثّيّبُ الزّاني، والنّفسُ بـالنّفس، والتّاركُ لدينه، المفارقُ للجماعةِ»[2] وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: سألتُ رسولَ الله ﷺ أيُّ الذّنبِ أعظمُ عندَ الله؟ قال: «أنْ تجعلَ لله نِدًّا وهو خلقَكَ» قلتُ: إنّ ذاك لعظِيمٌ، ثم أيٌّ؟ قال: «أن تقتلَ ولدَكَ مخافةَ أنْ يَطْعَمَ معَكَ» قلتُ: ثم

---

(١) سورة: النور، الآية: ٢.

(٢) أورده المنذري عن البخاري ومسلم وأبي داود والترمذي والنسائي، ٣/ ١٩٠، ورواه أبو داود الطيالسي عن عبد اللّه بن مسعود كذلك ج ١/ ٣٧، ٣٨.

أيٌّ؟ قال: أنْ تُزاني حليلةَ جارِكَ»[1] قال: وتلا هذه الآية: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾﴾[2].

وعن بريدة رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «حُرْمَةُ نساءِ المجاهدين على القاعدين كحرمة أمهاتِهم، ما من رجلٍ من القاعدين يخلف رجلاً من المجاهدين فيخونه فيهم إلاّ وقف يومَ القيامة، فيأخذُ من حسناتِهِ ما شاء، حتى يرضى» ثم التفت إلينا رسول الله ﷺ فقال: «ما ظنُّكُم؟!»[3].

وعن المقداد بنِ الأسود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «ما تقولُونَ في الزِّنَا؟» قالُوا: حرامٌ حرَّمَهُ الله ورسولُه، فهو حرامٌ إلى يوم القيامةِ، قال: فقال رسولُ الله ﷺ لأصحابه: «لأنْ يزني الرّجل بعشرة نسوة أيسر عليه من أن يزني بامرأة جاره»[4].

وهكذا يختلف تقديرُ الشّريعة للخطيئة حين يتعلّق الأمر بالكيان الأُسَريّ!! ثم تتضاعف الخطورة والعقوبة أكثر من ذلك حين يكون للهوى علاقة بحليلة جارٍ، إذ للجارِ من الحرمةِ فوقَ ما لهُ من مجرد الحصَانَةِ حينئذٍ!!!. أو حين يتعلّق الأمر بحليلة مجاهد في سبيل الله، وفي سبيل الحقّ، وفي سبيل الحرية، يخلف زوجَهُ وبنيهِ، وسط ذويه ومواطنيه، إذْ له حينئذٍ من الحرمةِ والكرامةِ ما لدينه من قداسةٍ، وما لوطنهِ من مكانةٍ!!.

«إنّ مَنْ خلف غازياً في أهله بخير فقد غزا؟!»:

ومَنْ خانَ غازياً في أهله فقد خانَ دينَهُ وأمانَتَهُ، ووطنَهُ وأُمّتَهُ، وكان أعدى على الوطن من أعدائه، وأجدر بالإفلاس من الحسنات يوم القيامة، جزاء ما أفلس في الدنيا

---

(١) أورده المنذري في الترغيب والترهيب عن البخاري ومسلم والترمذي والنسائي ٣/ ١٩٤.
(٢) سورة: الفرقان، الآية: ٦٨ ـ ٦٩.
(٣) أورده المنذري في الترغيب والترهيب عن مسلم وأبي داود والنسائي ج ٣/ ١٩٥.
(٤) أخرجه أحمد في المسند ٦/ ٨ ط الحلبي، والبخاري في الأدب المفرد ص ١٠٣ وابن كثير في التفسير ١/ ٤٩٤ وقال: تفرد به أحمد، وذكر له شاهداً من الصحيحين من حديث عبد الله بن مسعود: قلتُ: يا رسول الله... أيُّ الذّنبِ أعظم؟ الحديث..

من الضمير والكرامة. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾[1].

وبعد تطوافنا هذا نحسب أنّه قد تبيّن لنا مدىٰ إعزاز الشّريعة للأسرة، وحرصها الحريص على تأكيد حرمتها، وتبيين قيمتها حتى تُؤديَ رسالتَها، وتُقوِّي روابطها، وتتحمّلَ مسؤوليتَها وتَبْلُغَ غايتها.

ولا نحسب أن ثمّة تشريعاً قبل الإسلام أو بعده أوْلَى الأسرةَ من التّكريمِ والحصانةِ والتّوقيرِ والرّعايةِ مثلما أوْلَى الإسلامُ، أو قريباً منه!!.

ثم لا نحسبُ كذلك أن يقتحم امرؤٌ تلك الحصُونَ، أو يقتربَ من هذا السّياج، لزواج أو لغير زواج، إلا أن يكون بعيداً عن الإيمان وواجبه، جريئاً على الله ومحارمه، مستهتراً بما للأسرة من قداسةٍ، وبما للجوار من حرمة، وبما للمجتمع من قيم. وأحرى بالمجتمع أن لا يتوانَى في أخذه بجريرته، وقفاً لتيار الفُسُوق، وصوناً للأسرة عمّا يشين، وعوناً لها على السير في طريقها البنّاء، نحو غاياتها النّبيلة، وأهدافها الرّشيدة!؟.

تلك آيات الكتاب الحكيم، وما ظاهرها من نصوص السّنّة ـ في مجال اختيار الزّوجة، وبيان من تحل ومن تحرم.

وقد كانت النّاحية التّشريعية وما يتصل بها من الجانب الأخلاقي هي السمة البادية، في الآيات والأحاديث الآنفة الذكر، وتمتاز السُّنَّةُ ـ بعدئذٍ ـ بإفاضة الحديث في نواحي أُخر، منها النفسي، ومنها الاجتماعي، لتقويم سلوك الإنسان على الصعيد الداخلي «الأسريّ» والخارجي «الاجتماعي»!!.

---

(١) سورة: قٓ، الآية: ٣٧.

البحث الثامن:

ضوابط زواج المسلم بالمرأة الكتابية وأخطاره

نظرة عامة لهذا الزّواج:

قال الله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾[1]. وقال الله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾[2].

فالزّواجُ يهدفُ إلى تحقيقِ السّكينةِ والمودّةِ والرّحمةِ، ثم إلى تحقيقِ التّوالدِ وتتابعِ التّناسلِ، فالحياةُ الزّوجيةُ ذاتُ أهدافٍ ساميةٍ ومقاصدَ راقيةٍ، تربطُ بين الرّجلِ والمرأةِ برباطِ الوُدِّ والرحمةِ، وبرباطِ «النّسْلِ» المخلوقِ الجديدِ، ليحملَ عنهما وظائفَهُما؛ البنتُ عن أمِّها، والابنُ عن أبيهِ، وهكذا يُحقّقُ الزّواجُ سُنَنَ الله تعالى في استخلافِ الإنسانِ على هذه الأرضِ!!!.

وهذا الزّواجُ النّاجحُ أن يكونَ الزوجان على منهجٍ صحيحٍ سليمٍ، واضحِ المعالمِ، ثابتِ المنطلقِ؛ في العقيدةِ والشّريعةِ والأخلاقِ والآدابِ والسُّلوكِ، فإذا اختلفَ منهجُ الزّوجين في ذلك هل يُحقّق الزّواجُ أهدافَهُ وغايتَهُ ومقاصدَهُ؟!!..

ليس في ضمان مخلوقٍ أنْ يتزوّج امرأةً ليستْ على دينهِ، ولا على شريعته، ولا على أخلاقه، ولا على آدابه، أن يضمن نشأةَ أبنائه وبناته على ما يُحبُّهُ الله تعالى ويرضاه.

---

(١) سورة: الروم، الآية: ٢١.

(٢) سورة: النحل، الآية: ٧٢.

إنّ هذه المعضلةَ الخطيرةَ تُواجه كلَّ متزوّجٍ بكتابيّةٍ «نصرانيةٍ أو يهوديةٍ» في هذا العصر الذي فقدَ فيه المسلمون خصائصَ الدّعوة إلى الإسلام، فنجدُ المسلمَ ـ في هذا الوقت ـ غيرَ قادرٍ على حمل الدّعوة، بل نرى الكثيرَ ـ وعلى الأخص الذين يتزوّجون من الكتابيات في أوروبا وأمريكا ـ غيرَ ملتزم بإسلامه «عقيدةً وأخلاقاً وسلوكاً» فإذا اقترنَ بتلكَ المرأةِ الكتابية تجرّد عن آدابِ الإسلام وأحكامه، وأخذ بآداب «الغرب» وأحكامه، وعاداته وتقاليده. هذا هو واقعُ ٩٩٪ من الذين تزوّجوا من الأجنبيّات.

فإن كان هذا هو واقعُ الحال لأولئك الذين تزوّجوا بالكتابيات، فكيف يصحُّ القولُ بجوازه، استدلالاً بقول الله تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾[1]، وهذه الآيةُ الكريمةُ ليستْ حُجّةً لهؤلاء بوجهٍ من الوجوه، فشرط زواج الكتابية أن تكون «مُحْصَنَةً» أي عفيفةً[2] فأيُّ امرأةٍ في أوروبا أو أمريكا تتّصفُ بالعفَافِ الذي يقصدُهُ الإسلام في إباحته من زواج الكتابية؟! والمعلوم من قوانينهم إباحة ممارسة «الجنس» أي «الزّنا» إن كان برضا الطرفين، فإنْ كان هذا من أصل حضارتهم وعاداتهم وتقاليدهم؛ فكيف يُتصوّر أن تنشأ الفتاةُ الأوروبية أو الأمريكية على العَفَاف؟!..

هذا من جانب «شرط العَفَاف» أمّا من جانب ضمان سلامة عقيدة الأبناء والبنات في تلك البلاد، وهي لا تُدرّسُ العقيدةَ الإسلاميّةَ ولا التّربيةَ الإسلاميّة في مدارس الابتدائية ولا الإعدادية ولا الثانوية ولا الجامعية، بل المقرّر في مناهج تلك المراحل الدراسية النّيل من الإسلام، وتشويه صورته وتاريخه والافتراء عليه.

وهذه أيضاً من المعضلات الخطيرة التي تُواجه أبناء المسلمين من أبوين «مسلمين»، أمّا من كانت أمّه أوروبية أو أمريكية فهو يحمل الجنسيّة والتابعية الأوروبية أو الأمريكية، فلا يُقرُّ له بالإسلام في الإجراءات والأحوال المدنية، فقوانينُهُم تعتبرُ من يحمل جنسيّتَهم أو التّابعيةَ لهم «مسيحياً» والمسلمون الذين أعلنوا إسلامهم في تلك

(١) سورة: المائدة، الآية: ٥.
(٢) تفسير ابن كثير ج ٢/ ٢٠.

البلاد بحكم القانون «مسيحيون»، بل لا يقبلون تجنيس «المسلم» إلاّ بعد أن يُقيم أكثر من خمس سنوات إقامةً متتابعة، وأن يتزوج من امرأةٍ من تلك البلاد، فأينَ الضمانُ لإسلامِ الأولاد في تلك البلاد؟!..

فالمسلم الذي يُريد الزّواج بكتابيّة في بلادها يجب عليه أن يضع في اعتباره وحسابه هذه المعضلات الخطيرة التي لا حَلَّ لها، ولا ضمانَ للسّلامة من أخطارها الجسيمة.

وجميعُ المسلمين في أوروبا وأمريكا وأستراليا يُعانون من أخطار هذه المعضلات، وهذا واقع مرير!!.

لا نقولُ هذا لتحريم ما أحلَّ الله تعالى من زواج الكتابيات، ولكن نقوله لاجتناب أهواله، والتّوقي من أخطارَه.

شروط صحة «الزّواج من الكتابيات»:

ولصحة الزّواج من الكتابيات توفُّرُ هذه الشّروط:

الشّرط الأول: أنْ تكون «الكتابيةُ» من «العفائف» وهي التي تعتقدُ حُرْمة «الزّنا» ولا ترضاه بحال.

الشّرط الثّاني: أنْ تكون تابعةً لزوجها المسلم، من حيث الجنسية، لضمان انتساب الأولاد إلى الإسلام.

الشّرط الثّالث: أنْ لا تكون حربيّةً ـ كالإسرائيلية ـ وأن لا تحمل العداءَ للإسلام ولا الكراهيةَ له.

الشّرط الرّابع: أنْ ترضى بأحكام الإسلام في بناء الأسرة المسلمة، وأنْ تلتزم بالحجاب الشّرعي، والغُسْل من الجنابة والحيض والنّفاس، وأنْ تمتنع عن شرب الخمر وأكل لحم الخنزير.

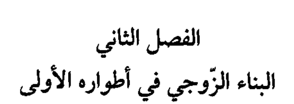
الشّرط الخامس: أن لا تُلقِّنَ أولادَها شيئاً من عقيدتِها، ولا شيئاً من عاداتِ قومِها.

وإنْ كنّا نعتقدُ بصحّةِ هذه الشّروط لجوازِ «الزّواجِ من الكتابية» فإنّا نعتقد بوجُوبِ التزام «الزّوجِ المسلم» بعقيدته وشريعته وأخلاق إسلامه، حيث يكون مؤمناً حقًّا، ومسلماً تقياً!!!.

وهذا أهمُّ ما يجبُ اعتبارُهُ في صحّة الزّواج من الكتابية، أن يكون الزوجُ أسوةً حسنةً لزوجته، فما من مسلم إلاّ ويجبُ عليه أن يلتزم بالإسلام التزاماً متكاملاً، وهذا ما يُحببُ الإسلامَ لغير المسلمين، وعلى الأخص «الزّوجة الكتابية»!!! ومن وراء هذا يكون الرجاءُ كبيراً في إسلامها!!.

وهذه هي الغايةُ الكبرى من «زواج المسلم بالكتابية» لإدخال الإسلام إلى كلِّ بيتٍ، من بيوت الكتابيين، ولو عن طريق المصاهرة والقرابة؛ وهذا ليكون الاحتكاك بالإسلام من أقرب الطّرق «طريق القرابة الأُسريّة»!.

وكونُ الإسلام ديناً «عالمياً» يجبُ على جميع النّاس أن يدخلوا في رحابه، وينالُوا شرفَ الانتسابِ إليه، ويجبُ على المسلمين أن يُبلِّغوا دعوتَهُ، وأنْ يكونوا دُعاةً إليه بعقيدتهم وأخلاقهم وآدابهم وسلُوكهم، وهذا ما فعله أصحاب رسول الله ﷺ، حينَ انطلقوا فاتحين، ففتَحُوا قلوبَ العباد، قبل فتح أبواب البلاد، فدخلَ النّاسُ في دين الإسلام أفواجاً!!!.



الفصل الثاني
البناء الزّوجي في أطواره الأولى

البحـث الأول: العقد المبارك وآدابه.

البحث الثّاني: وصيّـة الشّاب قبل زفافه إلى عروسه.

البحث الثّالث: آداب العرس ومستحبّاته.

البحث الرّابع: ليلة الزّفاف ليلة العمر.

البحث الأول:

العقد المبارك وآدابه

بعد أنْ تمَّ اختيارُكَ لشريكة حياتكَ، وقرينة عمرك على أسس الإسلام الحنيف تبدأ بعد ذلك بعون الله في المرحلة الإيجابية وهي عقد الزّواج.

ويقصد بعقد الزّواج حِلُّ استمتاع كلّ من الزّوجين بالآخر على الوجه الشرعي الذي ارتضاه الله ربّ العالمين لخلقه من الجنس الإنساني، وذلك لتأمينِ السَّكن النّفسي، وإنجاب الذّرّية الصّالحة، والتّعاون على إنجاب أولاد يكوّنون أسرةً جديدةً في المجتمع البشري.

وهذا العقد من أخطر العقود وأهمّها في نظر الإسلام، لِما يترتّب عليه من حقوق وواجبات وله أحكام في الإسلام سوف أحدثك عنها.

فلكي يكون الزّواجُ إسلامياً فلا بدّ من وجود وليّ الزّوجة أو وكيلها، ووجود الزّوج أو وكيله، وشهادة شاهدين من المسلمين.

أمّا شروط وجود ولي الزّوجة فلأن المرأة لا يحلُّ لها أن تُزوِّجَ نفسَها، ولو كانت بالغةً رشيدةً، فقد تسيطر عليها شهوتها فتضع نفسها فيما يُضيّع حقَّها، فلا بدّ من أن يتولى أمر زواجها أقربُ النّاس إليها من الرّجال المسلمين العاقلين مصداقاً لقول النّبيّ ﷺ: «لا نكاحَ إلاّ بِوَلي»[1]. فإن خالفت فالزّواج باطل. وكذلك لا ينعقد عقد الزّواج إلا إذا حضره ذكران عاقلان بالغان مسلمان، متصفان بالعدالة لقوله ﷺ: «لا نكاح إلا بوليّ وشاهديْ عدلٍ»[2].

ويشترط أن يسمعا ممّا يدل على صيغتي الإيجاب والقبول من الزّوج، وولي أمر

---

(١) حديث صحيح.

(٢) صحيح الجامع الصغير برقم ٧٥٥٧.

الزّوجة، وذلك حتى تحفظ الحقوق، وتصان الأنساب، فالعلاقة الزّوجية علاقة اجتماعيةٌ ولا بد للمجتمع أن يقرها، ويشهدها ويشهرها.

الخِطبة قبل العقد:

ويستحب أن تُقال خطبةٌ بين يدي عقد الزّواج، فيها تذكير بتقوى الله وملازمة مراقبته سبحانه وقد جرى العُرف بها ويتولاها «المأذون» ويمكن أن يتولاها ولي الزّوجة، أو الزّوج أو وكيل الزّوج، أو أحد الحاضرين، وصيغتُها كما جاءت في سنن أبي داود والترمذي وابن ماجة عن جابر بن عبد اللّه رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يُعلمنا خطبة الحاجة كما يُعلّمنا السورةَ من القرآن يقول: «إنّ الحمدَ لله نحمَدُهُ، ونستعينُهُ ونستغفِرُهُ، ونعوذُ بالله من شرورِ أنفسِنَا، ومن سيّئاتِ أعمالِنَا، من يهدِهِ الله فلا مُضِلَّ له، ومَنْ يُضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحدَهُ لا شريكَ لهُ، وأشهد أنّ محمّداً عبدُهُ ورسولُهُ. أما بعدُ، فيقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٠٢﴾[1].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ١﴾[2].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ٧١﴾[3].

وبعد ذلك تجري صيغة عقد الزّواج وهي قول وليّ الزّوجة للزّوج: زوجتُكَ ابنتِي، فيقُول الزوج: قبلتُ منك زواجَها لنفسي، مع ذكر المهر في صيغة العقد.

ولتأكيد العقد ينبغي أن يضع الزّوج يده في يَدِ وليّ الزّوجة عند العقد.

الدعوة لحضور العقد المبارك:

ومن مستحبات عقد الزّواج دعوة الأهل والأصدقاء والجيران والأحباب ليحاط

---

(١) سورة: آل عمران، الآية: ١٠٢.
(٢) سورة: النساء، الآية: ١.
(٣) سورة: الأحزاب، الآيتان: ٧٠ ـ ٧١.

بمظاهر البهجة والسّرور. كما أنّه يستحب توزيع الحلوى أو شيء من المشروبات الحسنة، لِما ورَدَ في السّنّة أنه ﷺ نثر تمراً على الذين حضروا عقد زواج ابنته فاطمة في المسجد، وكان من مظاهر السّرور تسابق الصحابة رضوان الله عليهم على جمع هذا التمر.

وبعدها يستحب للجميع أن يدعو لكل واحد من الزّوجين بما ورد عن نبيّ الأُمّة ﷺ كأن يُهنىء الزّوج ويقول له: بَارَكَ الله لكَ، وبارَكَ عليكَ، وجمعَ بينكُمَا في خيرٍ. أو أن يقول له: باركَ الله فيكُمْ، وبارَكَ عليكُمْ. ويُستحب أن يكون الدعاء بعد إتمام العقد.

فإذا تم العقد استُحب تعجيل الزّواج، ما دامت الزّوجة قد نَمَا بدنُها وأصبحت صالحةً للزّفاف، ولم تكن هناك أعذار تدعو إلى التّأجيل.

نصائح للعروسين قبل الزّفاف:

هذه عدّةُ نصائح أهديها إلى الفتاة المسلمة قبل الزّفاف، لأنّها مقبلةٌ على حياة جديدةٍ لم تألفها من قبلُ. فلا بدّ من توجيه بعض النّصح تذكرةً لها، وحباً في سعادتها مع شريك حياتها.

وإنني لأعرف أن عدداً من الأمهات يسئن إلى بناتهنّ، وإلى حياتهن المقبلة أشد الإساءة بما يُقدمْنَ لهُنّ من نصح عقيم، وتوجيهٍ سقيم: ألم نسمعْ عن تلك الأم التي تحذر ابنتها من الزّوج، مؤكدة لها أنّه لا أمان له، إلى غير ذلك من الأفكار والهواجس، فبدلاً من أن تُوجه ابنتها إلى الخير، وتبعث في نفسها حبَّ زوجها وحياتها المقبلة، تجد تلك الأم الجاهلة تسمع فتاتها تحذيرات باطلة قد تكون سبباً في فساد حياتها، وفي بغضها لزوجها، والعياذ بالله من ذلك.

أختي المسلمة! اقرئي وصية أسماء بنت خارجة امرأة عوف الشيباني، إلى ابنتها قبل زفافها، تجدي فيها كلمةً جامعةً لأصول المعلومات الزّوجية، والآداب التي يجب أن تتحلّى بها كل فتاة مقبلة على الزّواج.

تقولُ أسماء لابنتها:

«أيْ بنيّـة! إنّ الوصية لو تركت لفضلِ أدبٍ لتركتُ ذلك منك، ولكنّها تذكرةٌ للغافل، ومعونة للعاقل، ولو أن امرأة استغنت عن الزّوج لغنى والديها وشدة حاجتها إليها كنت أغنى النّاس عنه، ولكنّ النّساءَ للرّجال خُلِقْنَ، ولهنّ خُلِقَ الرّجالُ.

أيْ بنيّة! إنّك تفارقين بيتَكِ الذي منه خرجتِ، وتتركين عشّكِ الّذي فيه درجتِ، إلى رجلٍ لم تعرفيه، وقرين لم تألفيهِ، فكُوني له أرضاً يكنْ لك سماءً، وكُوني له مهاداً يكن لك عماداً، وكُوني له أمةً يكن لك عبداً، واحفظي له خصالاً عشراً يكن لك ذخراً.

أمّا الأولى والثانية: فالخشوعُ له بالقناعة، وحُسْنُ السّمع والطّاعة.

وأما الثّالثة والرّابعة: فالتفقد لموضع عينه وأنفه، فلا تقع عينُهُ منكِ على قبيح ولا يشمُّ منكِ إلاّ أطيبَ ريح.

وأمّا الخامسة والسّادسة: فالتّفقد لوقت منامه وطعامه، فإن الجوع ملهبة، وتنغيص النوم مغضبة.

وأمّا السّابعة والثّامنة: فالاحتراس بماله، والإدعاء على حشمه وعياله، فملاك الأمر في المال حُسْن التّقدير، وفي العيال حُسْن التّدبير.

وأما التّاسعة والعاشرة: فلا تعصين له أمراً ولا تُفشينَ له سرًّا، فإنّك إنْ خالفتِ أمرَهُ، أوغرتِ صدرَهُ، وإن أفشيتِ سرَّهُ لم تأمني غَدْرَهُ.

ثم إيّاكِ والفرحَ بينَ يديهِ إن كان تَرِحاً، أو التّرحَ بينَ يديه إنْ كان فرِحاً، فإن الخصلة الأولى من التقصير، والأخرى من التّـكدير.

وكُوني ما تكونين له إعظاماً، يكنْ أشدَّ ما يكون لكِ إكراماً، وأشدَّ ما تكونين له موافقةً، يكنْ أطولَ ما يكون لك مرافقةً.

واعلمي أنك لا تصلين إلى ما تُحبين حتى تُؤثري رضاهُ على رضاكِ، وهوَاهُ على هواكِ فيما أحببتِ أو كرهتِ، والله يخيرُ لكِ».

وما أجملَ أن تزود كلُّ أمٍّ عاقلةٍ ابنتَها بمثل تلك الآداب القيّمة والنّصائح الغالية الفاضلة!.

أختي المسلمة:

افهمي حياتَكِ جيّداً، ولا تصدقي نصائح الجهلاء، فالجهل ظلام فتّاك، ووحش مفترس. وخُذي النّصح من أفواه العقلاء من أهل البصيرة حتى يمنّ الله عليكِ بالسعادة في حياتِكِ المقبلة.

فلا تحاولي السّيطرة على زوجِكِ، وتذكّري دائماً أن عقد الزّواج يمنح الزّوجة حقَّ مقاسمة الزّوج حياتَهُ، ولكنّه لا يمنحها حقَّ السّيطرةِ عليه، والرجل يحب دائماً المرأة التي تحترمه وتُوقِّرُهُ.

قاسمي زوجَكِ أفراحَهُ وأحزانه، وآمالَهُ وأحلامَهُ، واحرصي على ألاّ تمتهني كرامته حتى لو كان بينَكِ وبينَهُ، فالرجلُ يفتخر بينَه وبينَ نفسه بكرامته ولا يستطيع أن يعيش بدونها.

تنبّهي أختي المسلمة! إلى حقيقةٍ تغفل عنها كثيراتٌ من الفتيات، وضعِيها نُصبَ عينيكِ؛ وهي أن تضعي في تقديرك أن حياتَكِ الاقتصادية في بيتِك الجديد تختلف اختلافاً كلياً عن حياة أهلك وأبويك، فلا تقارني حياتك مع زوجك بحياة أسرتك التي عاشت ردحاً من الزمن تُكوّن وتُنظّم بيتّها، واعلمي أن العش يبدأ صغيراً ثم يكبر يوماً بعدَ يوم حتى يقوم على دعائم قوية وأركان متينة.

فعلى بركة الله ابدئي حياةً جديدةً، ونعم اليوم، يوم زفافِكِ لزوجِكِ الذي تُحبين لتعيشا حياةً مباركةً سعيدةً، متعاونين فيها على التّفاهم والإقناع، فإن الحياة تحتاج إلى صبر ومصابرة، وما ذلك عليكما بعزيز.

وأخيراً أتمنّى لك توفيقاً وسداداً في حمل الرسالة السّامية التي كلّفك الله القيامَ بها، فإنّها نعم الرسالة ونعم الأمانة.

البحث الثّاني:

وصيّـة الشّاب قبل زفافه إلى عروسه

ولـم أنـسَ أن أهمـس في أذن الشـاب المسلـم، مسـدياً إليـه بعـض النّصـائـح والإرشادات ولعلّي أوفّق بتزويده ببعض التّوجيهات التي قد يكون في حاجة إليها.

إنّ الحياة الزوجية من أخطر المراحل التي يعيشها الإنسان، فهي تنقل الشّاب من حياة النّعومة التي كان يحياها إلى حياة كلها كفاح ومسؤولية ورجولة.

فيا أخي الشاب المسلم!

اعلمْ أنّك ستصبح مسؤولاً عن أسرةٍ تعيش تحتَ حمايتك ورعايتك، وتفخرُ بحبّك ورجولتك، فإنْ فرّطتَ في تلك المسؤولية أو فشلت في تحمل أعبائها، فإنّك بذلك تكون غير جدير بحياة ناجحة كريمة، فعلى قدر نجاحكَ في الحياة الزّوجية يكون نجاحُك في مستقبلك، فعليك إذنْ أن تُقبل على الحياة الزّوجية مُقدّراً مسؤوليتها، فليستِ الزّوجيّة لهواً أو تسليةً أو متعة، وإنّما هي حياةُ جدٍّ وعملٍ من أجل مَنْ تعُولُهم!.

ثم اعلمْ أن زوجتكَ وديعةٌ عندكَ، فاتّقِ الله فيها، وعامِلْها بأسلوب حسنٍ، وخُلُقٍ طيّب، وسلوكٍ مهذّبٍ جميل، فإنّك بذلك سوف تحظى بحبها وحبّ أهلها لكَ، وخُذْ إليك هذه الحادثة: فقد خطب صعصعة بن معاوية إلى عامر بن الظرب حكيم العرب ابنته «عمرة» فقال: يا صعصعة! «إنّك اشتريتَ منّي كبدي فارْحَمْ ولدِي، فيلتكَ أو رددتك، والحسيبُ كفءُ الحسيب، والزّوج الصّالح أبٌ بعدَ أبٍ، وقد أنكحتُك خشيةَ ألاّ أجد مثلَكَ». فهذه الحادثة تدلّ على حبّ أهل زوجتك لك إذا أكرمتَ ابنتَهُمْ وأعززتَها. وخُذِ العِظة من حكمة الحكماء، وأفواه الفصحاء. فقد خطب عثمان بن عنبسة بن أبي سفيان إلى عمّه ابنته، فأجلسه بجانبه وأخذ يمسح على رأسه ثم قال: «أقرب قريبٍ، خطبَ أحبَّ حبيبٍ، لا أستطيعُ له ردّاً، ولا أجدُ من إسعافه بُدّاً، قد

زوجتُكُمَا وأنتَ أعز عليَّ منها، وهي ألصقُ بقلبي منكَ، فأكْرِمْهَا يَعْذُبُ على لساني ذكرُكَ، ولا تُهِنْهَا فيصغر عندي قدرُكَ، وقد قربتُك مع قربك، فلا تبعدْ قلبي من قلبِكَ»!.

الزّوج النّاجح الهادىء الأعصاب:

وعليكَ منذُ اليوم الأوّل أن تقدر أنّك مُقْدِمٌ على بناء أسرةٍ، وإنجاب أولادٍ فكن الشّاب المتّزن في تصرفاته، البعيد عن الغلو والشطط. ويجب أن تكون وبخاصّة في الفترة الأولى من الزّواج هادىء الأعصاب، طويل الأناة والحلم، فلقد ثبتَ أن بعض الأزواج ينتهي بالفشل في الفترة الأولى من الزّواج لاصطدام خُلُق كلٍّ من الزّوجين، وإصرار كليهما على السلطة والزعامة، فدع أخي المسلم هذه الفترة تمر بسلام حتى يدرس كلٌّ منكما صاحبَهُ، ويعرف كل واحدٍ طباع الآخر، وأهم ما أوصيك به تقوى الله في كل صغيرة وكبيرة، فأقبلْ على زفافِكَ وحياتِك بروحٍ متفائلةٍ، ونفسٍ راضيةٍ.

أجمل الليالي ليلة الزّفاف:

لعلّ من أفضل ليالي العمر وأحلاها، وأجملها وأغلاها تلك اللّيلة التي تُسمى بليلة الزّفاف، ففيها تهنأ العروس بزوجها، ويهنأ هو بشريكة حياته، فقد جمع الله في تلك اللّيلة شمل حبيبين طالما انتظرا في شوق وتعطّش إلى هذا اللّقاء والرّباط فقد أحسّ كلٌّ من العروسين أن سعادته التي ينشدها في طريقها إليه، وأن العطش الذي يضم قلبين حبيبين سترفرف عليه أعلام السعادة بعد لحظات.

وأودُّ أن أضع بينَ يدي الشّاب المسلم، والفتاة المسلمة والمجتمع المسلم المنهج الذي وضعه الإسلام في آداب الزفاف، وهي في البحث التّالي.

المبحث الثّالث:

آداب العرس ومستحبّـاته

من المعروف عندَ أهل العلم والبصيرة أنّ الإسلام أباح في الأفراح أنواعاً من اللّهو المباح الذي ليس فيه تهتك ولا رذيلة، ومن هذه الألوان التّرفيهية المباحة التي شرعها الإسلام الحنيف ما وضعه في حفلات الزّفاف، وليالي الأعراس!!.

فقد رخصتِ الشّريعة في مناسبات الأفراح بشيئين:

١ ـ الضّرب على الدّف.

٢ ـ الغناء المنزّه عن القبح والخلاعة.

أمّا الضرب على الدف فقد وردت فيه أحاديث عن المصطفى ﷺ تبيّن جوازه بل والدعوة إليه، فقد روى أحمد والترمذي وحسّنه عن عائشة رضي الله عنها عن النّبيّ ﷺ قال: «أعلِنُوا هذا النّكاح واجعلوهُ في المساجد، واضْربُوا عليه بالدّف»[١].

وروى الترمذي والنسائي عن محمد بن حاطب عن النّبيّ ﷺ قال: «فصلُ ما بينَ الحلالِ والحرامِ ضربُ الدّف، والصّوتُ في النّكاح»[٢].

وأما إباحة الغِناء في العرس فهو من سماحة الإسلام الغالية، فقد كره هذا الدّين الحنيف أن يمر حفلُ الزفاف صامتاً أخرس، فسنّ الغناء المهذّب الأصيل، ونهى عن كل ما يثير الغرائز ويُهيج الشُّعور.

فقد قال الفقهاء في حكم إباحة الغناء: يُباح الغناء إذا كان لبعث الهِمّة على العمل الثقيل، أو التّرويح عن النّفس أثناء قطع المفاوز كالارتجاز، فقد ارتجزَ النّبيّ ﷺ وأصحابُه رضي الله عنهم في بناء المسجد، وحَفْرِ الخندق، وكالشعر السالم من الفُحش،

---

(١) لكن في سنده ضعف، ضعيف الجامع الصغير برقم ٩٦٦.

(٢) صحيح الجامع برقم ٤٢٠٦، وإسناده حسن.

ووصف الخمر وحاناتها، وكالحداء الذي يحدُو به الأعرابُ إبلَهم، وكغناء النّساء لينام الأطفال، ومنه الغزل البريء كالذي يقوله النساء في الأفراح، ولا رجال يسمعوهُنّ.

فقد روى البخاري وأبو داود والترمذي عن الرُّبَيِّع بنت معوذ قالت: «جاء النّبيّ ﷺ فدخل حينَ بُنِيَ عليَّ فجلس على فراشٍ كمجلسك هذا، فجعلتُ جويراتٌ لنا يضربْنَ بالدُّفِّ ويندبن مَنْ قُتِلَ من آبائي يومَ بدرٍ، إذْ قالت إحداهُنّ: «وفينَا نبيٌّ يعلمُ ما في غدٍ» فقال دعي هذه وقولي بالذي كنتِ تقولين»!.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: إنّها زفتِ امرأة إلى رجلٍ من الأنصار فقال نبي الله ﷺ: «يا عائشة! ما كانَ معكُمْ مِنْ لهوٍ، فإنّ الأنصار يُعجبهم اللّهوُ؟!»[1].

وعن عامر بن سعد قال: «دخلت على قرظة بن كعب وأبي مسعود الأنصاري في عرس وإذا جوارٍ يغنينَ، فقلتُ: أنتما صاحبَا رسول الله ﷺ من أهل بدر يُفْعَلُ هذا عندكم؟! فقالا: اجلس إن شئتَ، فاسمع معنا، وإنْ شئتَ فاذهب، فقد رُخِّصَ لنا في اللَّهو عندَ العرس».

فيا ترى هل طبّقَ المسلمون ما أراده الإسلامُ لهم في أفراحهم وأعراسهم؟!.

إنّ الحقيقة والواقع يُجيبان بالنّفي. ذلك أنّ كثيراً من أفراح المسلمين قد دخلتها منكرات لا يقرها الإسلامُ، ولا يرضَاهَا نبي الأُمّة وسيّدُ الأنام ﷺ. ومن ذلك اتخاذ المغنيات العاهرات، والراقصات الفاجرات يرقصن برقصات خليعة تثير الغريزة، وبأفعال يندَى لها الجبين. ومن منكراتها كذلك اختلاط النّساء بالرّجال بطريقة لا يرضاها الشّرع حيث إنّ المرأة تخرج من بيتها وتذهب إلى الأفراح متبرّجة متزيّنة متعطرةً، بل إنّ بعضهنّ يرقصن وسط الرّجال بحضور أزواجهنّ، أو إخوانهنّ أو أبنائهنّ، ولا تسمع منهم غيرة ولا كلمة توجه إلى من يهمهم أمرهم؟!.

لقد أباحَ الإسلامُ الغناء في الأفراح، ولكنّه وضع له القيودَ التي لا يجوزُ لمسلم ولا لمسلمة أن يتعدّاها أو يحيدَ عنها، حتى لا تنزلقَ الأقدامُ في الإثم، ولا تتخبط الأمّة في الميوعة والانحلال.

---

(١) كتاب الزّفاف للشيخ ناصر الدين، ص ٩٤.

البحث الرابع:

ليلة الزفاف ليلة العمر[1]

هي ليلة العمر كما يسميها الشّباب. والواقع أنها ليلة مباركة حُلوة في حياة الأسرة ينبغي أن تذكر كل عام، لتراجع إنجازات الأسرة من الأحلام التي كانت تناط بالزّواج وتؤجل إلى اللّيلة الأولى من الالتحام الأخويّ، كما ينبغي أن يكون لها تمهيدات وتحاط بآداب. أمّا التّمهيدات لها فطويلة، تبدأ من اختيار كل من العروسين رفيقه على قاعدةٍ من التّكافؤ والتّدين، والتّوافق الطبعي، فيرى كلٌّ شريكٍ حياته رؤية تقنعه نفسياً وعاطفياً، في غير تبذّل من الفتاة ولا خروج عن آداب الشّرع.

فإذا ارتضى كلٌّ من العروسين رفيقه كانت الخِطبة الرّسمية. ومن آدابها خُطبة يذكر فيها مآثر كل من الزّوجين وأهليهما، بعد اتفاق على المهر، وبعد تعرف كل من العروسين ـ بطريق مباشر وغير مباشر ـ على طبيعة عمل الزّوج وعاداته ومستواه العلمي والمالي والطبقي، في المجتمعات التي لا تزال تعباً بالطبقية، فإذا كان الزّوج متعلّماً ومتديناً كان كفؤاً لكل زوجة من أي مستوى طبقي تكون، لأنّه لا أشرف من نسب العلم والدّين!!.

لا يُقال: يجب الاختلاط الطويل وإتاحة الفرصة للخطيبين كي يتعرّفَا منفردين على بعضهما تعرفاً على أوسع نطاق فهذه مغالطة. إذ انفرادهما يجعل الشيطان ينفخ فيهما النّزوات ويُهيّج الحب الجنسي. والحبُّ يُعمّي ويُصمّ، فلا يكون معه تعرّف على شيء. وإذا تمت الخِطبة، وجاءت ليلة انتقال العروس إلى بيت زوجها، فإن الإسلام لا يغفل الجوّ النّفسي بالمشاعر والعواطف والخواطر، فيحاول ملء هذا الجو بجوٍّ آخر يشيع فيه السّرور والبِشْرُ، حتى تبدو الحياة الزّوجية في بداية متفائلة راضية.

---

(١) المرأة في التصوّر الإسلامي: لعبد المتعال محمد الجبري ٧٣، ط مكتبة وهبة ـ القاهرة.

ومن الآداب الصرعية في هذه المناسبة السارّة:

١ ـ **الوليمة**: ومن سنّة الإسلام الوليمة كما في الحديث «أوْلِمْ ولو بشاةٍ»[١]. وإذا لم تـتيسَّرْ فأقل شيء يكفي، فقد أولم رسول الله على زوجته صفيّة بسويقٍ وتمرٍ!!.

ويتحاشى أن تكون الوليمةُ على مستوى رفيع من اللحوم والحلوى والفواكه، يُحْرَمُ منها الفقراءُ كما في الحديث: «بئس الطّعام طعامُ الوليمة، يُدْعى لها الأغنياء ويُـتركُ الفقراءُ»[٢]. ومهما يكن فلا أقل من غذاء طيب للزوجين.

٢ ـ **إعلان النكاح**: ويكون هنالك إعلان عن الزّواج إذا لم يتم في يوم عقد القِرَان، كما في الآثار: «أعلِنُوا النكاح ولو بالدّف»، والسّمر البريء مقبول وليس مشروطاً، والغناء مقبول ما لم يكن فاحشاً في موضوعه أو في طريقة الأداء، أو في طريقة السّماع كالاختلاط المحرّم شرعاً. فإذا اختلط الجمعان وفيهم امرأة واحدة سافرة وجب فضّ الجمع وقصر الحفل على النّساء.

ولا يجوز أن تكون الوليمة وحفل السمر إلاّ من فائض عن حاجة العروس، وبما لا يرهقه ويجعله يمدّ يدَهُ للآخرين، ففي الحديث: «اليدُ العُلْيَا خيرٌ من اليَدِ السُّفْلَى»[٣].

٣ ـ **الثياب الجميلة والعطر الطيب**: ويلبس أفضل الثياب، والحلق وإزالة ما يجب إزالته من الشعور وطول الأظافر.

٤ ـ **الطهارة الشرعية**: تكون ليلة الزّفاف في غير أيام حيض الزّوجة. فإنْ وطأها في الحيض حَرُم ويكفّرُ عن ذلك بدينارٍ.

٥ ـ **بدء ليلة الزفاف بالعبادة**: فإنّه يستحب له أن يُصلي هو وإيّاها ركعتين، فإذا لم يكونا قد صليا العشاء صلياها في جماعة. ثم يحمدان ربّهما ويصليان على النّبيّ وعلى آله وصحبه، ويدعو العروس وتُؤمّنُ زوجتُه على دعائه قائلاً: اللّهمّ ارزقني إلْفَها

---

(١) صحيح البخاري برقم ٢٠٤٩ و٣٧٨١.
(٢) ضعيف الجامع الصغير برقم ٢٣٥٣.
(٣) الجامع الصغير برقم ٨١٩٥.

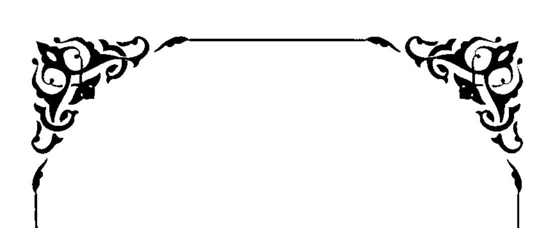
وودَّها، ورضَاها لي، وأرضني بها، واجمعْ بيننَا بأحسنِ اجتماع، وأيسرِ ائتلاف. فإنّك تحب الحلالَ وتكره الحرامَ.

وقال بعض الصالحين لبعض أصحابه: إذا دخلت على عروسك فخُذْ بيدها واستقبل القبلة قائلاً: اللَّهمَّ على كتابك تزوجتُها، وبأمانتك أخذتُها. فإنْ قضيتَ لي منها بولدٍ فاجعلْهُ مباركاً تقياً ذكياً. ولا تجعل للشيطان فيه شريكاً ولا نصيباً.

«اللَّهمَّ إنّي أسألُكَ خيرَها وخيرَ ما جبلتَها عليه، وأعوذُ بك من شرّها وشرِّ ما جبلتَها عليه»[1] وهو حديث صحيح.

---

(١) سنن أبي داود برقم ٢١٦٠، وسنن ابن ماجة برقم ٢٢٥٢.



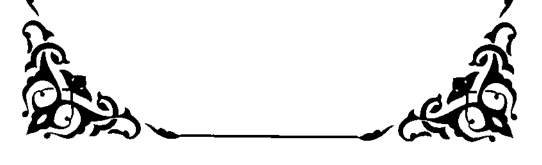
الفصل الثالث
الحياة الزوجية وحقوقها

البحـث الأوّل: مُستهل الحياة الزّوجيّة.

البحث الثّاني: حقوق الزوجة على زوجها.

البحث الثّالث: من حقـوق الزّوجـة على زوجـها تحمّل أخطائها والرّأفة بها.

البحث الرّابع: حقوق الزّوج على زوجته.



البحث الأول:

مستهل الحياة الزّوجيّـة

التّوافق بين الزّوجين أساسُ الحياة الأُسريّة!.

قد يكون الزّوجان ـ باديَ بدءٍ ـ متوافقين فكرياً، ووجدانياً، ثم يظل هذا التّوافق ناشراً بينهما ظلال السعادة الوارفة، والبهجة الغامرة.

بيدَ أنّ هذه الصّورة ـ على ما بها من روعة وبهاءٍ، صورة نادرة.

فما أكثر ما ترينا النّظرة الواقعية إلى الحياة الزّوجية ألواناً من النّفور والشقاق يمكن في أكثر الأحيان علاجها وتحملها، أو تفاديها ودرؤها مهما كانت الشقة فيها واسعة، أو الجرح فيها غائراً، أو الإحساس بالألم فيها عميقاً موجعاً؟!.

وقد يكون الخلاف ـ أحياناً ـ من النّوع المدمّر الذي تعصف رياحه بجميل الأمل، وشراع الوفاق، حين يمس الحياةَ الزّوجية في صميمها وقيمها، فيأتي على بُنيانها من القواعد، فتتهدّم أركان الأسرة.

وستكون المحاولة هنا أنْ نميّز هذا من ذاك، وأن نضع الأيدي على كثير من ألوان الشقاق التي يمكن علاجها، ذاكرين أسباب تأتّيها، ووسائل تفاديها، آملين أن يكون في هذا العرض السّريع بعض ما يمكن من رأب للصدع، ورتقٍ للفتق، وجمعٍ للشّتات، والله المستعان.

نُشوء الخلاف وتكييفه بالعلاج الصّحيح:

ونشوء الخلاف بينَ الزّوجين أمرٌ طبيعي، سيما ولكلٌ من الزّوجين في حياته الأولى، أنماطه السّلوكية التي ألفها، وعاداته التي درج عليها، ومفاهيمه التي يرى الأشياء في ضوئها، ومزاجه الذي يُواجه به المواقف المختلفة. فضلاً عن ثقافته وبيئته ووراثته، وما إلى ذلك من الأحوال.

وهي أمور تجعل الخلاف أمراً معقولاً غير مستغرب. ومن هنا يحتاج كل منهما إلى أن يبذل جهداً غير قليل، بل غير موقوت في سبيل التكيف الزوجي، أي في سبيل أن يقارب بينَ ذاته وبين شريك حياته فكرياً ووجدانياً، كما يُقارب بينه وبينه جسمياً وحسّياً حتى يتأدى بهما هذا التكيّف الذي يسعيان إليه معاً إلى نوع من التوافق يسيران ـ بعد ـ على مناهجه، ويعيشان في ظلاله، ويعالجان ما يطرأ بينهما من مشاكل في ظل حياطته، وضوء هدايته!.

الخطأ ومواجهته:

ولا ريب في أن كلاًّ منهما سيتعرض في هذه الفترة لضروب من المحاولة والخطأ، ولا تتمثل المهارة وقتئذٍ في أن يتهرب كلٌّ منهما من تلك المواقف، أو يبرع في إلقاء تبعتها على الآخر، أو يعتقد ـ خطأ ـ أن الوقوع في الخطأ أمر مشين. فالشّجاعة تحتّم على المرء أن يجابه تلك المواقف، ويكيّف نفسه بما يلائمها. والمروءة توجب عليه أن يعترف بخطئه، ويتحمّل وِزْرَ نفسِهِ، فلا تزرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخرى؟ والحصافة تقتضيه أن يصحح موازينه، ويقوّم عقليته. وليسَ يعيب المرء أن يخطىء، ولكن يعيبه أن يكرر الخطأ ذاته دون أن يحاول الإفادة منه، وإبداء الرغبة الصّادقة في تجنبه وتلافيه.

وكيف يكون الخطأ في ذاته عيباً، وهو إحدى مقوّمات الشّخصية فيمن ارتضاه المرء شريكاً؟ بل وفي المرء ذاته، باعتبار أنّه بشر لا تخلو طبيعته من ضعف أو قصور؟.

إن الخطأ ما دام المرء آخذاً في أسباب علاجه وتوقيه، لا يُنافي إنسانيتَهُ ولا عنوانه العام في المجتمع، ولا يحول دون جزائه جزاء العاملين الذين يمحو الله خطايَاهُمْ، ويُبدّل سيّئاتهم حسنات!؟.

ولو كان الخطأ أمراً مشيناً في ذاته لما كان للمخطىء شيء من هذا مهما فعل، ولكنّ القرآن الكريم يحدّثنا أن المتّقي قد يخطىء، وأن هذا الخطأ لا يرفع عنه شرفَ التّقوى، ولا يحول دون جزائه جزاءَ المتقين ما دام يُعالج خطأَهُ، ويستغفِرُ ربَّـهُ، وذلك في الآيات التّالية: ﴿ ۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ

أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾﴾[1]. ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾[2].

ومَنْ ذَا الذي تُرْضَى سجايَاهُ كلُّها كفَى المَرْءَ نُبْلاً أن تُعدّ معايبُهُ

على أنّ الحياة الزّوجية صورة مصغرة من هذا الوجود المتغيّر، فأيّ عجبٍ في أن يتعاقب فيها الألَمُ والأمَلُ؟ والخطأ والصّواب؟ كما يتعاقب فيه اللّيل والنّهار، والشّتاء والرّبيع؟.

وقد أرشد الحقُّ تبارك وتعالى إلى طبيعة الإنسان، وإلى إمكانية خطئه حين قال: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾﴾[3] وحينَ حكىٰ عن يوسفَ عليه السلام قوله: ﴿۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ﴾[4].

وأشار النّبيّ ﷺ إلى ذلك حينَ قال: «كلُّ ابن آدم خطّاءٌ، وخيرُ الخطّائين التّوّابُون»[5].

وحين أوصى بالنّساء خيراً، وبمعاملتهنّ على أساس تفهم طبيعتهن وما تقتضيه من رعاية واحتمال، وكيف ناشدنا الله في ذلك، وقرَنَ وصايتَهُ بهنَّ بوصايته بالصّلاةِ - وهي ما هي! - إذْ يقول: «الصّلاةَ الصّلاةَ وما ملكتْ أيمانكم، لا تكلفوهم ما لا يطيقون، والله الله في النّساء. فإنّهنّ عَوانٌ في أيديكم، أخذتُمُوهُنّ بعهدِ الله، واستحللتُمْ فروجَهُنّ بكلمة الله»[6]. وكان هذا كما روى آخر ما أوصى به ﷺ وقد ظلَّ

(١) سورة: آل عمران، الآية: ١٣٣.
(٢) سورة: آل عمران، الآيات: ١٣٤ - ١٣٦.
(٣) سورة: النساء، الآية: ٢٨.
(٤) سورة: يوسف، الآية: ٥٣.
(٥) سنن الترمذي برقم ٢٤٩٩، وهو حديث حسن، صحيح سنن الترمذي برقم ٢٠٢٩.
(٦) مسند أحمد ج ٦/ ٢٩٠ و٣١١، و٣١٥، و٣٢١، والمستدرك للحاكم ج ٣/ ٥٧، والبغوي ج ١/ ٥٢٤.

يتكلّم به حتى تلجلج لسانه وخفي كلامه. وقد روى الشيخان وغيرهما قوله ﷺ: «مَن كان يُؤمنُ بالله واليوم الآخر فلا يُؤذي جارَهُ»[١]. وقال ﷺ: «استوصُوا بالنّساء خيراً، فإنّ المرأةَ خُلقتْ من ضلع أعوج، وإنّ أعوجَ ما في الضّلع أعلاهُ، فإنْ ذهبتَ تُقيمه كسرتَهُ، وإنْ تركتَهُ لم يزلْ أعوج، فاستوصُوا بالنّساء خيراً»[٢].

وقيل: معناه أنّ في طبع المرأة عوجاً في صلابة خلقية، لحكمة في ذلك، فهي كالضّلع في عوجه وتقوسه لحكمة، فيجب على الرّجل أن يحاول تقويم هذا العوج بالحكمة، وأن يستوصي بها خيراً على ما هي عليه ممّا هو طبع لها. ولا غرو أن تعتبر معاملة المرأة بما يُناسبها من لطفٍ وعطفٍ وكياسةٍ، وكرمٍ واحتمال، مظهراً لخيرية المرء. مُفْصِحاً عن مَعْدَنِه. يقول النّبيّ ﷺ: «خيرُكم خيرُكم لأهلِه، وأنا خيرُكم لأهلي»[٣]. ويقول ﷺ: «أكملُ المؤمنين إيماناً أحسنُهم خُلقاً، وخيارُكم خيارُكم لنسائهم»[٤]. ويقول ﷺ: «إنّ من أكمل المؤمنين إيماناً أحسنُهم خُلقاً، وألطفهم بأهله»[٥].

ولعلّ هذا هو مناط أمره سبحانه بمعاملتهن بالمعروف في مواطن كثيرة من الكتاب العزيز، في مثل هذه الآيات الكريمة: ﴿فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ﴾[٦] ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾[٧] ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾[٨]. وحين يعامل المرء زوجه على هذا الأساس يغدو الخطأ أمراً متقبّلاً محتملاً.

بل لعلّ ذلك يحمل على التجاوز عن كثير من الهنات التي كان من الممكن أن تتضخم، وتستفحل معها آثارها لو لم يضع المرء في حسابه إمكانية الخطأ ـ على ما قدمنا ـ وما يقتضيه ذلك من علاجٍ حكيم، وتحمّل رحيبٍ.

---

(١) صحيح البخاري برقم ٦٤٧٥، وصحيح مسلم برقم ٤٨.
(٢) صحيح البخاري برقم ٣٣٣١ و٥١٨٦.
(٣) حديث صحيح، صحيح الجامع الصغير ج ١/٦٢٦.
(٤) حديث صحيح، صحيح الجامع ج ١/٢٦٦ ـ ٢٦٧.
(٥) إسناده ضعيف، ضعيف الجامع الصغير رقم ١٩٩٠.
(٦) سورة: البقرة، الآية: ٢٢٩.
(٧) سورة: البقرة، الآية: ٢٣١.
(٨) سورة: النساء، الآية: ١٩.

وسعادة الحياة الزّوجية ليست في خلوها المطلق من الخطأ أو الكدر، وإنّما هي بأداء كل من الزّوجين رسالته الإنسانية والاجتماعية، التي أخذ على عاتقه بالزّواج أن يؤديها للإنسانية والمجتمع.

فأعظم بها من رسالة!! وما أعذب ما يلقى المرء في سبيلها ـ إذنْ ـ وما يحتمل!!.

وما أيسر الخطأ الذي يكون من أيّهما، والذي لا يعوق سيرهما معاً على صراط قيمهما المشتركة، نحو هدفهما المرسوم.

كيف كان سلوك النبي ﷺ مع أزواجه؟:

لقد كان في القمة من الحكمة: حلماً وكرماً، ورحمةً وحنواً، ورعايةً واحتمالاً.

كان يطب لكل موقف بما يناسبه من العلاج النّاجع، والتّصرف الحكيم، فقد يرى أن موقفاً معيناً لا يجدي فيه الغضب فضلاً عن أن ينفع فيه العُنف، مع أن الموقف قد يظهر بادي الرأي مثيراً. ولكنّه ﷺ يتمهل وهو يعلم أن ما طبعت عليه المرأة قد يكون ذا مدخلٍ كبيرٍ في هذا الموقف، لم تستطع منه فكاكاً، بل قد يريها الموقف الشيء على غير حقيقته فتتصرف هي بناء على ذلك.

وقد حدّثت السيدة عائشة رضي الله عنها عن واقعة لمست فيها كيف غيَّر عليها منظار الغيرة ـ يوماً ـ صورة أم سلمة، قالتْ: لما تزوّج رسول الله ﷺ أمَّ سلمة حزنت حزناً شديداً، لما ذكر لنا من جمالها، فتلطفتُ حتى رأيتُها، فرأيتُ والله أضعافَ ما وُصِفَتْ بِهِ، فذكرتُ ذلك لحفصة، فقالت: ما هي كما يُقال، وذكرتُ كِبَر سنّها، فرأيتُها بعدَ ذلك فكانت كما قالتْ حفصةُ، ولكنّي كنتُ غَيْرَىٰ.

وهو ﷺ كان يعلم كثيراً من ذلك، وكان يعلم أيضاً أن محاسبة المرء لزوجه على كل صغيرة وكبيرة إنّما هي بمثابة الإبر التي تخزّ نسيج الكيان الزّوجي، والتي إن احتملت مرّة فسوف يؤلم تتابعها، ويدمي ذلك الكيان، وقد يُودِي بالعلاقات الزّوجية ذاتها.

ولذلك فما أكثر المواقف التي كان يقابلها ﷺ بالسكوت البليغ، أو التبسم

المشفق، أو الإغضاء الرحيم، أو الدّعابة الحلوة التي تغير وجه الموقف كله!؟.

نماذج من السّلوك النّبوي:

خرج ﷺ ليلةً من عند عائشة؛ لغاية نبيلة، فحدثتها نفسُها أنه يتركها في ليلتها ليأتي بعض نسائه فخرجتْ تتبعُهُ من حيث لا يشعر، فإذا هو قد ذهب إلى البقيع، يستغفر للمؤمنين والمؤمنات والشهداء. قالت عائشةُ: فقلت في نفسي: بأبي أنتَ وأمي!! أنتَ في حاجةِ ربِّكَ، وأنا في حاجة الدّنيا؟ فانصرفتُ فدخلتُ حجرتي، ولي نَفَسٌ عالٍ، ولحقني رسول الله ﷺ فقال: «ما هذا النَّفَسُ يا عائشةُ؟» فقلتُ: بأبي أنتَ وأمّي!! أتيتني فوضعتَ ثوبيكَ ثم لم تستتم أن قمتَ فلبستَهما، فأخذتني غيرةٌ شديدةٌ ظننتُ أنك تأتي بعض صويحباتي، حتى رأيتُكَ بالبقيع تصنعُ ما تصنعُ؟ فقال ﷺ ـ وقد أعجبتْهُ صراحتُها، وحديثها عن غيرتها لفرط محبّتها له: «يا عائشة!! أكنتِ تخافينَ أن يحيفَ الله عليك ورسولُهُ؟» قالت: مهما يكتمُ النّاسُ فقد علمه الله عزّ وجلّ؟ قال: «نعم» ثم قال: «فإنّ جبريل عليه السلام أتاني حين رأيتِ ولم يكن يدخل عليكِ وقد وضعتِ ثيابَكِ، فنادَانِي، فأخفى منك، فأجبتُه فأخفيتُه منكِ، وظننتُ أنّكِ قد رقدتِ، فكرهتُ أن أوقظَكِ، وخشيتُ أن تستوحشي، فأمرني أن آتي أهل البقيع فاستغفرَ لهم».

فما أن استبانَ لها الأمرُ، حتى هدأتْ نفسُها، وتغير موقفُها، وانطلقت تسألُ الرّسولَ ﷺ: ماذا أقولُ للموتى إذا زرتُـهُمْ؟.

فقال ﷺ: «قُولِي: السّلام على أهل الدّيارِ من المؤمنين والمسلمين، يرحم الله المستقدمين منّا والمستأخِرين وإنّا إنْ شاءَ الله بكُمْ للاحِقُون»[1].

وفي رواية أخرى «قالتْ: فغرتُ عليه أن يكون أتى بعضَ نسائه، فجاء فرأى ما أصنعُ، فقالَ: «أغِرْتِ؟» فقلتُ: وهلْ مثلي لا يغارُ على مثلِكَ؟ فقال: لقد جاءَكِ شيطانُكِ». قلت: أوَمعي شيطانٌ؟ قال: نعم، قلتُ: ومع كلِّ إنسانٍ؟ قال: نعم. قلتُ: ومعكَ؟ قال: نعم ولكنّ الله أعانَنِي عليه فأسلم!؟»[2].

---

(١) صحيح مسلم برقم ٩٧٤.

(٢) مسند أحمد ج ١/٢٥٧، والطبراني في معجمه الكبير ج ١٢/١١٠.

وتزوّج ﷺ إحدى الكنديات، ووفدت إليه ليبني بها، وفعلت الغيرة فعلها لدى أمّهات المؤمنين: عائشة وحفصة، وغيرهما. فقررن أن يُحِلْنَ بين الرّسول ﷺ وبينَها ـ بعد أن قالت عائشةُ: لقد وضع يده في الغرائب يوشكن أن يصرفْنَ وَجْهَهُ عنّا، واتفقن على خطة يَصِلْنَ من ورائِها إلى ما يبتغين. وفدت العروسُ، فاستقبلنها مهنئات، ثم تظاهرنَ لها بالإخلاص والحُبّ، فأسدينَ لها النّصيحة أن تستعيذَ بالله حين يدخل عليها النّبيّ ﷺ حتى يرضى عنها أيّما رضا، ويقبل عليها أيّما إقبال. وما أن فعلت المسكينة ـ غير شاعرة بالمكيدة ـ حتى حوّل النّبيّ ﷺ وَجْهَهُ قائلاً: «لقد عُذْتِ بمعاذٍ»[1].

ثم غادرها من فوره وأمر أن تلحقَ بأهلها، وما أن انكشفت الخدعة، حتى حاولت المرأة، أو حاول أبوها أن يبدي للرسول ﷺ عُذْرَها، وأن يعيدها إلى شرف عصمته ﷺ، ولكن بعد أن انتهت فيها الرغبة من قلبه ﷺ.

إنّ القلُــوبَ إذا تَنَــافــر وُدُّهــا مثـلُ الـزّجـاجَـةِ كَسْـرُهـا لا يُجْبَـرُ

فهل إلى مردٍّ من سبيل؟..

وبقي أمرُ صواحب الغيرة نافذاً!؟.

إنّ الغضب ـ حينئذٍ ـ لن يصل ما انقطع، ولن يرأب ما انصدع، فما إليه اتّجاه، وإذنْ فما جَدْوَاه؟!.

وقدَّرَ الرَّسول ﷺ دوافِعَهُنَّ، ثم تذكر ما كان من كيد امرأة العزيز ليوسفَ عليه السلام، فما زادَ على أن تبسَّمَ وهو يقول: «إنّهُنّ صَوَاحِبُ يوسف، وإنّ كيدَهُنّ عظيم!؟...

ولمّا تزوج ﷺ صفيّةَ بنت حيي ـ بعد غزوة خيبر ـ وعاد إلى المدينة، وتسامعت نساءُ الأنصارِ بها، وجئنَ ينظرْنَ إليها، وكان فيمن خرج: عائشةُ، ولمحها ﷺ متنقبةً على حذرٍ، وانتظر حتى رأت صفيّةَ، فسألها ضاحكاً: «كيفَ رأيتِ»؟! فأجابت ـ قد وجدتْ من الغيرة ما وجدتْ «رأيتُ يهوديّةً»؟ فردَّ عليها ردَّهُ الهادىء، وَوَجَّهَهَا توجيهَهُ اللّطيف: «لا تقولي ذلك، فإنّها أسلمتْ، وحَسُنَ إسلامُها!؟».

---

(١) صحيح البخاري برقم ٥٢٥٤.

ولمّا جاءت صفيّةُ رضي الله عنها تشتكي إليه حفصةَ وعائشةَ، إذْ فاخرتَاهَا بأنهما القرشيتان القريبتان، وهي وحدها الأجنبية عليهنّ، لم ينفعلْ ﷺ ولم يرَ في الغضب علاجاً للموقف ولكنه فكّر فيما يبدل غضبها رضاً، ويُعيد إليها مكانتَها بينهُنَّ.

وفي وَقَارِ الحكيم لفتَ نظرها إلى ناحيةٍ تذكُرها فلا تساميها فيها إحداهُنّ قال: «ألاَ قلتِ: وكيف تكونان خيراً منّي وزوجي محمّدٌ، وأبي هارونُ، وعمّي موسى؟!»؟ وكان هذا هو العلاج[1].

وروى أنس رضي الله عنه قال: كان النّبيّ ﷺ عند بعض نسائه، فأرسلتْ إحدى أمّهات المؤمنين بصحفةٍ فيها طعامٌ، فضربت التي النّبيّ ﷺ في بيتها يَدَ الخادم فسقطتِ الصّحفةُ، فانفلقت، فجمعَ النّبيّ ﷺ فَلَقَ الصّحفة، ثم جعل يجمع فيها الطعام الذي كان في الصحفة، ويقول: «غارتْ أمُّكُمْ» ثم حبس الخادم حتى أتى بصحفةٍ من عند التي هو في بيتها، فدفع الصّحفة الصحيحة إلى التي كسرت صحفتها، وأمسك المكسورة في بيت التي كسرت فيه[2].

وكانت تلك الغيراء هي عائشة رضي الله عنها، والتي بعثتْ بإنائها هي صفيّةُ. وقيل: زينب.

وهو ﷺ يعلمُ ما تفعل الغيرة بصاحبتها، ولهذا قدّر بواعثها النّفسية لدى عائشة، وأثرها في سلوكها. وقد ذكر ابن حجر عن أبي يعلى مرفوعاً: «أنّ الغَيْرىٰ لا تُبْصِرُ أسْفَلَ الوادِي من أعلاه»[3]. ولعلّها حينَ انقشعت عن عينيها غمامة الغيرة ندمت على ما بدرَ منها، فما كان أن سألته ﷺ عن كفّارة ما صنعتْ، فقال: «إناءٌ مثلُ إناءٍ، وطعامٌ مثلُ طعامٍ»[4].

وبهذا المسلك الحكيم وضعَ ﷺ حدًّا لانفعال لن يلتئم به الإناء المكسور، ولن يصلح به الطعام المهراق. كما تلافى به أثراً نفسياً لدى صاحبة الطّعام، وقطع الطّريق

(١) زاد المسير ج ٧/ ٤٦٦.
(٢) مسند أحمد ج ٣/ ٢٦٣، وسنن أبي داود برقم ٣٥٦٧.
(٣) مسند أبي يعلى ج ٨/ ٤٦٧٠.
(٤) سنن النسائي ٧/ ٧١، ومسند أبي داود، البيوع/ ٩١، ومسند أحمد ج ٦/ ١٤٨.

على مُلاَحَاةٍ كان يمكن أن تنشأ بينَها وبينَ عائشة كردِّ فعلٍ لهذا السلوك الانفعالي.

ولعلّ في هذا الجزاء العادل، وذلك التّصرف الحكيم ما يحول دون تكرار هذا السّلوك مرةً خرى.

مغزى تلك المواقف:

تلك مواقفُ رائعةٌ تُبيّن لنا كيفَ كان النّبيّ ﷺ يُقدِّرُ كلَّ موقفٍ، ويتدبّر عاقبته، ويتصرف حسبما تقتضي الحكمة والكياسة، وكيف كان بذلك بليغاً يوافق بسلوكه مقتضى طبيعة الموقف.

وناهيك بما لذلك من أثرٍ عميقٍ في استقامة الحياة الزّوجيّة على مَتْنِ الوَفَاءِ والخيرِ، والإيلاف والعدل، والرّعاية والثّقة.

وعلاجُ الأمر بمثل ذلك السلوك الحكيم منذ البداءة يضع حدًّا لضرر يمكن أن يتفاقم، فمعظمُ النّارِ من مُستصغَرِ الشَّرَرِ.

وبذلك يحال بينَ عوامل الفرقة أو الصّراع أن تأخذ سبيلها بينَ الزّوجين من أمورٍ هيّنةٍ يمكن تفاديها أو علاجها.

ومن هذه الدّروس النّبويّة نترسَّمُ المواقفَ المناسبة في معالجة الأخطاء الواقعة في الحياة الزّوجيّة.

البحث الثاني:

حقوق الزّوجة على زوجها

لقد كَفلت الشّريعة الإسلاميةُ للزوجة حقوقاً يجب على الرّجل أن يؤديها إليها، وأن يمنحها لها، واعتبرته ظالماً إنْ قصَّرَ في إعطائها هذه الحقوق، وضمنت له الحياةَ الآمنةَ إنْ أدّاها كما أمر الله سبحانه.

وأوّل هذه الحقوق وأهمُّها:

حُسن المعاشرة:

فالرّجلُ بحكم القرآن الكريم قوّامٌ على زوجتِهِ، وربٌّ لأهل بيتِهِ، فعليه أن يُحسن القِوَامةَ، وأن يسوس رعيته بلين في غير ضعفٍ، وبحزم في غير عُنفٍ، وأن يتأدّب في كل هذا بأدب دينه القويم، وبمنهج قرآنه المستقيم فقد قال سبحانه: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾[١].

وقال ﷺ: «أكمل المؤمنينَ إيماناً أحسنُهم خُلُقاً، وخيارُكم خيارُكم لنسائِهم»[٢]. فالمرأة بفطرتها خُلقت رقيقةَ الشعور، سريعة التأثّر، ثم هي على إحساس كامل بأنّها مرؤوسةٌ لا رئيسة، فهي أطمع من الرّجل في اللّين والعطف وهي أقرب منه إلى الغضب، وجمع السّيّئات وإرسال العبرات، وهذا ما أشار إليه النّبيّ ﷺ في قوله: «استوصُوا بالنّساء خيراً فإن المرأة خُلقت من ضلع وإن أعوج ما في الضّلع أعلاه، فإن ذهبت تُقيمُهُ كسرتَهُ، وإن تركتَهُ لم يزلْ أعوج، فاستوصوا بالنّساء خيراً»[٣].

والمطلع على السّنّة النّبويّة يرى أحاديث وفيرة تحث على حُسن العشرة، وتأمر

---

(١) سورة: النساء، الآية: ١٩.

(٢) صحيح الجامع الصغير برقم ١٢٣٢.

(٣) صحيح الجامع الصغير/ ٩٦٠.

بها ومن ذلك قوله ﷺ: «اتّقُوا الله في النّساء»[١]. وقوله صلوات ربي وسلامه عليه: «خيرُكم خيرُكم للنّساء»[٢]. وفي رواية: «خيركم خيركم لأهلِه، وأنا خيركم لأهلي»[٣]. إلى غير ذلك من الأحاديث الصّحيحة، فليكنْ قدوتُنَا في حُسن المعاشرة رسول الله ﷺ، فهو القدوة الذي تحمّل نساءَه وعاملهنّ أجمل ما تكون المعاملة فقد كان ﷺ يُراعي الفطرة التي فُطِرْنَ عليها.

النفقة الكافية:

ومن الحقوق الواجبة على الزّوج لزوجته أن ينفق عليها ويكسوها. فقد تظاهرت أدلة الكتاب والسّنّة، وإجماع الأمة على وجوب النّفقة للزّوجة، فقد قال سبحانه: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾[٤].

قال العلامة ابن كثير: ﴿وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾: أي المهور والنّفقات والكلف التي أوجبها الله عليهم لهنّ في كتابه وسُنّة نبيّه ﷺ.

وقال سبحانه: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا۟ عَلَيْهِنَّ ۚ وَإِن كُنَّ أُو۟لَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا۟ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۖ وَأْتَمِرُوا۟ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ۖ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ ﴿٦﴾ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾﴾[٥]. فهذه هي أدلة القرآن على وجوب النّفقة، فماذا قالت السّنّةُ المطهرةُ؟.

لقد وردَ في السّنّةِ من الأحاديث ما يُوجب النّفقةَ على الرّجل.

فعن معاوية بن حيدة عن أبيه قال: «قلتُ: يا رسول الله ما حَقُّ زوجِ أحدِنَا عليه؟ قال عليه الصّلاة والسّلام: «تُطْعمها إذا أكلتَ، وتكسوها إذا اكتسيتَ، ولا تضربِ

---

(١) صحيح مسلم، الحج ١٤٧.
(٢) صحيح الجامع الصغير/٣٣١٦.
(٣) صحيح الجامع الصغير / ٣٣١٤.
(٤) سورة: النساء، الآية: ٣٤.
(٥) سورة: الطلاق، الآيتان: ٦ ـ ٧.

الوَجْهَ، ولا تُقَبِّحْ، ولا تهجرْ إلاّ في البيـت»(١). وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال يوماً لأصحابه: «تصدَّقُوا» فقال رجل: يا رسول الله! عندي دينار؟ قال: أنفقْهُ على أهلِكَ. قال: إنّ عندي آخر؟ قال: أنفقْهُ على ولدك. قال: إنّ عندي آخر؟ قال: أنفقْهُ على خادمك. فقال: إنّ عندي آخر؟ قال: أنتَ أبصرُ بهِ»(٢).

وعنه رضي الله عنه قال: قال النّبيّ ﷺ: «خيرُ الصّدقة ما كان منها عن ظهرِ غنًى، واليَدُ العُليا خيرٌ من اليَدِ السُّفلى، وابدأْ بمَنْ تعولُ، قيل: مَنْ أعولُ يا رسول الله؟ قال: امرأتك ممّن تعولُ، تقول أطعمني، وإلاّ فارقني، وجاريتُك ممن تعول، تقولُ: أطعمني واستعملني، وولدُكَ يقول: إلى مَنْ تتركني؟»(٣). فكل هذه الأدلّة القرآنية، وجميع هذه النّصوص النبوية توضح أنّ الزّوج مسؤول عن النّفقة، وعن الكسوة لزوجته سواء أكانت غنيةً أم فقيرة، وسواءً أكانت في حال صحتها أم في حال مرضها، وسواء أكان حاضراً معها أم غائباً عنها.

فعن الشافعي أنّ عمر رضي الله عنه كتب إلى أمراء الأجناد في رجالٍ غابُوا عن نسائهم: «إما أن ينفقوا وإما أن يُطلّـقُوا، وإما أن يبعثُوا نفقة ما حبسوا».

ولكن الإسلام أهل العدالة، ودين الأمانة جعل لحال الزّوج دخلا في جنس الكسوة التي تجب للزّوجة. فإن كان الزّوج غنياً وجب عليه أن يكسوَ زوجتَه من رفيع ما يلبسه أهل البلد. وإن كان فقيراً فلا يُطالب بأكثر ممّا يلبسه من على مستواه في العادة.

وإن كان الزّوج متوسط الحال فيطالب بما بينَ الموسر والمُعْسر. ولكن مهما كانت الأحوال فإن كسوة الزّوجة ونفقتُها واجبة عليه، ولا تسقط عنه مطلقاً.

تعليمها أمور دينها:

ومن الحقوق الواجبة على الزّوج أن يُعلّمها أمورَ دينها، وقد كان المطلوب أن يكون التعلم من أيام طفولتها عند أبيها، ومع ذلك فقد أوجب الإسلام على الزّوج أن يستكمل هذه المهمة أو يقوم بها.

---

(١) مسند أحمد ج ٤/٤٤٦.
(٢) أخرجه الحميدي برقم ١١٧٦، والبيهقي في سننه ٧/٤٦٦ و٤٧٧.
(٣) صحيح البخاري برقم ١٤٢٦ و٥٣٥٦.

قال الإمام الغزالي في الإحياء: على الرّجل أن يُعلّم زوجتَهُ أحكام الصّلاة وما يُقضى منها في الحيض وما لا يُقضى. فإنّه أُمِرَ بأن يقيها النّار بقوله تعالى: ﴿ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾[1] فعليه أن يلقّنها اعتقادَ أهل السُّنّة، ويزيل عن قلبها كل بدعةٍ إن استمعت إليها، ويُخوّفها في الله إنْ تساهلتْ في أمر الدِّين، ويُعلّمها من أحكام الحيض والاستحاضة ما تحتاج إليه.

وإذا كان الزّوج جاهلاً وجب عليه أن يسأل أهل الذّكر ثم يعود بالإجابة الشافية إلى أهله معلّماً ومرشداً.

ولذا يقول الحق سبحانه: ﴿ وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَا﴾[2].

قال ابن كثير في تفسير الآية: أي استنقذهم من عذاب الله بإقام الصّلاة واصبر أنت على فعلها.

فعن ثابت رضي الله عنه قال: «كان النّبيّ ﷺ إذا أصابه خَصَاصةٌ نادى أهله: يا أهلاهُ: «صَلُّوا، صَلُّوا»[3]. وكان عمر إذا استيقظ من اللّيل يعني يصلي أقام أهله. وقال القرطبي: روى مسلم أن النّبيّ ﷺ إذا أوترَ يقول: «قُومي يا عائشةُ». وفسَّر ابن عباس رضي الله عنهما قوله تعالى: ﴿ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾[4] بقوله: اعملوا بطاعة الله، واتّقوا معاصيَ الله، وأمُرُوا أهليكم بالذّكر ينجيكُمُ الله من النّار.

وقال قتادةُ: تأمرهم بطاعة الله، وتنهاهم عن معصية الله، وأن تقوم عليهم بأمر الله وتساعدهم عليه فإذا رأيتَ لله معصيةً زجرتَهُم عنها، فالرّجلُ إذاً مطالبٌ بتعليم زوجتِهِ أُمُورَ دينها ليقيَها ونفسَهُ من عذاب النّار.

العدل بين الزّوجات:

فإذا كان الرّجلُ متزوّجاً بأكثر من امرأةٍ فمن الحقّ والواجب أن يعدل بينهُنَّ في

---

(١) سورة: التحريم، الآية: ٦.
(٢) سورة: طه، الآية: ١٣١.
(٣) تفسير ابن كثير ج ٥/٣٩.
(٤) سورة: التحريم، الآية: ٦.

حقوقهن، وذلك بالتّسوية بينهنّ في القسم إذا قسم في المبيت، والنّفقة والكسوة، والسُّكْنَى.

قال تعالى: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا ﴿٣﴾ ﴾[١].

وقدوة الزّوج المسلم في ذلك، رسوله صلوات الله وسلامه عليه، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يقسم بينَ نسائه فيعدل ويقول: اللّهمَّ هذا قَسْمِي فيما أَمْلِكُ، فلا تلمني فيما تملِكُ ولا أَمْلِكُ»[٢].

وعن عبد اللّه بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ المقسطين عندَ الله على منابر من نور على يمين الرحمٰن ـ وكِلْتَا يَدَيهِ يمينٌ ـ الذين يعدِلُون في حكمِهِمْ وأهليهِم وما وُلُوا»[٣].

فالزّوج مأمور بالعدالة في الأمور التي يمتلكها، كالمبيت وغيره، ولكنّه لا يجب عليه أن يسوي بين زوجاته فيما لا يملكه من ميلٍ قلبي لقوله جلّ شأنُه: ﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ﴾[٤]. والمقصود بالعدل في الآية الميل القلبي من محبة واقتراب.

يقول الغزالي موضحاً لهذه الآية: «وإنّما عليه العدل في العطاء والمبيت، وأمّا في الحبّ والوِقاع فذلك لا يدخل تحت الاختيار».

والسّيدة عائشة زوج المصطفى ﷺ تحكي لنا عدالة النّبيّ ﷺ بينَ أهله فتقول رضي الله عنها: «كان رسول الله ﷺ لا يُفَضّلُ بعضَنَا على بعضٍ في القَسْم من مكثه عندنا، وكان كل يوم يطوف علينا جميعاً فيدنو من كل امرأةٍ من غير مسيس حتى يبلغ التي هو يومُها، فيبيتُ عندَها».

(١) سورة: النساء، الآية: ٣.
(٢) سنن الترمذي برقم ١١٤٠. وابن ماجة برقم ١٩٧١، وفيه مقال.
(٣) صحيح الجامع الصغير/١٩٥٣.
(٤) سورة: النساء، الآية: ١٢٩.

فحذَارِ أيّها الزّوج المسلم من الظلم، والبغي على حقوق المرأة، فقد شدّدَ الرّسولُ الكريم، ونهى عن الميل في المبيت عند واحدةٍ دون أخرى.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ كانتْ عندَهُ امرأتان فلم يَعْدِلْ بينَهُمَا، جاءَ يومَ القيامةِ وشقُّه ساقطٌ»[١]. بل إن الإسلام شدّد النّكيرَ على كلِّ زوجٍ تزوَّجَ بأكثر من واحدةٍ ثم ظلم إحداهما بإعطاء صاحبتها ليلتها، ولكنّه بيّن بياناً شافياً أن الاستئذان منها، وموافقتَهَا على ترك ليلتها لصاحبتها لا شيء فيه، ما دام ذلك برضاها دون جبرٍ أو إرغام.

فقد جاء في الطبقات: أنّ النّبيّ ﷺ كان يُطاف به محمولاً في مرضه في كلِّ يومٍ وكلِّ ليلةٍ فيبيتُ عندَ كلِّ واحدةٍ منهُنّ، ويقول أين أنا غداً؟ ففطنتْ لذلك امرأة منهنّ. فقالت: إنّما يسأل عن يوم عائشة. فقلنا: يا رسول الله: قد أذنّا لكَ أن تكونَ في بيت عائشة، فإنّه يشقُّ عليك أن تُحمل في كلِّ ليلةٍ، وقد رضيتنّ بذلك؟!. فقُلْنَ: نعم. قال: فحوّلُوني إلى بيتِ عائشة»[٢].

حقوق أخرى:

وهناك حقوق أخرى كفلتها شريعة الإسلام للمرأة، ويجب على الزّوج القيامُ بها حقَّ القيام ومن هذه الحقوق أن يُناديها بأحبِّ الأسماء إليها. وأن يُكرمها في أهلها بالثّناء عليهم أمامها، وبمبادلتهم الزّيارات، وبدعوتهم في المناسبات. وأن يحلم عليها إذا غضبت، ويستمعَ إلى حديثها إذا تكلمتْ، ويحترمَ رأيَهَا، ويأخذَ بمشورتها. وأن ينبسط لها في البيت، فيمزح معها، وعن عمر قال: «ينبغي للرجل أن يكون في بيته كالصّبيّ فإذا كان في القوم وُجِدَ رجلًا!!.».

---

(١) الترغيب والترهيب ج ٣/ ٦٠.

(٢) الطبقات لابن سعد ج ٢/ ٢٣١.

البحث الثّالث:

من حقوق الزّوجة على زوجها تحمّل أخطائها والرأفة بها

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾﴾[1].

وقال رسول الله ﷺ: «الله في النّساء، فإنّهنّ عَوَانٌ في أيديكم، أخذتُمُوهُنّ بعهدِ الله، واستحللتُمْ فُرُوجَهُنّ بكلمةِ الله»[2].

وقال رسول الله ﷺ: «استوصُوا بالنّساءِ خيراً؛ فإنّ المرأة خُلِقتْ من ضلع، وإنّ أعوجَ ما في الضلع أعلاه، فإن ذهبتَ تُقيمه كسرتَهُ، وإن تركتَهُ لم يزل أعوج؛ فاستوصوا بالنّساء»[3].

وهذه الوصية من الله تعالى بالزوجة ومن رسوله ﷺ تعني تحمّل الأخطاء الواقعة منها، والغض عن هفواتها، بل واحتمال الأذى منها، وأن يتغافل عن كثير ممّا يصدر منها: «ممّا لا يخالفُ شرعَ الله تعالى» تَرَحّماً بها وشفقة عليها، وأن يُقدّم لها النّصح مع التّصبّر ما استطاع إليه سبيلاً، قال رسول الله ﷺ: «إنّ أقربكم منّي مجلساً يوم القيامة أحسنُكم أخلاقاً، الموطؤون أكنافاً، الذين يألفون ويُؤلفون»[4].

فإنْ كان أحدٌ أحقَّ بحُسْنِ خُلُقِ الرّجل فهو زوجته «أقرب النّاس إليه» فهي موضع هنائه وسروره، وموئل مودته وإسعاده، وهذه المعاملة الحسنة مع الزوجة تعكس جوّ

---

(١) سورة: النساء، الآية: ١٩.

(٢) رواه النسائي.

(٣) رواه الشيخان.

(٤) رواه الترمذي.

الصفاء على البيت فيهنأ فيه جميعُ مَنْ فيه من أبناء وبنات.. وممّا يلزمُ الزوجَ إدراكُهُ أنّه أقدرُ على تحمّل الأذى من زوجته، فالمرأة عاطفية «سريعة الانفعال» فهي إلى المغاضبة أسرع من زوجها، وسرعة انفعالها بالغضب يدفعها إلى نكران محاسن زوجها وأفضاله عليها، وفي هذا يقول رسول الله ﷺ: «لو أحسنتَ إلى إحداهنَّ الدَّهْرَ كلَّه ثم رأتْ منك شيئاً، قالت: ما رأيتُ منك خيراً قط»[1].

وهذه طبيعة غالبة في النّساء، فيلزم الزوجَ عدم المُسَارعة إلى الغضب على زوجته ساعةَ انفعالها، وعلى الأخص في الأيام التي تقترب من عادتها الشهرية، فإنها تتعرض إلى الاضطرابات الهرمونية قبل فترة الحيض بيوم أو يومين، وتستمر فيها إلى الأيام الأولى منها، فإذا أدرك الزوج ذلك كان أقدرَ على تحمّل زوجته، وأحسنَ حيلةً على إرضائها، لإعانتها على اجتياز مرحلة الاضطراب المتكرّرة شهرياً.

وليعلم الزوج أن تكافُلَهُ مع زوجته دائماً ـ في السّرّاء والضّرّاء ـ خيرُ ما يُـقدّمه لأولاده، من الهدوء والاستقرار والتفاهم والوفاق والتعاون، الذي يُعتبر الأساس القويّ في بناء الأسرة بناءً متماسكاً قائماً على الخير والبر والتقوى!!.

وهنا يجبُ على الزوج والزوجة تذكّـرُ قـول رسول الله ﷺ: «كلـكم راعٍ، وكلكم مسؤول عن رعيّته.. الرجلُ راعٍ في أهله، وهو مسؤول عن رعيته، والمرأة راعيةٌ في بيت زوجها، وهي مسؤولة عن رعيّـتها..»[2].

ومن واجبات الزوج على امرأته:

لعلّ أوّل الواجباتِ على المرأةِ نحوَ زوجها طاعتُهُ فيما ليس بمعصيةٍ، ولا مفضياً إلى مضرَّةٍ، فإنّه لا ضرر ولا ضرار، ولا طاعةَ لمخلوقٍ في معصيةِ الخالقِ.

وطاعة المرأة لزوجها في هذا الإطار أمرٌ له كبيرُ الأثر في صفاء الجوّ العائلي، ولهذا عَظُمَ ثوابُ الزوجة المطيعة. حتى ساوى أجرَ المجاهدِ في سبيل الله!!!.

وقد أخرج البزارُ والطبراني من حديث ابن عباس أنّ امرأة قالت: يا سول الله! أنا

---

(١) رواه الشيخان.

(٢) رواه البخاري ومسلم.

وافدة النّساء إليكَ ثم ذكرتْ ما للرجالِ من الجهادِ والأجرِ والغنيمة، ثم قالت: فما لنَا من ذلكَ؟ فقال ﷺ: «أبلغي مَنْ لقيتِ مِنَ النّساء أنّ طاعة الزّوجِ، واعترافاً بحقّهِ يعدِلُ ذلك، وقليلٌ منكُنّ مَنْ يفعلُهُ!؟»[١]. وعن حصين بن محصن أنّ عمةً له أتتِ النّبيّ ﷺ فقال لها: «أذات زوجٍ أنتِ»؟ قالت: نعم. قال: «فأينَ أنتِ منه»؟ قالتْ: ما آلوهُ إلاّ ما عجزتُ عنه. قال: «فكيف أنتِ لهُ؟ فإنّه جنتُكِ ونارُكِ»[٢].

وإعظاماً لحقِّ الطّاعة قال ﷺ: «لو أمرتُ شيئاً أن يسجد لشيءٍ لأمرتُ المرأةَ أن تسجدَ لزوجها والذي نفسي بيده لا تؤدِّي المرأةُ حقَّ ربِّها حتّى تُؤدّي حقَّ زوجِها»[٣].

وتلمس الزّوجةُ أثرَ الطّاعة في الدّنيا صفاءَ الجوِّ العائليّ، وفي الآخرة نعيماً مقيماً في الجنة!.

وعن أمّ سلمة رضي الله عنها أنّ رسول الله ﷺ قال: «أيُّما امرأةٍ ماتَتْ وزوجُها عنها راضٍ دخلتِ الجنّةَ»[٤].

وللطاعة مظاهر كثيرة منها:

١ ـ أنْ لا تخرج من بيته إلاّ بإذنه، وقد سبق الحديث عن هذا في البحث السّابق.

٢ ـ أن لا تُعطي شيئاً من بيته إلاّ بإذنه، وأنْ لا تصوم يوماً واحداً تطوّعاً إلا بإذنه، وأنْ لا تمنعه نفسَها.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النّبيّ ﷺ قال: «لا يحلُّ للمرأة أن تصومَ وزوجُها شاهدٌ إلاّ بإذنه، ولا تأذن في بيتِه إلاّ بإذنِه، وما أنفقت من نفقةٍ عن غير أمرِهِ، فإنّه يُؤدّي إليها شطرَهُ»[٥].

---

(١) المصنّف لعبد الرزاق ج ٨/ ٤٦٣.
(٢) المستدرك للحاكم ج ٢/ ٨٩، وصححه وأقرّه الذهبي.
(٣) صحيح الجامع الصغير برقم ٥٢٣٩.
(٤) المستدرك للحاكم ج ٤/ ١٧٣، وصححه وأقرّه الذهبي على تصحيحه.
(٥) صحيح الجامع الصغير برقم/ ٧٦٤٧.

وفيما ورد عن معاذ بن جبل رضي الله عنه: «ولا تجدُ امرأةٌ حلاوةَ الإيمانِ حتى تؤدّي حقَّ زوجها، ولو سألها نفسَها وهي على ظهرِ قَتَبٍ»[1].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: «إذا دعا الرّجلُ امرأتَهُ إلى فراشهِ فلم تأتِهِ فباتَ غضبانَ عليها لعنتْها الملائكةُ حتّى تصبح».

وليس معنى الطّاعة إهدار شخصية المرأة، ولا استبداد الرّجل، فقد نفينا هذا عندما أوجبنا على الرّجل أن يُفسح صدره لآراء زوجه، وأن يستشيرها في تسيير دفة حياتهما الأسرية.

وقد قرر القرآن الكريم أنّ الشورى سيما المؤمنين في الحياة بعامّة فقال سبحانه: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾[2]. ثم تحدث عنها في معرض التّطبيق العملي في الحياة الزّوجية بخاصّة فقال سبحانه: ﴿۞ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ ۚ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۗ﴾[3].

كما أنه ليس معنى الطّاعة أن تكون الحياة الزّوجية ميداناً للصراع والعناد وصلابة الرأي في المواقف المختلفة، بل أن يحل الإسجاح والسماحة فيها كثيراً من المشكلات الطارئة، وأن يسعى كل منهما من جهته في سبيل التكيّف: هو بإفساح صدره، والتّنازل عمّا لا يمس الحياة الزّوجية في قيمها وتقاليدها. وهي بطاعته فيما يتمسّك به بعدئذ، خاصّة فيما لا يملك هو حقُّ التّنازل عنه، كأن يكون حقًّا لله أو للمجتمع أو للأسرة. وحينئذ فما دام الزّوج لا يأمر بمعصية أو بما فيه ضرر، وما دامت هي قد أبانت عن وجهة نظرها فلتنفذ ما يأمرها به، ولتتركه وحده يتحمل مسؤولية ما يحدث وعسى أن لا يكون في الأمر خسارة ما دام في ذلك الإطار.

وقد يتفقان معاً على اقتسام أعباء الحياة، وقيام كل منهما بدورِهِ الذي يتواصيان بالقيام عليه عن رضا واقتناع وإيمان بما ينبغي أن يكون بينهما من تعاون مثمر بناء.

---

(١) مسند أحمد ج ٤/ ٣٨١.
(٢) سورة: الشورى، الآية: ٣٨.
(٣) سورة: البقرة، الآية: ٢٣٣.

وهذه هي الصورة المتألقة بين الأزواج، يؤمنان بقيم مشتركة، ويحترم كل منهما شخصية الآخر، ويفي بالتزاماته نحوها، ويسيران معاً في خط مرسوم لا ينحرفان عنه، ويتعاونان معاً في محيط المسؤولية المشتركة، ولكنّها تترك له عجلة القيادة فتسيرُ بها الريح رُخاء، حتى يبلغا مَأْمَنَهُمَا، ويؤدِّيا رسالتَهُمَا.

وحين يكون التعاون أمراً تلقائياً يفعله كلٌّ منهما بدافع نفسي تكون الصورة أروع تألّقاً وإشراقاً!!.

واجبات أخرى نفسية:

خلقت المرأة مرهفة الإحساس رقيقة العاطفة!! ومن هذه النّاحية فإنّ لها في الحياة دورين خطيرين:

الأوّل: خاص بتربية الأبناء.

والثّاني: يتعلق بتكييف الزّوج لمواقف الحياة حتى يواجهها في شجاعةٍ وصلابةٍ وحزمٍ.

وعلى المرأة أن تكون للرجل ـ كما قلنا ـ نعم العون على المواقف الشّداد، ونعم الواحة الفينانة التي تخفّف عنه لأْوَاءَ الحياة، وتُسرِّي عنه ما قد يتعرّض له من هموم وأكدار، وتفتح أمامه آفاق الأمل في مشاريعه وأعماله، وتهيىء له مناخ الاستقرار الذي ينشط فيه للعمل الصّالح المثمر.

وحينَ ترى بعض آماله عصيَّ التّحقيق بالنّسبة إلى إمكاناته المحدودة ففي استطاعتها أن تُعينه على الوصول إلى الأهداف القريبة، والتي تدخل في إمكانه، دون أن تلقي في روعه أنّه شخص مغرور. أو أنّ تحقيق أمله ضربٌ من الخطأ، أو نوعٌ من المحال. وعسى أن يكون نجاحه في الهدف القريب خطوة في سبيل هدفه البعيد، وآماله الواسعة، فكل من سار على الدّرب وصل، وعلى الله قصد السّبيل.

وعليها أن تثبت له بسلوكها أنّ شيئاً ما لا يمكن أن يصرفها عن الاهتمام بواجباته الشخصية، حتى ولو كان طفلها!.

ومن المشاهد أن انصراف أحد الزّوجين عن صاحبه واهتمامه بأمر آخر ولو

بواجبه، يحدث في نفس الآخر فراغاً يمتلىء مع الأيام بالشك، وفقد الثقة، وتغيير المشاعر العاطفية، وكراهة المتسبب في هذا الانصراف، ولو كان الطّفل أو عمل الزّوج!.

وقد قال ﷺ لمن أراد أن ينصرف عن زوجه ولو بالعبادة: «إنّ لزوجِكَ عليك حقّاً»[١]. ثم أمره أن يُوائم بين الواجب الدّيني، والواجب الأسريّ.

ولله دَرُّ أمّ هانىء حين خطبها النّبيّ ﷺ فأبت، لا لعدم رغبتها أو موافقتها، بل لإشفاقها وهي أم أطفال صغار، أن يطغى أحد الواجبين على الآخر: واجب الزّوج، وواجب الأطفال!.

وقد أكبر الرسولُ ﷺ رأيها، وعذرها، بل مدح منها سلوكها وقال: «إنّ خير نساء ركبْنَ الإبلَ نساءُ قريش: أحنَاهُ على ولدٍ في صغرِهِ، وأرعَاهُ على بعلٍ في ذاتِ يدِه!!» الحديث[٢].

أمّا في التسرية والتخفيف من أعباء الحياة، وإشاعة روح التفاؤل والبهجة والأمل في نفس الزّوج ومؤازرته والوقوف بجانبه في بأساء الحياة وسرّائها فلا نجد أروع من موقف أم المؤمنين: خديجة رضي الله عنها!! وقد سقنا حديثها من قبل.

الميزان النّفسي بينَ الزّوجين:

والميزان النّفسي الأمثل الذي ينبغي أن يسري في أوصال التّعامل بين الزّوجين هو أن يُحبّ كلٌّ منهما للآخر ما يُحب لنفسه، ويكره له ما يكره لها.

والعمل بهذا الميزان هو مفتاح الخير والسعادة، فإن كلاًّ منهما لن يراقب في تنفيذه إلاّ ربّه تبارك وتعالى.

وحين يُطبق كل منهما هذا الميزان مع نفسه قبل أن يقدم على قولٍ أو عملٍ فسَيُحْجِمُ عن كثيرٍ مما يمكن أن يُحدث نفُوراً أو شقاقاً، وسيُقدم على سلوك ما يستوجب التّوافق والتكيف، ويستجلب المودّة والرحمة مغتبطاً مأنُوساً، منعّماً بالسّرور والثّقة.

وناهيك بما لهذا من أثر عميق في جوانب الحياة الزّوجية كلّها.

---

(١) صحيح الجامع برقم ٧٩٤٦.

(٢) مسند أحمد ج ٣٧٧/٢، والأحاديث الصحيحة ج ٤٣/٣.

البحث الرابع:

حقوق الزّوج على زوجته

من عظمة الإسلام، أنّه لم يظلم النّاسَ شيئاً! ولكنّ النّاسَ أنفسَهُمْ يظلِمُون. فعدالتُهُ الفَذَّةُ الفريدةُ أبتْ أن يكون على الزّوج كل هذه الحقوق، ثم يتركه بعد ذلك بلا حقوق. ولكنّه قرّر في أحكامه العادلة!!:

أنّه كما جعل للزّوجة حقوقاً على زوجها، وطالبه بالقيام بها، فقد جعل له حقوقاً عليها.

وأنّه كما اعتنى بها وحافظ عليها فقد اعتنى به هو أيضاً وصدق الله العظيم الذي قضى أنّ ﴿ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ﴾[1]. وبتوفيق الله تعالى. وهنا نُجمل أهمَّ الحقوُق التي فرضها الإسلام على المرأة تجاه زوجها، وشريك حياتها، فنقول:

الطّاعة في المعروف:

فللزّوج على زوجته حقُّ الطّاعة في كل أمرٍ ونهي شريطةَ ألاّ يكون في هذا الأمر أو النّهي معصية الخالق تبارك اسمُهُ، وأمّا إذا أمرها بأمر فيه مخالفة لما أمر الله به، فلا يجوز لها أن تطيعه، لأنّه لا طاعةَ لمخلوقٍ في معصية الخالق.

والدّليل على أن طاعة المرأة لزوجها واجبةٌ قوله تبارك اسمُهُ: ﴿ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾ ﴾[2].

قال العلامة ابن كثير تعليقاً على هذه الآية: إذا أطاعت المرأة زوجها في جميع ما يريده منها مما أباحه الله له منها فلا سبيل له عليها بعد ذلك، وليس له ضربُها، ولا

---

(١) سورة: النساء، الآية: ٢٥.

(٢) سورة: النساء، الآية: ٣٤.

هجرانها، وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾[1] تهديدٌ للرجال إذا بغوا على النّساء من غير سببٍ، فإنّ الله العليّ الكبير وليّهُنَّ، وهو منتقمٌ ممّن ظلمهنّ وبغى عليهنّ».

ولقد رغَّب ﷺ النّساء، وأمرهنّ بطاعة الأزواج، وضمن لهن الثواب الأمثل، والجزاء الأعظم، إن نفّذن أوامر الرجال كما أمر الكبير المتعال.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا صلّتِ المرأةُ خَمْسَها، وصامتْ شهرَها، وحفظت فرجها، وأطاعتْ زوجَها دخلتْ جنّةَ ربِّها»[2]. بل إنّه ﷺ جعل طاعة الزّوج كالجهاد في المعركة من ناحية الثّواب:

فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: جاءتِ امرأةٌ إلى النّبيّ ﷺ فقالتْ: يا رسول الله، إنّي رسولُ النّساءِ إليكَ، وما منهُنّ امرأةٌ إلاّ وتهوى مخرجي إليك، الله ربُّ الرّجالِ والنّساء وإلٰهُهُنّ، وأنتَ رسولُ الله إلى الرجال والنساء كتب الله الجهاد على الرجال، فإذا أصابوا أثروا وإن استشهدوا كتبوا عندَ ربِّهم أحياء يُرزقون، فما يعدل ذلك من أعمالهم من الطّاعة؟قال: «طاعةُ أزواجهِنّ، والمعرفةُ بحقوقهِنّ، وقليلٌ منكُنّ مَنْ يفعله»[3]. وعن حُصين بن محصن رضي الله عنه أنّ عمةً له أتتِ النّبيّ ﷺ فقال لها: «أذاتُ زوجٍ أنتِ؟ قالت: نعم. قال: فأينَ أنتِ منه؟ قالت: ما آلُوهُ إلاّ ما عجزتُ عنه؟ قال: فكيفَ أنتِ لهُ؟ فإنّه جنّتُكِ ونارُكِ»[4].

ومن أهمّ أنواع الطّاعة الواجبة على الزوجة لزوجها هي:

الاستجابة له عند ندائه لها:

فعلى المرأة أن تستجيب لزوجها إذا دعاها إلى فراشه، ولا يجوز لها أن تمتنع عن طلبه، فإنْ فعلتْ وامتنعتْ كانت آثمةً عاصيةً، واستحقّت لعنة الملائكة والعياذ بالله

---

(١) سورة: النساء، الآية: ٣٤.

(٢) صحيح الجامع الصغير برقم / ٦٦٠، وعزاه لصحيح ابن حبان.

(٣) مصنّف عبد الرزاق ج ٨/٤٦٣، برقم ١٥٩١٤.

(٤) مسند الحميدي برقم ٣٥٥، والمستدرك ج ٢/٨٩، وصححه الذهبي مع الحاكم.

كما بيّنَ ذلك رسول الله ﷺ: «إذا دعا الرّجلُ امرأتَه إلى فراشِهِ فأبَتْ عليه لعنتْهَا الملائكةُ حتى تُصبح»[١].

ويروي ابنُ عمر رضي الله عنهما قصّةَ امرأةٍ من خثعم أتتْ إلى رسول الله ﷺ فقالتْ: «إنّي امرأةٌ أيّمٌ وأريد أن أتزوّجَ، فما حقُّ الزّوجِ؟ قال: إنّ مِنْ حقِّ الزّوج على الزّوجةِ: إذا أرادَها فراوَدَها عن نفسها وهي على ظهر بعير لا تمنعُهُ»[٢]. ولعلّ السبب في هذا ـ والله أعلم ـ أن الرّجل أضعف من المرأة في الصبر على ترك الاتصال الجنسي، ولقد ذكر الحافظ ابن حجر أنّ بعض العلماء قال: إنّ أقوى التّشويشات على الرّجل داعيةُ النّكاح، ولذلك حضَّ الشّرع النّساء على مساعدة الرجال في ذلك.

ألاّ تخرج إلاّ بإذنه:

ومن الطّاعة كذلك: ألاّ تخرجَ المرأةُ من المسكن الذي أسكنه إيّاها إلاّ بإذنه، وخروجها من مسكنها لا بدّ أن يكون على الهيئة المطلُوبة في شرع الله تعالى، فعليها أن تستر من جسمها ما لا يحل للأجنبي أن يرَاهُ، وللزّوج أن يمنعها من الخروج حتى ولو كان خروجها إلى المسجد، إن خشي الفتنة، وما في معناها.

روى ابن عمر رضي الله عنهما قال: «رأيتُ امرأةً أتتْ إلى النّبيّ ﷺ، وقالتْ: يا رسول الله! ما حَقّ الزّوج على زوجته؟ قال: حقُّهُ عليها أنْ لا تخرج من بيتها إلاّ بإذنهِ، فإنْ فعلتْ لعنها الله، وملائكةُ الرّحمة، وملائكةُ الغضب حتى تتوب أو ترجع»[٣].

ومن حق الزوج على زوجته أن تتقي الله في ماله وعياله، وأن تنظر إليه نظرة الحكمة والتّبصر، فلا تُكلّفه ما لا يستطيع ولا تتصرّفُ في شيءٍ من مالهِ أثناء غيبته إلاّ بإذنٍ منه، أو فيما جرت به العادةُ والعرفُ، كإكرام زائرٍ، أو إطعامِ جائعٍ، وعليها أن تقوم على تدبير بيتِهِ وخدمتِهِ بالمعروف، وأن تكون محافظةً على شعورهِ وماله وعِرْضهِ

---

(١) صحيح الجامع الصغير ج ١/ ١٥٣، برقم ٥٣٢.

(٢) إحياء علوم الدّين للغزالي ج ٢/ ٥٧، وقال الحافظ العراقي في تخريج أحاديثه: رواه البيهقي وفي سنده ضعفٌ.

(٣) تاريخ ابن عساكر ـ المختصر ج ٧/ ٣٦٨، وهو حديث إسناده ضعيف، ضعيف الجامع/ ٢٧٣٠.

في غيبته. ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ﴾[١].

فعن عمرو بن الأحوط الجشمي رضي الله عنه قال: إنّه سمع رسول الله ﷺ في حجة الوَدَاع يقولُ بعدَ أنْ حمِدَ الله وأثنَى عليه وذكّر ووَعَظَ ووصَّى بالنّساء خيراً، «ألاَ إنّ لكم علَى نسائِكم حقاً، ولنسائِكم عليكُمْ حقاً؛ فحقُّكُم عليهنّ أن لا يُوطئن فُرُشَكُمْ من تكرهون، ولا يأذنّ في بيوتِكُم لمن تكرَهُون»[٢].

لا تصوم إلاّ بأمره في النّفل:

ثم إنّ على المرأة كذلك ألاّ تصوم تطوّعاً إلاّ بإذنه، لقول النّبيّ ﷺ: «لا تصم المرأةُ وبعلُها شاهد إلاّ بإذنه»[٣] والعلّة في ذلك أنّه قد يُريدها لنفسه، فالواجبُ عليها أنَ تحصلَ على إذنٍ منه، وقد بيَّنَ العلماء ـ رحمهم الله ـ أنها إذا شرعتْ في صيام التّطوّع من غير أن تحصلَ على إذنٍ من زوجها، فإنّ من حقّهِ أن يقطع صيامَها، أمّا إذا عزمتِ الزّوجةُ أن تصومَ شهرَ رمضان، فلا يتوقّفُ ذلك على إذنٍ من أحدٍ سواء أكان زوجها أم غيره؛ لأنّ صوم رمضان واجبٌ عليها، فيحرم عليها تركُهُ حتى ولو نهاها زوجها الفاسق عن صيامه، لأنّه لا طاعةَ لمخلوقٍ في معصية الخالق.

علاج قرآني للعصيان والنّشوز:

هذه هي أهمُّ حقوقِ الزّوج على زوجتِه، يجب عليها أن تؤديَها إليه كاملةً غير منقوصةٍ. فإذا حدثَ خروجٌ منها عن طاعة الزّوج كأن منعتْهُ من التّمتّع بها، أو خرجتْ بغيرِ إذنهِ إلى مكان لا يجوز لها أن تذهب إليه، أو تركتْ حقوقَ الله بأن كانت لا تتطهّرُ، أو لا تُصلّي أو لا تصوم، أو أغلقتْ بابها دونه، فقد أعطى الشّرعُ الحكيمُ للزّوج حقَّ تأديبها، وبيَّنَ له ثلاث وسائل في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِي ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾[٤].

---

(١) سورة: النساء، الآية: ٣٤.

(٢) سنن الترمذي برقم ١١٦٣ و٣٠٨٧، وهو حديث صحيح.

(٣) صحيح الجامع/ ٧٣٥٢.

(٤) سورة: النساء، الآية: ٣٤.

فهذه وسائل ثلاث بيّنتها الآيةُ الكريمةُ وهي: الوعظُ، والهَجْرُ، والضَّرْبُ.

أمّا الموعظةُ: فهي أن يُخوّفها مثلاً من عدم رضاء الله عليها، مبيّناً حقَّهُ عليها، وما أوجبه الله من الطّاعة عليها للزّوج إلى غير ذلك من المواعظ الحكيمة والنّصائح النّافعة. فإذا لم تُجدِ وسيلةُ الوعظ واستمرتْ على ما هي عليه ينتقل إلى الوسيلة الثّانية، وهي الهجرُ في المضجع، وهو نوعٌ وأسلوبٌ من أساليب التّأديب، لمن تُحبُّ زوجَها ويشقُّ عليها هجرُهُ إيّاها.

واعلم أيها الزّوج أنّ الهجرَ هو عبارةٌ عن عدم التّفاتِكَ إلى امرأتك، وعدم استمتاعك بها، وعدم تقبيلها ونحو ذلك. وليس معناه ترك الفراش والحجرة فهذا فهم خاطىءٌ بعيدٌ كل البُعْدِ عن مراد الآية القرآنية. إنّ الهجر في المضجع معناه أن ينام الزّوج مع زوجته في الفراش ولكن يولّيها ظهرَهُ ولا يلتفتُ إليها، ولا يتصل بها اتصالاً جنسيّاً، لعلّ ذلك يكون مؤثّراً عليها في رجوعها عن نُشُوزها ولزومها طاعة زوجها وبرّه والإحسان إليه.

وأمّا الهجر بالكلام فلا يجوز له أن يهجرها فوق ثلاثة أيّام للنّهي عنه.

فإذا لم تَصْلُحْ هذه الوسيلة فلهُ أن يضربَها ضرباً غير مبرحٍ أي غير شاقٍّ ولا مؤذٍ، فلا يكسر لها عظماً. فالضّربُ المبرحُ لا يجوز حتى ولو علمَ أنّها لن ترجع عمّا هي عليه إلا بهذا النّوع من الضّرب، والأولى الأخذ بما هو أقلُّ من هذا. فضربُ الزّوجة في الشّريعة الإسلامية ليس بعزيمةٍ بل هو رخصةٌ، ولا يحل استعمال هذه الرُخصة إلاّ مع زوجة لم تصلحْ معها الموعظةُ، ولم يُفلحْ معها الهجرُ. بل إنّه لا يحل استعمال الضّرب مع المرأة إذا عرف أنّه لا ينفع في تهذيبها وزجرها عمّا عليه من العصيان.

وأكرّرُ القولَ بأنّ الضّربَ المرخّص فيه ليس ضربَ وحشيّةٍ ولا قسوةٍ، ولا يكون بالسّوط والعَصَا، بل يكون بيد ليّنةٍ أو بالسواك ونحوهما على شرط ألا يترك أثراً على مواضع الجمال كالوجه وغيره.

هذا هو الضّرب المرخّص فيه شرعاً، وتركه أولى وأفضل، وهو علاجٌ هيّن يُغتفر في حال الغيظ والغضب، فهو وسيلة لإظهار الغضب أكثر منه وسيلة للعقاب. هذه هي حقيقة الضّرب في شريعة الإسلام، وتلك الحقيقة التي لم يفهمها بعضُ المسلمين فهماً

صحيحاً، فأساؤوا استعمالَها إساءةً لا تُقرّها إنسانيتُهم ولا دينُهُم، وكم سمعنا ـ شهدَ الله ـ من أناس يضربون زوجاتهم بالعصيّ والأحذية في غير رحمةٍ ورأفة، ولو أنصفوا لآمنوا بأنَّ التّشريع الإسلامي لن يعيبه أن يتجاوز حدودَهُ الظالِمُون!؟.

وبهذا نكون قد أجملنا حقوقَ كلٍّ من الزّوجين على الآخر، وأوضحنا علاجَ القرآنِ الكريم لمشكلة النّشوز عندما ترفض الزّوجةُ طاعةَ زوجها. ومن الحقوق ما هو مشترك نبيّنه فيما يلي:

حقوق مشتركة:

ونتكلّم الآن عن أهمّ الحقوق المشتركة بين الزّوجين، والتي لا ينفرد أيٌّ من الزّوجين بها، وإنّما يكون الاشتراك فيها مساوياً ومرادفاً لكلٍّ منهما.

وأهمُّ هذه الحقوق المشتركة:

الاستمتاع لكلٍّ بالآخر:

فمن حقِّ كلٍّ من الزّوجين أن يستمتع بالآخر، بالنظر أو اللّمس لكل أجزاء الجسم، حتى الفرج نفسه، ولكل منهما أن ينظر إليه من صاحبه أو يلمسه.

قال الشوكاني: «ويجوز للزّوج أن يتلذَّذَ بدبر زوجته لكن بغير أن يُولج ذكرهُ فيه، لأنّ الإيلاجَ حرامٌ». بل إنّ مِنْ حقِّ الزّوج أن يطالب زوجته بالوطء في أيّ وقتٍ شاء لا قيدَ عليه في ذلك، إلاّ إذا كان هناك أسباب شرعيةٌ تمنع من ذلك كالحيض أو النّفاس أو المرض أو الإحرام بالحج، وللزّوجة هذا الحقُّ أيضاً؛ لأنّه يحل لها في هذه النّاحية ما يحلُّ له، ويجبُ عليه أن يُعفَّها. ويستمتعُ بها في حال حيضها، أو نفاسها بغير الجماع، ويُباح للزّوج تقبيلُ رحم زوجته.

النّسب والتّوارث:

ومن الحقوق المشتركة كذلك أن يثبتَ نسب الأولاد إلى كلٍّ منهما، فالأولادُ كما هم أولادُ الأبِ، فهم أيضاً أولادُ الأمّ!.

ومنها ثبوتُ حقّ التّوارث، فالزّوجية أحدُ الأسباب التي تُعطي حقَّ الميراث، فما

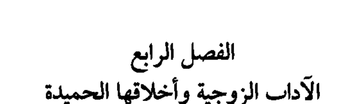
دامت الزّوجية قائمةً إلى حين الوفاةِ لأحدِ الزّوجين، فللآخر حقٌّ في ميراثه، اللّهمَّ إلا إذا كانت هناك موانع تمنع من ذلك كاختلاف الدّين، بأن كان الزّوج مسلماً والزوجةُ كتابيةً ـ ولقد حذّر العلماء من هذا الزّواج ـ لقول النّبيّ ﷺ:

«لا يرثُ الكافرُ المسلمَ، ولا المسلمُ الكَافِرَ»[١].

وهناك حقوقٌ أُخرُ جديرٌ بالزّوجين مراعاتُها بكلِّ عنايةٍ، وبكلِّ رعايةٍ، نوضحها في البحث التّالي.

---

(١) صحيح البخاري برقم ٦٧٦٤، وصحيح مسلم برقم ١٦١٤.



الفصل الرابع
الآداب الزوجية وأخلاقها الحميدة

البحـث الأوّل: إصلاح النّفوس والضّمائر لإصلاح حال الأسرة.

البحث الثّاني: وجوب الأدب الحسن بينَ الزّوجين.

البحث الثّالث: آداب الزّوجة وأخلاقها في بيت الزّوجيّة.

المبحث الأول:

إصلاح النفوس والضمائر لإصلاح حال الأسرة

لقد حرص الإسلام على تزكية المسلم وتطهيره من الدنس والرجس والذنوب والمعاصي بتربية الضمير، التربية الإيمانية الصّحيحة. وتعميق ذلك في نفسه حتى لتجدَ هذا الإيمان يشرق في النفس وتفيض أنواره وآثاره على السلوك والأخلاق وسائر المعاملات، فالمؤمنون والمؤمنات المؤتمرون بأمر الله والمنتهون عمّا نهى الله، يتصفون بصفة الحياء؛ التي هي من أجلّ الأخلاق التي يمنحها الله العبد ويجبله عليها. فالحياء يراد به في الإسلام ذلك الشعور من الخجل الذي يشعر به الإنسان في نفسه أمام فطرته، أمام الله تعالى حينما يميل إلى منكر، وهذا الحياء هو الحارس على الضمير الذي يكفُّ الإنسان عن الإقدام على الفحشاء والمنكر فهو إذا ارتكب سيّئةً أو معصيةً بدافع جبلته الحيوانية، حزّ في نفسه هذا الحياء ونغّص عليه عيشه، ويعود بالتّوبة والنّدم وإصلاح ما فات، والعزم على التزام جانب الصّواب، وقد أقسم الله بالنّفس اللّوامة، أي التي تلوم صاحبها عند ارتكابه المعاصي وتردعه عن مقارفتها وتحثُّه على التّوبة والنّدم. في قوله تعالى: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝١ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢﴾[1]. فاللوامة: صيغة مبالغة من اللوم، وهو شدة التّعنيف والمؤاخذة، فالنّفس اللّوامة: توقظ في صاحبها روح الإنابة والتّوبة، وتحمله حملاً على الرجوع عن غير سبيل المؤمنين، والاتجاه إلى الله تعالى لإصلاح ما فات، وطلب العفو عمّا اجترح من سيئات.

وقد جاءت أحاديث كثيرة تبيّن حقيقة الحياء الذي هو من جملة صفات النّفس اللّوامة، وما له من أثر في توجيه الإنسان إلى ما يعود بالنّفع على نفسه ومجتمعه، فهو جزء من الإيمان. بل هو قوام الفضائل ودعامة أساسية من دعائم الأخلاق الحميدة التي يبنى عليها سلوك الفرد المسلم. يقول رسول الله ﷺ: «إنّ الحياءَ لا يأتي إلاّ

---

(١) سورة: القيامة، الآيتان: ١ ـ ٢.

بخير»[١]. وقال أيضاً: «الحياءُ خيرٌ كلُّهُ»[٢] أي إنّ الحياء خيرٌ وكلُّ ما يصدر عنه من سلوك قولي أو فعلي فهو خيرٌ ولما كان الحياء تغيّراً نفسياً، وخُلقاً باطنياً يحول بين المرء وبين القبائح أو يمنعه من عمل ما يعاب به ويذم، أو يُنقد عليه ويُعنّف، كان لا شك خلقاً محموداً، لا ينتج إلاّ خيراً.

أمّا من فقد هذه الصّفة أو هذا الخُلُق خرج عن الفضائل كلها وتجرّأ على فعل المعاصي. يقول ﷺ في تحذير وذم من فقد الحياء: «إنّ ممّا أدْرَكَ النّاسُ من كلام النّبوّة الأولى؛ إذا لم تستحِ فاصنعْ ما شئتَ»[٣]، أي إن من لا يستحي فإنه يصنع ما يشاء من أفعال المعاصي والمنكر، فهذا وعيد للذين لا يستحيون، لأنّ الحياء أصل كل أعمال الخير والمعروف، روي عنه ﷺ أنه مرّ على رجل من الأنصار وهو يعظ أخاه في الحياء، فقال رسول الله ﷺ: «دَعْهُ فإنّ الحياءَ مِنَ الإيمانِ»[٤].

فالحياء يمنع الإنسان من ارتكاب المعاصي، ومقارفة الآثام، ويكف صاحبه عن ارتكاب القبائح ودناءة الأخلاق، ويحث على مكارم الأخلاق ومعاليها فهو من خصال الإيمان، التي يربيها الإسلام في النّفس فترتقي مدارج التقوى وتصل إلى درجة الإحسان يقول تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾[٥]. والله سبحانه وتعالى مطّلع على النّفوس وما تخفي الصدور فهو ينبّه عباده ويُحذّرهم بقوله: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾﴾[٦].

يقول ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية: «يُخبر الله عزّ وجلّ عن علمه التّام المحيط بجميع الأشياء جليلها وحقيرها، صغيرها وكبيرها، دقيقها ولطيفها، ليحذر الناسُ علمه فيهم، فيستحيُوا من الله حقَّ الحياءِ، ويتّقُوه حقَّ تَقْوَاهُ، ويراقبوه مراقبة من يعلم أنّه يراه، فإنّه عز وجل يعلمُ العين الخائنة، وإنْ أبدت أماناً، ويعلم ما

---

(١) صحيح البخاري ج ٨، ص ٣٥.
(٢) عون المعبود شرح سنن أبي داود ج ١٣، ص ١٥١.
(٣) صحيح البخاري ج ٨، ص ٣٥.
(٤) عون المعبود شرح سنن أبي داود ج ١٣، ص ١٥١.
(٥) سورة: النازعات، الآيتان: ٤٠ ـ ٤١.
(٦) سورة: غافر، الآية: ١٩.

تنطوي عليه خبايا الصدور من الضمائر والسرائر».

بهذه التّربية الإيمانية يُري الله سبحانه وتعالى عبادَهُ المؤمنين ويُرشدهم إلى اتّباع ما يُصلحهم ويُنقّي ضمائرَهُم ونفوسَهم من هوى الشّيطان ونزعاته ولم يكتف بهذا بل شرع وسائل وقائيّة حتى تساعد الإنسان على تخطي الإغراء ومقاومة الفساد.

الوسائل الوقائية لحماية سلامة النفس:

١ ـ غض البصر: أمر سبحانه وتعالى بغضّ البصر لأنّ النظرة هي أكبر خائنة نفسيّة، وهي سهم من سهام إبليس المسمومة، وهي نافذة القلب وبريده، لذا ورد الأمر في القرآن والسّنّة بغض النّظر، قال الله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾[١].

يقول الإمام القرطبي رحمه الله: «البصر هو الباب الأكبر إلى القلب وأعمر طريق الحواس إليه، ويحسب ذلك كثر السقوط من جهته، ووجب التحذير منه وغضه واجب عن جميع المحرمات، وكل ما يخشى الفتنة من أجله»[٢]. لذا ورد النّهي عن النّبيّ ﷺ عن جرير بن عبد اللّه قال: سألتُ رسول الله ﷺ عن نظر الفجاءةِ فأمرني أن أصرِفَ بصري»[٣] من أجل ذلك نهى رسول الله ﷺ عن الجلوس في الطرقات، فإن كان لا بدّ فيجب غضُّ البصر وعدم التّطلّع على عورات النّاس.

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النّبيّ ﷺ قال: «إيّاكم والجلوس في الطرقات» قالوا: يا رسول الله، ما لنا بدٌّ من مجالسنا نَتَحدَّثُ فيها؟! قال رسول الله ﷺ: «فإذا أبيتُمْ إلاّ المجلسَ فأعطُوا الطّريقَ حقَّهُ» قالوا: وما حقُّهُ؟ قال: «غضُّ البصر، وكفُّ الأذَى، وردُّ السّلام والأمرُ بالمعروف والنّهي عن المنكر».

ومن حرص النّبيّ ﷺ تنبيهه على غض البصر وعدم إرساله يقول ﷺ: «يا عليّ!

(١) سورة: النور، الآيتان: ٣٠ ـ ٣١.
(٢) الجامع لأحكام القرآن ج ١٢، ص ٢٢٣.
(٣) صحيح مسلم ج ٣، ص ١٦٩٩.

لا تُتْبِعِ النّظرةَ النّظرةَ، فإنّ لك الأولى وليستْ لك الآخرة»[١].

٢ ـ النّهي عن التّبرّج وإظهار الزّينة والعطر: وذلك كي يظل المجتمع نَقِيّاً سليماً، وتبقى النّفوس طاهرةً من نوازع الشر والفتنة، فأمر سبحانه وتعالى النساء أن يخفين زينتهنّ وحُسنَهُنّ، ونهاهنّ عن التّبرج، والسّفور. قال تعالى: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾[٢].

قال مجاهد: كانت المرأة تخرج تمشي بين يدي الرّجال، فذلك تبرج الجاهلية وقال مقاتل بن حيان: التّبرج: أنّها تلقي الخمار على رأسها ولا تشدّه فيواري قلائدها وقرطها وعنقها ويبدو ذلك منها[٣].

وقد وقع ما نهى عنه رسول الله ﷺ من تبرّج وسفور واختلاط وبالغت النساء في إظهار زينتَهُنّ ومحاسنَهُنّ واستجبنَ لنداء الشيطان وأعوانه من الكفرة الملحدين الذين زيّنوا لها الخروج عن أوامر الله فخرجت تعمل مختلطةً بالرجال في كل مجال تزاحمهم وتفتِنُهُمْ بخلاعتها وميوعتها واستهتارها بالآداب والأخلاق الإسلامية تقلد بذلك نساءَ الغرب، بل قد تفوقهنّ في التّكشّف وإظهار ما أمر الله بستره دون حياء أو خجل تغري بذلك شباب الأمة الإسلامية فتوقعه في الفتنة وارتكاب الفواحش، فلما تيسرت سبل اللذة المحرمة زهد الرجال في النساء وتركوا الزّواج فانتشرت ظاهرة العنوسة المزمنة، وفضّلَ الرِّجالُ حياة العزوبية على حياة الأسرة الآمنة المطمئنّة، لكثرة العرض وتوفر المُتَع ورخصها، ولن تعود الأمور إلى طريقها الصّحيح إلاّ إذا عادت المرأة إلى حشمتها وحجابها وحيائها. ففيهما الحماية والصون لعفافها واحترامٌ لشخصيتها، فعلى المرأة أن تلتزم بأوامر الدِّين والشّرع لأنّها الطريقة المُثْلَى لتطهير المجتمع من آثار الفواحش والابتعاد بها عن عوامل الفتنة ودواعي الغواية، فالإسلام يجفف موارد الفساد والفتنة ويسدُّ كلَّ الذرائع الموصلة إلى ارتكاب الفواحش، فنراه ينهَى النّساءَ عن الطّيب والتّعطر أثناء الخروج، ولو كن مستترات محجّبات، لأن العطر ينتشر في الجو فيحرك العواطف

---

(١) تحفة الأحوذي شرح سنن الترمذي ج ٨/ ٦١.
(٢) سورة: الأحزاب، الآية: ٣٣.
(٣) تفسير القرآن العظيم ج ٣، ص ٤٨٢.

والشهوات، ويُثير الخيال، ويُحرك الرّغبة الجنسية لدى الرجال.

يقول رسول الله ﷺ: «كلُّ عينٍ زانيةٌ، والمرأةُ إذا استعطرتْ فمرتْ بالمجلس فهي كذا وكذا، يعني زانية»[١]. وكل ما يؤدي إلى إثارة الرغبات وكوامن الغريزة فهو محرم حتى ولو كان مجرد بعض الحركات والأصوات التي تؤثر في سمع السّامع، فتثير في نفسه الرّغبة الهاجعة يقول تعالى: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾[٢]. ويقول ابن كثير في تفسير هذه الآية: كانت المرأة في الجاهلية إذا كانت تمشي في الطريق وفي رجلها خلخال صامت لا يُعلم صوتُهُ، ضربت برجلها الأرض. فيسمع الرجالُ طنينَهُ فنهى الله المؤمنات عن مثل ذلك وكذلك إذا كان شيء من زينتها مستوراً، فتحركت بحركة لتظهر ما هو خفي، دخل في هذا النهي[٣]. ومن ذلك ما ترتديه المرأة من أحذية ذات كعوب معدنية تطرق السمع بوقع خطواتها، ممّا يُثير في النّفس الرّغبة في التّعرف على لابسته ويفتن سامعها بالنظر إليها والتمعّن في مفاتنها ـ ولم يقتصر النّهي عن ذلك كله، بل حتى صوت المرأة فقد وجه الله سبحانه وتعالى الخطاب للمرأة المسلمة من خلال زوجات النّبيّ ﷺ ـ وهنّ القدوةُ الأعلىٰ ـ بألاّ يَخْضَعْنَ بالقول حتى لا يطمع ذلك فيهن مرضَى القلوب والنفوس، فيقول الله تعالى: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾﴾[٤]. ليس معنى ذلك أن ترفع المرأة صوتها بالغلظة والخشونة وإنّما يجب أن يكون صوتها الطبيعي في المخاطبة المعتدل الخالي من التكسّر والإغراء وتكون جادّة في كلامها متزنة الشخصية، وبذلك تحظى باحترام المجتمع وبالأجر العظيم من الله تعالى.

٣ ـ الحجاب وستر العورة: إنّ من أسباب انتشار المغريات التقليد الأعمىٰ لكل ما هو آت من الغربِ. فبيوت الأزياء ومصانع التجميل الغربية وجَدَتْ من جسَدِ المرأة تجارةً رابحةً، فأنتجت ولا تزال تُنتج إلى اليوم أزياء فاضحة، ومساحيق ملونة لكل فصل من فصول السنة بل لكل مناسبة، وروّجتْ لمنتجاتها بمختلف الوسائل الإعلامية

(١) تحفة الأحوذي شرح جامع الترمذي ج ٨، ص ٧١. وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.
(٢) سورة: النور، الآية: ٣١.
(٣) تفسير القرآن العظيم ج ٣، ص ٢٨٥.
(٤) سورة: الأحزاب، الآية: ٣٢.

والدعائية. ونجحت خطة اليهود في إفساد المرأة المسلمة فانجرفت في تياراتهم الهدّامة. فخرجت متبذّلة سافرةً لا تجد أيَّ غضاضةٍ في اختيار كل ما يُغري من الطّيب واللّباس لترتديه، وتخرج من المنزل إلى أماكن اللّهو والفجور، من مسارح وأندية وملاعب ومصايف، فكان من نتائج ذلك أن انتشر الفسق والزّنا، وانهدم كيان الأسرة، فعزف الشّباب عنها، وانهارت الآداب وانحلت الأخلاق، فلا صلاح للمجتمع إلا بالرّجوع إلى تطبيق تعاليم الإسلام الذي فيه الخير والسعادة لبني البشر لأنّ أول ما اهتمَّ به الإسلام هو طهارة المجتمع والأفراد ومن ذلك إبطال عادة التعري وإبراز المفاتن والعوارت، التي كانت من خصائص الجاهلية القديمة فأصبحت من خصائص الجاهلية الحديثة، لا تختلف عنها بل تزيد. ويبين القرآن الكريم الأساس النّفسي في ارتكاب هذه الموبقات وهو التقليد الأعمىٰ يقول الله تعالى: ﴿ وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾[1].

قال مجاهد: كان المشركون يطوفون بالبيت عُراةً يقولون: نطوف كما ولدتنا أمّهاتُنا، وأكثر ما كان النساء يطفن عُراةً باللّيل، وكان هذا شيئاً قد ابتدعوه من تلقاء أنفسهم، واتبعوا فيه آباءهم، ويعتقدون أنّ فعل آبائهم مستند إلى أمرٍ من الله وشرعٍ، فأنكر الله تعالى عليهم ذلك[2]. فلما جاء الإسلام أمرَ النّاسَ بالعودة إلى فطرتهم السّويّة، وترك الجاهلية الهابطة إلى درك الحيوانية «من كشف الأجساد والعورات» وهذا مما لا يليق بالإنسان الذي كرَّمَهُ الله سبحانه وتعالى، فقال: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِي سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾[3].

واللباس قد يطلق على ما يُواري السوأة، وهو اللباس الداخلي، والرياش قد يُطلق على ما يستر الجسم كله ويتجمَّلُ به، وهو ظاهر الثياب، كما يطلق الرياش على العيش الرّغد، والنّعمة والمال، وهي كلها معان متداخلة ومتلازمة، وكذلك يذكر هنا «لباس التّقوى» ويصفه بأنّه خير! . فهناك تلازم بين شرع الله، اللباس لستر العورات والزّينة، وبين التقوى كلاهما لباس هذا يستر عورات القلب ويزينه، وذلك يستر عورات الجسم

(١) سورة: الأعراف، الآية: ٢٨.
(٢) تفسير القرآن العظيم ج ٢، ص ٢٠٨.
(٣) سورة: الأعراف، الآية: ٢٦.

ويُزينه، وهما متلازمان فعن شعور التقوى لله والحياء منه ينبثق الشعور باستقباح عريّ الجسد والحياء منه، ومن لا يستحي من الله ولا يتقيه لا يهمه أن يتعرّى، وأن يدعو إلى العِريّ؛ العريّ من الحياء والتّقوى، والعريّ من اللباس وكشف السوءة! إن ستر الجسد حياءٌ ليس مجرد اصطلاح وعرف بيئي كما تزعم الأبواق المسلّطة على حياء النّاس وعفتهم لتدمير إنسانيتهم، وفق الخطة اليهودية البشعة التي تتضمنها مقررات حكماء صهيون. إنّما هي فطرة خلقها الله في الإنسان، ثم هي شريعة أنزلها الله للبشر، وأقدرهم على تنفيذها بما سخر لهم في الأرض من مقدرات وأرزاق، والله يُذكّر بني آدم بنعمته عليهم في تشريع اللباس والسّتر صيانة لإنسانيتهم من أن تتدهور إلى عرف البهائم ﴿ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ۝٢٦ ﴾[١] ومن هنا يستطيع المسلم أن يربط بين الحملة الضخمة الموجهة إلى حياء النّاس وأخلاقهم والدّعوة السّافرة إلى العري الجسديّ ـ باسم الزينة والحضارة والمودة ـ وبين الخطة الصهيونية لتدمير إنسانيتهم.

إنّ الحياء من الإيمان وتقوى الله ومراقبته في السر والعلن تقتضي العمل بأوامره واجتناب نواهيه، فستر الجسد والعورة، مأمور به كل إنسان، وخاصة المسلم ولا خلاف بين العلماء في وجوب ستر العورة عن أعين النّاس، واختلفُوا في العورة وخلاصة الخلاف، أن عورة الرجل ما بين سرته وركبته، وعورة المرأة كلّ جسدها ما عدا الوجه والكفين.

---

(١) سورة: الأعراف، الآية: ٢٦.

البحث الثاني:

وجوبُ الأدب الحَسَن بينَ الزّوجين

إنّ الأدبَ الحسنَ والخُلُقَ الحسنَ واجبٌ بين الزوجين ـ وهو ما يُقال عنه: الاحترام المتبادل ـ وهذا هو المصباح الذي يشعُّ في جوّ الحياة الزوجيّة بأنوارها وضيائها، فالزّوجُ يُحبُّ أن يشعر باحترام زوجته إيّاه، وأنّها تسعى إلى إيجاد التّفاهم معه بالفطرة السّليمة، فيجب على الزوجة أن تذكره ذكراً حسناً، وأن تفخر به أمام أهلها وأمام أهله، فالزّوج الذي تقدّره زوجتُهُ يزيدُ من تقديره لها، والزوجة التي يُقدّرها زوجها يزيدها تقديراً له.

وأمّا تلك التي تبخسُ من قدر زوجها، فلا تعترف بفضله، ولا تعتزُّ بهِ، فهي تفوّت على نفسها حقَّ تقدير زوجها لها، وكذلك الزوج الذي لا يعترف بفضل زوجته ولا يعتزُّ بها، فهو يجرُّ على نفسه سُخْطَ زوجته عليه.

وما أجمل أن يكون الاحترام المتبادل بين الزّوجين قائماً على الدّوام، وأن يكون عن طيب خاطر وراحة نفس، لأنه يُصبح مع الزّمن أمراً طبيعياً، حيث يكون كلٌّ منهما حريصاً على حفظه لشعور الآخر.

وما عسى أن يكون هذا التّبادل الإيجابي بين الزّوجين إلاّ أن يعكس على حياتهما المودّة والألفة والمحبّة!!.

إنّ الكلمة الطّيّبة بين الزّوجين لتعملُ عملها الفاعل في تحقيق التّفاهم، حتى يشعرَ كلٌّ من الزوجين أنّه بحاجة إلى الآخر، لاستكمال سعادته، وكُلّنا يَوَدُّ أنْ يُقدَّرَ وأن يُذْكَرَ بخيرٍ، وأكثرُنَا لا يألُو جهداً في إتقانِ عمله إذا سمع كلمةَ حمدٍ، أو عبارةَ تقديرٍ، فالطريق إلى قلب الزوجة أن تدعها تدرك أنّك تعرف قيمتها ولا تنكرها.

إنّك تعمل جاهداً على إجابة مطالبها المادية، فهل فكرت في تغذية روحها

وعقلها؟ إنّ ما يتعاطاه الجسم لا يلبث أن يُفقد، أمّا الروح فهي بحاجة إلى إشباع عاطفي، فإذا فقدت هذا العنصر غدت كالتمثال الذي لا حراك فيه ولا حياة!.

وإذا كان من نقد لتصرفاتها فإنه يجب ألا تنسى أيضاً الاحترام والتقدير، فحاذر أيضاً الطريقة المباشرة، وتجنب النقد الصريح لتصرفات زوجتك وذوقها وزينتها، ويكفيك إهمال تقريظ ما لا يُعجبك منها، ثم اختلقْ فرصةً تمتدح بها شيئاً آخرَ لديها، فعند ذلك ستشعر هي بالمقارنة أن الشيء الذي أهمل الزوج امتداحه لم يعجبه، ومن ثم تكف عنه إن كانت حصيفةً. إنّ المرأة أسيرة لمن يُعاملها بحسن التقدير والرقة والدّين والتّسامح والتجاوز عن التّوافه والمحاسبة الرقيقة والعتاب النّاعم الخفيف الوقع على الأسماع، لأنّ كل ذلك احترام منك لشخصيتها وإكرام لنفسها، بل هو في الواقع إكرام لنفسك في الوقت نفسه، فالمرء لا يتوخى كرم النّفس والأدب مع الغير لأنّهم سادة كرام فحسب، بل لأنّه أيضاً سيد كريم وإنسان كبير. وهنا يجب أنْ نعلم أنّ الالتزام بالآداب الحسنة الكريمة من حقوق الأسرة:

فيجب على كلّ فرد في الأسرة أن يعمل على أن يكون بيته أسعد مكان، فخشونة المعاملة وخشونة القول والإساءة وإثارة الشحناء ونحو ذلك، إذا كانت كلها خارج البيت رذيلة فهي في البيت أرذل، وممّا يُوسف له أنّ كثيراً من الناس يتجملون في أخلاقهم مع أصدقائهم ويتبسَّطون في الحديث مع من يتعاملون معهم، فإذا حلُّوا في بيوتهم تبدّلت فيهم هذه الأخلاق الرضية إلى قسوة وخشونة وفظاظة، وانقلب الصوت الهادىء المؤدّب إلى هجرٍ في القول وسُوءٍ في الأدب، والحق أنّ أدلّ شيء على الأخلاق الحقيقية إنّما هو خُلُق البيتِ لا خُلُقُ الشارع، فخُلُقُ الشّارع خُلُقُ التّصنُّعِ، كالثوب الجميل يلبسه صاحبه إذا خرج، ويخلعه إذا عاد!.

فلا يليق بالزّوج أن ينالَ منه خيرَ خُلُقه الحسن رجلُ الشّارع، ولا ينال منه شيئاً من أهله. ولهذا قال رسول الله ﷺ: «خيرُكم خيرُكم لأهلِه، وأنا خيرُكم لأهلي»[1].

---

(١) صحيح الجامع الصغير برقم ٣٣١٤.

المبحث الثّالث:

آداب الزوجة وأخلاقها في بيت الزوجية

إن آداب الزّوجة في بيت الزّوجية لها آثارها الطّيّبة في الحياة وهذا تفصيلها: إنّ الزوجة الكريمة في أعين الرجال هي التي لا تنسى أنّها أنثى، فكلمة امرأة عند معظمهم تعني «الأنوثة»، والأنوثة تعني بدورها الرقة والجاذبية والدّلال. غير أننا نشهد في أيامنا هذه بعض الدعوات المنحرفة التي يعتقد أصحابها أن الجاذبية والرّقة والدّلال أمور تسيء إلى استقلالية المرأة، ولا تفيد إلاّ في إذكاء روح التّعالي والغرور عند الرّجل!.

ولا شك أن مثل هذه النظرة خاطئة تماماً ومنافية لمنطق الأشياء حسبما يشير كثير من علماء الاجتماع والنفس، فالأنوثة الكامنة في جمال المرأة تقوم بالدّور الأساسي في الإبقاء على التّوازن الطبيعي في العلاقة بين الجنسين، مثلما أن جاذبية الزهرة اليانعة ونضارتها هما علة التّوازن الطبيعي مع النّحلة التي تمتص الرحيق لتحوّله إلى عسل، وفي نفس الوقت تنقل غبار الطلع من زهرة إلى زهرة؛ فيكون التلقيح، ويكون الثمر، وتكون الحياة!.

إنّ كل امرأة تُعنى بمظهرها الخارجي، وتسلك سلوك الأنثى، فتحرص على إبراز رقتها، وإظهار جاذبيتها، وتتحلى بدلالها، مثل هذه المرأة تعطى الدليل على تقديرها لأنوثتها، وتبرهن على رغبتها المشروعة في أن تجذب وترضي زوجها.

● **ومن أدبها أن تراعي الأولويات:**

تعمل الزّوجة الكريمة غالباً وفقاً لنظام الأولويات، وفي هذا النظام تحتل العلاقة بين الزوجين ـ العاطفية والجسدية ـ المقام الأول.

فلا تهتم المرأة بشيء مثل اهتمامها بزوجها، لأنها تعلم أن هذا هو أحد مقومات السعادة الزوجية. يقول أحد كبار علماء النفس: «إن المؤسسات الزوجية الناجحة هي

التي تقوم على [نظام الأولويات] المدروس دراسة وافية». وهذا يعني أنه لا ينبغي للمرأة أن تترك حبها لأولادها واهتمامها بهم يطغى على حبها واهتمامها بزوجها.

ومن مقتضيات نظام الأولويات ألاّ تظن المرأة أن عملها الخاص يأتي في المقام الأول، فالمقام الأول هو للعلاقة بينها وبين زوجها كما سبق أن أشرنا. وعلى ذلك فيلزم أن تتخلى المرأة عن عملها إذا وجدت فيه ما يعارض أو يُعكّر صفوَ حياتها الزوجيّة.

● **ومن أدبها: أن تكون منطقية في متطلباتها:**

وفي المَثَلِ الطّريفِ: «إنّ المرأة لا تريد إلاّ الزّوج، فإذا حصلتْ عليه أرادت كلَّ شيء!».

بعض النّساء يدفعن أزواجهن في سبل شائكة وملتوية لا قِبَلَ لهم بها، ثم يثرن ويتذمرن إذا أعلن الزّوج عدم قدرته على تحقيق شيء من تلك المتطلبات.

وهذا يؤدي وفقاً لطبيعة الأمور بالحياة الزوجية إلى طريق مسدود بالعقبات المصحوبة بالمشاحنات؛ ممّا يعني نزاعاً في صميم تلك الحياة قد يترتب عليه انهيارها.

ومن هنا قال الشاعر:

إنّـك إنْ كلفتنـي مـا لـم أُطـقْ ساءك ما سـرك منـي مـن خلـق

وقد اعتبر معاذ بن جبل المرأة التي من هذا القبيل من الفتن وعلى الخصوص فتن السّراء، التي يخشى على المؤمنين منها.. فعن رجاء بن حَيْوة، عن معاذ بن جبل قال: «إنّكم ابتليتم بفتنة الضراء فصبرتم، وإنّي أخاف عليكم من فتنة السّراء: وهي النّساء، إذا تحلين بالذهب، ولبسنَ رِيْط الشّام، وعصب اليمن؛ فأتعبن الغني، وكلفنَ الفقير ما لا يُطاق».

والمرأة الصّالحة لا تمثل إطلاقاً أي لونٍ من ألوان الفتنة للرجال؛ بل هي عون لهم على الفتن؛ إذ تحكّم دائماً عقلها في مثل هذه الأمور، فلا ترهق زوجها بطلبات لا منطقية، ولا تحمله فوق طاقته، ولا تثقل كاهله بالديون في سبيل إشباع بعض الرغبات أو النزوات. ومن الأمثلة النادرة التي يحدثنا بها التاريخ عن مثالية بعض الزوجات

اللاتي يقدرن ظروف أزواجهن تقديراً لا حدّ له، حتى لو كان على حساب مصلحتهن ـ ما ترويه كتب الطبقات عن فاطمة الزهراء عندما مرت بها وبزوجها عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه بعض الصعوبات الاقتصادية، مما أدّى بها إلى أن تطوى ثلاثة أيام جوعاً، ولما رآها الإمام عليّ وقد اصفرّ لونها، قال لها: ما بك يا فاطمة؟ قالت: منذ ثلاث لا نجد شيئاً في البيت! فقال لها: ولماذا لا تخبريني؟ فأجابت: ليلة الزفاف قال لي أبي رسول الله ﷺ: «يا فاطمة إذا جاءك عليّ بشيء فكليه، وإلا فلا تسأليه!».

● **ومن أدبها: أنْ لا تختلق النّكَد:**

إن سعادة الرّجل في حياته تتوقف على مزاج زوجته أكثر من أي شيء آخر.

وقد تتمتع المرأة بكل فضيلة أخرى تحت الشمس، ولكن هذه الفضائل كلها تصبح لا وزن لها ولا قيمة إذا كانت المرأة ذات «مزاج نكدي».

فالمزاج النكدي للمرأة يسبب من التعاسة للرجل ما يسببه السّفه.

وتدل الاستقراءات العديدة لكثير من الزيجات على أن النّكد الذي تختلقه المرأة هو من أكبر العوامل التي تقوّض صرح السعادة الزوجية.

وقد قال كثير من الرجال: إن أسوأ صفة من الممكن أن تتصف بها المرأة هي: «اختلاق النكد».

وتشير الدراسة المتأنيّة للأسباب التي تدفع بعض الرجال إلى هجر زوجاتهم، إلى أن معظم الرجال لا يفعلون ذلك بحثاً عن زوجة أجمل أو أكثر شباباً، وإنما فراراً من الجو القاتم المحطم للأعصاب الذي كانت تظلل به الزوجة الأولى البيت مما تختلقه من نكد، وتفتعله من صِدَام!.

وبرغم ذلك، فما زال كثير من النساء منذ عهد الكهوف حتى اليوم يحلو لهنّ «اختلاق النكد»! في حين أن المرأة الصّالحة التي يكرم الله تعالى بها بعض الرجال، تجد سعادتها في كونها نبعاً فيّاضاً بالحبّ والسكينة.

● **ومن أدبها: أن تحافظ على صورتها الحلوة:**

لعل أول ما يجعل الرّجل يتعلق بالمرأة هو صورتها الحلوة التي رآها عليها أول

مرة. ولكن للأسف بعض النساء ينسين هذه الحقيقة بعد الزواج؛ فيهملن أنفسهنّ شيئاً فشيئاً؛ فتراها في المنزل منكوشة الشعر، أو تعصبه بإهمال، ورائحة المطبخ تستقبلك منها، وتظل مرتدية الملابس التي كانت تؤدي بها سائر أعمال المنزل، متجاهلة الذوق العام والآداب المرعية والجوانب النفسية والجمالية، ولا تزال مصرّة على هذا الإهمال لا سيما بعدما يجيء العدد الكافي من الأولاد؛ فها هي قد كبّلت الرجل. فلا يستطيع فراراً!!.

وهذا خطأ قاتل؛ إذ يؤدي إلى تصديع وانهيار الصورة التي رسمها الرّجل عن المرأة ساعة زواجه بها؛ ولا شك أن انهيار صورة المرأة الحلوة في نظر زوجها سيؤتي عواقبه الوخيمة.

ولذلك لا نندهش عندما نجد زوجة يهملها زوجها، ويتطلع إلى غيرها، بينما نجد زوجة أخرى قليلة الجمال ولكنّها تمتلك قلب زوجها وعواطفه بحفاظها على أناقتها، وحرصها على نظافتها وبهاء زينتها وملبسها.

ومن أدبها: أن تتحلّى بـ «اللّباقة»:

تضعُ الزّوجةُ الكريمة في حسبانها دائماً أنه ليس هناك أجدى من «اللباقة» في تحقيق الانسجام مع الرّجل، فهي السحر الذي يسمح لها أن تنفذ إلى أعماق قلبه ووجدانه في أغلب الأحيان.

واللّباقة تعني بكل بساطة: الكلمة المناسبة، الفعل الدائم، وردّ الفعل الذكي.

أو بعبارة أخرى: إن المرأة اللّبقة هي التي تلبس لكل حالٍ لبوسها! وتستطيع أن تحول الموقف المضاد بذكاء الكلمة والفعل إلى صالحها. ومن أفضل ما يحدثنا به التاريخ من لباقة المرأة أَمَة كانت أو حرّة ما يرويه الأصمعي في الأغاني، فيقول: دخل رجل على الرشيد ومعه جارية للبيع، فتأمّلها الرشيد، ثم قال: خُذْ جاريتك، فلولا كلف في وجهها، وخنس في أنفها، لاشتريتها. فانطلق الرّجل بها، فلما بلغت السّتر، قالت: يا أمير المؤمنين، أرددني إليك، أنشدك بيتين حضراني، فردّها. فأنشدت تقول:

مـا سلـم الظبـيُ علـى حُسنـه	كـلا ولا البـدر الـذي يُـوصـف
الظبـي فيـه خُنَـسٌ بيّـنٌ	والبـدرُ فيـه كَلَـفٌ يُعـرف

فأعجبت الرشيد بلاغتُها، فاشتراها، وقرّب منزلتها، وكانت من أحظى جواريه عنده.

وأيضاً ممّا يرويه المؤرخون في الدّلالة على لباقة بعض النساء: أن خالد بن يزيد بن معاوية وقع يوماً في عبد اللّه بن الزبير منافس بني أميّة اللدود، وأقبل يصفه بالبخل، وكانت زوجته رملة بنت الزبير أخت عبد اللّه جالسة، فأطرقت ولم تتكلم بكلمة، فقال لها خالد: ما لك لا تتكلّمين؟! أرضىً بما قلتُه أم تنزّهاً عن جوابي؟! فقالت: لا هذا ولا ذاك! ولكن المرأة لم تخلق للدخول بين الرجال، إنما نحن رياحين للشّمّ والضّمّ! فما لنا وللدخول بينكم؟!. فأعجبه قولها ورجاحة عقلها!.

ومن المعلوم أنّ العرب كانوا يفضلون البكر عن الثيب، ولكن برغم ذلك أحياناً كانت الثيب تجذبهم إذا ما تميزت باللّباقة وذكاء الكلمات، مما يكشف لنا عن أهمية هذه الصّفة في المرأة بالنسبة للرّجل.

فمثلاً: عرضت جارية على الخليفة المتوكل، فقال لها: أبكرٌ أنت أم إيشْ؟
فقالت: أنا إيشْ يا أمير المؤمنين.
فضحك واشتراها.

وقال الجاحظ: قلت لجارية ببغداد، أبكر أنت؟ فقالت: نعوذ بالله من الكساد.

وقال عليّ بن الجهم: اشتريت جارية، فقلت لها: ما أحسبك إلاّ بكراً!؟ فقالت: يا سيدي كثرت الفُتُوح في زمان الواثق.

فتلك النّصوص والوقائع تكشف لنا مدى أهمية لباقة المرأة وقدرتها على الحديث الذكي، بالنسبة للرجل. وما أجدر المرأة أن تُنمّي من قدرتها على انتقاء ألفاظها، واختيار كلماتها، وحسن حديثها؛ فإن هي استطاعت ذلك أمكنها أن تضيف إلى مقوماتها الجذّابة صفة جديدة.

● **ومن أدبها: أن تحرص على تحصيل خبرات جديدة:**

تتميّز بعض النساء عن غيرهنّ بقدرتهن المتواصلة على تعلم كل جديد، والاستفادة المتوالية من خبرات الآخرين وتجاربهم؛ انطلاقاً من الإيمان القوي بأنّ

أفضل وسيلة «للتجدد» هي التعلم المستمر وإضافة خبرات جديدة إلى خبراتها السابقة.

ومثل هذه المرأة تعتبر نعمة من نعم الله على بعض الأزواج، أمّا الأخرى فنقمة وبلاء عليه؛ فليس أصعب على الرّجل وأدعى لشعوره بالسأم والملل من امرأة تقليدية لا تجدد نفسها وترفض تعلم أساليب وخبرات جديدة تُعلي من قدرها وتزيد من ثقافتها، وتنمي شخصيتها.

وقد حدثني صديق عن واحدة من هذا الصنف قضت على حياتها مع صديق له بسبب إصرارها على ما اعتادت عليه من عادات متخلفة تعكس وجهة نظر غير سوية للحياة ولطبيعة العلاقات الإنسانية. فخسرت تلك الحمقاء ـ على حد تعبير ذلك الصديق ـ رجلاً من الصعب عليها أن تعوضه. والمرأة الكريمة على النقيض من تلك الحمقاء؛ حيث تتمتع بعقلية مرنة تتقبل كل جديد، وتتعلم من كل تجربة، وعندها الاستعداد للتخلي عما تعلمته من أساليب غير ناضجة لا تتلائم بأيّ حال من الأحوال مع ظروف حياتها الجديدة، ولذا فهي امرأة تملك من النّضج والاكتمال ما يتيح لها أن تواكب حركة الحياة والتطور الإنساني في إطار تعاليم دينها وقيمه العُليَا.

● ومن أدبها: أن تكون مستقلّة الشخصية عن أمّها:

أحياناً بعض الزوجات تحتم عليها الظروف أن تظل بعد الزواج طفلة تعتمد في كل شيء على أمها، ولا تستطيع أن تتصرّف في شؤونها وشؤون زوجها إلاّ على ضوء ما تُمليه عليها والدتُها؛ ممّا قد يضيق به صدرُ الرّجل الذي يُريد لزوجته أن تكوّن شخصيةً مستقلةً تصدر في أفعالها عن وعي ناضج وتفكير شخصي واعٍ.

ولا شك أن مثل هذه الزوجة إنما ينقصها نضج الشخصية الذي يسمح لها بأن تستقل في تفكيرها وسلوكها عن والديها أو من كان يقوم مقامهما.

ولسنا بحاجة للتأكيد على أن المرأة الصّالحة بعقليتها المتكاملة وشخصيتها النّاضجة، مستقلة تماماً عن كل واحدٍ سوى زوجها الذي يمثل نصفها الآخر.

● ومن أدبها: أن تجيد معاملة أهل الزّوج:

كثيراً ما تحدث مصادمات بسبب عدم القدرة على التعامل مع أهل الزّوج، فقد

يكون أحدهم لا يُحْسِنَ اختيار ألفاظه، أو سيّىء التّصرف، ولا سيما الحموات.

والمرأة العاقلة هي التي تستطيع كظم غيظها، وتلتمس الأعذار لمن تتعامل معهم، ولا تعتبر زوجها مسؤولاً عن تصرفات أهله، فلا تزرُ وَازرةٌ وِزْرَ أخرى.

ومن أفضل الأساليب التي تلجأ إليها الزّوجة الحكيمة أنها تضع نفسها موضع حماتها، وتعاملها بالشكل الذي تحب أن تُعامل هي به عندما تُصبح حماة. وعندما تشعر الزّوجة هذا الشعور، وتعمل من ذلك المنطلق فسيهون عليها كثيرٌ من المُنغّصات التي تُعكّر عليها صفوَ علاقاتها بزوجها.

● **ومن أدبها: أنْ تعلم أنّ النّظافة أبقى لها من الجمال:**

والزّوجة الكريمة تعمل دائماً على أن يأنس منها زوجها التجمل والزينة، وتحرص على أن تبدو نظيفة في نفسها وفي بيتها وكل متعلقاتها؛ لأنّها تعلم أن النظافة أبقى لها من الجمال، وأنّ الزّوجة المهملة لنظافتها تصبح مُنفّرةً لزوجها.

ومن أعجب الأعاجيب أن هناك من النساء مَن تُصِرُّ على أن ترتدي أجمل الثياب وتتحلّى بأنواع الحليِّ حينَ تخرج من المنزل، أمّا في البيت فلا جمال ولا زينة ولا . . . وشبيهة بها من تُصرّ على عدم إزالة الشعر غير المرغوب فيه، أو من ترفض إزالة بعض الروائح من أماكن معينة!! ولو تعلم أمثال تلك النّسوة مقدار ما تمثله هذه الأفعال من معاول هدم، لما اجترأت على اقترافها، ولاستجابتْ لأوامر الشّريعة بالنظافة والتّطهّر. . . تروي السيدة عائشة: «أن امرأة من الأنصار، سألت النّبيّ ﷺ عن غُسْلها من المحيض، فعلّمها النّبيّ كيفَ تَغتسل. . . ثم قال لها: «خُذِي فرصةً مُمَسَّكةً ـ أي قطعة من القطن بها أثر الطيب ـ فتطهري بها».

قالت: كيف أتطهرُ بها؟ قال: «تطهري بها». قالت: كيف يا رسول الله أتطهرُ بها؟ فقال لها: سبحان الله، تطهري بها!!». قالت السيدة عائشة: فاجتذبتُها من يدها، فقلتُ: ضعيها في مكان كذا وكذا، وتتبعي بها أثر الدّم، وصرحت لها بالمكان الذي تضعها فيه»[١]. فهذا توجيه تعمل وفقاً له كل امرأة صالحة، فتتطهر من آثار الرّوائح

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

غير الطّيّبة بوسائل مختلفة حسب مقتضيات التّطور والحداثة؛ لِما في ذلك من أثر جميل في نفس الزّوج.

ولنا وقفة أخرى تفصيلية مع هذه المسألة عند الحديث عن وسائل الدخول إلى قلب الرّجل في بحث «ليلة الزّفاف ليلة العمر».

ولكن ينبغي أن نوضّح قبل ذلك أن تأكيدنا على أهمية التّطهر والنّظافة لا يعني مطلقاً دعوة إلى الإسراف والإفراط في هذا الأمر، ولذا فيجبُ أن تؤخذ هذه الدعوة في إطار من الوسطية والاعتدال... وذلك ينقلنا إلى النّقطة التّالية.

● ومن أدبها: أن لا تفرط في الزّينة ومجاراة خطوط الموضة:

فهي واثقة بنفسها، وليس لديها شعور بالنّقص يدفعها إلى خوض مجالات غريبة تحاول بها تعويض هذا النقص، في حين أنّ المرأة التي تشك في نفسها، وينتابُها شعورٌ بالنّقص تجاه الأخريات من أترابها، تحاول أن تؤكّد شخصيتَها في دائرة الأنوثة بالاستزادة من الزينة وباتّباع أحدث الموضات، معتقدةً أن في هذا تعويضاً للشعور بالنّقص، وأنّها بذلك سيُمكنها أن تفوز باهتمام الرّجل.

ولكن.. هيهات!.. فليس بالإسراف في الزينة والموضة تستطيعُ المرأة أن تفوز بالرجل، وإنّما يمكنها ذلك بأشياء أخرى كثيرة طالما أشرنا إليها في كتابنا هذا.

● ومن أدبها: أن تكون أمينةً عليه مخلصةً له:

والزّوجة الكريمة مخلصة لزوجها حتى لو كانتْ لا تُحبّه، فطالما ارتبطتْ به بعلاقة الزوجيّـة التي تعد من أرقى العلاقات الإنسانيّة فإنّها تحترم تلك العلاقة أبداً. أما الأخرى التي يحتقرها الجميع، فهي التي تجيد اللّعبَ على زوجها في الليل، ثم على عشيقها في النّهار. والغريب في أمرها أن تغار على من تخون وأيضاً على من تعشق، فهي مثلاً تثور عندما يذكر أحدهما اسم امرأةٍ أخرى على لسانه أمامها مع أنها تُعاشر كلاًّ منهما على التّوالي!!.

ولن تدوم علاقة قامت على الخيانة والخداع، فكما أنّ للظلم نهاية، فإنّ للخداع أيضاً نهاية، لكنها غالباً ما تكون مؤلمة، والخاسرة طبعاً هي المرأة.

ولأنّ المرأة الصّالحة تعرف هذه الحقائق، أو تحسها على الأقل بحدسها البصير، ولأنّها امرأة سويّة مهذبة يسري في روحها وجسدها حب الأخلاق والفضيلة قبل كل حب، لا تسمح لنفسها بالتّوجه نحو شخص آخر غير زوجها. وفي أسوأ الظّروف عندما يلفت نظرها رجل آخر فإنّ الأمر يبدأ وينتهي عند هذا الحدّ.. حدّ لفت النّظر، دُونَ أن تسمح لنفسها في إقامة علاقة من أيّ نوع مع ذلك الرّجل.

ولا شك أنّ تلك المرأة الأمينة المخلصة تستحق الثّناء الجميل الذي أثنى به عليها القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿فَٱلصَّـٰلِحَـٰتُ قَـٰنِتَـٰتٌ حَـٰفِظَـٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ﴾(١).

فالحافظات للغيب ذلك الوصف الجميل للمرأة الصّالحة يقصد به أن من سماتها الجوهرية حفظ غيبة الزّوج بالإخلاص له والوفاء للميثاق الغليظ الذي بينهما، فلا تخونه في نفسها ولا ماله.

ولم يكتف الإسلام بمدح تلك الصفة في المرأة في القرآن الكريم فحسب، بل اعتبرها الرسول ﷺ إحدى صفات ثلاثة تتميز بها: «خير النّساء»!!.

نعم «خير النّساء»!! فقال في الحديث الصّحيح: «خيرُ النّساء مَنْ إذا نظرتَ إليها سرَّتك، وإذا أمرتَها أطاعتك، وإذا غبتَ عنها حفظتْكَ في نفسِها ومالِكَ». وفي رواية أخرى لهذا الحديث اعتبر الرسول ﷺ مثل هذه المرأة خير ما يكنز الرجل، فقال مخاطباً عمر بن الخطاب: «ألا أخبرك بخير ما يكنز، المرأةُ الصّالحة: إذا نظرَ إليها زوجُها سَرَّتْهُ، وإذا أمرها أطاعته، وإذا غاب عنها حفظته»(٢).

● ومن أدبها: أنْ تكون غير مسرفةٍ في الاختلاط مع الجيران:

ولا تُدْخِل أحداً دارَها إلاّ بإذن زوجها. فكثرةُ الاختلاط بالجيران، والتداخل المستمر معهم، من الأسباب التي تجلب كثيراً من المتاعب، ويتمخَّضُ عنها غالباً احتكاكات غير لطيفة.

---

(١) سورة: النساء، الآية: ٣٤.

(٢) أخرجه أبو داود عن ابن عباس.

ومن هنا فإنّ معظم الرجال ينظرون بعين التّقدير للمرأة التي تدرك تلك المسألة وتعمل وفقاً لها. .

جاء في كتب الأدب: «أنّ رجلاً قال لخاطبٍ: ابغني امرأةً لا تؤنس جاراً، ولا توهن داراً، ولا تثقب ناراً». . فذلك الرجل الحكيم يريد امرأة لا تدخل على الجيران، ولا يدخل عليها الجيران بدون داعٍ، ولا تغرى بينهم بالشّر.

وفي نحو هذا يقول الشّاعر:

من الأوانس مثل الشّمس لم يرَهَا في ساحة الدار لا بعل ولا جار

وقد بيّن الرّسولُ ﷺ أن من حقّ الرّجل على زوجته ألاّ تُدخل أحداً منزلَهُ إلا بإذنه، فقال:

«ألاَ إنّ لكم على نسائكم حقّاً، ولنسائِكم عليكم حقّاً، فحقُّكم عليهنّ ألاّ يُوطئنَ فرشَكُم من تكرهُونه، ولا يأذنَّ في بيوتِكُم مَن تكرهونَهُ»[1]. ومعنى: «ألاّ يوطئن فُرُشَكُم من تكرهون» قال ابن جرير: معناه: أن لا يمكّنّ أنفسهنّ أحداً سواكم. وردّ البعض على هذا التفسير بأنّه لا معنى حينئذ لاشتراط الكراهية؛ لأنّ الزّنا حرام على جميع الوجوه.

وذهب الخطابي إلى أنّ معناه: ألاّ يأذنّ لأحدٍ من الرجال فيتحدّث إليهنّ، وكان الحديث من الرجال إلى النساء من عادات العرب لا يرون في ذلك عيباً ولا يعدُّونه ريبةً، فلمّا نزلت آية الحجاب وصارت النّساء مقصوراتٍ، نهَى عن محادثتهنّ والقُعُودِ إليهنّ.

● ومن أدبها: أن تعيش الحاضر فقط:

كثير من النساء يلححن في سؤال أزواجهن عن نزواته السابقة، وما هي أوصاف من تعلق قلبه بها. . والواحدة منهنّ عندما تسأل زوجها مثل تلك الأسئلة تُؤكد له أنّها لن تغضب ولن يؤثر ذلك فيها!.

(١) رواه ابن ماجة والترمذي، وقال حديث حسن صحيح.

وإذا استجاب الرجل لهذا الإلحاح، فإنه يكون قد وقع في أكبر الأخطاء التي تؤثر تأثيراً مباشراً على علاقة المرأة به؛ لأنها مهما أقسمت له بأغلظ الأيمان أن صراحته لن تؤرقها، فهي تخدعه وتخدع نفسَها.. فأيّ اعتراف من الرّجل بعلاقاته السّابقة أو بشعوره تجاه بعض النّساء، يكون أشبه بفتيلة مشتعلة يضعها في حياته الزوجية من الممكن أن تشعلها ناراً في أي لحظةٍ؛ فالمرأة لا تنسى! ومن أدلة ذلك امرأة «ليون تولستوي» طلبت منه معرفة تجاربه التي مرّ بها مع الجنس الآخر قبل أن يتزوّجها؛ فأجابها إلى ما طلبت، وكانت النّتيجة ضنكاً وجحيماً؛ حتى إنه علّق على ذلك في أواخر حياته قائلاً:

«كانت تلك الذكريات أشبه بفتيلة وضعتُها بنفسي في ثنايا حياتنا الزوجية؛ فقد اشتعلت غَيْرةُ زوجتي دون مبرّرٍ لهذه الغيرة، وبدرجة أحالت حياتَنا الحلوة الصّافية إلى جحيم متأجّج»!؟.

ومن ثم فإن الزّوجة الكريمة لا تلح في التّعرّف على ماضي زوجها العاطفي، لأنّها تعلم أنّ الجهل يكون أحياناً مفيداً؛ أو لأنها تعمل بمنطق: ﴿لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾[1].

ولكن في كثير من الأوقات تحرص المرأة الصّالحة على التّعرّف عمّا يرغب فيه الرّجل أو يجذبه في الأنثى ولذا فهي تسأله عن ذلك سؤالاً مجرّداً عن الشّخصيات، أي تسأله عن الأفعال والصّفات لا عن فاعليها أو حامليها.

● **ومن أدبها: أن لا تعتبر المال أصدق دليل على الحب:**

من النّساء من يعتقدْنَ أنّ إنفاقَ الرّجل المالَ عليهنّ أصدقُ دليل على الحبّ، فكلّما أنفق الرّجل أكثر اعتقدْنَ أنه يحبهن أكثر، وكلّما قصّر في الإنفاق أو عجز عنه، اعتقدنَ أنّه قد كفّ عن حُبّهنّ.

وهذا الاعتقاد ليس له مكان في عقل المرأة الصّالحة، لأنّها تدرك تماماً أنّ مظاهر الحبّ متعدّدة، منها الكلمة الطّيبة، والسّلوك المعبّر، والعاطفة الجيّاشة، وقد يكون

(١) سورة: المائدة، الآية: ١٠١.

المال إحدى الوسائل التي يلجأ إليها بعضُ الرّجال للتّعبير عن حبهنّ.. أقول إحدى الوسائل، وليس كل شيء.. فهو ليس المقياس الأوحد الذي تقيس به المرأة الصّالحة الكريمة حبّ الرّجل، وفي أحيان كثيرة لا يُعتبر مؤشّراً ـ على الإطلاق ـ على أن الرّجلَ يُحبّ، بل قد يكون إحدى وسائل الإغراء والغواية.

● **ومن أدبها: أن لا تكون مسرفةً في طعامها وشرابها:**

والزّوجة الكريمة امرأة معتدلة في كل شأنها، لا تُفْرط ولا تفرّط. فهذا دأبُها ودَيْدَنُها دائماً وأبداً... ومن مظاهر ذلك أنّها لا تسرف في طعامها وشرابها استجابةً لمقتضيات العقل وتنفيذاً لأوامر الله تعالى عندما قال: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾﴾[1].

ثم إن الرّجال غالباً لا ينظرون بعين الاحترام للمرأة الأكولة المسرفة في شرابها؛ فهم يعدّون ذلك من جوانب النقص. والبعض منهم يعتبرها نقيصة لا يشفع لها حتى جمال المرأة. من هؤلاء معبد بن خالد الجدلي قال: «خطبتُ امرأةً من بني أسد في زمن زياد ـ وكان النّساء يجلس لخطابهنّ ـ قال: فجئتُ لأنظرَ إليها، وكان بيني وبينها رواق، فدعت بجفنة عظيمة من الثّريد، مكلّلة باللّحم، فأتت على آخرها، وألقت العظام نقية، ثم دعت بشنٍّ عظيم مملوءة لبناً، فشربته حتى أكفأته على وجهه. ثم قالت: يا جارية، ارفعي السّجف؛ فإذا هي جالسة على جلد أسد، وإذا شابة جميلة، فقالت: يا عبد اللّه، أنا أسدة من بني أسد، وعلى جلد أسد، وهذا طعامي وشرابي؛ فعلامَ تراني؟ فإن أحببتَ أن تتقدم فتقدمْ، وإن أحببتَ أن تتأخرَ فتأخّرْ!. فقلتُ: أستخير الله في أمري وأنظر!. قال: فخرجتُ ولم أعدْ!».

● **ومن أدبها: أن لا تكون مهملةً:**

والزّوجة الكريمة امرأةٌ حريصة غير متهاونة أو مهملة؛ فعندما تفتح باباً لا تنسى أن تغلقَهُ، وإذا أخفتْ شيئاً لا تنسى موضعَهُ، وإذا اعتبرت بحادثٍ لا تنسى عبرتَـهُ، ولو ائـتمَنَها أحدٌ على سرٍّ لا تنسى أن تكتمه..

---

(١) سورة: الأعراف، الآية: ٣١.

● **ومن أدبها: أن تقدّر الأمور بقدرها؛ فلا تقلب الميزة عيباً:**

عندما تحكمُ الزّوجةُ الكريمةُ على الأمور؛ فإنّها تقدّر كلَّ شيءٍ بقدر، فتقييمها مثلاً لصفات الرّجل يظل ثابتاً سواء أحبَّتْهُ أمْ كرهتْهُ، لأنّها تملك الحدَّ الأدْنَى من الموضوعية التي تعصمها عن بخس النّاس أشياءَهم.

أمّا المرأة الأخرى التي تتلوّن أحكامها وفقاً لحالتها المزاجيّة، فلديها القدرة القادرة على تحويل الأشياء إلى نقيضها، فعندما تكره الرّجل أو لا تَسْتَسيغُهُ، فإنّها تقلب مميّزاتِهِ عيُوباً، ومحاسنَهُ مساوئاً، حتى تبرر لضميرها خداعه وخيانته، فتسمى الكرمَ تبذيراً، والمرح طيشاً، والقوّةَ استبداداً!.

● **ومن أدبها: أن لا تحمل في عقلها سجلاً أسود عن الماضي:**

والزّوجةُ الكريمة ذاتُ قلب أبيض، لا تحمل في عقلها سجلاً أسود ضخماً تدوّن فيه كلَّ نقائص زوجها، صغيرةً وكبيرةً. وحتى إن كانتْ تسجّل في ذهنها تلك النّقائص فهي لا تتحدث بها ولا تستخدمها استخداماً سيئاً بمناسبة أو بغير مناسبة وهي أيضاً تقدر تلك النقائص بقدرها، فلا تضخمها أو تهوّلها، وتضع بجوار تلك النّقائص مميزاتِ زوجها وسماتِ عبقريته. وإن كانت تلك المميزات من القوّة بمكان فهي تقضي على عيوبه ونقائصه في عقلها؛ لأنّها تعمل بمنطلق الآية: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾[1].

لكن هناك نوعية من النّساء لا تدري أين مصلحتها، ولا تعرف مواطن الضّرر، فتعمل على إفساد حياتها الزوجية ـ من دون أن تدري ـ عندما تحدّث الرّجل في كل مناسبة عمّا فيه من كبائر النّقائص وصغائرها وكان الأجدر بها ألاّ تستخدم هذه النّقائص ذلك الاستخدام السّيّيء؛ لا لمصلحة زوجها فقط، وإنّما لمصلحتها هي أيضاً.

● **ومن أدبها: أن تتخذ موقفاً إيجابياً تجاه عيوبها وعيوب زوجها:**

لا شك أنّ الزّواج يُعتبر بمثابة الضوء السّاطع الذي يسلط على الشخصية،

(١) سورة: هود، الآية: ١١٤.

فيكشف عن عيوبها ونقائصها في وضح النّهار! . والزّوجةُ الكريمةُ هي التي تتخذ موقفاً إيجابياً من تلك العيوب، سواء كانت عيوب الرّجل أم عيوبها هي.

أمّا موقفها من عيوب الرّجل فينبغي عليها ألاّ تحاول دائماً أن تنتقد تصرفاته، كأنّها مكلّفةٌ بذلك؛ فالمرأة التي لا هَمَّ لها سوى البحث عن نقائص زوجها، والاجتهاد في إظهار معايبه أمام النّاس، والتّحدث عن مظاهر ضعفه في مناسبةٍ وغير مناسبة، إنّما هي زوجة حمقاء تهدمُ عشَّها بيدها؟! .

والموقف الحكيم الذي عليها أن تقفه يتمثل في اختيارها للوقت المناسب الذي تستعرض فيه مع زوجها عيوبه من وجهة نظرها، وتتخيّر الأسلوب الحسن، والكلمات الرقيقة، حتى لا تجرح مشاعره، موضحةً له أن هدفها من ذلك هو أن تراه في أحسن صورة، وأنّها تفعل ذلك لاهتمامها به وحرصها عليه، ولو لم يكن مهمًّا وعزيزاً عليها كما ألقت إليه بالاً.

أما عيوبها هي، فعليها أن تنصت باهتمام إلى استماع وجهة نظر زوجها، وتتفهم ما يقوله لها، صادقة النيّة في تغيير ما يراه هو واجب التّغيير.

● **ومن أدبها: أن تتنزّه عن الشجار والجدال:**

الشكوى. . . التّعبير. . . التّحقير. . . الزّراية. . . الاستخفاف. . . ألوانٌ منوعةٌ من التّعذيب النّفسي التي تتخصص الزوجة في إحداها أو فيها جميعاً! .

وأسوأ ما في«النّقار» أنّه قد يبدأ عفواً، ولكنّه سرعان ما يتحول إلى عادة راسخة؟! .

فالزّوجة التي تبدأ وهي في سنّ العشرين تتساءل متى يتسنّى لزوجها أن يشيد لنفسه بيتاً كما فعل صديقه «فلان» تستحيل في سنّ الأربعين إلى زوجةٍ مصابةٍ بداء «النّقارِ المزمن»! .

ومن أسوأ مظاهر «النّقار» أن تعيّر المرأة زوجها بغيره من الناس. . لماذا لا تكسب كما يكسب فلان؟! . . لقد اشترى أخي لزوجته كيتَ وكيتَ. . فهو يحذق فنَّ كسب المال. . لو أنّني تزوجتُ من «فلانٍ» لما كان هذا حالي. أما الزّوجة الكريمة فهي

تـتنزّه عن تلك الممارسات «غير المجدية»؛ لأنها تعلم بحسّها المرهف أنْ لا شيء يقوّض ثقة الرّجل بنفسه، ويُحطم نفسيتَهُ، ويقتل آماله، ويزعزع أركان الحياة الزوجية ـ كهذه العبارات المسمومة!. وقد نصح أحد الرجال زوجتَه فقال:

خُذِي العفوَ منّي تستديمي مودّتي ... ولا تنطقي في سورتي حينَ أغضب
ولا تنقـريـنـي نقـركِ الـدّفَ مـرّةً ... فـإنّـك لا تـدريـنَ كيـفَ المغيّـب
ولا تكثري الشّكوى فتذهب بالقوى ... ويـأبُـاكِ قلبـي والقلـوب تقلّـب
فإنّي رأيتُ الحبَّ في القلب والأذى ... إذا اجتمعا لم يلبث الحبّ يذهب

● ومن أدبها: أن لا تدفع زوجها إلى التهور:

عندما يحدث تصادمٌ ما مع الأهل أو الأصدقاء أو الجيران، في غياب الرّجل.. فإنّ ردود أفعال النّساء تتباين من واحدةٍ إلى أخرى عند حضوره.

فالحمقاء تجد لذةً خبيثةً في تجسيم النّزاع، وتحويره وتهويله! زاعمةً أنّها قد أُهينت في صميم كرامتها، وأنها ليس لها رجل يعرف كيفَ يُدافع عنها، ويلزم خصومها المعتدين حدَّ الاحترام والأدب!.

وبهذه الطّريقة الطّائشة في خبثها، الحمقاء في مكرها، تمضي تلك المرأة في إثارة أعصاب زوجها، وإيغار صدره على النّاس، حتى إذا امتلأت نفسُه غيظاً وحنقاً، وثار، وتهوّر في ثورته إلى حدِّ الخطر، روَّعت المرأة وولولت وانتحبتْ، وراحتْ تؤكّد بأغلظ الأيمان أنها لم تقصد إلى شيء من هذا، بل لم تتوقعْ حدوثَ ما حدثَ!!.

وهكذا تجمع تلك الحمقاء أكوام الحطب، وتشعل فيها النّار، ثم تعجز بعد ذلك عن إخمادها؛ فيمتلكها الذّعر عندما ترى النّار تحرق زوجها، وبيتَها، وحياتَها.

ولذلك فقد قال سليمان بن داود في حكمتِهِ: «المرأة العاقلة تبني بيتَها، والسّفيهة تهدمُهُ».

نعم!؟ إن المرأة العاقلة تبني بيتها لأنّها تعمل على أن يضبط زوجها نفسه، وتحرص على هدوء أعصابه، ولا تُوغر صدره؛ فلا تحرّف الأحداث، ولا تهوّل ما حدث من سوء فهم أثناء غيابه؛ لأنها تعلم أنّ تهاويل المرأة أفعل في النّفس والقلب

لدى الرّجل من السّموم، وأفعل في نفسه من وقع الإهانة المباشرة، ممّا قد يسوقه إلى ارتكاب فعلٍ يترتب عليه أسوأ النّتائج.

● **ومن أدبها: أنْ لا تضع نفسها مواضع التُّهم:**

من العادات السّيّئة التي يتحلّى بها كثيرٌ من النّاس سرعة الظن السّيّىء بالآخرين لأتفه سبب أو لأقل اشتباه.. وإن كان المرء لا يملك أن يغيّر من عادات هؤلاء شيئاً، فإنه يمكنه ألاّ يعطيهم أيَّ فرصةٍ أو أدنَى مبرِّرٍ لكي يظنُّوا به ظنَّ السُّوْء؛ فيتجنب مواضع التّهم، ويبعد عن مواطن الاشتباه. وهذا أوجب ما يجب على المرأة الصّالحة؛ فهي لا شك أنّها عفيفةٌ طاهرةٌ قانتةٌ حافظةٌ للغيب بما حفظ الله، ولكن مع ذلك قد تفعل فعلاً أو يصدر عنها قول ـ وهي حسنة النّيّة ـ فيظنّ بها الظّانُّون ظناً هي أبعد ما تكون عنه، ولذا فقد قال تعالى: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾[1].

وإذا لم تسلك المرأة هذا السلوك، فإنّها رغم طهرها وعفافها ستجرّ على نفسها كثيراً من المصاعب هي في غنى عنها.. يُوضح ذلك ما يرويه ابن عبد ربّه في العقد عن هند بنت عُتبة فيقول: «كان الفاكه بن المغيرة المخزومي أحد فتيان قريش، وكان قد تزوّج هند بنت عُتبة، وكان له بيت للضّيافة يغشاه النّاسُ فيه بلا إذن، فقَالَ ـ أي نام ـ يوماً في ذلك البيت وهند معه، ثم خرج عنها وتركها نائمة، فجاء بعض من كان يغشى ذلك البيت، فلمّا وجد المرأة نائمة ولّى عنها، فاستقبله الفاكهُ بنُ المغيرة، فدخل على هند وأنْبهها، وقال: منْ هذا الخارجُ من عندكِ؟!.

قالتْ: والله ما انتبهتُ حتّى أنبهتني، وما رأيتُ أحداً قط. قال: الحقي بأبيك! وخاض النّاس في أمرها. فقال لها أبوها: يا بنيّة، العارَ وإن كان كذباً، أبثّيني شأنَكِ، فإنْ كان الرجل صادقاً دسستُ عليه من يقتلُهُ فيقطعُ عنكِ العارَ، وإن كان كاذباً حاكمتُهُ إلى بعض كُهّان اليمن. قالتْ: والله يا أبتِ إنّه لكاذب.

فخرج عُتبة، فقال: إنّك رميتَ ابنتي بشيءٍ عظيم، فإمّا أن تبيّن ما قلتَ وإلاّ فحاكمني إلى بعض كُهّان اليمن؟ قال: ذلك لك.

---

(١) سورة: الأحزاب، الآية: ٣٢.

فخرج الفاكهُ في جماعة من رجال قريش، ونسوة من بني مخزوم، وخرج عُتبةُ في رجال ونسوة من بني عبد مناف، فلما شارفوا بلاد الكاهن، تغيّر وجه هند، وكُسِفَ بالها، فقال لها أبوها: أيْ بُنيّة، ألاَ كان هذا قبل أن يشتهر في النّاس خروجُنَا؟!.

قالتْ: يا أبتِ، والله ما ذلك لمكروهٍ قِبَلي، ولكنّكم تأتون بشراً يُخطىء ويُصيب، ولعلّه أن يسمني بسمةٍ تبقى على ألسنةِ العرب.

فقال لها أبوها: صدقتِ، ولكنّي سأخبره لك، فصفر بفرسه، فلما أدلى عمدَ إلى حبة بُـرّ فأدخلها في إحليله، ثم أوكى عليها وسار، فلمّا نزلوا على الكاهن أكرمهم ونحر لهم.

فقال له عُتبة: إنّا أتيناك في أمرٍ، وقد خبأنا لكَ خبيئةً، فما هي؟. قال: برّة في كمرةٍ. قال: أريد أبينَ من هذا. قال: حبّةُ بُرّ في إحليل مهر. قال: صدقتَ، فانظرْ في أمر هؤلاء النّسوة، فجعل يمسح رأس كل واحدة منهنّ، ويقول: قُومي لشأنك! حتّى إذا بلغ هند مسح يده على رأسها وقال: قُومي غير رفحاء ولا زانية، وستلدين ملكاً يسمى «معاوية»! فلمّا خرجت أخذ الفاكهُ بيدها، فنترتْ يدها من يده، وقالت: إليكَ عنّي! والله لأحرصنّ أن يكون ذلك الولد من غيرك! فتزوجها أبو سفيان. فولدتْ له معاوية. وكم يرى القارىء ـ أو القارئة ـ فإنّ هند بنتَ عُتْبَةَ رغم شرفها وعفّتها إلاّ أنّها عرّضتْ نفسها لتهمةٍ شنيعةٍ نتيجةً لفعل فعلة دون قصد وبحسن نيّة؛ حيث ظلت نائمة في مكان يغشاه النّاس بلا إذن، فدخل عليها رجل فوجدها نائمة فولّى عنها، ومع ذلك فإنّ زوجها جاء في لحظة خروج ذاك الرّجل، فظنَّ فيها ظنّ السّوء. وبالطبع فإنّ زوجها قد تسرّع وأخطأ خطأً كبيراً عندما ظنّ بها ذلك؛ لأنّه لو كان أعمل عقله قليلاً لوجد أن المكان الذي وجدَ بِهِ الرجلَ ليس مكاناً خاصّاً له حرمة، وإنّما هو مكان للضّيافة. إذنْ فلا محل للشبهة والاشتباه. ولكنْ لو كانت هند ـ من البدء ـ اجتنبتْ ذلك الموطن لكفتْ نفسَها وأهلها مصاعبَ كثيرة.

وعلى ذلك، فإن المرأة الصّالحة تحرص حرصاً كبيراً على اجتناب مواضع التّهم ومواطن الشّبهات؛ حتى تحمي عرضَها وسمعتَها من أيّ ظنٍّ خبيث من الممكن أن يسرع إلى عقول الحمقَى والمتربّصين بالنّاس السوء.. عليهم دائرة السوء!.

● ومن أدبها: أن لا تُفشي سرًا لزوجها وأهلها:

يفضل دائماً الرّجل الذكيّ المرأة الكتُومة التي يصعبُ عليها، بل يستحيل أن تُفْشِي سرًّا أو تنقل كلاماً سمعتهُ من أحد المتحدّثين.

ولقد بلغ من كره بعض الرجال للمرأة المتساهلة الطّائشة التي تتحدثُ بأخبار النّاس وتُفْشِي أسرارهم، أنْ هَجَا أحدُهم أُمّهُ لأنّها تسلك هذا المسلك.. يقول الحُطيئة لأمّه ـ ولم يسلم من لسانه أحد:

تنحّي فاجلسي منّي بعيداً	أراحَ الله منكِ العَالَمِينَا
أغربالاً إذا استودعت سرًّا	وكانوناً على المتحدثينا؟
حياتك ـ ما علمتُ ـ حياة سُوءٍ	وموتكِ قد يسرُّ الصّالحينَا

ومن أخطر الأسرار التي تنشرها بعض الحمقاوات من النساء ـ أسرار اللّقاء الجنسي... دون أن تدري إحداهُنّ عاقبةَ ذلك، ولو علمتْ ما فعلتْ.

وقد نهى الرسولُ ﷺ نهياً جازماً عن مثل هذا العمل، فروى أحمد بن حنبل عن أسماء بنت يزيد: أنّها كانت عند الرسول ﷺ والرجال والنّساء قعُودٌ، فقال: «لعلّ رجلاً يقول ما يفعل بأهلِهِ! ولعلّ امرأةً تُخبر بما فعلتْ مع زوجِها!».

فأرمَّ القومُ ـ سكتوا ـ فقلت: أيْ والله يا رسول الله، إنّهنّ ليفعلنَ، وإنّهم ليفعلونه!. فقال: «فلا تفعلُوا، إنّما ذلك الشّيطان لقى شيطانة في طريق فغشيها والناس ينظرون!!».

وقد فسّر بعضُ المفسّرين صفةَ «الحافظات للغيب بما حفظَ الله» الواردة في قوله تعالى: ﴿ فَٱلصَّـٰلِحَـٰتُ قَـٰنِتَـٰتٌ حَـٰفِظَـٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ﴾(١).

فسَّروها على أن المقصود منها: حافظاتٌ لما يجري بينهنّ وبينَ أزواجهنّ مما يجب كتمه ويتحتم ستره من بواطن وأسرار.

● ومن أدبها: أن تتفهم زوجها وتحاول التّكيف معه:

وهي تتمتعُ بتصور واقعي منذ بدء حياتها الزّوجية، فلا تتوقع أن يتحقق التّوافق

(١) سورة: النساء، الآية: ٣٤.

والاتحاد بينها وبينَ الرجل فورَ ارتباطهما دفعة واحدةً، بل تضع في ذهنها أن التّوافق العاطفي والعقلي يستلزم اجتياز مرحلة ـ طالت أو قصرتْ ـ من «المحاولة والخطأ». وليست العبرة هنا بأن تتحاشى كل تجربة، أو تنأى بنفسها عن كل ما قد يعرضها للخطأ، بل العبرة بخوض التّجارب والاستفادة منها وعدم تكرار الأخطاء ذاتها.

وقبل هذا فإنها تملك رغبةً صادقة في التّفاهم، وتعمل باستمرار على تحقيق التّوافق والانسجام مع شريك العمر شيئاً فشيئاً مع الأخذ بأسباب الصّبر والأناة والمثابرة في سبيل تجنّب دواعي المشاحنة، وتلافي أسباب الخلاف، وخلق الجو الملائم لنموّ روح التّعاطف والحب.

ومن المستحيل أن يتم التّوافق دون أن يتنازل كل من المرأة والرّجل عن بعض أنماط سلوكه وعاداته القديمة.

والمرأةُ الصّالحةُ عليها العبء الأكبر في هذا المجال؛ حتّى يمكنها أن تتلاقَى مع شريك عمرها ويتلاقَى هو معها. وأن تُحسن تدبير شؤون المنزل:

والمرأةُ الصّالحة تُحسن تدبير شؤون المنزل، وتضع ما لديها من مال في خير موضع وفي أفضل سبيل.

ولا يعني حسن التّدبير معرفة استخدام الأموال فحسب، بل يشمل كل ما يتعلق بأمور المنزل؛ فالاعتناء بالملابس والأثاث وخلافه يجعل مدّة استعمالها تطول ولا تبلى سريعاً. وهذا من شأنه أن يُخفّف من أعباء الزوج؛ مما يؤثر أبلغ الأثر في سعادة الأسرة واستقرارها.

● **ومن أدبها: أن لا تضيع حقّ زوجها بحُجّةِ أداءِ حقّ الله:**

فهناك من النّساء من تظنّ أنّ الإكثار في عبادة الله تعالى ولو على حساب زوجها أو أهلها، قد يزيدها قرباً من الله سبحانه.. وهذا ظنّ يجدر بكل امرأة متفهمة أن تتنزّه عنه؛ لأنّ الّذي أمرها بعبادة الله هو ذاته الذي أمرها بأداء حقّ الزّوج.. وذلك هو الله سبحانه. وفي هذا المعنى يقول الأصمعي: «رأيت في البادية امرأةً عليها قميصٌ أحمر، وهي مختضبة وبيدها سُبْحةٌ!!.

فقلتُ: ما أبعد هذا من هذا!؟. فقالت:

ولله منّـي جـانـب لا أضيعـه ... وللهـو منـي والبطـالـة جـانـب

فعلمت أنّها امرأة صالحة لها زوج تتزيّن له».

فهذه الرّواية التي يذكرها الأصمعي تضرب لنا مثلاً رائعاً لامرأةٍ صالحةٍ تملك القدرة على الموازنة بين حقوق الله وحقوق الزّوج.

ولكن إذا كان التّراث يقدّم لنا هذه الصّورة المشرقة لزوجة من الزوجات، فإنّه يقدّم أيضاً صورةً لزوجة لا تستطيع أن تميّز تمييزاً دقيقاً بين الأمور بالشكل الذي تستطيعه المرأة السابقة؛ ولذا فإنّ الرّسولَ ﷺ يصحّحُ لها الرّؤيةَ، ويُوضّح لها السّبيل القويم.. وذلك في الحديث الذي يرويه لنا أبو سعيد، فيقول: جاءتِ امرأة إلى رسول الله ﷺ ونحن عنده، فقالتْ:

زوجي صفوان بن المعطل يضربني إذا صليتُ، ويُفطّرني إذا صمتُ، ولا يصلي الفجر حتى تَطْلُعَ الشّمس!؟. قال: وصفوان عنده؛ فسأله عمّا قالت. قال: يا رسول الله، أمّا قولها: يضربني إذا صليتُ ـ فإنّها تقرأ بسورتين، وقد نهيتُها. فقال لها رسولُ الله ﷺ: «لو كانت سورةً واحدةً، لكفتِ النّاسَ». قال: وأمّا قولها: يُفطّرني إذا صمتُ ـ فإنّها تنطلق تصوم، وأنا رجلٌ شاب؛ فلا أصبر!؟. فقال رسول الله ﷺ: «لا تصومُ امرأةٌ إلاّ بإذنِ زوجها». أمّا قولها: إنّي لا أصلي حتّى تطلع الشّمس! فإنّا أهل بيتٍ قد عرفتْ عنّا ذاك، لا نكاد نستيقظ حتى تطلع الشّمس. قال ﷺ: «فإذا استيقظتَ يا صفوانُ فصلِّ!»[1].

● **ومن أدبها: أنْ تُشارك زوجها حلو الحياة ومرّها:**

المرأة المخلصة هي التي لا تتخلى عن زوجها في الأزمات، فكما تعيش معه أيام الرّخاء تعيش معه أيضاً أيّام الشّدائد دون تذمر أو سخط. فليست الحياةُ تسيرُ على وتيرةٍ واحدة دائماً.. وتلك سُنّة الله في عباده.

ومن الطّرائف التي تُروى في هذا الصّدد، ما يذكره الأصمعي عندما قال: أصابت

(١) رواه أبو داود وابن ماجة، وهو حديث صحيح.

الأعراب مجاعة، فمررت برجلٍ منهم قاعد مع زوجته بقارعة الطريق، وهو يقول:

يـا رب إنّـي قـاعـدٌ كمـا تـرَى وزوجتـي قـاعـدة كمـا تـرى
والبطـنُ منّـي جـائـعٌ كمـا تـرَى فمـا تـرَى يـا ربنـا فيمـا تـرَى؟!

● **ومن أدبها: أنْ توافق رغبات زوجها ولا تخالفه إلى ما يكره:**

لكلّ رجلٍ أشياءٌ يُحبها، وأخرى يكرهها ولا يستسيغها.. والمرأة الصّالحة هي التي تتوافق مع زوجها في عاداته غير السّيّئة، وتحرص على تحقيق رغباته المشروعة، ثمّ تتجنب الأمور التي يكرهها.

ولعلّ هذه الصفة هي أفعل الصّفات في نفس الرّجل وعقله من أيّ صفة أخرى؛ فالجمال يزول مع الأيام، والمالُ إن كانت غنيّـةً عُرضةٌ للزوال في أي لحظةٍ، وهكذا سائر الصّفات.. أمّا موافقة روح المرأة لروح الرّجل، وتلاقي رغباتها مع رغباته، وانسجام عاداتها مع عاداته، فهذا هو ما يبقَى للمرأة، وهذا هو ما يبقَى للرّجل!.

ويُؤكّد هذا المعنى سليمانُ الحكيم، فيقول: «الجمال كاذب، وَالحُسْنُ مُخلِفٌ، وإنّما تستحق المدح المرأةُ الموافقة».

ويرى صعصعةُ بنُ صَوْحان ـ أحد كبار الخبراء والمشاهير في معرفة أنساب العرب ـ أن صفة الصّفات في المرأة الصّالحة هي موافقتها للرجل وانسجامها معه.. فقد قال معاوية بن أبي سفيان لصعصعةَ: «أيُّ النّساءِ أشهىٰ إليكَ؟ قال: المواتيةُ لك فيما تهوَى. قال: فأيُّهنّ أبغض إليكَ؟ قال: أبعدهن مما ترضى. قال: هذا النقد العاجل! فقال صعصعة: بالميزان العادل!».

ولكن هناك من الرجال من اعتبر تلك الصّفة مجرد صفة لا بدّ من توافرها مع عدّة صفات أخرى، فهو إن لم يكن يعتبرها صفةَ الصّفات إلاّ أنّه يعتبرها صفةً من الصّفات الضّرورية المتعادلة في الأهمية.. فقد كتب الحجاج إلى ابن القرية، فيما يرويه ابن عبد ربّه في العقد الفريد: «أن أخطب على عبد الملك بن الحجاج امرأةً جميلة من بعيد، مليحة من قريب، شريفة في قومها، ذليلة في نفسها، مواتية لبعلها.

فكتب إليه: قد أصبتها لولا عظم ثدييها!؟.

فكتب إليه: لا يكمل حُسْنُ المرأة حتى يعظم ثديَاهَا؛ فتدفىء الضجيع، وتروي الرضيع!».

ولا شك أنّ الرّجل الذي يقع في امرأة من هذا القبيل، ينال نصف الدنيا إن لم يكن معظمها.

ومن هؤلاء المحظوظين شُريح القاضي الشّهير، فقد قابل الشّعبي يوماً، فسأله الشعبي عن حاله في بيته، فقال: «من عشرين عاماً لم أرَ ما يُغضبني من أهلي. قال له: وكيف ذلك؟ قال شُريح: من أوّل ليلةٍ دخلتُ على امرأتي، رأيتُ فيها حسناً فاتناً، وجمالاً نادراً. . . قلت في نفسي: فلأتطهر وأصلي ركعتين شكراً لله.

فلما سلمتُ وجدتُ زوجتي تصلّي بصلاتي، وتسلّم بسلامي. فلما خلا البيت من الأصحاب والأصدقاء، قمت إليها فمددتُ يدي نحوها، فقالت: على رَسْلِكَ يا أبا أميّةَ، كما أنت. ثم قالتْ: الحمدُ لله أحمدَهُ وأستعينُهُ، وأصلي على محمّدٍ وآلِهِ، إنّي امرأة غريبة لا علم لي بأخلاقك، فبيّنْ لي ما تُحب فآتيه، وما تكره فأتركه.

وقالت: إنّه كان لك في قومك مَنْ تتزوجه من نسائكم وفي قومي من الرجال مَنْ هو كفءٌ لي، ولكن إذا قضى الله أمراً كان مفعولاً، وقد ملكتَ فاصنعْ ما أمركَ الله به: إمساك بمعروف أو تسريحٌ بإحسان. . أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكَ!!.

قال شريح: فأحوجتني والله يا شعبي إلى الخِطبة في ذلك الموضع!. فقلت: أحمدُ الله وأستعينُهُ، وأصلي على النّبيّ وآله وأسلّم، وبعدُ: فإنّكِ قلتِ كلاماً إن ثبتِّ عليه يكن ذلك حظُّكِ، وإن تدعيهِ يكن حجةً عليكِ. . أحب كذا وكذا. . وأكره كذا وكذا. . وما رأيتِ من حسنةٍ فانشريها وما رأيتِ من سيئةٍ فاستريها!. فقالتْ: كيفَ محبتُك لزيارة أهلي؟ قلتُ: ما أحب أن يملّني أصهاري. فقالتْ: فمَنْ تُحب من جيرانك أن يدخلَ داركَ، فآذنُ له؟ ومن تكره، فأكره؟. قلتُ: بنو فلان قوم صالحون، وبنو فلان قوم سوء.

قال شُريح: فبتُّ معها بأنعم ليلةٍ، وعشت معها حولاً لا أرى إلا ما أُحِبُّ. فلمّا كان رأس الحول جئتُ من مجلس القضاء، فإذا بفلانة في البيت. قلتُ: مَنْ هي؟ قالتْ: ختنك. . [أي أم زوجتك]. فالتفتتْ إليّ وسألتني: كيفَ رأيتَ زوجتكَ؟ قلتُ:

خيرَ زوجةٍ!!. قالت: يا أبا أمية، إن المرأة لا تكون أسوأ حالاً منها إلاّ في حالين: إذا ولدتْ غلاماً، أو حظيت عند زوجها فوالله ما حاز الرجال في بيوتهم شراً من المرأة المدلّلة.. فأدّبْ ما شئتَ أن تُؤدّب، وهذّبْ ما شئتَ أن تُهذب. قال شريح: فمكثتْ معي عشرين عاماً لم أعتبْ عليها في شيءٍ إلاّ مرة وكنتُ لها ظالماً»!!!...

وإذا كانت موافقة المرأة للرجل وتوافقها معه، أكثر العوامل فاعلية في استمرار انجذاب الرجل نحو المرأة ودوام العلاقة بينهما، فإنّ مخالفتها له تؤدّي إلى كراهيته المتزايدة لها، وتعمل على تصديع ما بينهما من رباطٍ وميثاقٍ.

ولنا في التّاريخ عبرة، حيث يقول الأصمعي: «كنتُ أختلفُ إلى أعرابي أقتبس منه الغريبَ، فكنتُ إذا استأذنتُ عليه يقول: يا أمامة، إيْذَنِ لي. فيقول: ادخل. فاستأذنت عليه مراراً، فلم أسمعه يذكر أمامة. فقلتُ له: يرحمك الله، ما أسمعك تذكر أُمامة منذُ حينٍ؟! قال: فوجم وجمةً.. ندمت على ما كان منّي.. ثم قال:

ظعنــت أمــامــة بــالطّــلاق	ونجــوتُ مــن غــلّ الــوثــاق
بــانــتْ فلــم يــألــم لهــا قَلْـ	ـبي ولــم تــدمــعْ مــآقــي
ودواء مــــا لا تشتهيـــــه	النّفــس تعجيـــل الفـــراق
والعيــش ليــس بطيــب بَيْــنَ	اثنيـــن فـــي غيـــر اتفـــاق
لـــو لـــم أُرح بفـــراقهـــا	لأرحـــت نفســـي بـــالإبـــاق

● **ومن أدبها: أن تجيد فنّ الحديث مع زوجها:**

المحادثة الودّية ضرورية لخَلْقِ علاقةٍ عاطفيةٍ مع من نُحبّ. وحتى تستمر المحادثة مُمتعةً لسنوات عديدة يحتاج الزوجان إلى مواضيع جديدة ليتحدثا بشأنها. وفي ضوء هذا، فإنّ المرأة الصّالحة تُجيد فنَّ الحديث الوُدّي، ويكون لديها القدرة على إثارة موضوعات جديدة تتحدّث فيها مع الزّوج.. طبعاً ليست هذه الموضوعات مما قد يؤدي إلى النكد، أو إلى تعميق هوة الخلاف.

● **ومن أدبها: أن تُعبّر عن مشاعرها وتُعطي لزوجها فرصة التّعبير عن مشاعره:**

والمحادثة الودية لا تعني فقط المشاركة بالمعلومات ووجهات النّظر، بل التعبير

عن العواطف والمشاعر أيضاً، فإذا شاركت المرأة مثلاً في نشاط اجتماعي أو أيّ عمل آخر، فلا تُقْصِرْ حديثها عنه في مجرد ما جرى خلال اليوم، بل تتجاوز ذلك إلى الحديث عن مشاعرها تجاه ذلك وتجاه الذين شاركوها أو شاركتهم فيه.

كما أنّها تُعطي الفرصة كاملة لزوجها للتّعبير عن مشاعره وأحاسيسه وإن كان ممّن لا يفضلون ذلك؛ لأنه قد يظن خاطئاً أنّه ليس من الرجولة أن يبث الزّوج عواطفه ووجداناته أمام زوجته، فإنّها تحاول أن تغيّر من مشاعره بأساليب متعدّدة، لأنّ إفضاء الرّجل إلى المرأة بمشاعره من الأشياء التي تحقق التوافق والارتباط بينهما. ومن تلك الأساليب التي تتبعها المرأة في هذا الصّدد: أنْ تجيد الإصغاءَ لزوجها، فإذا اشتكى من يومِ عملٍ شاقٍ مثلاً، تدعه يتابع بثَّ ما في نفسه من هموم وأوجاع دون أن تعرض عنه أو تقاطعه إلا بما يظهر اهتمامها بحديثه، كأن تسأله عمّا جعله يشعر بأن العمل صعب، وهل انزعج رئيسه لسببٍ بعينه؟.

وأهمّ من هذا أن تُشعره بأنها تهتمّ بهمومه، وتشعر بمشاعره، وتحسُّ بأوجاعه.

ثم تتجنب أن تنقده نقداً هدّاماً يزيد من شعوره بالإحباط، وتقدم وجهات نظرها في موضوعيةٍ كاملةٍ، بما يوقفه على حقيقة الأمر، وبما يساعده على استئناف عمله بشكل أفضل.

وبعد ذلك لا تحاول المرأة أن تستغل إفضاءات زوجها إليها، عندما تتحدث معه، لأنّ مما يجعل معظم الرجال يضعُون حواجز نفسية بينهم وبين نسائهم فيحجمون عن الإفضاء إليهن بمشاعرهم وأفكارهم وأسرارهم ـ أنهم يشعرون أن حديثهم قد يُستغل ضدّهم فيما بعدُ.

● ومن أدبها: أنْ ترضى بما يقسم الله لها من الرزق:

والمرأة الصّالحة هي التي ترضى بما قسم الله تعالى لها، فلا تسخط على زوجها إن كان أدنى منها في الجمال، ولا تتفاخر عليه.

كما أنها ترضى بإمكانات الزّوج سواء في الرخاء أو الشدة، فليست الأيام كلّها على حال واحدة.

ومما يلفت النظر في شأن النّساء المتصفات بالصّفة الأولى ما رواه الأصمعي، قال: «دخلتُ الباديةَ، فإذا أنا بامرأةٍ من أحسنِ النّاس وجهاً تحتَ رجلٍ من أقبح النّاس وجهاً!!.

فقلتُ لها: يا هذه، أترضين لنفسك أن تكوني تحت مثله؟

فقالتْ: يا هذا، اسكتْ، فقد أسأتَ في قولك؛ لعلّه أحسن فيما بينَهُ وبينَ خالقه، فجعلني ثوابَهُ، أو لعلّني أسأت فيما بيني وبينَ خالِقي فجعله عقوبتي أفلا أرضى بما رضي الله لي؟!!. فأسكتتني!!».

ويروي ابن عبد ربّه في العقد الفريد: «أنّ عمران بن حطان نظر إلى امرأته، وكانت من أجمل النساء، وكان من أقبح الرّجال، فقال: إني وإيّاك في الجنة إنْ شاء الله!

قالت له: كيف ذاك؟

قال: إني أعطيت مثلك فشكرتُ، وأعطيت مثلي فصبرتِ!».

أمّا الصّفة الثّانية، وهي الرضى بإمكانات الزّوج فقد اعتبرها أحد الحكماء صفةَ الصّفات في المرأة الصّالحة بالنسبة للرجل..

● **ومن أدبها: أنْ تكون غير مفرطة في الغيرة:**

المرأة التي لا همّ لها سوى تعقب حركات زوجها، وتتبع أخباره، والتّشكّك في كل تصرفاته، والغيرة من معارفه وأصدقائه ـ لا ريب أنها حمقاء تنفصم بأفعالها تلك عُرى المحبّة والثّقة بينها وبينَ زوجها.

ومن ثَمّ فإنّ الرجال الخبراء بفنّ العلاقات الزّوجية كثيراً ما يحذرون المرأة من الإفراط في الغيرة، فيقول أحدهم وهو أبو الأسود لابنته قبل زواجها: «إيّاك والغيرة، فإنّها مفتاح الطّلاق».

ويجدر بالمرأة لو فقدت أعصابها لأيّ سبب من الأسباب فغارت غيرة في غير موضعها، أن تعترف بخطئها، وتصلح ما أفسدتْهُ. والأهمّ من كل هذا أن لا تكرر خطأها مرة أخرى. ومن الطرائف التي يرويها المحدّثون ما جاء عن أنس قال: أهدى بعض نساء النّبيّ ﷺ له قصعة فيها ثريد، وهو في بيت بعض نسائه، فضرَبت عائشة يد الخادم فانكسرت القصعة، فجعل النّبيّ يأخذ الثّريد ويردّه في القصعة ويقول: «كلُوا؟ غارتْ أُمُّكُمْ».

وفي رواية أخرى أخرجها أبو داود والنسائي أن عائشة ندمت على ذلك، وقالت: يا رسول الله، ما كفارة ما صنعتُ؟ قال: «إناءٌ مثلُ إناءٍ، وطعامٌ مثلُ طعامٍ».

● **ومن أدبها: أن لا تكون متكبرة:**

فالرجال أشد ما يكرهون المرأة المتكبّرة، بل وينفرون منها.. وكم من النّساء قد قتلهنّ الكبرياء، فعشن ومتن بلا زواج يحقق لهن الاستقرار الأُسري نتيجة لغطرستهنّ وغرورهنّ.

أمّا المرأة المتواضعة المتبسطة في غير تساهل، فإن الرجال يتطلعُون إليها ويحبونها.

● **ومن أدبها: أن تتحدث بنعمة ربّها، أو على الأقل لا تنكرها:**

هناك من النّساء ممن أنعم الله تعالى عليهن برجال أغنياء كرماء، يعشن معهم في رفاهية ورخاء، ولكن على رغم ذلك لا تنفك إحداهنّ تشكو من قلة ذات اليد ومن شظف الحياة، لا لشيء إلا لتبعد عينَ الحسد عنها، وتتمتع في الوقت نفسه بلذة اهتمام النّاس بها وإشفاقهم عليها!.

في حين أنّ المرأة الصّالحة لا ينتابُها مثلُ ذلك النّقص الجاهل، حيث تتحدث بنعمة ربّها عليها، وإن لم تتحدث فهي على الأقل لا تنكر تلك النّعمة.

● **ومن أدبها: أن لا تكونَ زوجة لعوباً:**

شتانَ بينَ الزّوجة الكريمة والمرأة اللّعُوب، فالأولى في وادٍ، والثانية في وادٍ آخر. الأولى أجمل ما في الحياة، والثانية أخطر ما في الحياة، وكل صفة تتصف بها

المرأة اللّعوب ليس للمرأة الصّالحة أدنى علاقة بها. . فهي على النّقيض.

فالمرأة اللعوب تملك خيالاً دائب التّوثب، وأعصاباً دائمة الانقاد، وحواسّ دائمة التنبّه والتّيقّظ. . متأججة بحب المرح والحياة. . إنها تحب مهازِلَ الحُبّ وفَواجعَهُ، أكثر ممّا تُحبُّ الحُبَّ نفسَه!!.

ولا يكفيها التّعرف برجل واحد، بل إن الإخلاص لرجل واحد لا يروقها، والولاء لرجل واحد لا يرضي خيَالها ولا يُشعرها بلذّة الحياة!.

إنها تود أن تكون محبوبةً، مرغوبةً، من الجميع. . وهي تبذل أقصى جهدٍ لكي تكون كذلك بشرط أن لا تفقد سلطانها على نفسها، وسيطرتها على تصرّفاتها، وقدرتها على العَبثِ بقلب مَنْ يُحبُّها!.

إنّ الغاية عندها أن تمني عاشقها طويلاً. . ثم لا تعطيه إلاّ بقدر. . وأن تُرهقه وتُقْلِقه كثيراً ثم لا تُطمئنه إلاّ لتعود فتتنكّر له. . وأن تُعذّبه طويلاً على أن لا تهبه نعمة السّعادة الكاملة أبداً!.

والواقع أن لذّة الحبّ عندها لا تنبع من لذة التآلف والتّفاهم والمشاركة، بل من رغبة المحاورة والمداورة والشّماتة والتّعذيب.

وهي تنشد لذّة التّعذيب في الحبّ، وهذه اللّذّة تُغري بعضَ الرّجال بها، وتضاعف رغبتهم فيها، وتدفع الأقوياء منهم إلى محاولة إخضاعها، والضّعفاء إلى الهوَسِ والجُنُون بها.

إنّها تتعمد إثارة الغيرة في قلب زوجها بشتى الفُنُون، فتُقبل عليه كالحمل، ثم تروغ منه كالثّعلب تتصل به كالظل ثم تتبدد أمامه كالحلم! فتثور ثائرة الرجل ويزداد بها تعلّقاً حتى يغلبها أو تغلبه، على أنّه لو تمكن منها فهي لا يمكن أن تُحبه حبًّا خالصاً مطلقاً على رغم أنّها قد أُعجبت بقوّته وسلّمت لرجولته؛ فهي لا تستطيع أن تعيشَ بلا إثارةٍ، ولا يُمكنها أن تشعر بحلاوة الحياة إلا بتحدي الحياة ومحاولة إيقاع أكبر عدد من الرجال.

وبديهي أنّ الذين يميلُون إلى هذه النّوعية غير الصالحة من النّساء هم نوعية

خاصّة من الرجال غير الحكماء، فالرّجل الحكيم القويّ لا يحبُّ المرأة اللّعوبَ، وإن وجد نفسه بدأت تتوق إليها فهو يستطيع كبح جماح تلك النّفس والسيطرة عليها، لأنه يعلم أن عواقب العلاقة بمثل تلك المرأة ضررها أكبر من نفعها في معظم الأحيان، فالذي يحب المرأة اللّعُوب لا يعرفُ أبداً طعم الرّاحة، وعليه أن يكون دائم التّنبّه، دائب التّحفّز والتّأهب للكفاح إذا أراد أن يظل متمكناً منها. أما إذا تهاون في التشبث بها أو تخاذل في فرض سلطانه عليها، فممّا لا ريب فيه أنّها ستخدعه وتخوّنه جزاءً له لأنّه لم يعرفْ كيف يقتلع أنيابها!.

● **ومن أدبها: أن تتجنب التّوافه من الأمور:**

كثيرات أولئك النّساء اللاتي يولعن بالتوافه من الأمور ولكن أيضاً يوجد كثير من النّساء اللواتي عودتهنّ ظروف الحياة تجنُّب تلك التوافه؛ فالتجربة تُشير إلى أنّ معظم الخلافات الكبيرة كانت في مبتدأ أمرها خلافات حول أشياء تافهة، ثم تصبح بمرور الزّمن عقدة نفسية لدى أحد الطّرفين، ثم تتطوّر إلى الطّلاق.

والمرأة الصّالحة هي التي تدرك ببصيرتها هذه الحقيقة فلا تثير جدلاً مع زوجها حول أيّ أمر لا يُؤدّي وجوده أو عدمه إلى تأثير محوري في مجرى حياتِها، فلا تتنازع معَهُ على نوعية طعام، أو على تسمية الأولاد، أو على شراء ثوب.

● **ومن أدبها: أن لا تكون لوّامة لزوجها:**

والمرأة الصّالحة ليست امرأة لوّامة، فلا تعتاد لومَ زوجها إذا أخطأ في شيء أو قصّر أو فشل، بل هي تقدم له العون اللازم والكلمة الطّيّبة عندما يفوته الحظ أو يحالفه الفَشل.

يروي أحد الأطباء النّفسيين: «حدثني زوج مطلّق، فقال: هل تعرف ما الذي هدم سعادتنا الزّوجية وصار بنا إلى الافتراق؟

إنّه إصرار زوجتي على إلقاء اللّوم كل اللّوم على كاهلي عندما أفشل في عمل أو أصاب بخسارة. ولقد بلغ بها الأمرُ حدَّ لَوْمِي عندما أصبتُ بالرّشح! وكذلك اتهمتني بأنّي كنتُ السّبب في انتقال العدوى إليها».

هذا حال المرأة اللوّامة، أمّا الأخرى التي يتطلع إليها كل رجل، فهي التي تجعل همَّها الأوّل إشعار زوجها بأنّه محبوبٌ، فإذا أخطأ التمستْ له عذراً، وإذا فشل أخذتْ بيده وطيّبتْ قلبه. وبهذه الوسيلة تستطيع المرأة الذكية مجابهة مُعْظَمَ العواطف التي لا تسلم منها أسعد العلاقات الزوجية وأكثرها انسجاماً وتفاهماً.

● ومن أدبها: أن تكون وفيةً بعهدها:

يرى بعضُ الرّجال أنّ الوفاء والأمان ليسا من طبع المرأة عموماً، فمن عهدها ـ كما يقول المتنبّي ـ ألاّ يدوم لها عهدٌ! ويذهب ذلك المذهب في النّساء شاعرٌ آخر، فيقول:

تمتّعْ بها ما ساعفتْك ولا تكُنْ ... جزُوعاً إذا بانتْ فسوف تبينُ
وصُنْها وإن كانتْ تفي لك، إنّها ... على مَدَدِ الأيام سوف تخونُ
وإنْ هي أعطتْكَ اللّيانَ فإنّها ... لآخر من طلابها ستلينُ
وإن حلفت لا ينقض النأي عهدها ... فليس لمخضوب البنان يمينُ
وإن أسبلتْ يومَ الفراقِ دُموعَها ... فليسَ لعمرِ الله ذاكَ يقينُ

ويؤكد الهيثم بن عدي تلك الصّفة في النّساء، فيحكي لنا واقعة تبرهن فيما يظن برهنة قاطعة على رأيه، فيقول: «غزا الغساني الحارث بن عمرو آكل المرار الكندي، فلم يصبه في منزله، فأخذ ما وجد له، واستاق امرأته.. فلما أصابها أُعجبتْ به، فقالتْ له: انجُ، فوالله لكأنّي أنظر إليه يتبعك فاغراً فاه، كأنه بعير آكل مرار!

وبلغ الحارث، فأقبل يتبعه حتى لحقه فقتله، وأخذ ما كان معه، وأخذ امرأته، فقال لها؛ هل أصابك؟؟ قالت: نعم.. والله ما اشتملت النساء على مثله قط! فأمر بها، فأوقفت بين فرسين، ثم استنفرهما حتى تقطّعتْ.. ثم قال:

كلُّ أُنثى وإنْ بَدَا لك منها ... آيةُ الودّ حبّها خيتعور
إن من غره النّساء بودٌ ... بعد هند لجاهلٌ مَغْرُور

كما ينحو هذا المنحى أبو عمرو بن العلاء وعبدة بن الطبيب، إذْ يقول الأول معجباً بحكمة الثاني:

أعلم النّاس بالنّساء عبدة بن الطّبيب، حيث يقول:

فإن تسألوني بالنّساء فإنّني عليم بأدواء النساء طبيب
إذا شابَ رأسُ المرءِ أو قلّ مالهُ فليسَ له في وُدِّهُنّ نصيبُ
يُردْنَ ثراءَ المرءِ حيثُ علمنَهُ وشرخُ الشّبابِ عندَهُنّ عجيبُ

تلك وجهة نظر بعض الرّجال في النّساء، ولا شك أنّ هناك كثيرين يتابعونهم فيما يذهبون إليه في النّظرة إليهنّ.

ولكن إذا حاول المرء أن يكون أكثر موضوعية فسيجد أنّ تلك الوجهة من النّظر صحيحة من جهة، وخاطئة من جهةٍ أخرى، أمّا خطؤها فيكمن في التعميم، أي تعميم الحكم على جميع النساء، فبطبيعة الحال هناك كثيرات يُؤتمنّ ويتمتعنّ بالوفاء والإخلاص، ولكن أيضاً توجد كثيرات لا يتميزنَ بهذه الصّفات، ولذا ينطبق عليهن الأحكام السّالفة. فالأمر هنا أمر نسبة، فإذا كان حكم تلك الأحكام حكماً عاماً كلياً فهو خطأ، ولكنّها إذا أُخذت في نطاق جزئي بحيث تنطبقُ على نوع واحد من أنواع النّساء فهي أحكام صائبة.

ومهما يكن من أمر، فإن استطرادنا في تقييم أقوال هؤلاء الرجال، تأكيد على وجود كثير من النساء يتَّسمنَ بالوفاء والإخلاص بصرف النظر عن المتغيرات الاقتصادية أو الطبيعية التي تطرأ على حال الزّوج.

فصفة الوفاء صفة ممكنة وواقعية تتصف بها كلُّ امرأة صالحة في أعين معظم الرّجال.

● ومن أدبها: أنْ تحترم رغبات زوجها وذوقه:

لا تتوطد علاقةٌ بين زوج وامرأته حتى يحترم كل منهما رغبات الآخر وأذواقه.

وإنّه لمن السخف أن نتصور أنّ اثنين يمكن أن يتشابها تمام الشبه في الأفكار، والآراء، والرغبات. فذاك أمرٌ غير متيسّر وغير مستحب في آنٍ واحدٍ.

فالتّقارب في تلك الأمور شيء ضروري، أمّا التّشابه التام فلا.. وشتان بين التقارب والتّشابه التام. وإذا كان التّشابه التام صعباً وغير مرغوب فيه، فينبغي على

المرأة ـ وأيضاً الرّجل ـ أن تحترم رغبات زوجها وأذواقه. وليس هذا شيئاً متعذّراً على أيّ امرأةٍ صالحة كريمة عاقلة.

● ومن أدبها: أنْ لا تترك أولادها للخدم أو للشارع:

وهي تربي أولادها بنفسها، ولا تتركهم للخدم أو للشّارع أو ليدِ غير يدها، لأنها تعلم أنّ هذا جزءٌ من مهمتها في بناء المجتمع؛ فالرَّسولُ ﷺ يقول: «المرأةُ راعيةٌ في بيتِ زوجها وهي مسؤولةٌ عن رعيّتِها»(١). ورحم الله شاعر النيل إذْ يقول:

الأمُّ مــدرســةٌ إذا أعــددتَهــا أعــددت شعبــاً طيّــبَ الأعــراق

فالأم الصّالحة هي القادرة دون غيرها على تربية أبنائها تربية جسديةً وعقليةً ونفسيّةً مستقيمةً، وهي التي تستطيع أن تفي بحاجاتهم الوجدانية التي لا يمكن إشباعها إلا في جوٍّ تُحيطه هي بحنانها وعطفها؛ لأنَّ المحاضن الجماعية الحكومية بوسائلها وإمكاناتها الكبيرة تستطيع أن ترعى الأطفال من النّاحية الجسدية رعايةً علميةً تماماً، لكنّها لا تستطيع أن تفي بحاجاتهم النّفسية، التي لا يمكن إشباعها إلا في الجوّ الأسريّ، الذي يتوفر فيه للطفل أبوان يشعر بأنّه يمتلكهما تماماً، أمّا في الحضانة فلا يمكن له هذا بأي حال من الأحوال، حيث يشترك عدد غير قليل من الأطفال في أمٍّ واحدةٍ. وهذا ينشأ عنه ضرر مزدوج يلحق بالطفل من جانب وبأبويه من جانب آخر؛ أمّا الطفل فسينشأ عنده نوع من الخلل النفسي، يترتب عليه اضطرابات عاطفية لها أبعد الأثر في تكوين شخصيته المستقبلة.

وأمّا الأبوان فستنتزع منهما عواطف الأبوّة والأمومة ممّا يجعل علاقتهما بعضهما ببعض تقتصر على حدّ الشّهوة والجسد، فهما خاويان من العطف والمودّة التي يتمتع بها الآباء.

● ومن أدبها: أنْ لا تكون نزّاعةً للسّيطرة:

قِوَامةُ الرّجل أمرٌ تُقرّه طبيعة الأشياء وتوجيهات الشّريعة، ولذلك فإنّ المرأة

(١) رواه الشيخان وغيرهما عن ابن عمر.

الصّالحة تُدرك تلك الحقيقة وترضى عنها داخلياً، فهكذا سُنّة الله في مخلوقاته. ولكنْ هناك صِنفٌ من النّساء مريض بانحراف نفسي، ذلك الانحراف يجعله دائماً نزّاعاً للسيطرة والتّسلط. وما أسوأ حظ الرّجل الذي يقع في واحدة من أولئك النّسوة. فهي إمّا أن تمحو شخصيته إذا كان ضعيفاً.. وإمّا أن تدفعه إلى مواجهتها والثورة عليها إذا كان قوياً..

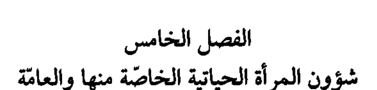
وفي الحالة الأولى: تموت حياتها الوجدانية بموت شخصية زوجها، ويُحيط بها الضجر والفراغ العاطفي.

وفي الحالة الثانية: تُستهدف لصراع يومي يجعل من حياتها جحيماً. وقد يدفع ذلك بزوجها القوي إلى الانتقام منها بالسعي إلى غيرها أو بطلاقها.

وفي كلتا الحالتين تتصدّع حياتُها، وينهدم بيتُها على رأسها ورؤوس أبنائها، جزاءً وفاقاً لانحرافها النّفسي، ولشذوذها عن منطق الأشياء.

ولذلك فإنّ العقلاء لا يعتبرون المرأة صالحةً حتى تتميز بعدم النّزوع للسيطرة والتكبّر، أو بعبارة أخرى: تتميز بالطّاعة والتّواضع. وقد سُئل أعرابي عن النساء وكان ذا تجربةٍ وعلمٍ بهنّ، فعدّد صفات المرأة الصّالحة ذاكراً بينها صفةَ الطّاعة وعدم التكبّر، فقال: «أفضلُ النّساء أطولهنّ إذا قامت، وأعظمهنّ إذا قعدتْ، وأصدقهنّ إذا قالتْ، التي إذا غضبتْ حَلُمتْ، وإذا ضحكتْ تبسّمتْ، وإذا صنعتْ شيئاً جوّدتْ، التي تطيعُ زوجَها، وتلزم بيتها، العزيزة في قومها، الذّليلة في نفسها، الودودُ الولُودُ، وكل أمرها محمودٌ».

ففي هذا القول يورد الأعرابي سِمَةَ عدم النّزوع للسيطرة عندما يقول: «التي تطيعُ زوجَها»، ويُورد صفةَ التّواضع وعدم التكبّر عندما يقول: «الذّليلةُ في نفسِها»، وليس المقصود بالعبارة الأخيرة ذلك المعنى السّلبي لكلمة «الذّلّ»، وإنّما المقصود المعنى الإيجابي لها.. أعني التّواضعَ وعدمَ التكبّر كما سبق الإشارة إليه.



الفصل الخامس

شؤون المرأة الحياتية الخاصّة منها والعامّة

المبحث الأوّل: عمل المرأة المشروع في ضوء القرآن والسّنّة.

المبحث الثّاني: الوظائف الحياتيّة للمرأة المسلمة في ضوء القرآن والسّنّة.

المبحث الثّالث: أدوار وظائف الأُمومة وأعباؤها.

المبحث الرّابع: أدوار الرّعاية التّربوية للأُمومة تجاه الأولاد.

المبحث الخامس: خصائص الأُمومة.

البحث الأول:

عمل المرأة المشروع في ضوء القرآن والسّنّة

إنّ الإسلام منحَ المرأةَ كافّةَ حقوقها الفطرية والاكتسابية التي تَتوافقُ مع قُدراتها الجسدية والنّفسية، وكرَّمَها وأعظمَ من شأنها، ورفع من مقام أنوثتها بالمعنى الصّحيح، فالذكورة والأنوثة جزءان متساويان في حمل أعباء الأمانة الإنسانية التي لا تتكاملُ معطياتُها إلاّ بهما، فكلاهما مُتمّمٌ للآخر ومكمّلٌ له، لا يجوز أن يطغَى جانبٌ على جانبٍ آخر، فلكلٍّ دائرته ومجاله واختصاصه، لا استعلاء ولا استكبار للذّكورة، ولا ذُلّ وامْتهَانَ للأنوثة، بل لها العزّةُ والكرامة والتقدير، فالرّجلُ يقومُ بواجباته ووظائفه التي خلقه الله تعالى من أجلها؛ من العمل والسّعي في طلب الرّزق والقيام بالقِوَامة والحماية لأسرته، وكذلك المرأةُ تقوم بواجباتها ووظائفها التي خلقها الله تعالى من أجلها، من الرّعاية والعناية الأُسَرِيّة في كونها «زوجةً صالحةً» و«أُمّاً رؤُوفةً» و«أُختاً حَانيةً» و«ابْنةً رحيمةً».

لذلك كان الإسلامُ دقيقاً في نظرته إلى المرأة، ومُصيباً في تكريمه لها، وحكيماً في حِفَاظه عليها، وكان معها ولها في جميع أدوار حياتها ومراحل معيشتها، ويتمثّلُ ذلك جلياً حينَ لم يُكلِّفْها أعباءَ كَسْبِ الرّزق، وأتعابَ مَهَامّه، وجعل ذلك محـصوراً في الرّجل وأبنائه الذّكور، لهذا كان موقفُ الإسلام نحوَ تحمّل المرأة أعباء العمل حازماً حيث لم يسمح به إلاّ في ظروفٍ خاصّةٍ، وأحوالٍ معيّـنةٍ، ومجالاتٍ مُحدَّدةٍ تَـتَماشَى مع ضرورتِها وحاجتِها وإمكانيّـتِها واستطاعتها وتفرُّغِها، فوقَ واجباتِها المنزليّة ومهامِّها الأُسَريّـة، فلكي لا يُـثقلَ عليها في حمل أعباءِ الحياة، أمرَها بالقرار في بيتها والحفاظ على كرامتها، فقال الله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾[1].

---

(١) سورة: الأحزاب، الآية: ٣٣.

قال الإمام ابن كثير في تفسير هذه الآية: أي إلْزَمْنَ بُيُوتكنّ فلا تَخْرُجْنَ لغيرِ حاجةٍ. وقال مجاهد في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾[1] كانت المرأة تخرج تمشي بين يدي الرّجال [بلا حجاب] فذلك تبرّج الجاهليّة. وقال مقاتل بن حيّان: التّبرّج أنّها تلقي الخمار على رأسها ولا تشدّه، فلا يواري قلائدها وقرطها وعنقها ويبدو ذلك كلّه منها، وذلك التّبرّج[2].

ويقول الإمامُ القرطبي في تفسير لهذه الآية: معنى الآية الأمرُ بلزوم البيت، وإنْ كان الخطابُ لنساء النّبيّ ﷺ فقد دخل غيرهنّ فيه بالمعنى. وهذا لم يردْ دليلٌ يخصّ جميع النّساء، كيف والشّريعةُ طافحةٌ بلزوم النّساء بيوتهنّ، والانكفاف عن الخروج منها إلاّ لضرورةٍ[3].

وكما هو معروف فإنّ البيُوتَ للأزواج والزّوجات والأولاد، ولاختصاص المرأة برعاية البيت أولاً وأخيراً أضافه الله تعالى إليها لكثرة ملازمتها له والإقامة فيه، ولِما تُؤدّي فيه من وظيفةٍ عظيمة ألاَ وهي «الأمومة»!.

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾[4][5]: من وقَرَ، يَقر: أي ثَقُلَ واستقرَّ. وليس معنى هذا الأمر ملازمة البيوت فلا يَبْرَحْنَها إطلاقاً؛ إنّما هي إيماءة لطيفة إلى أن يكون البيتُ هو الأصلَ في حياتِهنَّ، وهو المقرّ، وما عداه استثناءٌ طارىءٌ، لا يثقلن فيه ولا يستقررْنَ، إنّما هي الحاجة تقضي، وبقدرها. والبيتُ هو مثابةُ المرأةِ التي لا تجد فيها نفسَها على حقيقتها كما أرادها الله تعالى غير مشوهةٍ وَلا منحرفةٍ ولا ملوثةٍ، ولا مكدُودةٍ في غير وظيفتها التي هيأهَا الله تعالى لها الفطرة.

ولكي يُهيّـىءُ الإسلامُ للبيت جوَّهُ الهانيء، وللأطفال العنايةَ والرّعايةَ، أوجب على الزّوج النّفقة، وجعلها عليه فريضةً كي يُتاح للأم من الجهد والوقت، ومن الرّاحة

---

(١) سورة: الأحزاب، الآية: ٣٣.
(٢) تفسير ابن كثير، ج ٣/ ٤٨٢.
(٣) الجامع لأحكام القرآن ـ تفسير القرطبي، ج ١٤/ ١٧٩.
(٤) سورة: الأحزاب، الآية: ٣٣.
(٥) كتاب في ظلال القرآن، ج ٢٢/ ٢٨٥٩ ـ ٢٨٦٠.

وهدوء البال ما يجعلها دائبةَ العناية والرّعاية لحياة الأسرة، فالأمُّ المكدودةُ بالعمل للكسب، المرهَقَةُ بمقتضيات العمل، والمقيّدةُ بمواعيده، والمشتّتةُ الطّاقةِ فيه، لا يُمكنُها أنْ تقومَ بواجبات الأمومة والبيت والأسرة خير قيام، فهي إن قامت ببعض ذلك كان عبئاً عليها على ما تتحمّله من أعباء العمل، ولذلك كانت هذه المرأة دائمة الإرهاق والكَلاَل والمَلاَل.

من أجل ذلك كلّه نلاحظ أنّ المرأة في ظل الإسلام مكفيةُ المؤنة في جميع أطوار حياتها [بنتاً كانت أو أمًّا أو أختاً أو زوجةً]! فالرّجلُ الأبُ أو الزّوجُ أو الابْنُ أو الأخُ؛ مسؤولٌ عن الإنفاق عليها وقضاء حوائجها خارج البيت، وإن شاركت في بعض ذلك فيلزمُ أن يكونَ في دائرة فراغها واستطاعتها، مع أنّ بعض الصّحابيات كنّ يقمن بمشاركة أزواجهنْ بعضَ أعمالهم، والرسولُ ﷺ لم ينكرْ عليهنّ ذلك، طالما كان في حدود الاستطاعة والإمكان. قال الله تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾[1].

فلقد خلق الله تعالى النّاسَ ذكراً وأنثى، وجعلهم زوجين على أساس القاعدة الكليّة التي قدّرها سبحانه في عِمَارة هذا الكون، وجعل من وظائف المرأة أن تتزوّجَ فتحملَ وتضعَ وتُرضعَ، وتكفل ثمرة هذه الحياة الزّوجية، وهذه وظائفُ ضخمةٌ أوّلاً، وخطيرةٌ ثانياً! وهي ليستْ هَيّنَةً ولا يسيرةً، بحيث تُؤدّى بدون إعدادٍ عضوي ونفسي وعقلي؛ فكان عدلاً كذلك أن ينوط بالشّطر الثاني «الرّجل» أباً كان أم ابناً أو أخاً أم زوجاً، توفير الحاجات الضّرورية للبيت، وتوفير الحماية لكرامة الأنثى، كي تقومَ بوظيفتها الخطيرة!.

فقيامُ الرّجل بهذه المهامّ إثباتٌ لرجولته وقوَامته لأسرته، وبدونها لا قيمةَ له لا في نفس الزّوجة ولا البنت ولا الأخت ولا الأمّ، بلْ ولا قيمةَ له في المجتمع.

يقـول رسـول الله ﷺ: «ألاَ وحقُهُـنَّ عليكـم أن تُحْسِنُـوا إليهـنّ فـي كسـوتهِـنّ وطعامِهِنّ»[2].

---

(١) سورة: النساء، الآية: ٣٤.

(٢) تحفة الأحوذي شرح سنن الترمذي ج ٤/ ٣٢٦، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

والله تبارك وتعالى يقولُ: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ﴾[1].

وبهذا حفظ الشّرعُ الحنيفُ حقوقَ المرأة، وجنّدَ الرّجل ـ أباً أو ابناً أو أخاً أو زوجاً ـ لخدمتِها والنّفقةِ عليها والحفاظِ عليها، والنّظر فيما تحتاجُهُ دون أن يأمرَها بالعملِ والكسبِ والكدحِ، ما لم تَطَوّع في ذلك ضمن استطاعتها وإمكانتها وأنوثتها.

وممّا تقدّم نرى الفَرْقَ العظيم بينَ حقوق المرأة وتكريمها في الإسلام، وبينَ ما تُلزمُهَا به الحضارةُ الغربية من كُلْفة العملِ والمهنةِ في المجالاتِ العامّة، بلا رأفةٍ ولا شفقةٍ ولا رحمةٍ لها، فكان واضحاً أنْ ليس في الوجود قانونٍ يحمي المرأةَ، ويُحافظُ على كيانِها، ويضمنُ لها سعادتَها وأمْنَها وكرامتها، كما هو الحال في الإسلامِ وشريعتهِ السّمحةِ المطهّرة!!!.

---

(١) سورة: الطلاق، الآية: ٦.

البحث الثّاني:

الوظائف الحياتيّة للمرأة المسلمة في ظلال القرآن والسّنّة

أولاً ـ الوظيفة الأولى الزوجيّة:

يقول سبحانه وتعالى: ﴿ ۞ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾[(1)] الآية.

وقال: ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً ﴾[(2)] الآية.

وقال: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾[(3)] الآية.

يقول الإمام ابن كثير رحمه الله في تفسير الآية السابقة: «لو أنّه تعالى جعل بني آدم كلهم ذكوراً وجعل إناثهم من جنس آخر من غيرهم إما من جانٍّ أو حيوانٍ، لما حصل هذا الائتلاف بينهم وبين الأزواج، بل كانت تحصل نفرة لو كانت الأزواج من غير الجنس، ثم من تمام رحمته ببني آدم أن جعل أزواجهم من جنسهم، وجعل بينهم وبينهن مودة ورحمة، وهي الرأفة فإن الرجل يمسك المرأة إما لمحبته لها أو رحمة بها بأن يكون لها منه ولد، أو محتاجة إليه في الإنفاق أو للألفة بينهما وغير ذلك»[(4)].

إن حياة المرأة أو الرّجل منفردين تعتبر ناقصة لا تكتمل إلاّ باجتماعهما وتزاوجهما، هنا يجب إدراك حكمة الخالق في خلق كل من الجنسين على نحوٍ يجعله

---

(1) سورة: الأعراف، الآية: ١٨٩.
(2) سورة: النحل، الآية: ٧٢.
(3) سورة: الروم، الآية: ٢١.
(4) تفسير القرآن العظيم ج ٣، ص ٤٣٩.

موافقاً للآخر، وملبياً لحاجته الفطرية ـ نفسية وعقلية وجسدية ـ بحيث يجد عنده الراحة والطمأنينة والاستقرار، يجد أن في اجتماعهما السّكن والاكتفاء والمودة والرحمة لأن تركيبها النفسي والعصبي والعضوي ملحوظٌ فيه تلبية رغائب كل منهما، وائتلافهما وامتزاجهما في النهاية لإنشاء حياة جديدة تتمثل في جيل جديد»[١].

ولذلك سمي عقد النكاح، بالميثاق الغليظ في قوله تعالى: ﴿ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾ ﴾[٢].

قال الإمام الطبري رحمه الله: قال مجاهد: ﴿ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ﴾ قال: «مجامعة النساء» وقوله: ﴿ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴾ أي ما وثقت به لهنّ على أنفسكم من عهدٍ وإقرار منكم بما أقررتم به على أنفسكم من إمساكهن بمعروف، وتسريحهن بإحسان وكان في عقد المسلمين[٣].

نجد في الآيات القرآنية أنه سبحانه وتعالى لم يطلق على أيّ ميثاق مهما كان صفة ﴿غليظ﴾ إلا على ميثاق الزواج لأنه عقد وشركة إنسانية يجمع بوسَاطتها بين رجلٍ وامرأةٍ فيكونان زوجين بكلمة الله يفضي كلاهما للآخر. ولا يقف عند حدود الجسد وإفضاءاته، بل يشمل العواطف والمشاعر والوجدانات والتّصورات والأسرار والهُموم، والتّجاوب في كل صورة من صور التجاوب[٤]؛ لذا فهو ميثاقٌ لا يُستهان به.

وهكذا نرى كيف أنّ الإسلام قد عظّم من شأن الزوجية والزواج بحيث لم يعد هناك مجال للشك في أنه الطريق الطبيعي المشروع للإحصان. وزيادة في الإيضاح أقول: إنّ قانون الزوجية يعتمد على ثلاثة أركان الأمر الذي يجب أن تدركه المرأة وتحاول قدر استطاعتها تحقيقه، والقيام به بحكم طبيعتها واستعدادها ومواهبها الفطرية، لتقوم بأداء المهمة الأولى والوظيفة الرئيسية في حياتها ألاَ وهي الزّوجية.

---

(١) كتاب في ظلال القرآن ج ٢١، ص ٢٧٦٣.
(٢) سورة: النساء، الآية: ٢١.
(٣) جامع البيان في تفسير القرآن ج ٤، ص ٢١٥.
(٤) كتاب في ظلال القرآن ج ١، ص ٦٠٦.

الركن الأول: السكون الجنسي «الجسدي»:

إنّ الرغبة الجنسية هي من أقوى الغرائز البشرية على الإطلاق وتأتي في الأهمية بعد الرغبة في الطعام مباشرة من حيث القوة والقدرة حتى ولو لم تكن هناك أية مغريات، وأن نشاطها الطبيعي المحض يتطلب التّوصيات السريعة، وأيّ إنسان مهما بلغ من قوة العزيمة لا يستطيع تحمل وطأتها وخصوصاً في مواجهة المغريات المتكررة، لذا شرع الله الزواج وجعله من سنن الأنبياء والمرسلين وحثّ عليه. يقول تعالى: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ ﴾[1].

أي في أمر النساء، يقول الإمام الطبري رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ ﴾[2] أي ضعفاء عجزة عن ترك جماع النساء قليلي الصّبر عنه[3]. وورد في تفسير قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ﴾[4].

عن مجاهد وعطاء قال سلام بن سابور الذي (لا طاقة لنا به) الغلمة[5][6] والرّجل والمرأة سواء في هذه الناحية كل منهما محتاج لتلبية نداء الغريزة الجنسية. وهي الفتنة التي تجذب الذكر والأنثى بعضهما إلى بعض، بما انطوت عليه من لذة جسدية ولا مفرٌّ من إشباعها، ولئن كان الرّجل هو البادىء غالباً: يطلب الإعفاف بالزّواج، فإن المرأة لحيائها تأبى أن تكون بادئةً ولذلك فهي مطلوبةٌ ومرغوبةٌ. وهذا ما عبّر عنه القرآن بالسّكون، والسّكون معناه عدم الحركة[7].

ويقول الإمام القرطبي رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا ﴾[8] فأول اتفاق الرّجل بالمرأة سكونه إليها مما

---

(١) سورة: النساء، الآية: ٢٨.

(٢) سورة: النساء، الآية: ٢٨.

(٣) جامع البيان في تفسير القرآن ج ٥، ص ١٩ ـ ٢٠.

(٤) سورة: البقرة، الآية: ٢٨٦.

(٥) الغلمة: هيجان شهوة النكاح.

(٦) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن ج ١، ص ٤٣٣.

(٧) الجرجاني، التعريفات، ص ١٢٥.

(٨) سورة: الروم، الآية: ٢١.

فيه من غليان القوة.. فإليها يسكن وبها يتخلص من الهياج. إلى أن يقول: فعليها (أي الزوجة) بذله (أي إجابته) في كل وقت يدعوها الزّوج، فإن منعتْه فهي ظالمةٌ وفي حرج عظيم[١]. وممّا يُؤكد ذلك من السّنّة الشريفة ما رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النّبيّ ﷺ قال: «إذا دعا الرّجلُ امرأتَهُ إلى فراشهِ فأبتْ أن تجيء لعنتْها الملائكةُ حتىٰ تُصبحَ»[٢].

فهذا دليل على تحريم امتناع الزّوجة عند طلب الزّوج لها لغير عذر شرعي. وليس الحيض بعذر في الامتناع لأنّ له حقاً في الاستمتاع بما فوق الإزار[٣]، والدليل على ذلك ما روته عائشة رضي الله عنها قالت: «وكان يأمرني فأتّزر فيُبَاشِرُني وأنَا حائض»[٤].

لقد علّم الإسلامُ المرأةَ كيف تتطهر من النّجاسات الكبرى كالحيض والنفاس والجنَابة، وكذلك من الحَدث الأصغر.

فعن عائشة رضي الله عنها: أنّ أسماء سألتِ النّبيّ ﷺ عن غسل المحيض؟ فقال: «تأخذ إحداكنّ ماءَها وسدرتها[٥] فتطهر، فتحسن الطهور ثم تصبّ على رأسها فتدلكه دلكاً شديداً حتىٰ تبلغ شؤون رأسها[٦] ثم تصبّ عليها الماءَ. ثم تأخذ فرصةً ممّسكةً[٧] فتطهرُ بها» فقالت أسماء: وكيف تطهر بها؟ فقال: «سبحان الله تطهرين بها» فقالت عائشة: «كأنّها تخفى ذلك. تتّبعين أثر الدّم»[٨].

وسألته عن غسل الجنابة؟ فقال: «تأخذُ ماءً فتطهر فتحسن الطهور أو تبلغ الطهور ثم تصب على رأسها فتدلكه حتى تبلغ شؤون رأسها، ثم تفيضُ عليها الماءَ.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، ج ١٤، ص ١٧.
(٢) صحيح البخاري كتاب النكاح، باب إذا باتت المرأة مهاجرة فراش زوجها ج ٧، ص ٣٩.
(٣) النووي، صحيح مسلم بشرح النووي، ج ١، ص ٨.
(٤) صحيح البخاري، كتاب الطهارة، باب مباشرة الحائض ج ١، ص ٨٢.
(٥) السدر: شجر النبق.
(٦) شؤون رأسها: أصول شعرها وذلك مبالغة في النظافة.
(٧) فرصة ممسكة: أي قطعة قطن مطيبة بالمسك.
(٨) أثر الدم: قال جمهور العلماء: أي تغسل الفرج.

فقالتْ عائشةُ: نِعْمَ النّساءُ نِسَاءُ الأنصار، لم يكنْ يمنعهنّ الحياءُ أن يتفقّهنَ في الدِّين»[1].

قال الإمام البدر العيني رحمه الله: وفي الحديث استحباب التّطيب للمغتسلة من الحيض والنّفاس على جميع المواضع التي أصابها الدّمُ من بدنها: قال المحاملي: لأنّه أسرع في العلوق وأدفع للرائحة الكريهة[2].

هكذا يجب على المرأة أن تكون نظيفة في كل أوقاتها وخاصة بعد انقضاء فترة الحيض والنّفاس ممّا يزيد من حبّ زوجها وشوقه إليها فيستريح إليها ويشعر بالأنس والراحة، كلّما اقترب من زوجته التي تكون له بمثابة الواحة الظليلة التي تُؤويه وتُظلّه بحنانها كلّما لجأ إليها من صعوبة الحياة وهجيرها فيتجدّد عزمه ونشاطه لمواجهة أعباء الحياة وتكاليف المعيشة، والكدح في سبيل الرّزق وأداء العبادات والقيام بالفروض والواجبات.

الرّكن الثّاني من أركان الزوجية «المودة والحب والعاطفة الروحية بينهما»:

قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً﴾[3]، أي التّواد والتّراحم بعصمة الزواج بعد أن لم تكن بينكم سابقة معرفةٍ ولا لقاءٍ وسببٍ يُوجب التّعاطف من قرابةٍ أو رحم[4].

وعن ابن عباس قال: «المودة: حبّ الرّجل امرأته»[5].

فعلى كلٍّ من الزوجين أن ينمي هذا الحب وتلك المودة ويستبقيه بالتعاون على مهام الحياة، وفهم كل منهما لدوره ووظيفته وأدائها على أكمل وجه، مع أنّ العبء الأكبر في هذه النّاحية أيضاً يقع على المرأة حسب علمي وتجربتي باعتباري زوج ـ فإن أفضل الزّوجات هي من تتوفر فيها خصائص النّفس الكريمة، ومزايا الروح

(١) صحيح مسلم. كتاب الحيض، باب استحباب استعمال المغتسلة من الحيض فرصة من مسك ج ١، ص ٢٦١.
(٢) عمدة القاري/ج ٤، ص ٢٨٧.
(٣) سورة: الروم، الآية: ٢١.
(٤) الزمخشري، الكشاف ج ٣، ص ٢١٨.
(٥) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن ج ١٤، ص ١٧.

السّامية من صفات حسنة ومعان جميلة وخُلق طيّب يمثل الإنسانية الرّاقية، والشخصية المؤمنة. قال تعالى: ﴿ فَٱلصَّـٰلِحَـٰتُ قَـٰنِتَـٰتٌ حَـٰفِظَـٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ﴾(١) الآية.

قال رسول الله ﷺ: «الدّنيا متاعٌ وخيرُ متاعِ الدّنيا المرأةُ الصّالحة»(٢).

قال ابن كثير رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿ فَٱلصَّـٰلِحَـٰتُ ﴾ أي من النساء ﴿ قَـٰنِتَـٰتٌ ﴾ قال ابن عباس وغير واحد: يعني المطيعات لأزواجهنّ. ﴿ حَـٰفِظَـٰتٌ لِّلْغَيْبِ ﴾(٣) قال السّدّي وغيره: أي تحفظ زوجها في غيبته في نفسِها ومالِه(٤).

هذه الصفات التي يجب على الزوجة المؤمنة أن تتصف بها، فمن طبيعة المؤمنة الصّالحة، ومن صفاتها الملازمة لها، بحكم إيمانها وصلاحها أن تكون قانتةً مطيعةً. . . والقنوتُ والطّاعة عن إرادة وتوجهٍ ورغبةٍ ومحبّةٍ، لا عن قسرٍ وإرغام.

فالطّاعة وحسن العُشرة سهلة على نفس المرأة المفطورة على المسالمة والموادعة والرّفق واللّين. هو فن وذوق وتربية اجتماعية عالية. وبها تدوم المحبة والألفة والمودة وتحل معظم المشاكل المستعصية بالأسلوب المهذب والخضوع اللين والبسمة الحانية والنظرة الودود، والمجاملة اللّبقة فتكسب بذلك المرأة ثقة زوجها ودوام محبته وشعوره بالسعادة. .

الطّاعة أمرٌ عام يدخل فيه تنفيذُ كلِّ أوامر الزّوجِ في حدودِ الشّريعة ومراعاة شعوره، والابتعاد عن كل شيء لا يرضاه. فالمسؤوليةَ الأساسية للزوجة أن تدرس أخلاق وطباع زوجها وتعرف ما يرضيه وما يبغضه مع التزام أوامر الشّرع حتى تدوم المودة بينهما. فلا تدخل أحداً بيتَهُ إلاّ بإذنه، ولا تخرج إلا بإذنه، ولا تصوم نفلاً إلا بإذنه، يقول رسول الله ﷺ: «لا يحلّ للمرأة أنْ تصومَ وزوجُها شاهد إلاّ بإذنه ولا

(١) سورة: النساء، الآية: ٣٤.
(٢) صحيح مسلم، كتاب الرضاع، باب خير متاع الدنيا ج ٢، ص ١٠٩٠.
(٣) سورة: النساء، الآية: ٣٤.
(٤) تفسير القرآن العظيم ج ١، ص ٤٩١.

تأذن في بيته إلا بإذنه»[١] ويقول ﷺ: «والمرأة راعية في بيتِ زوجها وهي مسؤولةٌ عن رعيتها»[٢] وخير شاهد على أن طاعة الزّوج والقيام بواجب الأسرة والأولاد يعدل ثواب الجهاد في سبيل الله ما قاله رسول الله ﷺ لوافدة النّساء، حين طلبتْ منه مشاركة الرّجل في الجهاد والجُمَع والجَمَاعات، قوله: «إنّ حُسْنَ تَبَعُّلِ المرأة لزوجها يعدل ذلك كلّه»[٣].

الرّكن الثالث: من أركان الزوجية هو الرحمة التي تربط بين الرّجل وزوجته وبين جميع أفراد العائلة من أبناء وحفدة:

قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾[٤] الآية.

قال ابن عباس ومجاهد: المودّة: الجماع، والرحمة: الولد.

وقال الحسن: المودّة والرحمة: عطف قلوبهم بعضهم على بعض[٥].

يقول السيد رشيد رضا في تفسير هذه الآية: فقيّد سكون النفس الخاص بالزّوجة ولم يقيد المودّة والرحمة لأنّها تكون بين الزوجين ومن يلتحم معها بلحمة النّسب، وتزداد تقوى بالولد[٦].

ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ﴾[٧] الآية.

يقول ابن كثير رحمه الله في تفسير الآية السّابقة: ومن رحمته خلق من بني آدم

---

(١) صحيح البخاري كتاب النكاح، باب لا تأذن المرأة في بيت زوجها لأحد إلا بإذنه ج ٧، ص ٣٩.
(٢) صحيح البخاري كتاب النكاح، باب قوا أنفسكم وأهليكم ناراً ج ٧، ص ٣٤.
(٣) المنذري، الترغيب والترهيب كتاب النكاح ج ٤، ص ١٢٢.
(٤) سورة: الروم، الآية: ٢١.
(٥) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن/ج ١٤، ص ١٧.
(٦) تفسير المنار ج ٥، ص ٣٢.
(٧) سورة: النحل، الآية: ٧٢.

ذكوراً وإناثاً وجعل الإناث للذكور، ثم ذكر سبحانه أن جعل بين الأزواج البنين والحفدة، وهم أولاد البنين. قاله ابن عباس وعنه قال: بنوك حيث يحفدونك ويرفدونك ويُعينوك ويخدموك[١].

إنّ نعمة الذّرية للإنسان كبيرة فكلا الزوجين لا تعمّ لهما السعادة والاستقرار إلا بعد الإنجاب الذي هو المقصد الرئيسي من الزواج لأن الإنسان بطبعه يحب أن يمتد ذكره وأثره فيحس بهذا الامتداد في الأبناء والأحفاد الذين يرثونه بعده، والرحمة لا تكتمل إلاّ بعواطف الأمومة والأبوة رحمتها بالأولاد هذه العواطف هي أساس الرابطة الاجتماعية بين أفراد الأسرة الواحدة وتكامل البناء العائلي الذي يكون نواة المجتمع بأسره. فإن صلحت الأسرة وسعدت صلح المجتمع وسعدت الإنسانية.

تلكم هي الأُسس والأركان التي يقوم عليها قانون الزّوجية وما ينتج منها من ثمار عظيمة وجليلة حسية ومعنوية «السّكن ـ المودّة ـ الرحمة» وأعظم من ذلك كله وأهمه تحقيق تلك الثمرة التي من أجلها شرع الزواج ومن أجلها خلق الله الزوجين الذكر والأنثى «تكاثر النسل البشري» وذلك لحفظ النوع واستدامته إلى أن يرث الله الأرضَ ومَنْ عليها. ومن هنا تأتي وظيفة المرأة المهمة الخاصة بها بتأهيل عضوي ونفسي خاص انفردتْ به كما بينت في فصل الفروق بين الذكر والأنثى جسمياً وعقلياً ونفسياً.

ثانياً ـ «وظيفة الأمومة»:

لقد خصّ الله المرأةَ دونَ الرّجل بهذه المهمة العظيمة وكرّمها ورفعَ منزلتَها وأعلى شأنَها، لأنها هي الأصل وهي المستقر فهي السّببُ في وجود الجنس البشري بـإرادة الله، ومربية الإنسانية، ومحضن الأجيال الجديدة، إنّـها حارسةُ العش الذي تدرّج فيه الطفولة وتجد فيه تلبية كاملة لجميع مطالبها في مراحل حياتها كافةً وأطوار نموّها، إنها الأمينة على أنفس وأغلى عناصر الوجود الإنساني، وإن عملها في إتقان هذا العنصر والاهتمام به وتنويره وصقله وتربيته لا يعدله أيُّ عمل في أيّ مجال، لتعلّق

(١) تفسير القرآن العظيم ج ٢، ص ٥٧٧.

المستقبل الإنساني بها، وقيام التّمدن البشري عليها. فهي أقدس وظيفة وأشرف مهنة. ومكافأة لهذه المهمة العظيمة، توالتْ وصايا الكتاب والسُّنّة برعاية الأم والقيام بشأنها وردّ بعض الجميل إليها، يقول تعالى: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾[1].

يقول سيّد رحمه الله في ذلك: «هذه الصّورة الموحية ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ﴾[2] ترسم ظلال هذا البذل النّبيل! الأمُّ بطبيعة الحال تحتمل النّصيب الأوفر، وتجودُ بهِ في انعطاف أشد وأعمق وأحنّ وأرفق!»[3].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء رجلٌ إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسولَ الله مَنْ أحقُّ النّاس بِحُسْنِ صحابتي؟ قال: «أمُّكَ» قال: ثمَّ مَنْ؟ قال: «أمُّكَ» قال: ثمَّ مَنْ؟ قال: «أمُّكَ» قال: ثمَّ مَنْ؟ قال: «أبُوكَ»[4]. وذلك لِما لها من عظيم الفضل، فهي أحقّ بالبر والصلة وهي من ناحية أخرى أكثر ضعفاً من الأب، كما أنّ خروجها لقضاء حاجاتها أمر تعتوره بعض المصاعب. ويقول الإمام القرطبي رحمه الله: فهذا الحديث يدلّ على أنّ محبة الأمّ والشّفقة عليها ينبغي أن تكون ثلاثة أمثال محبة الأب، لذكر النّبيّ ﷺ: الأم ثلاث مرات، وذكر الأب في الرّابعة، لصعُوبة الحمل وصعُوبة الوضع وصعُوبة الإرضاع والتربية، تنفرد بها الأم دُونَ الأب، فهذه ثلاث منازل يخلو منها الأب[5].

هذا هو الشّعور الفطري للأنثى في الحياة إنّها ترغب دوماً أن تكون زوجة وأمّاً مهما شغلتْ من الوظائف الأخرى، فحنينُهَا دوماً إلى فطرتها الأصلية وفي هذا يقول الدكتور كاريل: الحقيقة أن المرأة تختلف اختلافاً كبيراً عن الرّجل فكل خلية من خَلايَا جسمها تحملُ طابَعَ جنسِها، والأمر صحيح نفسه بالنسبة لأعضائها، وفوق كل شيء بالنّسبة لجهازها العصبي فالقوانين الفسيولوجية غير قابلة للّين مثل قوانين العالم

---

(١) سورة: لقمان، الآية: ١٤.
(٢) سورة: لقمان، الآية: ١٤.
(٣) في ظلال القرآن ج ٢١، ص ٢٧٨٨.
(٤) صحيح البخاري كتاب الأدب، باب من أحق الناس بحسن الصحبة ج ٨، ص ٢.
(٥) الجامع لأحكام القرآن ج ١، ص ٢٣٩.

الكوكبي، فليس في الإمكان إحلال الرغبات الإنسانية محلها، ومن ثمَّ فنحن مضطرون إلى قبولها، كما هي، فعلى النّساء أن ينمينّ أهليتَهُنَّ تبعاً لطبيعتهنّ، من غير أن يُحاوِلْنَ تقليد الذّكور، فإنّ دورهُنّ في تقدّم الحضارة أسمى من دور الرجال، فيجب أن لا يتخلينَ عن وظائفهنّ المحدودة[1].

(١) الإنسان ذلك المجهول ـ ص ١٠٩. ط ٣٠، تعريب شفيق أسعد فريد.

البحث الثّالث:

أدوار وظائف الأمومة وأعباؤها

الدّور الأوّل: الحمل:

إنّ الحمل هو الثّمرةُ الطبيعيّة للقاء الزوجي بينَ الذّكر والأنثى والرّغبة في الأمومة غريزة فطرية وأمر واقعي بالنسبة للمرأة، نظراً لتكوينها الجسمي والعقلي والنّفسي، كما بينتُ سابقاً، إلى درجة أنّ العُقم يشكل لها اضطراباً عضوياً وعصبياً ونفسياً، وفراغاً لا يسدُّه أيُّ عمل آخر مهما كان نوعه. فلا يهنأ لها بالٌ بعد الزواج إلاّ إذا استقرّ الحملُ لكي تتوّج سعادتها، بمولود تقرُّ به عينَاهَا. وهذا الدّور يعتبر من أدقّ وأصعب الأدوار بالنسبة للمرأة ولذلك ورد ذكره في القرآن الكريم. يقول تعالى: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾[١].

وفي آية أخرى يصفُ الحملَ فيقولُ سبحانه: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾[٢].

يقول الإمام القرطبي في تفسير قوله تعالى: ﴿وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾: أي حملته في بطنها وهي تزداد كل يوم ضعفاً على ضعف، وقيل المرأة ضعيفة الخلقة ثم يضعفها الحمل[٣].

ويقول سيّد رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾[٤] تركيبُ الألفاظ وإيقاعـها يكاد يجسّم العَـنَاءَ والجُهْدَ ويلهث بالأنفاس إنها صـورة الحمل وبخاصـة في أواخر أيامِهِ وصـورةِ الوَضْعِ وطَلْقِهِ وآلامِهِ[٥].

---

(١) سورة: الأحقاف، الآية: ١٥.
(٢) سورة: لقمان، الآية: ١٤.
(٣) الجامع لأحكام القرآن/م ٧، ج ١٤، ص ٦٤.
(٤) سورة: الأحقاف، الآية: ١٥.
(٥) في ظلال القرآن، ج ٢٦، ص ٣٢٦٢.

إن فترة الحمل غنية بالإحساسات من حيث الشعور بالضعف والسعادة والنّشوة المشوبين بالحذر والحيطة وتحمّل الآلام. فعلى الأم أن تتعرف على أطوار الحمل في أثناء الشهور التّسعة لتكون على استعدادٍ ودرايةٍ بما يجدّ عليها في كلِّ شهرٍ من شهورِ الحمل، وقد ورد في القرآن الكريم وصف لمراحل تطور الجنين، قبل أن يصل العلم الحديث إليها، بل بما لم يصل إليه العلم إلى الآن من أسرار خلق الله. قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾[1]!!!.

ويقول تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦﴾ ﴾[2].

ويقول ﷺ الذي لا ينطقُ عن الهوَى إنْ هو إلاّ وحيٌ يُوحَى: «يدخلُ الملَكُ على النّطفة بعدَما تستقرُّ في الرّحم بأربعين، أو خمسة وأربعين ليلة. فيقولُ: يا ربّ: أشقيٌّ أو سعيدٌ؟ فيكتبان، فيقولُ: أي ربّ أذكرٌ أو أنْثَى؟ فيكتبان. ويُكتبُ عملُهُ وأثرُهُ وأجلُهُ ورزقُهُ، ثم تُطوَى الصُّحفُ. فلا يُزاد فيها ولا يُنقَصُ»[3].

سبحانه وتعالى، لا حدود لقدرته وعظمته وحسن تدبيره في خلقه إنه الإعجاز الإلٰهي يتجلى لنا في أروع صورةٍ وبيانٍ ليترك مجالاً للتفكير وللتّدبّر. ولا مجال هنا للإطالة والإيضاح فمن أراد ذلك فله الرّجوع إلى كتب الطبّ مفصلة. والمهم بيانُهُ هنا هو ما يجبُ على الأمّ فعلُهُ، مراعاتُه في هذا الدور الذي يطولُ مدةَ تسعةِ أشهرٍ فهي المسؤولة عنه باعتباره روحاً وحياةً جديدة تخلق في بطنها وقد أخذ الله منها الميثاق بألا تقتله عمداً أو تتسبَّبُ في قتله. قال تعالى: ﴿ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ ﴾[4].

---

(١) سورة: المؤمنون، الآيات: ١٢ ـ ١٤.
(٢) سورة: آل عمران، الآية: ٦.
(٣) صحيح مسلم، كتاب القدر، باب كيفية الخلق الآدمي، ج ٤، ص ٢٠٣٧.
(٤) سورة: الممتحنة، الآية: ١٢.

١ ـ تبيّن في البحوث المجراة على الرطب (أي ثمرة النّخيل) النّاضجة أنها تحوي مادة مقبضة للرحم، تقوّي عمل عضلات الرحم في الأشهر الأخيرة للحمل فتساعد على الولادة من جهة كما تقلل من كمية النّزف الحاصل بعد الولادة من جهة أخرى.

٢ ـ الرّطب يحوي نسبةً عالية من السكاكر البسيطة السّهلة الهضم والامتصاص مثل سكر الجلوكوز، ومن المعروف أن هذه السّكاكر هي مصدر الطاقة الأساسي. وهي الغذاء المفضّل للعضلات وعضلة الرحم من أضخم عضلات الجسم، وتقوم بعمل جبّار أثناء الولادة التي تتطلّب سكاكر بسيطة بكميات جيّدة ونوعية خاصة سهلة الهضم سريعة الامتصاص كتلك التي في الرطب. ونذكر هنا بأن علماء التّوليد يقدمون للحامل وهي بحالة المخاض الماء والسّكر بشكل سوائل سكرية «سائل الجلوكوز». ولقد نصّت الآية الكريمة على إعطاء السّوائل أيضاً مع السّكاكر بقوله تعالى: ﴿فَكُلِي وَٱشْرَبِي﴾[1] وهذا إعجاز آخر!.

الدور الثاني: الوضع:

إنّ آلام الوضع والولادة «الطلق» تفوق أيَّ ألم، فهي عملية شاقّة شديدة ومؤلمة حتى يتم خروج الجنين إلى عالم الحياة، وصدق الله حين قال: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾[2] فكما أنّ حمله كربٌ ووهنٌ فكذلك وضعه لا يقل ألماً وشدّةً ومشقةً.

وقد جاء ذكر المخاض في القرآن الكريم قال تعالى في سورة مريم: ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾﴾[3]. رغم كل هذا نجد أن الأم تنسى كل تلك الآلام ويفتر ثغرها ببسمة الرضا حينَ ترى مولودها بجانبها وهو في أتمّ الصّحة والعافية، فتشعر أنّ سعادتها لا تُوصف!.

وبما أنّ الولادة عملية شديدة الخطورة على الأم والجنين ينصح الأطباء بمراجعة

(١) سورة: مريم، الآية: ٢٦.
(٢) سورة: الأحقاف، الآية: ١٥.
(٣) سورة: مريم، الآية: ٢٣.

الطبيبة المسلمة للقيام بما يلزم وتزويدها بالنصائح والإرشادات بالنسبة لهذه الفترة الحرجة، هذا الأمر ليس بجديد، فقد تعودت أمهاتنا في السّابق الاستعانة «بالقابلة» المرأة الخبيرة التي تساعد الأم في عملية الوضع.

فقد وردَ عن السّيدة خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها أنها كانت تستعين بقابلة تدعى «سلمى مولاة صفية بنت عبد المطلب»[١] وسلمى هذه هي التي قبلت إبراهيم ابن رسول الله ﷺ وكانت قابلة بني فاطمة كلهم[٢] وهذا الوصف «قابلة» يعني أنّها كانت تبذل جهدها مع الأم لتكون أول من تستقبل الوليد سليماً معافى بحول الله وقوته وهذا يدل على احتفال العرب بالمواليد والعناية بهم.

ومن النّصائح التي تزود بها الأم بعد الوضع تناول الرّطب مع السّوائل فقد ورد في ذلك قرآن يُتْلَى فقال تعالى في سورة مريم: ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا﴾[٣].

٣ ـ الرّطب من المواد الملينّة التي تُنظّف القولون.. ومن المعلوم طبياً أنّ الملينات النباتية تفيد في تسهيل وتأمين عملية الولادة بتنظيفها للأمعاء الغليظة[٤].

هكذا نرى كيف أنّ الطّبّ الحديث يُؤكّد ما جاء به القرآن منذ زمن بعيد أنّه الحق من ربّك ثم يعقب الولادة «فترة إلنفاس» الذي تظل فيه المرأة تُعاني من الإرهاق والتّعب بعد الجهد الشّاق الذي بذلته أثناء عملية الولادة فمن رحمة الله بها أن خفّفَ عنها بعضَ التكاليف الشّرعية مثل الصّلاة والصّوم لمدة قد تطول إلى أربعين يوماً حسب تحقيق حالة الطّهر عندها فهي تقضي الصّوم ولا تقضي الصّلاة بعد انقضاء فترة النّفاس.

عن أمّ سلمة قالتْ: كانتِ النّفساء على عهدِ رسول الله ﷺ تجلِسُ أربعينَ يوماً.

---

(١) ابن حجر، الإصابة في تمييز الصحابة، ج ٤، ص ٢٨٢.
(٢) ابن عبد البر القرطبي، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ج ٤، ص ٣٢٨ هامش الإصابة.
(٣) سورة: مريم، الآيات: ٢٤ ـ ٢٥ ـ ٢٦.
(٤) د. عبد الحميد دياب، وأحمد قرقوز، مع الطّبّ في القرآن، ص ٢٨، ط ٢.

وكنّا نطلي وجُوهنا بالوَرْس مِنَ الكَلَفِ. وهو حديث حسن صحيح[(١)].

وقد أجمع أهل العلم من أصحاب النبيّ ﷺ والتّابعين ومن بعدهم على أن النّفساء تدع الصّلاة أربعين يوماً إلاّ أنْ ترى الطّهر قبل ذلك فإنها تغتسل وتُصلي[(٢)].
وينصح الأطباء الأم بعد الولادة بالاهتمام بنظافتها الخارجية والداخلية لأنّ عدم الانتباه والجهل بهذه الأمور يُؤدّي إلى مضاعفات وأمراض في الجهاز التناسلي. وعليها القيام ببعض التمرينات الرياضية الخفيفة التي ينصح بها الطّبيب[(٣)].

وفي هذه الفترة تبدأ مرحلة الرّضاعة التي لا تقل أهمية عن الأدوار السّابقة وخصوصاً بالنّسبة للوليد.

الدور الثالث: الرّضاعة:

دور الرضاعة من أخطر الأدوار التي يمر بها الوليد الجديد. فدور الأمّ بالغ الأهمية في هذه الفترة لذلك لم يترك جلّ وعلا تقريره لأحدٍ بل أنزل قرآناً يُتلى على مرّ العصور والأزمان، ليؤكّد في كل زمان ومكان أهميّة الرّضاعة الطبيعية للطفل والأم معاً.

١ ـ قال تعالى: ﴿ ۞ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَـٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ۚ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾ ﴾[(٤)].

٢ ـ ويقول تعالى: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾[(٥)].

---

(١) سنن ابن ماجه، كتاب الطهارة وسننها، باب النفساء كم تجلس ج ١، ص ٢١٣.
(٢) المباركفوري، تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي ج ١، ص ٤٢٩.
(٣) لمزيد من الاطّلاع انظر كتاب «دليل المرأة الطبي»، ص ١٤٩.
(٤) سورة: البقرة، الآية: ٢٣٣.
(٥) سورة: لقمان، الآية: ١٤.

٣ ـ وقوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾[١].

ورد في تفسير القرطبي رحمه الله لقوله تعالى: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ﴾[٢] قال الضحّاك: أيْ هنّ أحق برضاع أولادهنّ من الأجنبيات لأنهنّ أحنُّ وأرقُّ. وانتزاع الولد الصغير إضرارٌ به وبها.

وقوله: ﴿حَوْلَيْنِ﴾ أي سنتين كاملتين لمن أراد أن يتم الرّضاعة. دليل على أنّ رضاع الحولين ليس حقاً فإنّه يجوزُ الفِطامُ قبلَ الحَوْلين.

قال جمهور المفسّرين: إن هذين الحولين لكلِّ ولدٍ.

وروي عن ابن عباس قال: هما في الولد يمكثُ في البطن ستة أشهر، فإنْ مكث سبعة أشهر فرضاعهُ ثلاثةٌ وعشرون شهراً، فإن مكث ثمانية أشهر فرضاعه اثنان وعشرون شهراً، فإن مكث تسعة أشهر فرضاعه واحد وعشرون شهراً لقوله تعالى: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾[٣] وعلى هذا تتداخل مدة الحمل ومدة الإرضاع ويأخذ الواحد من الآخر[٤].

وهذا بالنّسبة لمدة الرّضاع أمّا بالنسبة لحكم الرّضاع يقول تعالى: ﴿لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ﴾[٥] فقد روى البخاري عن يونس عن الزهري: نهى الله أن تُضارّ والدةٌ بولدها. وذلك أن تقول الوالدة لستُ مرضعته، وهي أمثل له غذاء وأشفق عليه وأرفق به من غيرها، فليس لها أن تأبى بعد أن يعطيها من نفسه ما جعل الله عليه، وليس للمولود له أن يُضارَّ بولده والدته فيمنعها أن ترضعه ضراراً لها إلى غيرها، فلا جناحَ عليهما أن يسترضعا عن طيب نفس الوالد والوالدة ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾[٦] بعد أن يكون ذلك عن تراض منهما، وتشاور فصاله:

---

(١) سورة: الأحقاف، الآية: ١٥.
(٢) سورة: البقرة، الآية: ٢٣٣.
(٣) سورة: الأحقاف، الآية: ١٥.
(٤) الجامع لأحكام القرآن ج ٣، ص ١٦٠ ـ ١٦٣.
(٥) سورة: البقرة، الآية: ٢٣٣.
(٦) سورة: البقرة، الآية: ٢٣٣.

فطامه[١]. ولأهمية الرّضاعة الطبيعية للوليد قرر سبحانه وتعالى النفقة للأمّ المرضع حتى بعد الطلاق وذلك لئلا يتضرر الوليد نتيجة إهماله.

قال تعالى: ﴿ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾[٢] الآية.

يقول الإمام ابن كثير في تفسير هذه الآية: على والد الطفل نفقة الوالدات وكسوتهنّ بالمعروف أي بما جرت به عادة أمثالهنّ من غير إسرافٍ ولا إقتار بحسب قدرته في يساره، وتوسطه وإقتاره... إلى أن قال: قال الضّحاك: إذا طلّق زوجته وله منها ولد فأرضعتْ له ولده وجب على الوالد نفقتها وكسوتها بالمعروف[٣].

إنّ الإسلام هو أعظم تشريع يدافع عن حقوق الإنسان قبل أن تنادي به المدنية الحديثة الزائفة هذا ما أثبته القرآن الكريم والسّنّة الشّريفة. لقد حثَّ الله سبحانه وتعالى الأمهات أن يُرضِعْنَ أولادَهنّ. فقال تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾[٤].

لأن أفضل الرّضاع وأطيبه هو الممتصّ من ثدي الأمّ الصّحيحة بعد الولادة فهو الغذاء الطبيعي الملائم للوليـد قد أعده الله له بنسب ومقادير معينة لا يضاهيه أي نوع آخر من أنواع الحليب مهما كان يتصف بالجودة كمّاً وكيفاً، إنه صنع الله الذي أتقن كلَّ شيء صنعه في الوقت الذي بدأت فيه الصيحات والبيانات والقرارات تتوالى وتصدر عن المنظمات الدّولية لحقوق الإنسان ومنظمة الصحة العالمية بضرورة إرضاع الأم لطفلها وبيان فوائد الرّضاعة الطبيعيّة وخطر الرّضاعة الصناعية على الطفل. إلا من بعض الحالات المرضية التي يجب فيها الامتناع عن الإرضاع كالأمراض المعدية التي تصيب الأم أو بعض الأمراض الخطيرة كالصرع والجنون وفقر الدم وغير ذلك من الأمراض التي ينصح فيها الطبيب المسلم الأم بالامتناع عن الإرضاع فتختار له مرضعاً سليماً من كل الآفات والأمراض الجسدية والعصبية والعقلية. ولقد كانت قبائل العرب تلتمس المرضعات من غير القبائل المنتمية إليها، طلباً في قوة الجسم وصفاء الفكر

---

(١) صحيح البخاري، كتاب النفقات، باب قوله تعالى: ﴿والوالدات يرضعن﴾ ج ٧، ص ٨٣.
(٢) سورة: البقرة، الآية: ٢٣٣.
(٣) تفسير القرآن العظيم ج ١، ص ٢٨٣.
(٤) سورة: القصص، الآية: ٧.

وفصاحة اللّسان للطفل وكلنا يعلم أنّ مرضعة النّبيّ ﷺ من قبيلة بني سعد هي السيدة «حليمة السعدية»[١].

لقد أثبت الطب الحديث فوائد الرّضاعة الطبيعية للطفل صحياً ونفسياً، فمن النّاحية الصّحية:

١ ـ فلبنُ الأمِّ يُعتبر من أفضل أنواع الغذاء للطفل فهو معقّم جاهز لأنّه لا يتعرض للتلوّث الجرثومي كما في الإرضاع الصّناعي. بالإضافة إلى ثبوت درجة حرارته وملائمته لحرارة الطفل علاوة على ذلك بأنّه لا يكلف أي شيء من النّاحية الاقتصادية.

٢ ـ لبن الأم سهل الهضم لاحتوائه على خمائر هاضمة تساعد المعدة على الهضم.

٣ ـ لبن الأم لا يماثله أي لبن آخر لأنّه صُمّم ورُكّب ليفيَ بحاجات الطفل يوماً بعد يوم، فتركيب «اللبأ» وهو السائل الأصفر الذي يُفرزه الثّدي بعد الولادة مباشرة يحتوي على كميّات مركّزة من البروتينات المهضومة والمواد المحتوية على المضادات الحيوية للميكروبات والجراثيم فينشأ في الطفل مناعة ضد الأمراض.

٤ ـ تكثر نسبة الوفيات المفاجئة في الأطفال الذين يرضعون رضاعة صناعية (موت المهاد) عن نسبة إخوتهم الذين يرضعون رضاعة طبيعية من الثدي.

٥ ـ ينشأ الطفل وينمو سليماً من الأمراض إذا رضع رضاعة طبيعية. على حين يهيّىء الإرضاع الصناعي الطفل للإصابة بأمراض مختلفة كالالتهابات وحالات النزلة المعوية والمغص وغير ذلك من الأمراض الكثيرة[٢].

أمّا من النّاحية النّفسية فقد أثبت الطّب النّفسي الحديث أن الإرضاع الطبيعي يقوي الارتباط العاطفي بين الأم ووليدها ويجعل الأم أكثر عطفاً وعناية بوليدها فهي

---

(١) ابن حجر، الإصابة في تمييز الصحابة ج ٤، ص ٢٧٤.

(٢) لمزيد من الاطّلاع انظر المراجع التالية: كتاب (خلق الإنسان بين الطب والقرآن)، كتاب عمل المرأة في الميزان د. محمد علي البار، وكتاب مع الطب في القرآن د. عبد الحميد وأحمد قرقوز، وكتاب دليل المرأة الطبي د. ديفيد روزنيل.

ليست عملية مادية فحسب، بل هي رابطة معنوية وتكوين نفسي بالنّسبة للرّضيع. ويطلق علماء النّفس على هذه المرحلة «المرحلة الفمية» تستغرق السنة الأولى من عمر الطفل. وأساس هذه التّسمية راجع إلى أن الطفل تتركز حياته في هذه المرحلة حول فمه يستقبل بوساطته الغذاء كما يستقبل الحب والحنان والأمن، لذا فإنّ ثدي الأم لا يشبع جوع الطفل فحسب بل يحمل إليه أيضاً الحبَّ والعطفَ والشعورَ بالأمن، وعلى القدر الذي تشبع به هذه الحاجات وعلى الدّرجة التي يحاط بها الطفل من الرّعاية يتوقف نموّ التكوين النّفسي للطفل وشخصيته التي تظهر أثارها في مستقبل حياته سلباً وإيجاباً فإن أخذ الطفلُ حقَّهُ من الرّضاعة الطبيعية والرعاية والعناية من أمه والمحيطين به بأنه ينشأ سليم النفس خالياً من العقد والاضطرابات النّفسية عطوفاً محبًّا للخير حنوناً على عكس من ينشأ على الرّضاعة الصناعية ويتربّىٰ على أيدي الخادمات أو الحاضنات فإنه ينشأ محروماً من العطف والحنان، ممّا يُولّد في نفسه العُقد والاضطرابات النفسية فينزع إلى الشّرّ والعنف[١].

على أن هذا الإشباع لا بدّ فيه من التّنظيم والاتزان. فلا إفراط ولا تفريط فلا تسرع الأم بتلبية رغبات طفلها بمجرد البكاء ولا تتركه فترة طويلة يكثر من الصّراخ بل لا بد من وضع نظام وسط لأن هذا النظام سيترك أثراً في مستقبله وحياته، ومن خلاله تتكون عاداته التي سيتعامل بها مع مجتمعه فإذا أساءت الأم استعمال وظيفتها تلك فاستخدمت الرّضاعة لكفه عن عمل ما كالبكاء مثلاً كان ذلك سبيلاً إلى اهتزاز بنيانه الأخلاقي. لقد نجح الإسلام في وضع الأساس المتين لمعاملة الطفل أنّه يتعامل معه ككائن عضوي ونفسي معاً فإذا كان للجسد حاجات فللنّفس مطالب ولا بديل للأم في توفية حاجات الطفل مهما استحدث الناس من أمور يحاولون بها ملء فراغها.

الدّور الرّابع: التّربية والحضانة:

إنّ هذا الدور له شأن عظيم وأثر كبير في حياة الطفل، فالطفولة عند الإنسان هي المرحلة الأولى من عمره تبدأ من الولادة وتنتهي إلى حين بلوغه سن الرشد. يقول

(١) انظر بالتّفصيل الكتب التالية: د. مختار حمزة، مشكلات الآباء والأبناء، د. محمود محمد عمارة، تربية النشء في ظل الإسلام، د. أحمد محمد عامر، علم نفس الطفولة في ضوء الإسلام.

تعالى: ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ﴾(١). ويقول في آية أخرى: ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ﴾(٢) الآية.

فهاتان الآيتان تشيران إلى أنّ سنّ الطفولة يمتد من حين الولادة إلى حين البلوغ. وفي هذه السن يكمل عقل الإنسان ويقوى جسمه ويكتمل تميـيزه ويصبح مخاطباً بالتكاليف الشّرعية كلها على سبيل الوجوب ومرحلة الطفولة من أهم مراحل العمر وأكثرها خطورة لأنها أساس لمراحل حياته التالية وجذور لمنابت الإدراك الإنساني، ففيها تنمو مواهب الإنسان وتتفتح مداركه وتتحدد ميوله واتجاهاته نحو الخير أو الشر وفيها تأخذ شخصيّتُهُ في التكوين والتّشكّل لتصبح مميّزة عن غيرها فكما يغرس فيها من بذور الخير أو الشّر تؤتي أكلها في مستقبل حياته. وفي هذه المرحلة يتعلّم فيها الطفل من مجتمعه ويكتسب العادات والتقاليد لذلك فإنّ أول ما تـتفتح عليه عينا الطفل هي أمُّهُ فتحضنه وتحنو عليه فيشعر بالأمان والاطمئنان لذا فإن دور الأم في التّربية بالغ الأثر، يقول رسول الله ﷺ: «كلكم راعٍ وكلّكم مسؤولٌ عن رعيته، والأمير راعٍ والرّجل راعٍ على أهل بيته، والمرأة راعيةٌ على بيت زوجها وولده فكلكم راعٍ وكلُّكم مسؤولٌ عن رعيّته»(٣). والرّعاية: هي الحفظ والأمانة(٤).

إذاً فالآباء والأمهات عليهم مسؤولية التّربية والرّعاية والحفظ تجاه الأولاد ولكن تخصيص المرأة بالذكر في الحديث له دلالتُهُ وأهميّتُهُ.

فالمرأة في بيت زوجها مسؤولة، ومؤتمنة وموكّلة وربّـة مملكةٍ، رعيتها البنات والبنون، والزوج الرؤوم، والبيت وما حوى والمال والخدم. فلتكن للبنين والبنات خير مربية وأحسن مثل في طاعة الله وتقواه، والمحافظة على دينها وتعليمها لأولادها، وأخذهم به.

فأهم واجبات الأم واجب التّربية الإسلامية الصّحيحة لأولادها وتعهدهم

---

(١) سورة: النور، الآية: ٥٩.
(٢) سورة: الحج، الآية: ٥.
(٣) صحيح البخاري، كتاب النكاح باب المرأة راعية في بيت زوجها ج ٧، ص ٤١.
(٤) البدر العيني، عمدة القارىء ج ٢، ص ١٦٨.

بالنّصائح المفيدة ولتعلم أنّها المدرسة الأولى للأطفال وعليها يتوقف صلاح الأمة وفسادها[(١)].

الأم مــدرســة إذا أعــدَدْتَهــا أعـددْتَ شعبـاً طيِّـبَ الأعـراق

وهي مسؤولة أمام الله عن هذه الرعية، فعليها أن تُوجه كلَّ اهتمامها وفكرها ووقتها لفلذات أكبادها بحكمِ وجودِها في البيت، وطبيعة دورها وانشغال الأب في الخارج.

وأقول: إنّ كلّ صلة الأم بولدها تنحصر في الحمل والوضع هو نزول بالإنسان إلى مرتبة الحيوان، فالإنسان كما نعلم يمتاز بطول فترة حضانته لأطفاله وهي ليست حضانة غذائية فحسب كما هي في الحيوان، لكنّها خلقية روحية عقلية في الإنسان حتى يسهم الإنسان في تقدم البشرية. هنا لا بدّ من الأم أن ترعى وليدها وتسعى إلى كمال تربيته، لأن الإخلاص له والحرص على ابتغاء الكمال من كل وجه لا يمكن أن يتأتّى من غير الأمّ، لأنّ وراء إخلاصها وحرصها غريزة الأمومة الأمر الذي لا يمكن أن يرتفع به الخدم مهما بَالغُوا في الحرص على الواجب[(٢)].

إنّها الأُمومة الحقّة بما أودعها خالقُها من عاطفةٍ جياشة وحنان دافق وطبع ليّنٍ. . . ونداء فطري، لولا ذلك لما تحملتِ الأعباءَ الجِسَام، فهي متطوعةٌ دائماً استجابةً لرغبتها الفطرية، تتحمل مشاق الحمل والوضع وتتفانىٰ في الرّعاية والإرضاع ـ كما بينت سابقاً ـ وهي تتخلص في الحضانة والتربية بمنتهى الإيثار والتضحية ونكران الذّات، فالأمر الذي ينبغي للأم ملاحظته أنّ كلّ دور من أدوار النّمو له ما يناسبه من التّربية والتوجيه والتعليم، بل إنّ كلّ جانب من جوانب تكوين الطفل جسمياً وعقلياً ونفسياً محتاج للرّعاية والعناية والتّعليم.

ولقد أسس الإسلام قواعدَ التّربية وعني بالطفولة أيما عناية. وحث على تربيته وإعداده ليصبح إنساناً صالحاً متكاملاً في عقيدته وسلوكه ومعاملته، ومن ناحية أخرى

---

(١) د. كامل سلامة الدقس، نفحات من السّنّة، ص ١٠٥، ط ٢.

(٢) محمد محمد حسين، حصوننا مهددة من داخلها، ص ٩١، ط ٨.

فإنّنا إذا وازنّا ما قرَّرَهُ الإسلامُ من قواعد تربويّةٍ بمبادىء التّربية الحديثة ـ في هذا العصر ـ التي توصّل إليها كبار المربّين والمفكّرين والأخلاقيين الأجانب، فإنّنا نجدهم لم يأتوا بشيء جديد وأن القرآن الكريم وسنّة الرّسول ﷺ قد سبقهم إلى ذلك منذ قرون[1]. ولو دقّقنا النّظر فإنّنا نرى أنّ الرّسول ﷺ قد ضرب لنا المثلَ الأعلى في التّربية من خلال توجيهاته وتعامله مع المسلمين وأطفالهم ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾[2]. فهو ﷺ قدوتنا وأسوتنا، كما هو معلّمُنا ومرشِدُنا وهادينا إلى الحقّ والخير والهناء في الدنيا والنّعيم في الآخرة، صلى الله عليه وآله وسلم تسليماً كثيراً!!!.

(١) حسن ملا عثمان، الطفولة في الإسلام، ص ٦٨.
(٢) سورة: التوبة، الآية: ١٢٨.

المبحث الرّابع:

أدوار الرّعاية التّربويّة للأمومة تجاه الأولاد

أولاً ـ التّربية الجسدية والنّفسية للأبناء والبنات:

ويقصد بذلك المحافظة على جسم الطفل قوياً سليماً معاً في الأمراض والعلل لأن العقل السليم في الجسم السليم (والمؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف) بالإضافة إلى الاهتمام بنفسيته وذلك بمنحه الحب والحنان والشعور بالأمن والتقدير والتشجيع وتوجيه ميوله وغرائزه إلى ما يعود بالنفع على نفسه ومجتمعه وكلا الجانبين يتداخلان في التربية ولا ينقصان بل هما مكملان لبعضهما كبقية الجوانب الأخرى.

ولقد اهتم الإسلام بالناحية النفسية وحاجة الطفل للحب والحنان والعطف. ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال: «خير نساء ركبن الإبل صالحو نساء قريش، أحناه على ولده في صغره، وأرعاه على زوج في ذات يده»[1]، فصفة الحنان والشفقة البالغة على الأطفال إحدى الصفات التي نالت بها المرأة درجة الخيرية، ويعلو نصيبها من الخيرية أيضاً بمقدار ما تبذل من جهد في القيام بهذا الواجب، فالحب والعطف أساس التعامل كله وهو الغذاء النفسي إلى جانب الغذاء الجسدي والطفل محتاج لكلا الغذائين حتىٰ ينمو جسده ويبعث في نفسه دفء الحياة.

وهذا الرسول ﷺ قدوة لنا في معاملته الرحيمة الودود بالأولاد والصبية الصغار، بل إنه كان يكره القسوة والجمود، ويعيب هذه الصفة في الإنسان.

عن أبي هريرة أنه قال: قبّل رسول الله ﷺ الحسن بن علي، وعنده الأقرع بن حابس التميمي جالساً، فقال الأقرع: إن لي عشرة من الولد ما قبّلت منهم أحداً فنظر

---

(١) صحيح البخاري، كتاب النكاح. باب إلى من ينكح وأي النساء خير ج ٧، ص ٧.

إليه رسول الله ﷺ ثم قال: «من لا يرحم لا يرحم»[١].

وجاء مرة أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: تقبلون الصبيان فما نقبلهم. فقال النّبيّ ﷺ: «أو أملك لك أن نزع الله من قلبك الرحمة»[٢].

وليست الرحمة والعطف للولد دون البنت كما يظن البعض فالعطف والحب كان يشملهما معاً فقد ورد عن قتادة أنه قال: خرج علينا النّبيّ ﷺ وأمامة بنت العاص على عاتقه، فصلى فإذا ركع وضعها، وإذا رفع رفعها[٣]. وورد عن عائشة رضي الله عنها قالت: «جاءتني امرأة ومعها ابنتان تسألني فلم تجد عندي غير تمرة واحدة، فأعطيتها فقسمتها بين ابنتيها ثم قامت فخرجت، فدخل النّبيّ ﷺ فحدثته. فقال: من بلى من هذه البنات فأحسن إليهن كنّ له ستراً من النار»[٤].

هذا دليل على الترغيب في الإحسان إلى البنت أكثر ليستأصل عادة كره البنات في الجاهلية وينبّه إلى خطر التفرقة بين الأبناء والبنات في المعاملة. فواجب الأم تجاه طفلها وخاصة في الأدوار الأولى من حياته أن ترعاه وتفديه وتحنو عليه وتقبله وتحضنه لأن الشعور بالأمن والطمأنينة أمر ضروري لينشأ الطفل خالياً من العقد والاضطرابات النفسية ليس ذلك فحسب بل هو محتاج إلى الحب والتقدير في مختلف مراحل حياته.

عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ يأخذني على فخذه ويقعد الحسن على فخذه الأخرى ثم يضمهما ثم يقول: «اللهم ارحمهما فإني أرحمهما»[٥].

هذا الحديث يدل على أن الأطفال بحاجة إلى العطف والحنان والتشجيع في مختلف مراحل العمر وذلك لينشأ سليم النفس محباً للخير لأن فاقد الشيء لا يعطيه من أجل ذلك كله جعل الأسلام حق الحضانة للأم بعد الطّلاق لأنّها بحكم طبيعتها وغريزة

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الأدب باب رحمة الولد وتقبيله ج ٨، ص ٩.
(٢) تقدم تخريجه.
(٣) صحيح البخاري، كتاب الأدب باب رحمة الولد وتقبيله ج ٨، ص ٨.
(٤) تقدم تخريجه.
(٥) صحيح البخاري، كتاب وضع الصبي على الفخذ ج ٨، ص ١٠.

الأمومة فيها تشبع رغبات الطّفل النّفسيّة والجسديّة. عن عبد اللّه بن عمرو أن امرأة قالت: يا رسول الله إن ابني هذا كانت بطني له وعاء وثدي له سقاء، وحجري له حواء وإن أباه طلقني وأراد أن ينزعه مني. فقال رسول الله ﷺ: «أنتِ أحق به منه ما لم تنكحي»[١]. أما عن التربية الجسدية فقد اهتم الإسلام بنظافة الإنسان وصحته ونظافة البيئة وجعل الطهارة شرطاً أساسياً للعبادة في البدن والثوب والبقعة. قال رسول الله ﷺ: «الطّهور شطر الإيمان»[٢] الحديث.

فعلى الأم المسلمة أن تعلم صغارها أصول الطهارة، وتحافظ على نظافتهم منذ نعومة أظفارهم لأن من شبّ على شيء شاب عليه. فتعلمهم آداب قضاء الحاجة وكيفية الاستنجاء والوضوء والسواك وتقليم الأظافر، والاغتسال فتدربهم على ذلك عملياً وتشرف على تنفيذهم للآداب وتصحيح أخطائهم وتتذرع بالحكمة والموعظة الحسنة والرفق في التوجيه مع التشجيع والمدح والثناء على من أجاد صنعاً وقبل كل ذلك يجب أن تكون قدوة صالحة أمامهم تعمل وتطبق على نفسها ما تأمرهم به. وعليها أن توجّههم المرة تلو المرة حتى تصبح تلك الآداب عادة فيهم فينشأون عليها ويحرصون على تأديتها أينما حلّوا أو رحلوا وقد وردت آيات وأحاديث كثيرة تحثّ على النظافة والطهارة. يقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾[٣].

وقال ﷺ: «خمس من الفطرة: الختان، والاستحداد، وتقليم الأظافر، ونتف الإبط، وقص الشارب»[٤].

فالمسلم نظيف الجسم والأعضاء، وعلى الأم أن تعوّد أبناءها تلك العادات الحسنة لا في نفسه وبيته فحسب، بل لا بدّ من مراعاة النظافة في البيئة المحيطة من حوله أيضاً وذلك مشاركة منه في الاحتفاظ على صحة البيئة بصفة عامة وما عاش من عاش لنفسه فقط، وأيضاً لمراعاة شعور الناس وتجنب أذاهم.

---

(١) عون المعبود شرح سنن أبي داود، كتاب الطلاق، باب من أحق بالولد ج ٦، ص ٣٧١ حديث سكت عنه المنذري.
(٢) صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب الطهارة، باب فضل الوضوء ج ٣، ص ١٠٠.
(٣) سورة: البقرة، الآية: ٢٢٢.
(٤) صحيح مسلم، كتاب الطهارة، باب خصال الفطرة ج ١، ص ٢٢١.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «اتقوا اللعانَيْن، قالوا: وما اللّعانان[١] يا رسول الله؟ قال: الذي يتخلى[٢] في طريق الناس أو في ظلهم»[٣].

وعلى الأم أن تعلم أبناءها طريقة الاستنجاء الصحيحة والتطهر من النجاسات لما لذلك من أثر واضح في صحة أداء العبادات ومراعاة لأصول النظافة والصحة واقتداء برسول الله ﷺ. عن أنس بن مالك قال: كان رسول الله ﷺ يتبرز لحاجته فآتيه بالماء فيغسل به[٤].

وحتى طريقة استعمال اليدين علّمنا إياها رسول الله ﷺ فيجب أن نعلمها أولادنا ونربيهم عليها حتى ينشأوا وقد أصبحت عادة يعتادونها ولا يفرطون فيها. فقد قالت عائشة رضي الله عنها: «كان رسول الله ﷺ يحب التيمن في شأنه كله وفي نعليه، وترجله وطهوره»[٥].

وعلى عكس ذلك فقد كان ينهي عن «الاستنجاء باليمين» لأن في ذلك إزالة النجاسة. فكان يقول: «لا يمسكن أحدكم ذكره بيمينه وهو يبول، ولا يتمسح في الخلاء بيمينه، ولا يتنفس في الإناء»[٦].

وجملة آداب الطهارة والنظافة على الأم أن تعلم أبناءها المحافظة على أسنانهم باستعمال السواك أو ما يقوم مقامه، وإن كان السواك أفضل لما فيه من المواد المطهرة للفم والمزيلة للرائحة الكريهة التي اكتشفها العلم الحديث الآن[٧]. والنبيّ ﷺ يقول قبل اكتشاف الطب: «السواك مطهرة للفم مرضاة للرب»[٨] وكان

---

(١) اللعانان: الأمران الجالبان للّعن.
(٢) يتخلى: أي يتغوط في موضع يمر به الناس.
(٣) صحيح مسلم، كتاب الطهارة، باب النهي عن التخلي في الطريق الظلال ج ١، ص ٢٢٦.
(٤) يتبرز: معناه يأتي البراز: وهو المكان الواسع من الأرض، ويستتر: يبعد عن أعين الناظرين، فيغسل: معناه يستنجي به ويغسل محل الاستنجاء. صحيح مسلم كتاب الطهارة، باب الاستنجاء بالماء من التبرز ج ١، ص ٢٢٧.
(٥) المرجع السابق ج ١، ص ٢٢٦.
(٦) صحيح مسلم، كتاب الطهارة، باب النهي عن الاستنجاء وغيره ج ١، ص ٢٢٥.
(٧) انظر كتاب السواك والعناية بالأسنان، عبد الله عبد الرزاق مسعود السعيد.
(٨) سنن النسائي كتاب الطهارة، باب ترغيب في السواك ج ١، ص ١٠.

يقول: «لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة»[١].

وعليها أن تعلمهم طريقة الاغتسال، وتعرفهم أحكامه فهو يكون واجباً مرة ويكون مسنوناً مرة وخاصة الفتاة حين بلوغها سن الحيض. فيجب أن تعلمها كيفية الاغتسال من الحيض والاحتلام ولقد أكد النبيّ ﷺ على غسل يوم الجمعة فقال: «الغسل يوم الجمعة واجب على كل محتلم»[٢] وبذلك ينشأ الأطفال على حب الاغتسال والنظافة.

وكذلك يجب أن تعلمهم طريقة الوضوء كما شرع الله فإن تعوّد عليها الصغير قام به بكل سهولة وأدى صلاته بيسر واقتناع.

فقد ورد عن «عثمان بن عفان» رضي الله عنه أنه دعا بوضوء فتوضأ فغسل كفيه ثلاث مرات ثم مضمض واستنثر ثم غسل وجهه ثلاث مرات، ثم غسل يده اليمنى إلى المرفق ثلاث مرات، ثم غسل يده اليسرى مثل ذلك ثم مسح رأسه، ثم غسل رجله اليمنى إلى الكعبين ثلاث مرات، ثم غسل اليسرى مثل ذلك، ثم قال: «رأيت رسول الله ﷺ توضأ نحو وضوئي هذا»[٣].

كما ينبغي لها أن تعوّدهم على المحافظة على نظافة الثياب وطهارتها وحسن المظهر، وكذلك التطيب حتى لا يتأذى الناس بالرائحة الكريهة والتزين في المناسبات كالعيدين والجمع. قال تعالى: ﴿۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٖ﴾[٤].

والرسول ﷺ يرغب في حسن المظهر، ونظافة الثياب وطهارتها فيقول: «من اغتسل يوم الجمعة فأحسن غسله وتطهر فأحسن طهوره ولبس من أحسن ثيابه، ومس ما كتب الله له من طيب أهله، ثم أتى الجمعة ولم يلغ ولم يفرق بين اثنين غفر له ما بينه وبين الجمعة الأخرى»[٥].

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الطهارة، باب السواك ج ١، ص ٢٢٠.
(٢) النووي، صحيح مسلم بشرح النووي، باب الغسل ج ٦، ص ١٣٢.
(٣) صحيح مسلم، كتاب الطهارة، باب صفة الوضوء وكماله ج ١، ص ٢٠٥.
(٤) سورة: الأعراف، الآية: ٣١.
(٥) ابن ماجة، سنن ابن ماجة، كتاب إقامة الصلاة، باب ما جاء في الزينة يوم الجمعة، ج١، ص٣٤٩.

أما من ناحية الغذاء فإنه ضروري لبناء الجسم السليم فعلى الأم أن تحرص على تغذية أبنائها الغذاء المتوازن، الذي تتوفر فيه جميع العناصر اللازمة دون إفراط ولا تفريط يقول تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾﴾[١].

وذلك لأن الاعتدال واجب حتى لا يصاب الإنسان بالتخمة والسمنة وقد قالت العرب قديماً: (البطنة تذهب الفطنة) إلى جانب ما يسبب ذلك كثيراً من الأمراض الشائعة حيث يقول رسول الله ﷺ: «ما ملأ آدمي وعاء شراً من بطن، بحسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه، فإن كان لا محالة فثلث لطعامه وثلث لشرابه، وثلث لنفسه»[٢].

وعليها أن تحرص أن يكون طعام أسرتها من كسب حلال لأن الكسب الحرام يهلك صاحبه، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾﴾[٣].

ومن واجب الأم نحو أطفالها أن تعلمهم آداب الطعام وكيفية تناوله وكذلك آداب الشراب والبدء بالتسمية قبل ذلك وخير قدوة لنا رسول الله ﷺ في طريقة توجيهه لأطفال الصحابة رضوان الله عليهم. فعن عمر بن أبي سلمة قال: كنت غلاماً في حجر رسول الله ﷺ وكانت يدي تطيش في الصحفة. فقال لي رسول الله ﷺ: «يا غلام سمّ الله وكل بيمينك، وكل مما يليك»[٤].

ويقول ﷺ: «إذا أكل أحدكم فليأكل بيمينه، وإذا شرب فليشرب بيمينه فإن الشيطان يأكل بشماله ويشرب بشماله»[٥].

وعن أنس رضي الله عنه قال: «إن النّبيّ ﷺ زجر عن الشرب قائماً»[٦].

وعلى الأم أن تشجع أبناءها على ممارسة الرياضة البدنية لينشأ قوي الجسم متين

---

(١) سورة: الأعراف، الآية: ٣١.
(٢) المباركفوري، تحفة الأحوذي، باب ما جاء في كراهة كثرة الأكل ج ٧، ص ٥١ ـ ٥٢.
(٣) سورة: آل عمران، الآية: ١٣٠.
(٤) صحيح البخاري، كتاب الأطعمة، باب التسمية على الطعام والأكل باليمين/ج ٧، ص ٨٨.
(٥) صحيح مسلم، كتاب الأشربة، باب آداب الطعام والشراب/ج ٣، ص ١٥٩٨ ـ ١٦٠٠.
(٦) تقدم تخريجه.

العضلات. والرسول ﷺ يفضل القوي على الضعيف في الحديث ويقول: «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير واحرص على ما ينفعك ولا تعجز فإن غلبك أمر فقل: قدَّر الله وما شاء فعل، وإياك واللو، فإن اللو تفتح عمل الشيطان»[1]، وذلك لينشأ على حب الجهاد والذود عن حياض الإسلام. يقول تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾[2].

والرياضة هي خير وسيلة لشغل أوقات الفراغ بعد التعلم والعمل والعبادة وقد كان الصحابة رضوان الله عليهم يعرفون أهمية الرياضة فكانوا يشجعون أولادهم على تعلم المهارات المختلفة.

هذا بالإضافة إلى واجب آخر من أهم الواجبات على الأم وهو أن تلتزم سبل الوقاية من الأمراض كما قيل درهم وقاية خير من قنطار علاج وقيل: الصحة تاج على رؤوس الأصحاء، ولا يراه إلا المرضى، فإن مرض الطفل فعليها أن تعالجه بدواء نافع ينصح به الطبيب المتخصص ولا يجوز لها أن تهمله حتى لا يؤدي به الإهمال إلى ضرر أكبر فيهلكه (لا سمح الله). فقد روي عن جابر أن النّبيّ ﷺ قال: «لكل داء دواء فإذا أصاب دواء الداء برىء بإذن الله»[3].

مع تجنب اللجوء إلى السحر والشعوذة في العلاج لأنه يؤدي إلى الشرك لما ورد عن الرسول ﷺ قال: «اجتنبوا الموبقات: الشرك بالله والسحر»[4].

وكما نعلم فإن الأخذ بالأسباب والمسببات من صميم مبادىء الإسلام فالاستعانة بالأطباء واتخاذ التدابير الوقائية والعلاج من الأمراض السارية والمعدية أمر ضروري للحفاظ على صحة الأبناء ووقاية أجسامهم منها، فإذا مرض أحدهم وجب عزله عن باقي إخوانه حتى لا ينتشر المرض، فقد ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا يورد

(١) سنن ابن ماجة، كتاب الزهد باب التوكل واليقين/ج ٢، ص ١٣٩٥.
(٢) سورة: الأنفال، الآية: ٦٠.
(٣) صحيح مسلم، كتاب السلام، باب لكل داء دواء ج ٤، ص ١٧٢٩.
(٤) صحيح البخاري، كتاب الطب، باب الشرك والسحر من الموبقات ج ٧، ص ١٧٧.

ممرض على مصح»[١]. تلك هي الأسس وغيرها مما رسمه الإسلام وأمر به في تربية الأولاد الجسمية والنفسية وفيها كل الخير والفائدة. فعلى الأم المسلمة أن تطبق ما جاء فيها حتى تضمن لأبنائها الصحة والقوة والعافية بإذن الله وتكون بالتالي أدّتْ جزءاً من المسؤولية الملقاة على عاتقها.

ثانياً ـ التّربية النّفسيّة والخُلُقية للأبناء والبنات:

ويقصد بذلك غرس العقيدة الإسلامية الصحيحة في نفوس الأبناء بما في ذلك حب الله ورسوله وتلاوة القرآن، والتدبر في معانيه، وتطبيق ما جاء فيه والقيام بالشعائر الإسلامية ومراقبة الله وتجنب ما نهى الله ورسوله عنه والتحلي بالأخلاق الإسلامية الفاضلة والآداب الجليلة وتجنب الرذائل والمعاصي. فعلى الأم المسلمة واجب كبير في هذه الناحية، لأن رعاية الطفل من الناحية الجسدية لا تكفي، بل لا بدّ من رعاية الجانب الروحي والخلقي، حتى يكتمل بناء إنسانيته كإنسان مكون من جسد وروح. قال تعالى: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾[٢].

فلا بد من تلقين الولد أصول الإيمان وأركان الإسلام وأحكام الشّريعة لينشأ ثابت العقيدة لا يتزعزع بالدجل، ولا يتأثر بالتيارات الهدّامة، والطفل حين ولادته تكون فطرته سليمة نقية صافية، قال تعالى: ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ﴾[٣].

والرسول ﷺ: يقول: «ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه»[٤].

ويقول الإمام الغزالي رحمه الله: فأوائل الأمور التي ينبغي أن تراعى فإن الصبي بجوهره خلق قابلاً للخير والشر جميعاً، وإنما أبواه يميلان به إلى أحد الجانبين[٥].

---

(١) صحيح مسلم، كتاب السلام، باب لا عدوى ولا طيرة ج ٤، ص ١٧٤٣.

(٢) سورة: الحجر، الآية: ٢٩.

(٣) سورة: الروم، الآية: ٣٠.

(٤) صحيح مسلم، كتاب القدر، باب (معنى) كل مولود يولد ج ٤، ص ٢٠٤٧.

(٥) الإمام الغزالي، إحياء علوم الدين ج ٣، ص ٧٤.

ولقد فطن علماء التربية والأخلاق الآن إلى أهمية التربية الدينية الروحية وأثرها في إصلاح سلوك الأفراد، وتقويم اعوجاج النفوس بعد التجربة المريرة التي خاضوها حين نشروا العلمانية والإلحاد، فوقعوا في كثير من الأمراض الاجتماعية، وكثرة الجرائم، وانحلال الأخلاق. واعلموا أنه ما من سبيل للإصلاح إلا بالتربية الإيمانية والاهتمام بالجانب الروحي، حتى تعيش الفضائل، ويعرف الخير من الشر، وينعم المجتمع بالقيم والأخلاق الحميدة كل ذلك قد وصّى به الدين الإسلامي الحنيف في تربية الأولاد على العقيدة الصحيحة وربط بخالقه وليس أدل على ذلك من بيان طريقة القرآن ومنهجه في تربية الأسس العقائدية الصحيحة في منهج تربية لقمان لابنه إذ بدأ بعرض عقيدة التوحيد بنهيه عن الشرك ووصفه بالظلم العظيم.

قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ ﴾[1].

ويتبع ذلك بذكر أوصاف يصور بها عظمة الله وعلمه وشمول قدرته وقوته على سائر خلقه فقال: ﴿ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ ﴾[2].

وبعد انتهائه من أمر العقيدة يرشد إلى تحقيق معاني العبودية المترتبة على الاعتقاد بوحدانية الله وهي الصلاة وعمل الخير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وجملة الآداب والفضائل الخلقية الحميدة من صبر وتواضع وتسامح ولين ورفق. فقال تعالى: ﴿ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾ ﴾[3].

والملاحظ في التربية الإسلامية أنها تربط بين التربية الروحية وبين التربية الخلقية وسلوك الإنسان في الحياة الاجتماعية بوجه عام، وهذه الوصية القرآنية خير ما تقدمها

---

(١) سورة: لقمان، الآية: ١٣.
(٢) سورة: لقمان، الآية: ١٦.
(٣) سورة: لقمان، الآيات: ١٧ ـ ١٨ ـ ١٩.

الأم لأبنائها وتدريبهم عليها وهي مسؤولة عنهم باعتبارها المحضن الأساسي للطفل منذ ولادته إلى أن يشب ويكبر. فهي تتولى شؤونه وأموره صغيرها وكبيرها وتراقب تصرفاته، بل هي القدوة الأساسية أمامه، فالطفل مقلد بارع يتبع ما يراه واقعه لذا وجب على الأم أن تكون قدوة صالحة ذات سلوك مستقيم فيباشر الطفل بنفسه الاقتداء بها.

فعن عبد اللّه بن عامر رضي الله عنه قال: دعتني أمي يوماً ورسول الله ﷺ قاعد في بيتنا؟ فقالت: هاك تعال أعطيك! فقال رسول الله ﷺ: وما أردت أن تعطيه؟ قالت: أردت أن أعطيه تمراً. فقال لها رسول الله: «أما إنك لو لم تعطه شيئاً كتبت عليك كذبة»[١].

إنها تصرفات يسيرة في الظاهر ولكنها عميقة التأثير في السلوك فقد خشي رسول الله أن تكون الأم كاذبة، وأنها تستدرج ابنها كما تفعل بعض الأمهات الجاهلات بدين الله فأراد أن يتأكد من صدقها لعلمه ما سيترك ذلك من أثر في نفسية الطفل البيضاء النقية، لأنه سيتعلم الكذب بالتقليد والإيحاء، وتصبح عادة الكذب لديه مستحكمة والإنسان كما نعلم ربّى الأمة الإسلامية على الصدق ونهاها عن الكذب حتى في المزاح وهكذا في بقية الأخلاق الإسلامية والفضائل الحميدة نرى أن القدوة الصالحة لها أثر كبير في تعلم الطفل وتربيته وتدريبه على التمسك بمختلف الكمالات الخلقية.

فعلى الأم أن تكون ذات عقيدة صحيحة، سليمة من الانحرافات مؤمنة تطبق أركان الإيمان وتؤدي شعائر الإسلام، وتلتزم بالأخلاق الإسلامية الحميدة حتى تكون خير قدوة لأبنائها في تربيتهم التربية الإيمانية والخلقية الصحيحة، فالعقيدة هي أساس حياة الإنسان عليها يبنى السلوك والأخلاق والميول والاتجاهات فمن واجبها أن تتعهد أبناءها بغرس الأصول الإيمانية في نفوسهم عن طريق الموعظة والقصة لأن الأطفال في صغرهم يرغبون في أسلوب القصص لما فيها من عنصر التشويق والإثارة فبدلاً من أن تحكي لهم قصص الخرافات والغرائب عليها أن تقص عليهم قصصاً صحيحة من القرآن الكريم وسير الرسل والأنبياء الكرام وقصص الأبطال والعظماء من الصحابة والتابعين

---

(١) عون المعبود شرح سنن أبي داود، كتاب الأدب، باب التشديد في الكذب ج ٣، ص ٣٣٥.
وقال المنذري: مولى عبد اللّه مجهول.

ورجال السلف الكرام، حتى يتعمق في ذهن الطفل حب هؤلاء والاقتداء بهم.

وعليها أن تتوخاهم بالنصيحة والإرشاد في أوقات مناسبة بأسلوب يناسب سنّهم ومستواهم في الإدراك وخير مثل يضربه لنا رسول الله ﷺ في تعهده للصغار بالموعظة ما رواه عن عبد اللّٰه بن عباس رضي الله عنهما قال: «كنت خلف النّبيّ ﷺ يوماً، فقال: يا غلام إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده أمامك، إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله. واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإذا اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك. رفعت الأقلام وجفت الصحف»[١].

يدل هذا الحديث على عنايته التامة بتربية الأطفال وتغذية نفوسهم بالعقائد الإسلامية وغرس الأعمال الصالحة في نفوسهم لينشأوا نشأة حسنة علماء بدينهم، عاملين بتعاليمه، حريصين على حسن أدائها حتى إذا كبروا كانوا مرجعاً لغيرهم كما كان شأن عبد اللّٰه بن عباس وغيره من الصحابة الأجلاء الذين كانوا نعم الموئل والملجأ للمسلمين بعد النّبيّ ﷺ[٢].

وعلى الأم أن تعلم أبناءها الفرائض الواجبة على كل مسلم حسب تطوره في السن. فالصلاة يؤمر بها ابن السابعة كما بين رسول الله في قوله: «مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين، واضربوهم عليها وهم أبناء عشر سنين، وفرقوا بينهم في المضاجع»[٣].

يقول صاحب عون المعبود في شرح الحديث: («مروا» من الأمر (أولادكم) يشمل الذكور والإناث، (وهم أبناء سبع) ليعتادوا أو يستأنسوا بها (واضربوهم وهم أبناء عشر) لأنهم بلغوا أو قاربوا البلوغ (وفرقوا بينهم في المضاجع) أي المراقد، قال المناوي في فتح القدير: أي فرقوا بين أولادكم في مضاجعهم التي ينامون فيها إذا بلغوا

---

(١) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، كتاب صفة القيامة ج ٧، ص ٢١٩. قال الترمذي: حديث حسن صحيح.
(٢) د. كامل سلامة الدقس، من الأدب النبوي، ص ١٤٩.
(٣) عون المعبود شرح سنن أبي داود، كتاب الصلاة، باب متىٰ يؤمر الغلام بالصلاة ج ٢، ص ١٦٢. وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

عشراً، حذراً من غوائل الشهوة. وإن كنّ أخوات قال الطيبي: (جمع بين الأمر بالصلاة والتفرقة بينهم في المضاجع في الطفولية تأديباً لهم، ومحافظة لأمر الله كله، وتعليماً لهم المعاشرة بين الخلق، وأن لا يقفوا مواقف التهم فيجتنبوا المحارم)[١].

إن دقائق التربية وأسرارها بالمعنى الصحيح لا تتكامل إلا في «التربية الإسلامية» التي جمعت بين خصائص الروح والجسد، وقدمت للإنسانية نموذجاً ليس له مثيل مهما وضع العلماء من نظريات وجاؤوا بفلسفات فإنها لن تصل إلى كمال وجمال التربية الإسلامية الأصيلة.

هذا ما يجب على الأم تعلمه والعمل به، فإنها لو اتخذت من أسلوب ومنهج التربية الإسلامية منهاجاً لها وطريقة مثلى لتعليم صغارها، فإنها ستصل حتماً في النهاية إلى إعداد جيل سليم متكامل.

وكذلك يجب عليها في كل الفروض الباقية، أن تحبب إليهم أداءها على حسب طاقاتهم وسني أعمارهم (كالصيام) فتدربهم عليه وكذلك إخراج الزكاة والصدقة المفروضة وغيرها من العبادات كالدعاء وقراءة القرآن وحفظه والتدبر في معانيه وتطبيق ما جاء فيه من أوامر، واجتناب ما ورد فيه من نواه، وعلى الأم أن تعوّد أبناءها على خلق الحياء لأن «الحياء لا يأتي إلا بخير»[٢].

وعليها تدريب ابنتها على الاحتشام في الملبس والمظهر حتى تتعود على ذلك، فتنشأ مهذبة محبة للتستر والحجاب، فإذا ما وصلت سن البلوغ تقوم بما فرض الله عليها من حجاب برضى وسعادة وكذلك كل خلق إسلامي يجب على الأم أن تحببه إلى نفوس أبنائها، وتدربهم على التحلي به في السلوك والمعاملات وتحذرهم من الرذائل الخلقية وآثارها حتى يستطيع الأولاد التميز بين الخير والشر والفضيلة والرذيلة، فالأخلاق ثمرة العقيدة والعبادة الصحيحة تظهر آثارها في السلوك قال تعالى في وصف نبيّه الكريم: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾[٣].

---

(١) عون المعبود شرح سنن أبي داود، مع شرح الحافظ ابن قيم الجوزية ج ٢، ص ١٦١ ـ ١٦٢.
(٢) صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب الحياء ج ٨، ص ٣٥.
(٣) سورة: القلم، الآية: ٤.

فالأم هي المدرسة الأولى يتعلم فيها الأبناء أول دروس الحياة. وهي القدوة المثلى أمامهم فيجب أن تتحلى بالأخلاق الفاضلة وتتمسك بالآداب الإسلامية فيوافق النصح بالكلام التطبيق العملي فتعلمهم آداب الاستئذان داخل البيت وخارجه والتحية وآداب الكلام واحترام الكبير والعطف على الصغير وإكرام الضيف ومساعدة الجار والعطف على الفقراء والمساكين وإغاثة الملهوف ومساعدة المحتاج وبر الوالدين وصلة الرحم والصدق والأمانة والإيثار والحلم والصبر والعفو والتواضع والجرأة الأدبية والدفاع عن الحق والجهاد وبذل النفس والمال في سبيل إعلاء كلمة الحق. وتنهاهم عن رذائل الأخلاق كالكذب والنميمة والسرقة والسخرية والغرور ـ والكبر والسباب والشتم والقسوة والجبن والخوف والجور.

وإليك بعض الأدلة من القرآن والسنة على الآداب الإسلامية لتكون مرجعاً للأم في تعلمها وتعليمها فمنها آداب الاستئذان.

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَـٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ۚ ثَلَـٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ ۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَـٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾ ﴾[1].

هذه جملة آداب الاستئذان أوردَها الله سبحانه وتعالى ليتأدّب المسلمون بها، ويُؤدّبوا أبناءَهم وخدمَهُم عليها داخل البيوت والمساكن.

وقد سمّى الله سبحانه وتعالى هذه الأوقات «بعورات ثلاث» لانكشاف العورة فيها، لذلك وجب تعليم الأبناء والبنات آداب الاستئذان من أول بدايات الوعي والإدراك لديهم، حتى لا تقع أعينُهم على ما يُكره النظر إليه من عورتي الأبوين.

وهذا الأدبُ يغفلُ عنه كثيرٌ من الآباء والأمّهات في حياتهم المنزلية، فيجبُ عليهم الأخذُ بهذه الآداب وتأديبُ الأولاد عليها والتّقيّد بها.

---

(١) سورة: النور، الآيتان: ٥٨ ـ ٥٩.

ثالثاً ـ التّربية العقلية للأبناء والبنات:

إنّ الإسلام اهتمّ بجانب العقل كما اهتمّ بجانب الجسد والروح، وأمر بتنمية هذه الملَكَة وتسخيرها لمصلحة بني آدم فنرى القرآن الكريم يأمرُ بالتّدبّر والتّفكّر، وإعمال العقل في استنباط دقائقِ وأسرار الكون فيقولُ الله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾[١].

فالواجب على الأمّ بالتّعاون مع الأب الذي يكون له الدّور الأكبر في الاهتمام بالنّاحية العقلية لدى الطّفل وتنمية مواهبه ومهارته.

والطّفل يتميّز في مراحله الأولى بشدّة الانتباه وكثرة الأسئلة والخيال الواسع في كثير من المجالات، فعلى الأم أن تُلاحظ مدارك طفلها وأن تُجيبه على أسئلته بأجوبة مقنعة صحيحة تلائم سنّه ومقدار فكره، وأوّل ما ينبغي أن يتعلّمه الطفل قراءة القرآن الكريم، ثم تعلّم الآداب النّبوية والأخلاق المحمّدية صلّى الله على صاحبها، ثم تعلّم الكتابة، ثم العلوم الحديثة الهامّة للحياة.

يقول الله تبارك وتعالى في أول ما أنزل من القرآن العظيم: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ ﴾[٢].

فالقراءة والكتابة هما الوسيلتانِ اللّتان يتعرّف بهما الإنسان على العلوم والمعارف، فتزداد معارفه وينمو عقله، فعلى الأم أنْ تُشجّع أبناءَها على العلم والتّعلّم، وذلك بتهيئة الجوّ المناسب، وتعويدهم على النّظام البيتي في تناول الغذاء والعلم والرّاحة واللّعب المفيد، ثم تساعدهم على فهم ما غمض على أذهانهم من العلوم والمعارف، وعليها أن تعوّدهم على التّأمّل والتّفكّر والاستنباط ممّا يتعلّمون، فلا تترك فرصةً مناسبة إلاّ وتلفتُ انتباههم إلى عظيم قدرة الله تعالى في إنعامه على مخلوقاته، وقد مدح الله تعالى هذه الصّفة في الإنسان ذكراً كان أم أنثى فقال: ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ

(١) سورة: محمد، الآية: ٢٤.
(٢) سورة: العلق، الآيات: ١ ـ ٥.

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾﴾[١].

بهذه الصّفات سادَ سلفنا الصّالح على الدّنيا، حين أعملوا العقلَ فتفتّقتْ أذهانهم بالعلوم النّافعة، فالإسلامُ دينُ العلم والفهم والمعرفة والاعتبار والاكتشاف والابتكار، يقول رسولُ الله ﷺ: «طلبُ العلم فريضة على كل مسلم»[٢] وطلب العلم المفروض هو توحيد الله تعالى وطاعة رسولهَ ﷺ ويدخل في ذلك ما يُعين على القيام بذلك من العلوم الكونيّة،وطلبُ العلم لا يتوقّف على زمنٍ أو سنٍّ معيّنة، بل يستمرّ طوال العلم، يقول الله تبارك وتعالى آمراً رسوله ﷺ وأفرادَ أمّته من بعده: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾[٣].

فعلى الأبوين أنْ يحرصَا على تعليم أبنائهما العلومَ النّافعة المفيدة من أهمّها العلومُ الشّرعية، ثم العلوم الكونية التي تساعدهم على حياتهم، ليعملُوا بما علِمُوا، فينفعُوا أنفسَهُم وأهليهم وأمّتهم، وقد مدح الله تعالى العلمَ النّافع والعلماءَ العاملين فقال سبحانه: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾[٤]، وقال سبحانه: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾﴾[٥].

وعلى الوالدين أن يُوجّهَا أبناءَهما في المنزل ويُتابعَا تحصيلهم الدّراسي والعلمي، وأن يرغّبَا أبناءَهما في التّفوّق في التّحصيل الدّراسي والعلمي، وهذا له أثرُهُ البالغ في نُبوغ الأبناء والبنات والنّجاح والتّفوّق، والله المستعان على بلُوغِ هذا الجانب من الرّعاية الأبويّة.

---

(١) سورة: آل عمران، الآيتان: ١٩٠ ـ ١٩١.
(٢) سنن ابن ماجة ج ١/ ٨١.
(٣) سورة: طه، الآية: ١١٤.
(٤) سورة: آل عمران، الآية: ١٨.
(٥) سورة: الزمر، الآية: ٩.

البحث الخامس:

خصائص الأمومة[1]

«إن الأمومة بكل ما تحويه من مشاعر نبيلة، وأعمال رفيعة، وصبر على الجهد المتواصل، ودقة متناهية في الملاحظة وفي الأداء. هي التكيف النفسي والعصبي والفكري الذي يقابل التكييف الجسدي للحمل والإرضاع. كلاهما متمم للآخر متناسق معه، بحيث يكون شذوذاً عجيباً أو يوجد أحدهما في غيبة من الآخر».

«وهذه الرقة اللطيفة في العاطفة، والانفعال السريع في الوجدان، والثورة القوية في المشاعر، التي تجعل الجانب العاطفي، لا الفكري، هو النبع المستعد أبداً بالفيض، المستجاش أبداً بأول لمسة، كل ذلك من مستلزمات الأمومة، لأن مطالب الطفولة لا تحتاج إلى التفكير، الذي قد يسرع أو يبطىء وقد يستجيب أو لا يستجيب، وإنما تحتاج إلى عاطفة مشبوبة لا تفكر، بل تلبي الداعي بلا تراخ ولا إبطاء».

«فهذا كله هو الوضع الصحيح للمرأة حين تلبي وظيفتها الأصيلة وهدفها المرسوم».

«والرجل إلى جانب آخر مكلّف بوظيفة أخرى، ومهيّأ لها على طريقة أخرى».

«مكلف بصراع الحياة في الخارج، سواء كان الصراع هو مجابهة الوحوش في الغابة، أو قوى الطبيعة في السماء والأرض.

أو نظام الحكومة وقوانين الاقتصاد... كل ذلك لاستخلاص القوت، ولحماية ذاته وزوجه وأولاده من العدوان».

«هذه الوظيفة لا تحتاج أن تكون العاطفة هي المنبع المستجاش. بل ذلك يضرها ولا ينفعها، فالعاطفة تتقلب في لحظات من النقيض إلى النقيض. ولا تصير على اتجاه

---

(1) دستور الأسرة في ظلال القرآن: لأحمد فايز/ ٣٠ ـ ٣٣، ط مؤسسة الرسالة ـ بيروت.

واحد إلا فترة، تتجه بعدها إلى هدف جديد وهذا يصلح لمطالب الأمومة المتغيرة المتقلبة، ولكنه لا يصلح لعمل خطة مرسومة تحتاج في تنفيذها إلى الثبات على وضع واحد لفترة طويلة من الوقت وإنما يصلح لذلك الفكر فهو بطبيعته أقدر على التدبير وحساب المقدمات والنتائج قبل التنفيذ وهو أبطأ عملاً من العاطفة الجياشة المتفجرة وليس المطلوب منه هو السرعة بقدر ما هو تقدير الاحتمالات والعواقب، وتهيئة أحسن الأساليب للوصول إلى هدف المنشود وسواء كان المقصود هو صيد فريسة، أو اختراع آلة، أو وضع خطة اقتصادية، أو سياسة حكم، أو إشعال حرب، أو تدبير سلم، فكلها أمور تحتاج إلى أعمال الفكر، ويفسدها تقلب العاطفة».

«ولذلك فالرجل في وضعه الصحيح حين يؤدي هدفه الصحيح».

«وهذا يفسر كثيراً من أوجه الخلاف بين الرجل والمرأة فهو يفسر مثلاً لماذا يستقر الرّجل في عمله، ويمنحه الجانب الأكبر من نفسه وتفكيره بينما هو في الميدان العاطفي متنقل كالأطفال. في حين أن المرأة تستقر في علاقاتها تجاه الرّجل، وحينما تتجه إليه فكأنما كيانها كله يتحرك ويتدبر الخطط ويرتب الملابسات، وهي في هذا الشأن أبعد ما تكون دقة.

ترسم أهدافها لمسافات بعيدة وتعمل دائبة على تحقيق أغراضها، بينما هي لا تستقر في العمل، إلاّ أن يكون فيه ما يلبي جزءاً من طبيعتها الأنثوية كالتّمريض، أو التدريس أو الحضانة، أما حين تعمل في المتجر فهي تلبي كذلك جزءاً من عاطفتها بحثاً عن الرّجل هناك.

ولكن هذه الأعمال كلها بديل لا يغني عن الأصل، وهو الحصول على رجل وبيت وأسرة وأولاد. وما أن تعرض الفرصة للوظيفة الأولى حتى تترك المرأة عملها لتهب نفسها لبيتها. إلا أن يحول ذلك عائق قهري كحاجتها إلى المال».

ولكن هذا ليس معناه الفصل الحاسم القاطع بين الجنسين: ولا معناه أن كلاً منهم لا يصلح أية صلاحية لعمل الآخر».

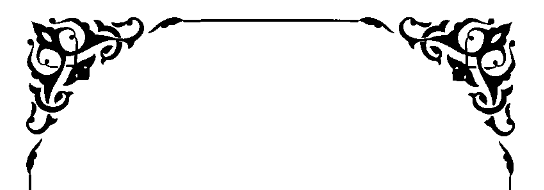
«.... الجنسان إذن خليط، وعلى نسب متفاوتة. فإذا وجدت امرأة تصلح للحكم أو القضاء أو حمل الأثقال أو الحرب والقتال.... وإذا وجد رجل يصلح

للطهي وإدارة البيوت أو الإشراف الدقيق على الأطفال أو الحنان الأنثوي أو كان سريع التقلب بعواطفه ينتقل في لحظة من النقيض للنقيض: فكل ذلك أمر طبيعي، ونتيجة صحيحة لاختلاط الجنسين في كيان كل جنس. ولكنه خلو من الدلالة المزيفة التي يريد أن يلصقها به شذاذ الآفاق في الغرب المنحل والشرق المتفكك سواء.

فالمسألة في وضعها الصحيح ينبغي أن توضع على هذه الصورة وهل كل هذه الأعمال التي تصلح لها المرأة زائدة على وظيفتها الطبيعية، تغنيها عن طلب البيت والأولاد والأسرة، وتغنيها عن طلب الرّجل قبل هذا وبعد ذلك ليكون في البيت رجل! بصرف النظرة عن شهوة الجنس وجوعة الجسد؟...

إن مزية الإسلام الكبرى أنّه نظام واقعي، يراعي الفطرة البشرية دائماً ولا يصادمها أو يحيد بها عن طبيعتها.

وهو يدعو الناس لتهذيب طبائعهم والارتفاع بها، ويصل في ذلك إلى نماذج تقرب من الخيالات والأحلام، ولكنه في تهذيبه لا يدعو لتغيير الطبائع ولا يضع في حسابه أنّ هذا التغيير ممكن، أو مفيد لحياة البشرية حتى إذا أمكن! وإنما يؤمن بأن أفضل ما تستطيع البشرية أن تصل إليه، هو ما يجيء تمشياً مع الفطرة بعد تهذيبها والارتفاع بها من مستوى الضرورة إلى مستوى التطوع النبيل وهو يسير في مسألة الرجل والمرأة على طريقته الواقعية المدركة لفطرة البشر فيسوي بينهما حيث تكون التسوية هي منطق الفطرة الصحيح، ويفرق بينهما كذلك حيث تكون التفرقة هي منطق الفطرة الصحيح.



الفصل السّادس
الحقوق المتكافئة بين الرّجل والمرأة
في ضوء القرآن والسّنّـة

البحـــث الأوّل: المساواة مع الرجل في أصل الخلقة والقيمة الإنسانية.
البحث الثّانـــي: حقّ المرأة في العلم والتّعليم.
البحث الثّالـــث: حق المرأة في العمل فيما يُناسبها.
البحث الـرّابـع: حقّ المرأة في الميراث.
البحث الخامس: حقوقُ المرأة في بناء الأُسرة.

البحث الأول:

المساواة مع الرّجل في أصل الخلقة والقيمة الإنسانية

لقد ساوى القرآن الكريم والسنّة النّبوية المطهرة بين الرّجل والمرأة في أصل الخلقة والقيمة الإنسانية بحيث لا يوجد بينهما تمايز أو تنافر بل إنهما يرجعان إلى أصل واحد، حيث يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾[1].

يقول الإمام النسفي رحمه الله في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ إن الله خلق الخلق من أصل واحد وهو نفس آدم، ويقول في تفسير قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ معطوف على محذوف كأنه قيل من نفس واحدة أنشأها وخلق منها زوجها، والمعنى: شعّبكم من نفس واحدة أنشأها من تراب وخلق منها زوجها حواء من ضلع من أضلاعه ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا﴾ ونشر من آدم وحواء ﴿رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ [2].

ومما تقدّم يتبيّن أنّ المرأة مخلوقة من عنصر الرّجل نفسه ولم تكن مستقلة عنه في الخلق، وقد انبثَّ منهما مجتمعين جميع الرّجال والنّساء، فالجنسان كلاهما يرجعان إلى أصل واحد، وعلى هذا الأساس ينظر الإسلام إلى جنس الرّجال وجنس النّساء، بمنظار واحد، وهما في نظره من جوهر واحد وعنصر واحد ليس لأحدهما من مقومات الإنسانية أكثر ممّا للآخر.

ويؤكّد هذا قولُ الله سبحانه وتعالى: ﴿۞ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾[3].

---

(١) سورة: النساء، الآية: ١.

(٢) تفسير النّسفي ج ١/٢٠٤.

(٣) سورة: الأعراف، الآية: ١٨٩.

وقوله سبحانه: ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً ﴾[١].

وقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾[٢].

وفي هذه الآية الأخيرة يُبيِّن الله سبحانه وتعالى سبب جعل الخليقة شعوباً وقبائل بأنّه لأجل التّعارف فيما بينهم فقط، أمّا الكرامة عند الله سبحانه وتعالى فهي بسببِ التَّقوَى، فمن فضلتْ تقواه على غيره فهو الأكرم عندَ الله عزّ وجلّ، وليست الكرامةُ بسبب تفضل جنس على آخر ذكرٍ أو أنثى، أو شعبٍ على شعب.

ويقول الرسولُ ﷺ في هذا المعنى وهو يخاطب النّاس رجالاً ونساءً في حجَّةِ الوَداع في الحديث المروي عن ابن عمر أنّ رسول الله ﷺ خطب النّاسَ يومَ فتح مكة فقال: «يا أيُّها النّاسُ! إنّ الله قد أذهب عنكم عُبيَّةَ الجاهلية وتعاظُمَها بآبائها، فالنّاس رجلان؛ رجلٌ برٌّ تقي كريم على الله. وفاجرٌ شقيٌّ هيّنٌ على الله، والنّاسُ بَنُو آدم، وخلقَ الله آدَمَ من ترابٍ»[٣].

ولقد سمع النّبيّ ﷺ أبَا ذَرٍّ الغفاري وهو يَحْتَدُّ على بلال أثناء محاورة كانت بينهما قائلاً له: «يا ابنَ السّوداء» فظهرت آثار الغضب الشديد على وجهِ رسول الله ﷺ واتّجه بالخطاب إلى أبي ذرٍّ وانتهره على فعله. وعن عُـقبة بن عامر أنّ رسول الله ﷺ قال في تأنيبه لأبي ذر: «إنّك امرؤٌ فيكَ جاهليةٌ، كلُّكُمْ بنُو آدمَ، طفَّ الصّاعُ، ليس لابْنِ البيضاء على ابْنِ السّوداء فضلٌ إلاّ بالتقوى أو علم صالح»[٤] فوضع أبو ذر خدّه على الأرض، وأقسم على بلال أن يطأه بحذائه حتى يغفر الله له زلته هذه ويكفر عنه ما بدر منه من خلق الجاهلية الأولى[٥].

---

(١) سورة: النحل، الآية: ٧٢.
(٢) سورة: الحجرات، الآية: ١٣.
(٣) رواه الترمذي ٣٢٦٦. وقال: صحيح.
(٤) مسند أحمد، ج ٤/ ١٤٥ و١٥٨.
(٥) وهذا الحديث في صحيح الجامع الصغير برقم ٤٤٤٤.

والله سبحانه وتعالى قد أكرم الإنسان وجعل الإيمان معياراً للتكريم وليس الجنس حيث أعطى الله سبحانه وتعالى للمرأة مكانتها في ذلك مساوية للرّجل فقال تعالى: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[1].

فالآية الكريمة توضح ما بين المؤمنين من ولاء أخوة ومسؤولية وتكافل. وامتداداً لهذه المكانة الإنسانية للرّجل والمرأة في نظر الإسلام، فإنّه يُحذر من الوقوع في الإثم بسبب إيذاء المؤمنين والمؤمنات على حدٍّ سواء من غير تفريق بينَ الرّجلِ والمرأةِ، وفي ذلك يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾[2].

وعلى أساس وحدة القيمة الإنسانية بين الرّجل والمرأة ساوى بينهم في أصول التكاليف الشّرعية ورتّبَ على ذلك جزاءً واحداً يتساوى فيه الرّجلُ والمرأةُ سواء كان الجزاء ثواباً أو عقاباً. ففي جانب الثّواب فقد قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴾[3].

وقد تكفّل الله سبحانه بحفظ العمل للجميع دون استثناءٍ، فقال سبحانه وتعالى: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴾[4].

وساوى سبحانه وتعالى بينهم فيما أعد لهم من المغفرة والأجر العظيم فقال

(١) سورة: التوبة، الآية: ٧١.
(٢) سورة: الأحزاب، الآية: ٥٨.
(٣) سورة: النساء، الآية: ١٢٤.
(٤) سورة: آل عمران، الآية: ١٩٥.

سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾﴾[1].

أمّا المساواة في جانب العقاب فقدْ قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾﴾[2].

وقال الله سبحانه وتعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾﴾[3].

---

(١) سورة: الأحزاب، الآية: ٣٥.

(٢) سورة: المائدة، الآية: ٣٨.

(٣) سورة: النور، الآية: ٢.

البحث الثّاني:

حق المرأة في العلم والتّعليم

اهتم الإسلام بالعلم للإنسان رجلاً كان أو امرأةً، وحثَّ على طلبه. ومن ضمن ما تفضَّلَ الله به على عباده من وسائل العلم نعمتي القراءة والكتابة. وهما أهمُّ أدواتِ العلم، دراسةً وتوثيقاً.

وقد وردت آياتٌ في القرآن الكريم تشير إلى أهمية القراءة وتأمر بها المسلمين والمسلمات مثل قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ۝٩٨ ﴾[1].

ولا شكَّ أنّ من أهم أهداف القراءة، العلم بالله سبحانه، والقرآن الكريم أهمّ كتاب علمي في الوجود، لِما يحمل بين طيّاته من أخبار عن الله سبحانه والملائكةِ عليهم السّلام والكتب المنزّلة من عند الله والرسل، وعن الجنّة والنّار، كما يشمل الإخبار عن الإنسان على اختلاف جنسِهِ وأطوارِهِ وانتماءاتِهِ المختلفة، كما بينت المطلوب منه في هذه الحياة.

أمّا ما يتعلق بنعمة الكتابة، فالله سبحانه يُقرّر بأنّه تفضل على الإنسان بتعليمه بهذه الوسيلة ما لم يكن يعلمه من قبلُ، فقال: ﴿ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥ ﴾[2] فدلّ ذلك على كمال كرم الله بعباده بأنْ علّمهم ما لم يعلموا، ونقَلَهُمْ من ظلمة الجهل إلى نور العلم، ونبَّهَ على فضلِ علم الكتابة لِما فيه من المنافع العظيمة وما دُوِّنتِ العلومُ ولا قُيِّدَتِ الحِكَمُ ولا ضُبِطَت أخبارُ الأوّلين ولا كُتب الله المنزلة إلاّ بالكتابة ولولا هي لما استقامت أمور الدِّين والدُّنيا. ولو لم يكن على دقيق حكمة الله دليل إلاّ أمر القلم والخط لكفى به!!.

---

(١) سورة: النحل، الآية: ٩٨.

(٢) سورة: العلق، الآيات: ٣ ـ ٥.

وقد ساوى الله عزّ وجلّ بين الجنسين في خشيته المترتبة على العلم، بل إنّ القرآن الكريم قد خصَّ العلماء فقط بخشيته، وحصرها فيهم، سواء كانوا رجالاً أو نساءً.

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ ﴾(١).

يقول الإمام النسفي في تفسيرها: أيْ العلماء الذين علموه بصفاته فعظَّمُوهُ، ومن ازدادَ علماً به ازدادَ خوفاً، ومن كان علمه به أقل كان آمن. وقد ساوت السّنّة والشّريعة بين الرّجال والنّساء في الحصول على فضيلة العلم فقال ﷺ: «مَنْ سلكَ طريقاً يطلبُ فيه علماً سهَّلَ الله له طريقاً إلى الجنّة»(٢).

وإنّ ممّا يؤكّد هذه المساواة العلمية بين الرّجل والمرأة في الإسلام، حثّ الرّجل على تعليمها حتى لو كانت أمَةً، ومطالبتها بتخصيص وقتٍ تتعلّم فيه ومشاركتها الفعلية في التّعلُّم، بل ومُنَافَسَتُها فيه.

فعن أبي بردة عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «أيما رجل كانت عنده وليدة فعلمها فأحسن تعليمها وأدبها فأحسن تأديبها ثم أعتقها وتزوجها فله أجران».

ولقد تقدمت النساء بطلب إلى الرسول ﷺ لتخصيص وقت يتعلمن فيه على يد سيد الرسل المعلم المعصوم رسول الله ﷺ فوافق على ذلك فأتاهن فعلمهن ووعظهن.

فعن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قالتِ النّساءُ للنّبيّ ﷺ: يا رسول الله غَلَبَنَا عليكَ الرّجالُ، فاجْعَلْ لنَا يوماً من نفسكَ، فوعَدَهُنّ يوماً لقيَهُنَّ فيه، فوَعَظَهُنَّ وأمرهُنَّ، فكان فيما قال لهُنّ: «ما منكنّ من امرأةٍ تُقَدِّمُ ثلاثةً من ولدِهَا إلاّ كان ذلك حِجاباً منَ النّار»، فقالت امرأةٌ: واثنين؟ فقال: «واثنين»(٣).

ولقد احتلت المرأةُ المسلمةُ مكانةً علميةً عاليةً في العقيدة والفقه والفرائض والحديث وقراءة القرآن والفتوى، وقامت برسالتها العلمية خير قيام.

وقد برزت عدّة نساء في هذه العلوم وغيرها، ومن أشهر أولئك:

---

(١) سورة: فاطر، الآية: ٢٨.

(٢) أخرجه أحمد ج ٢/ ٢٥٢، وهو حديث صحيح.

(٣) صحيح البخاري كتاب العلم، باب هل يُجعَلُ للنّساء يومٌ على حِدَة في العلم؟ أيكتب الحديث؟/ ١٠١.

١ ـ أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر رضي الله عنها تلميذة زوجها ﷺ، وروت عن أبيها، وعن عمر وفاطمة وسعد بن أبي وقاص وأسيد بن حضير وجذامة بنت وهب وحمزة بنت عمرو.

أمّا الرّواةُ عنها فمنهم من الصّحابة عمرُ، وابنه عبدُ اللّٰه، وأبو هريرة وابنُ عباس، والسّائبُ بنُ يزيد.

ومن الصّحابيات صفيّة بنت شيبة، ومن آل بيتها أختها أمّ كلثوم، وأسماء بنت عبد الرحمٰن بن أبي بكر، وبنت أختها عائشة بنت طلحة من أم كلثوم بنت أبي بكر.

وروى عنها من كبار التابعين سعيد بن المسيَّب، وعمرو بن ميمون، وعلقمة بن قيس، ومسروق، وعبد اللّٰه بن حكيم، والأسود بن يزيد.

٢ ـ أم المؤمنين حفصة بنت عمر بن الخطاب رضي الله عنها، روتْ عن زوجها ﷺ، وروتْ عن أبيها.

وروى عنها من الرّجال أخوها عبد اللّٰه وابنه حمزةُ، وحارثةُ بن وهب، والمطلبُ بن أبي وَدَاعة.

ومن النساء صفيّة بنت أبي عبيد زوجة حمزة ابن أخيها عبد اللّٰه، وأمُّ مبشّر الأنصارية.

ولقد نالت حفصة رضي الله عنها شرف حفظ النّسخة الأولى للقرآن الكريم وعندما أراد الخليفة الثالث عثمان بن عفان جمع القرآن الكريم ونسخَهُ في المرة الثالثة في عدّةِ مصاحف، استعانَ على ذلك بتلك النّسخة ثم أعادَهَا إليها.

٣ ـ زينب بنت معاوية وقيل بنت أبي معاوية، وبهذا الأخير جزم أبو عمر، ثم نسبها فقال: بنتُ معاوية بن عتّاب بن الأسعد الثقفية.

روت هذه المرأةُ عن النّبيّ ﷺ وعن زوجها ابن مسعود وعن عمر، وروى عنها ابنها أبو عبيدة بن عبد اللّٰه بن مسعود وابن أخيها وعمر بن الحارث بن أبي ضرار[1].

---

(١) الإصابة، لابن حجر ج ٧/ ٥٨٢، والمستدرك ج ٢/ ٢٢٩.

المبحث الثالث:

حق المرأة في العمل فيما يناسبها

إنّ مَنْحَ المسؤولية في العمل لأيّ إنسان ذكراً كان أو أُنثى ما هو إلاّ تكريمٌ لهذا الإنسان، ليكون نافعاً لنفسه وللنّاس بالعمل الطّيّب.

ولقد أكرم الإسلامُ المرأة وحَمَّلَها من مسؤولية العمل في البيت ما لا يمكن للرجل أنْ يقوم به، وذلك أنّ الله سبحانه وتعالى جعلَها مستودَعَ الجنس البشري، تُعاني من حمله وآلام وضعه وإرضاعه وحضانته ونظافته وتربيته ورعايته والسّهر على راحته، وقيامها بشؤون المنزل الداخلية، بما في ذلك النّظافة العامّة، وإعداد الطعام ولوازمه، كما تقوم على تدبير شؤون المنزل الاقتصادية.

وقد وردَ في حديث المسؤولية ما يدلُّ على اشتراك المرأة في تحمّل جزء منها، فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «كُلُّكُم رَاعٍ ومسؤولٌ عن رعيتِهِ، والإمامُ راعٍ ومسؤولٌ عن رعيّتِهِ، والرّجلُ راعٍ في أهلِهِ ومسؤول عن رعيّتِهِ. والمرأة راعيةٌ في بيتِ زوجِهَا ومسؤولةٌ عن رعيتِهَا، والخادِمُ راعٍ في مالِ سيّدِهِ ومسؤولٌ عن رعيّتِهِ»[1].

كما أنّ للمرأة الإنفاقَ ممّا تحت يدها من مال زوجها لقول رسول الله ﷺ في الحديث المروي عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «إذا أنفقتِ المرأةُ من طعام بيتها غير مفسدةٍ، كان لها أجْرُهَا بما أنفقتْ ولزوجِها أجرُهُ بما كسَبَ، وللخازِنِ مثلُ ذلك، لا يُنْقِصُ بعضُهم أجر بعضٍ شيئاً»[2].

والشّواهد التّاريخيةُ في حياة المرأة المسلمة تثبتُ ما كانت تقومُ به من أعمال

---

(١) صحيح البخاري برقم ٢٧٥١.

(٢) صحيح مسلم برقم ١٠٢٤.

داخل منزلها سوى الأعمال الطبيعيّة للمرأة. وسنعرضُ بعضَ شواهد من ذلك فيما يلي:

١ - فاطمة بنت رسول الله ﷺ:

كانت فاطمة رضي الله عنها تقوم في بيت زوجها علي بن أبي طالب رضي الله عنه بالأعمال الكثيرة الشاقة، ولم يكن عندها خادمة تساعدها على بعض أمور المنزل حتى أثر الرَّحى في كفيها، فأتت والدها النّبيّ ﷺ تسأله خادماً، فما كان منه إلاّ أن أرشدها بلطفه النّبويّ الأبويّ، ففي الحديث المروي عن أبي هريرة: أنّ فاطمة أتتِ النّبيّ ﷺ تسأله خادماً وشكت العمل فقال: «ما ألفيتيه عندنا» قال: «ألاَ أدلُّكَ على ما هو خيرٌ لكِ منْ خادمٍ؟ تُسبِّحينَ الله ثلاثاً وثلاثين، وتحمدين ثلاثاً وثلاثين، وتكبّرين أربعاً وثلاثين حين تأخذين مضجعَكِ»[١].

٢ - أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنها، وبعض جاراتٍ لها من الأنصار رضي الله عنهنّ:

كانت أسماء زوجةً للزبير بن العوام رضي الله عنهما، قامتْ بكثير من الأعمال داخل المنزل وخارجه ولنسمعها تتحدّثُ عمّا كانت تقوم به من أعمال في حدود بيتها، فهي تقول: تزوجني الزّبير وما له في الأرض من مال ولا مملوك ولا شيء غير ناضح وغير فرسه، فكنتُ أعلفُ فرسَهُ، وأستقي الماءَ وأخرزُ غربه، وأعجنُ ولم أكنْ أحسنُ أخبزُ، وكان يخبز جاراتٌ لي من الأنصار وكُنَّ نِسْوةَ صِدْقٍ[٢]. وممّا سبق يتبيَّنُ ما تضطلع به المرأةُ المسلمةُ داخل بيتها من أعمال وما تتحمله من مسؤوليات جسام.

عملُ المرأةِ خارج بيتها:

إنّ من رحمة الإسلام للمرأة أنّه لم يفرض عليها العملَ خارجَ بيتها، بلّ كلف الرّجلَ بمزاولة مثل هذه الأعمال.

ومن سماحة الإسلام أنّه أباح للمرأة العمل خارجَ بيتها في حالة الضّرورة القُصْوَى مراعاةً لحاجة المرأة أو حاجة مجتمعها، فإذا كانت ثَمَّةَ حاجة شخصية أو اجتماعية تستدعي خروجها للعمل مثل تمريض النّساء وتطبيبهنّ وتوليدهنّ وتعليمهنّ،

---

(١) صحيح مسلم برقم ٢٧٢٨.

(٢) صحيح البخاري برقم ٥٢٢٤، والناضح: الجمل الذي يُسقَى عليه.

ودعوتهنّ إلى الله وغير ذلك، مما تحتاجُهُ النّساءُ في مجتمعهنّ، فإنّ الإسلام يُبيح لها ذلك بشروط محددة، مراعاةً لكرامة المرأة وصيانة لعرضها.

وسنعرضُ بعضَ الأمثلة التّاريخية في حياة المرأة المسلمة العاملة خارج البيت فيما يلي:

أسماء بنت أبي بكر الصّديق رضي الله عنها:

هذه الصحابيةُ الجليلةُ زوجة الزّبير بن العوام، وقد سبق ذكرها، تقولُ عن نفسها، فيما رواه هشام قال: أخبرني أبي عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت: «وكنتُ أنقلُ النَّوَى من أرض الزّبير التي أقطعَهُ رسول الله ﷺ، على رأسي وهي منّي على ثُلُثَي فَرْسَخٍ، فجئتُ يوماً والنَّوَى على رأسي، فلقيتُ رسول الله ﷺ ومعه نفرٌ من الأنصار، فدعاني، ثم قال: «إخ إخ» ليحملني خلفَهُ، فاستحييتُ أن أسير مع الرّجال، وذكرتُ الزبيرَ وغَيْرَتَهُ، وكان أغيرَ النّاس، فعرفَ رسول الله ﷺ أنّي قد استحييتُ، فمضَى، فجئتُ الزبيرَ، فقلتُ: لقيني رسول الله ﷺ وعلى رأسي النَّوى ومعه نفرٌ من أصحابه، فأناخَ لأركبَ، فاستحييتُ منه وعرفتُ غيرتَكَ، فقال والله لَحَمْلُكِ النَّوى كان أشدَّ عليَّ من ركوبِكِ معه، قالت حتى أرسل إليَّ أبو بكر بعد ذلك بخادمٍ تكفِيني سياسَةِ الفَرَسِ، فكأنّما أعتقِني»[١].

خالة جابر بن عبد الله:

هذه المرأة احتاجت للعمل خارجَ بيتها وهي تعيشُ فترةَ عدّةِ الطّلاق، فقد روى الإمام مسلم في صحيحه أنّ جابر بن عبد اللّه قال: «طُلِّقَتْ خالتي فأرادتْ أنْ تجذَّ نخلَها فزجرها رجل، أن تخرج، فأتت النبي ﷺ فقال: «بَلى، فجذي نخلك فإنّكِ عسَى أنْ تصدقي أو تفعلي معروفاً». ويتضح أنّ الرّسولَ ﷺ حثّ المرأة على العمل للحصول على الفائدة والخير[٢].

وممّا تقدّم يتبيّنُ لنا مقدارُ سماحة الإسلام في الإذن للمرأة بالخروج للعمل عندما تقضي بذلك الأحوالُ.

---

(١) صحيح البخاري برقم ٥٢٢٤.
(٢) صحيح مسلم برقم ١٤٨٣.

البحث الرابع:

حق المرأة في الميراث

لقد أعطى الإسلامُ للمرأة حقَّ الإرث بنتاً وأختاً وأمًّا وزوجةً، وفي ذلك يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ۝٧ ﴾[1].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كان المال للولد وكانت الوصية للوالدين فنسخ الله من ذلك ما أحب فجعل للذّكر مثل حظ الأُنثيين، وجعل للأبوين لكلِّ واحدٍ منهما السُّدسَ والثُّلثَ، وجعل للمرأة الثُّمُنَ والرُّبُعَ، وللزوجِ الشَّطْرَ والرُّبُعَ»[2].

ولم يقتصر الإسلامُ في نظام الإرث على توريث النّساء فحسبُ بل إنّنا نجده قد رفع عن الزّوجات قيداً كان أشبه ما يكون بالرّق، وهو اعتبار زوجة الأب جزءاً لا يتجزّأ من أملاك الزّوج المتوفّى، ولذا نجد أكبر الأبناء يستولي على زوجة أبيه أو أقرب قريب له، فإن شاء تزوَّجها أو زوَّجها أو عضَلَها عن الزواج طمعاً في مالها، فلما جاء الإسلامُ رفع هذا القيدَ عن الزّوجةِ وجعلها أحقَّ بنفسها من غيرها، حيث قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا۟ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ ﴾[3].

قال ابن عباس في تفسير هذه الآية: «كانوا ـ يعني في الجاهلية ـ إذا مات الرّجل كان أولياؤه أحق بامرأته إن شاء بعضهم تزوجها وإن شاؤوا زوجوها، وإن شاؤوا لم يُزوّجوها، وهم أحق بها من أهلها، فنزلت هذه الآية في ذلك.

---

(١) سورة: النساء، الآية: ٧.

(٢) صحيح البخاري برقم ٤٥٧٨.

(٣) سورة: النساء، الآية: ١٩.

البحث الخامس:

حقوق المرأة في بناء الأسرة

مكانة المرأة في الأسرة:

لقد أعطى الإسلامُ المرأةَ بصفةٍ عامّةٍ حقوقاً كاملةً، وعلى وجه الخصوص المرأة في الأسرة سواء كانت أمًّا، أم أختاً، أم زوجةً، أمْ بنتاً على نطاقٍ واسع لا يمكن أن يُقاس أبداً بما تقدمه القوانين الوضعية، والنّظم الأرضية في سائر الأديان والملل، وعلى مرِّ الأحقابِ والدّهور. وكتابُ الله سبحانه وتعالى وسنّةُ رسوله ﷺ يحملان الشّواهدَ والقواعدَ والأُسُسَ التي نظّمتْ هذه الحقوقَ وضمنتْ للمرأة بعامّةٍ والمرأةِ في الأسرة بخاصّةٍ علوَّ المنزلة والاحترام.

ويتناول الحديث في هذا الموضوع أقطابَ الأسرة النسائية الأربعة بشيء من الإيجاز والاختصار: الزوجة ـ الأمّ ـ الأخت ـ البنت.

١ ـ الزّوجـة:

إنّ من آيات الله ورحمته بعباده ولطفه وكرمه أن جعلَ الحياةَ الزوجية ترتكزُ على دعائمٍ قويّةٍ من المودّة والرحمة تكون قوام الحياة الأُسريّة وبدونها لا يمكن أن تستمرَّ الحياةُ الزوجيةُ المتوخاة من الزّواج بينَ ركنيْ الأسرة: الرّجل والمرأة أي الزّوج والزّوجة.

قال الله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾[1].

وإذا نظرنا إلى مسؤوليّة الزّوجة في الأسرة على ضوء القرآن الكريم والسّنّة المطهرة، نجد أنّ الإسلام قد أولاها رعايةً وعنايةً خاصّةً وتكريماً، ورفع مكانتها، كما

---

(١) سورة: الرّوم، الآية: ٢١.

رفع عنها القيود والأغلالَ التي كانت تُعيقها في معظم الحياة الجاهلية عن الارتقاء إلى مستوى الإنسانية فضلاً عن القضايا الأخرى.

وحسبنا أنْ نشير إلى بعض عناصر هذا التكريم الربّانيّ للزّوجة الذي يتمثّل في إعطائها حقوقَها الكاملةَ على زوجها ومن أهمّها ما يلي:

١ ـ حقُّ الزّوجةِ في الاختيار.
٢ ـ حقُّها في الصّداقِ.
٣ ـ حقُّها في النّفقة والسّكن.
٤ ـ حقُّها في حُسْن العُشرةِ.
٥ ـ حقُّها في التّصرّف المالي.

وستتحدّثُ عن كل هذه الحقوق بشيء من الإيجاز على الوجه التّالي:

حق اختيار الزّوج:

لقد أعلى الإسلامُ مكانةَ الزّوجة ومنحها حقوقاً لازمةً لها بحكم الشّرع، ويتصدّر هذه الحقوق حريتها في اختيار الزّوج قبولاً أو رفضاً؛ لما يترتّبُ على ذلك من توفير عوامل الاستقرار والسعادة النفسية بينَ الزّوجين، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «الأيّمُ أحقُّ بنفسِها من وليها، والبِكرُ تستأذَنُ في نفسها، وأذنُها صماتُها»[1]. وقد رَدَّ رسول الله ﷺ نكاحَ امرأةٍ مكرهةٍ، فعن خنساء بنت خدام الأنصارية أنّ أبَاها زوّجها وهي ثيبٌ، فكرهتْ ذلك فأتتْ رسول الله ﷺ، فردَّ نكاحَهَا[2].

حقها في الصداق:

كما فرضَ الإسلامُ صَداقاً يُدفع لها تتصرّفُ فيه كما تشاء دُونَ تدخّلِ أولياء أمرها، كما حرّم عليهم أخذَ شيءٍ منه دون رضاها. قال الله تعالى: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَـٰتِهِنَّ نِحْلَةً ۚ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا ۝٤﴾[3].

---

(١) صحيح الجامع الصغير برقم ٢٨٠٩.
(٢) أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير ج ٤٤٠ ـ ٤٤١.
(٣) سورة: النساء، الآية: ٤.

حقّها في النّفقة والسّكن:

وقد قرّر الإسلامُ نفقةَ الزّوجة وسكنها على زوجها في حُدود إمكاناته المادية كما قال تعالى: ﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ۝٧ ﴾[١].

ولقد أعطى الإسلامُ المرأةَ حقَّ الفَسْخِ إذا غَرَّرَ بها الزّوجُ بأنّه ذو مالٍ فظهرَ لها أنه لا مالَ له.

يقول الإمام محمد بن مفلح المقدسي في ذلك: «والذي تقتضيه أصولُ الشّريعة وقواعدُها أنّ الرّجلَ إذا غَرَّرَ المرأةَ بأنّه ذُو مال، فتزوجتْ على ذلك، فظهر أنه لا شيء له أو كان ذا مال وترك النّفقة ولم تقدر على أخذ كفايتها من ماله بنفسها أو الحاكم؛ أنّ لها الفسخ.

حقّها في حُسْن العشرة:

وإذا انتهت مراسيم الزّواج وبدأت الحياة الزوجية تحت سقف واحد ومأوى واحد فإن الإسلام يأمُر الزّوجَ بحُسْنِ العُشْرة مع زوجته، وليس هذا فحسب بل إنه يُروّض الزّوجَ ويحثُّه على تحمّل ما يكرهه من الزّوجة في أي شأنٍ، ومن توجيهات القرآن الكريم في ذلك قولُهُ سبحانه: ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ۝١٩ ﴾[٢].

أمّا من السّنّة فما رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يَفْرِكُ مؤمنٌ مؤمنةً، إنْ كرِهَ منها خُلُقاً رضي منها آخر»[٣].

حقّها في التّصرّف المالي:

ولقد أعطى الإسلامُ للزّوجة حقَّ التّملُّك وحرية التّصرف في مالها بالطّرق

---

(١) سورة: الطلاق، الآية: ٧.

(٢) سورة: النساء، الآية: ١٩.

(٣) ومعنى «لا يفرك» لا يظلم. أخرجه مسلم وأحمد، صحيح الجامع، ٧٧٤١.

المشروعة، فعندما تبلغ المرأةُ مبلغَ النّكاح وهي رشيدة، فلها الحقُّ في إبرام العقود المدنية من بيعٍ وشراءٍ وإجارةٍ وشركةٍ ورهنٍ وهبةٍ ووديعةٍ ووصيّةٍ وتوكيلٍ ووكالةٍ، وغير ذلك دونَ تدخل من زوجها أو اعتراض ومن توجيهات القرآن فيما يتعلّق بحرية التّملّك قوله سبحانه: ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾[1]، وهذه الآية تشمل اليتامى من الذّكور والإناث.

وأمّا ما يتعلّق بحقها في البيع والشّراء والعتق، فمنه ما رواه عبد الواحد بن أيمن المكي عن أبيه أنّه دخل على عائشة رضي الله عنها يستفتيها عن الولاء لمن يكون فقالت: «دخلتْ بريرةُ وهي مُكَاتبة، فقال: «اشتريها وأعتقيها، ودعيهم يشترطُوا ما شاؤُوا» فاشترتْها عائشةُ فأعتقتْها»[2]. ففي هذا الحديث بيانٌ لحرّيةِ المرأة في البيع والشّراء والإعتاق.

كما أن للزّوجة الحرّيةَ في أنْ تهبَ ما تشاء ممّا تملكه بنفسها وشاهد ذلك ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنّه أمر نساء المسلمين أن لا يحتقرنَ ما يتهادَى بينهُنّ عادةً، ولو كان المُهْدَى ضئيلاً، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النّبيّ ﷺ قال: «يا نساء المسلمين لا تحتقرنّ جارةٌ لجارتها ولو فِرْسَن شاة»[3].

٢ ـ الأم:

إنّ الله عزّ وجلّ قد أكرم الأبوين ورفع منزلتهما بصفة عامّة، والأمّ على وجه الخصوص، ومن تكريم الله سبحانه وتعالى لهما أن قرنَ حقَّهما بحقِّه مباشرةً إظهاراً لفضلهما على الولد، فقال سبحانه: ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾[4].

(١) سورة: النساء، الآية: ٦.
(٢) صحيح البخاري برقم ٢٥٦٥.
(٣) صحيح البخاري برقم ٢٥٦٦/٦٠١٧.
(٤) سورة: الإسراء، الآيتان: ٢٣ ـ ٢٤.

فإذا كان الله عزّ وجلّ قد رفع حقَّ الأبوين إلى هذه المنزلة السّامية فإنّ ذلك يُشير إلى عظم حقّهما على الأولاد.

ووصية الله عز وجل بالإحسان إلى الوالدين، وصية عامّة تشمل كلَّ أنواع الإحسان وأنواعه التي لا تقع تحت حصرٍ، والتي تتضمّنُ كلَّ ما يُمكن إدخاله ضمن هذا المصطلح العام.

ثم نهى عن الإساءة عامة وذكر مثالين يمثلان أصغر أنواع الإساءة وأسرعها وروداً على اللسان لكي يتجنبها الابنُ، ومن ثم ما هو أعلى منهما من باب أولى.

وهذه الوصية تدلُّ على أنّ الله عزّ وجلّ تولّى بنفسه سبحانه تكريمَ الوالدين وهذا كاف لبيان هذه المنزلة العظيمة!.

ولقد بيَّن الرسول ﷺ أهمية برّ الوالدين عندما أجاب عبد اللَّه بن مسعود رضي الله عنه عن سؤاله حيث قال: سألتُ رسول الله ﷺ: أيُّ العملِ أحبُّ إلى الله عزّ وجلّ؟ قال: «الصّلاةُ على وقتها» قال: ثم أيُّ؟ قال: «برّ الوالدين»، قال: ثم أيّ؟ قال: «الجهادُ في سبيل الله»[1]. ففي هذا الحديث قرنَ رسول الله ﷺ برَّ الوالدين بالصّلاة وقدّمه على الجهاد في سبيل الله!. ولقد أكرم الله الأم وخصّها بالذكر دون الأب، رفعاً لشأنها مكافأةً لها وجزاءً، نظراً لما تُعانيه من مشاق الحمل وآلام الوضع وتكاليف الرضاعة، وأعباء الحضانة ومستلزماتها.

قال الله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾﴾[2].

ولعلو منزلة الأُمّ فقد بيَّنَ الرّسولُ ﷺ بأنّ حقَّها يفوق حقَّ الوالد حيث إن حقَّ الأُمّ يصلُ إلى ثلاثة أضعاف حقِّ الوَالِدِ.

---

(١) صحيح البخاري برقم ٥٢٧ و٥٩٧٠.
(٢) سورة: الأحقاف، الآية: ١٥.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء رجلٌ إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله: مَنْ أحقُّ الناس بحسن صحابتي؟ قال: «أمُّكَ» قال: ثُمَّ مَنْ؟ قال: «أمُّكَ» قال: ثُمَّ مَنْ؟ قالَ: «أمُّكَ» قال: ثُمَّ مَنْ؟ قال: «أبوك»[١].

وبرّ الوالدين حق ثابت لهما حتى ولو كانا مشركين، قال تعالى: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٨﴾[٢].

وعن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت: أتتني أمّي راغبة في عهد النّبيّ ﷺ فسألتُ النّبيّ ﷺ آصلُها؟ قال: «نعمْ صِليها»[٣].

٣ ـ الأخت:

لقد تمتعت الأخت بمكانةٍ ساميةٍ في الإسلام فحظيت بتقدير أخيها واحترامه وبرّه وصلته، كما استفادتْ من محرميّتها له فتقيم معه وتُسافر معه.

ولقد أوجب الإسلامُ لها حقوقاً ماليةً على أخيها في حالات معيّنةٍ كالميراث والنّفقة والحضانة، وقد حمّلها الإسلام مسؤوليةً مماثلةً كما هو مبسوط في كتب الفقه الإسلامي.

فأمّا ما يتعلق بالميراث فقد سبق بيانُهُ، وأمّا ما يتعلق بالنّفقة ففي المسألة خلافٌ، لكنّ الرأي الموافق لروح التكافل الاجتماعي في الشّريعة الإسلامية هو الذي يقول بوجوب إنفاق الأخ على أخته إذا كانت بحاجة إلى نفقته حتى تتزوّج أو تموت، إذا لم تجد من يعولها. وقد بيّن الرّسولُ ﷺ وجوبَ البرّ بالأختِ في قوله في الحديث الذي رواه كُلَيب بن منفعة عن جدّه: أنّه أتى النّبيّ ﷺ فقال: يا رسولَ الله من أبرُّ؟ قال: «أمك وأباك وأختك وأخاك ومولاكَ الذي يلي ذلك، حقاً واجباً ورحماً موصولةً»[٤].

وقد حثّ الإسلامُ على الإنفاق على النّساء، وفيهنّ الأخوات فقال ﷺ: «مَنْ

(١) صحيح البخاري برقم ٥٩٧١.
(٢) سورة: العنكبوت، الآية: ٨.
(٣) صحيح البخاري برقم ٣١٨٣ و٥٩٧٩.
(٤) فتح الباري ج ١٠/٤٠٢.

عالَ جاريتين حتى تدركا، دخلتُ أنا وهو الجنّةَ كهاتين، وأشار بإصبعيه السّبّابة والوسطى»[١].

وعن أبي الزّبير عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كان أحدكم فقيراً فليبدأ بنفسه فإن كان فضلٌ فعلى عياله، فإن كان فضلٌ فعلى ذي قرابتهِ، فإن كان فضلٌ فههنا وههنا»[٢].

٤ ـ البنت:

إذا نالت البنت نوعاً من التكريم لا يُستهانُ به في الجاهلية فإنّ ذلك لم يكن قاعدةً عامّةً وليس له ضابط في الحياة العامّة لعرب الجاهلية لأنّها كانت تعيش عند بعض القبائل مُهانةً وذليلةً مهضومةَ الحقوقِ، وفي كثير من حالتها لا تكاد تخرج من رحم الأم حتى تدخل رحم الأرض عن طريق الوأد، غير أنّه كان في الجاهلية بصيصٌ من نور يعود إلى دين إبراهيم عليه السلام يدعو إلى إحياء البنات وعدم وَأْدِهن، كان عليه أفرادٌ قليلون منهم زيد بن عمرو بن نُفيل.

فعن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت: رأيتُ زيد بن عمرو بن نُفيل قائماً مسنداً ظهره إلى الكعبة يقول: «يا معشر قريش، والله ما منكم على دينِ إبراهيم غيري، وكان يُحيِ الموؤدَةَ، يقول للرجل إذا أراد أن يقتل ابنته، لا تقتلْهَا أنا أكفيكَ مؤنتَها، فيأخذُها، فإذا ترعرعتْ قال لأبيها إنْ شئتَ دفعتُها إليكَ، وإن شئتَ كفيتُكَ مؤنتَها» أي فيُزوّجها لمن يثقُ به.

ولمّا نزلتْ آياتُ القرآن الكريم تضمنت التّحذير الشّديد من الوأد في قوله عزّ وجلّ: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ۝٩﴾[٣] وهذا التّحذير والإنذار المبكّر الذي جاء مع فجر الرسالة يدلُّ دلالة واضحة على اهتمام الإسلام بالمحافظة على الحياة البشرية المتمثلة في الحثّ على إحياء البنات وعدم وَأْدِهِنّ، وهذا من أعظم التكريم الذي قوبلت به الفتاة حيث أبقى الإسلامُ على حياتها، وقد شدّد الإسلامُ في إنكار قتل

---

(١) صحيح الجامع الصغير برقم ٦٣٩١.
(٢) صحيح الجامع الصغير برقم ٧٤٧.
(٣) سورة: التكوير، الآية: ٨ ـ ٩.

الأولاد حيث قرّر القرآن الكريم خسران الذين يقومُون بقتل أولادهم سفهاً بغير علم، قال الله تعالى: ﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾ ﴾[1].

ثم عقب ذلك جاء النّهي الصّريح عن قتل الأولاد فقال سبحانه: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ ﴾[2].

وقد جاء في السّنّة المطهرة تحريمُ الوَأْدِ بالنّص الصّريح في الحديث الذي رواه المغيرة بن شعبة رضي الله عنه، قال: قال النّبيّ ﷺ: «إن الله حرّمَ عليكُمْ عُقُوقَ الأُمّهاتِ وَوَأْدَ البناتِ، ومنعَ وهاتِ، وكره لكم قيلَ وقالَ، وكثرةَ السّؤال، وإضاعةَ المال».

ولم يكتف الرّسولُ ﷺ بتحريم وأد البنات فحسب بل نهى عن إهانتهنّ كما حث على مساواتهنّ بالذكور في المعاملة وبشّرَ مَنْ فعلَ ذلك بالجنّة.

فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسولُ الله ﷺ: «مَنْ ولِدَتْ لهُ أُنْثَى فلم يئدْهَا، ولم يُهِنْهَا، ولم يُؤثِرْ ولدَهُ ـ يعني الذكر ـ عليها أدخله الله بها الجنة»[3].

---

(١) سورة: الأنعام، الآية: ١٤٠.
(٢) سورة: الأنعام، الآية: ١٥١.
(٣) مسند أحمد ج ١/ ٢٢٣، ومصنف ابن أبي شيبة ج ٨/ ٣٦٣، وإسناد أحمد صحيح.



الفصل السّابع
حقوق البنات ورعايتهنّ وتعليمهنّ وحل مشاكلهنّ

البحـــث الأوّل: حقوق رعاية البنات في الإسلام.
البحث الثانـــي: حقوق المرأة في تلقي العلم الشرعي.
البحث الثّالـث: تـعليم البـنات تكريم لهـن وهو عـمل إسلامي في سبيل تعليم البنات.
البحث الرّابـع: مشكلات المرأة في التّربية والتّعليم وحلها في ظلال الإسـلام.

المبحث الأول:

حقوق رعاية البنات في الإسلام

حثَّ الإسلامُ قولاً وعملاً على رعاية البنات والصّبر عليهن ورحمتهن وإيثارهنّ على النّفس.

ففي الجانب القولي نرى المصطفى ﷺ يُوصي أمّته بذلك، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ كانَ لهُ ثلاثُ بناتٍ، فصبرَ عليهنّ، وأطعمهُنّ، وسقَاهُنَّ، وكسَاهُنّ مِنْ جِدتِهِ، كُنَّ لهُ حجاباً من النّارِ يومَ القيامة»[1].

وحرصاً من الرسول ﷺ على رعاية البنات والعناية بهنّ يُغري المؤمنين بمصاحبته في دخول الجنّة إذا قاموا على البنات وأنفقوا عليهن.

فعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ عالَ جاريتين حتَّى تدركَا دخلَ الجنّةَ، أنا وهو كهاتين، وأشار بإصبعيه السّبابة والوسطى»[2].

أمّا في الجانب العملي فقد روت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: «دخلت امرأة معها ابنتان تسألني فلم تجد عندي شيئاً غير تمرة، فأعطيتُها إيّاها فقسمتها بين ابنتيها ولم تأكل منها ثم قامت فخرجت، فدخلَ النّبيّ ﷺ علينا فأخبرته فقال: «من ابتُلِي من هذه البنات بشيء كُنّ له ستراً من النّار»[3].

ففي هذا الحديث حث عملي على إيثار الأولاد والبنات خاصة على النفس وحث على رحمتهن والشفقة عليهن.

ولم يقتصر الإسلام على إكرام البنت في بقائها وحظ حياتها الجسدية فحسب بل

---

(١) صحيح الجامع الصغير برقم ٦٤٨٨.
(٢) صحيح الجامع الصغير برقم ٦٣٩١.
(٣) صحيح الجامع الصغير برقم ٥٩٣١.

إن الإسلام اعتنى بحياتها السلوكية والفكرية وحثَّ على تأديبها وتعليمها أمور دينها ودنياها قولاً وعملاً.

فعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ كانت له جاريةٌ فعلّمها فأحسنَ إليها ثم أعتقها وتزوّجَها كان له أجران»[١].

فإذا كان الإسلام قد حث على تعليم الجارية، فالبنت وجميع الأهل أولى من غيرهم بالرعاية والعناية والتّعليم.

ولفقه الصحابة رضي الله عنهم بأهمية التربية والتأديب والتّعليم للبنات فإنهم يولون ذلك العناية التّامّة، وقد سبق ذكر مثال قوي في قصة زواج جابر بن عبد اللّه بالثّيّب حينما وضع نفسه مكان أبيه في رعايته لأخواته.

(١) صحيح البخاري برقم ٢٥٤٤.

البحث الثّاني:

حقوق المرأة في تلقي العلم الشرعي

إذا كان تعلم أمور الدين حقاً من حقوق المرأة المسلمة فإنّ من الحقوق ما يجوز أن يتنازل عنه صاحبه، لكن هذا التعلم فوق أنّه حق لها فهو واجب عليها، لا يجوز أن تتنازل عنه بأيّ حال حتى تتمكّن من أداء ما يجب عليها من عبادةِ لله تعالى، فما لا يتم الواجب إلاّ به فهو واجب. والمرأة محتاجة إلى أن تعرف التّوحيد والفقه وأن تعرف الحلال والحرام وأن تقرأ القرآن في صلاتها على أقل تقدير وليس أدل على وجوب طلب العلم من قول الله عزّ وجلّ: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾[1]. وقول رسول الله ﷺ المروي عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النّبيّ ﷺ أنّه قال: «طلب العلم فريضةٌ على كلِّ مسلم»[2]. فقد جعله رسول الله ﷺ واجباً دينياً وفرضاً لازماً عينياً على المسلمين، الرجال منهم والنّساء.

وإن من المجمع عليه أن المرأة مسؤولة عن صلاتها وصيانتها وزكاة مالها وصيامها وحجّها وسلامة عقيدتها والدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر وليس لها ذلك إلاّ بالتّعليم، كما أنّ عليها أن تتعلم من أموردينها ما يساعدها على القيام بالأعباء الزّوجية والمنزلية في مراحل حياتها المختلفة.

وقد أوجب الله سبحانه على المرأة طلب العلم الضّروري لإقامة ما كُلّفتْ به شرعاً على الوجه الصّحيح.

وجعل طلب العلم من علامات الخير، حيث قرر المصطفى ﷺ ذلك فيما رواه معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه أنه قال: «مَنْ يُرِدِ الله بِهِ خيراً يفقهه في

(١) سورة: محمد، الآية: ١٩.

(٢) صحيح الجامع الصغير برقم ٣٩١٤.

الدِّين»[١]. كما كلف المجتمع المسلم، بتأمين فرص التعليم للمرأة كالرّجل يقوم به ولي الأمر أو من ينوب عنه وفق الشروط المعلومة في الشرع.

ولقد حثّ القرآن الكريم المجتمع المسلم على طلب العلم، ولم يخصص جنساً دون جنس، وإن كان بعض النّصوص قد جاء بصيغة خطاب المذكر، إلاّ أنّ هذا الأسلوبَ جاء للتّغليب كما سبق ذكره، وحيث أننا قد ذكرنا عدداً من الشواهد القرآنية الحاثّة على طلب العلم عُموماً، فسنقصر الحديث على ذكر الشواهد الحديثة الخاصة بحق النساء في التّعليم وحثّهنّ عليه. فمن هذه الشواهد ما يلي:

عن أبي بردة عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثةٌ لهم أجران، رجلٌ من أهل الكتابِ آمَنَ بنبيِّهِ وآمنَ بمحمّدٍ ﷺ، والعبدُ المملوكُ إذا أدّى حقَّ الله، وحقَّ مواليهِ، ورجلٌ كانت عنده أمَةٌ فأدّبها فأحسنَ تأديبَها وعلّمها فأحسن تعليمَها، ثم أعتقها وتزوّجها، فلهُ أجران»[٢].

وقد وضع الإمام البخاري رحمه الله عنواناً لهذا الحديث أسماه «باب تعليم الرجل أمتَهُ وأهله» وذكر فيه هذا الحديث.

ومن حرص الإسلام على تعليم النّساء فقد كان الإمام يتولّى هذه المهمة بنفسه، فعن عطاء عن ابن عباس رضي الله عنه قال: أشهدُ على النّبيّ ﷺ، أو قال عطاء: أشهدُ على ابن عباس أنّ رسول الله ﷺ خرجَ ومعه بلال فظنّ أنّه لم يسمع، فوعظهنّ وأمرهنّ بالصّدقة، فجعلتِ المرأةُ تُلقِي القرطَ والخاتم، وبلال يأخذ في طرف ثوبه.

وقد تنبهت المرأة المسلمة إلى حقها في التعليم في عهد المصطفى ﷺ وشاهد ذلك ما رواه الإمام مسلم عن أبي سعيد الخدري قال: «جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسولَ الله! ذهب الرجال بحديثك فاجعلْ لنا من نفسكَ يوماً نأتيك فيه تعلمنا ممّا علَّمَكَ الله قال: اجتمعن يوم كذا وكذا» فاجتمعنَ فأتاهُنّ رسول الله ﷺ فعلّمهنّ ممّا علمه الله ثم قال: «ما منكُنّ من امرأةٍ تُقدِّمُ بينَ يديها من ولدِهَا ثلاثةً، إلاّ كانوا لها

(١) صحيح البخاري برقم ٧١ و٣١١٦.
(٢) صحيح البخاري برقم ٩٧.

حجاباً منَ النّار» فقالت امرأةٌ: واثنين واثنين واثنين، فقال رسول الله ﷺ: «واثنين واثنين واثنين».

وإذا كان العلم من المطالب الأساسية في حياة الإنسان وليس محل خلاف تبيّن لنا أن للمرأة نصيبها منه.

وقال الشّيخ الألباني: «والحق أنّ الكتابة والقراءة نعمةٌ من نِعَمِ الله تبارك وتعالى على البشر، فلا ينبغي للآباء أن يحرموا بناتِهم من تعلمها شريطة العناية بتربيتهنّ على الأخلاق الإسلامية كما هو الواجب عليهم بالنسبة لأولادِهم الذكور أيضاً فلا فرق في هذا بينَ الذكورِ والإناث»!.

البحث الثّالث:

تعليم البنات تكريم لهنّ
وهو عملٌ إسلامي في سبيل تعليم البنات

لقد وردَ كثير من الأحاديث النّبوية التي تحثُّ على الاهتمام بالبنت وإكرامها والإحسان إليها، وعلى عظيم الثّواب لمن يعُول البنات ويقوم على رعايتهنّ وتعليمهنّ وتربيتهنّ، وذلك لكونهنّ أمهات أجيالٍ قادمة، واعتبارهنّ البانيات للمجتمع المتجدّد على مدىٰ الحياة!.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ عالَ جاريتين ـ أي بنتين ـ حتّى تبلغَا، جاءَ يومَ القيامة أنا وهو، وضمَّ أصابعَهُ»[1].

وقال رسول الله ﷺ: «مَنِ ابْتُلِيَ مِنَ البنَاتِ بشيء فأحسنَ إليهنّ كُنّ لهُ ستراً من النّار». وقال ﷺ: «مَنْ كانتْ له ثلاثُ أخواتٍ، أو ابنتان أو أختان فأحسنَ صحبتهنّ، واتّقى الله فيهنَّ فلهُ الجنّةُ»!!![2].

والإحسان إليهنّ يشمل كلَّ أمرٍ فيه مصلحتهنّ وفائدتهنّ، من رعايةٍ وتربيةٍ وتأديبٍ وتعليم وتزويج بالرّجل الصّالح؛ إلى آخر ما تشمله كلمةُ «الإحسان» من معانٍ وأمور.

كما وَرَدَ في كتاب الله تعالى قوله: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۝ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝﴾[3]. ويقول رسول الله ﷺ: «إنّ الله حرّم ثلاثاً، ونهى عن ثلاثٍ: حرّمَ عُقُوقَ الوالد، ووَأْدَ البنات، ولا وَهَات [أي الامتناع عن أداء ما توجبه عليه من

---

(١) صحيح مسلم، ج ٢٠٢٨/٤.
(٢) تحفة الأحوذي بشرح سنن الترمذي ج ٣٩/٦ ـ ٤٠.
(٣) سورة: التكوير، الآيتان: ٧ ـ ٨.

الحقوق، فيقول في الحقوق الواجبة: لا أعطي] ونهى عن ثلاثٍ: قيل وقال، وكثرةِ السّؤال، وإضاعةِ المال».

ومِنْ جُملة تكريم الإسلام للمرأة تحريم المفاضلة بين الأولاد ويشمل ذلك التّفرقة بين البنات والأبناء، في أيّ شيءٍ؛ في الهبة والعطية، والتأديب والتّعليم، ودليل ذلك عن النّعمان بن بشير، قال: تصدّق عليَّ أبي ببعضِ ماله، فقال له رسول الله ﷺ: «أفعلتَ هذا بولدك كلِّهم؟» قال: لا، قال: «اتّقُوا الله واعدِلُوا في أولادِكم»[1] فرجع أبي فردَّ تلكَ الصّدقة.

فهذه الآيات والأحاديث في جملتها تدلُّ على كرامة البنات عندَ الله تعالى وعندَ رسوله ﷺ مثل الأبناء تماماً سواءً بسواءٍ، بل إنّ البنات سبب سعادة الآباء والأمّهات في الدنيا والآخرة بما تجرّه عليهم من خير كثير وثواب عظيم، ثم لا ننسىٰ أنّ جميعَ الأنبياء والمرسلين صلوات الله تعالى وسلامه عليهم حضنتهم أمّهاتهم، ولا يغيبُ عن أذهاننا سيرةُ الصّديقة الطهور البتول «مريم» عليها السلام، وما كان لها من الله تعالى من العناية والرّعاية العظيمة!!!.

وكذلك أمهات المؤمنين ـ زوجات سيّد المرسلين ﷺ ـ وأولهنّ الصّدّيقة خديجة رضي الله عنها، وما كان منها من التأييد والتّصديق والمؤازرة والإنفاق لجميع مالها في سبيل دعوة رسول الله ﷺ!!.

فالمرأةُ في الإسلام لها مكانتُها على قدرِ عطائها وتقوَاها وصلاحِها!!. وهذا رسول الله ﷺ هو القُدوة الصّالحة والأُسوة الحسنة في رعاية البنات، حيث لم يعش له سواهنّ، فكان ﷺ «أبا البنات»!!!.

وقد أخرج أبو داود: أنّ رسول الله ﷺ كان إذا دخلت عليه ابنتُه «فاطمةُ» [عليها السلام] قامَ لها فأخذ بيدها فقبّلها، وأجلسَها في مجلسِهِ، وكان إذا دخلَ عليها قامتْ إليه فأخذتْ بيده وأجلستْهُ في مجلسها»[2].

---

(١) صحيح مسلم، ج ١٢٤٣/٣.

(٢) عون المعبود شرح سنن أبي داود ج ١٢٨/١٤، ورواه الترمذي وقال: حديث حسن غريب.

فالرّسولُ الكريمُ ﷺ خير أسوةٍ للآباء والأمّهات في البِرّ والإحسان، لا سيما الإحسان إلى البنت، وأعلى ما في الإحسان إلى البنت تعليمها وتأديبها، وهذا ما يجعلها أمًّا عظيمةً فاضلةً تُنْشِىء الرّجالَ والعُظماءَ والصّلحاءَ!.

فالإسلام لم يترك البنات ينشأن بلا علم، بل رغّب في تعليمهنّ تعليماً شرعياً، وتأديبهنّ تأديباً إسلامياً، وتنشئتهنّ النّشأة الإسلامية الصّحيحة القائمة على المعرفة والعلم؛ لأنّ ذلك وسيلة مُوصلة إلى قيامها بتربية أبنائها تربيةً حسنة، يقول الشاعر حافظ إبراهيم:

الأمُّ مــدرســةٌ إذا أعــدَدْتَهــا أعــددتَ شعبــاً طيِّــبَ الأعــراقِ

إنّ الإسلامَ في بداية انتشارهِ أخذ بيدِ المرأة فأنزلها مواطن العزّة والرّفعة والكرامة، وهو الذي صحّحَ وضعَها في العَالَمِين، بعد أن كانت في أسوأ الأوضاع، وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: جاءتِ امرأةٌ إلى رسول الله ﷺ فقالتْ: يا رسولَ الله! ذهبَ الرِّجَالُ بحديثِكَ، فاجعلْ لنا من نفسِكَ يوماً نأتيكَ فيه تُعلِّمَنا ممّا علَّمَكَ الله؟! قال: «اجْتَمِعْنَ يومَ كذا وكذا» فاجتمعنَ، فأتاهنّ رسول الله ﷺ فعلّمهنّ ممّا علمه الله، ثم قال: «ما منكُنّ مِن امرأةٍ تقدّم بينَ يديها من ولدها ثلاثةً إلاّ كانوا لها حجاباً مِنَ النّار» فقالتِ امرأةٌ: واثنين واثنين واثنين؟ فقال رسول الله ﷺ: «واثنين واثنين واثنين»[١].

ولقد وَرَدَ في فضلِ تعليم البنات أنّ رسول الله ﷺ قال: «ورجلٌ كانتْ عندَهُ أمَةٌ فأدّبَها فأحسنَ تأديبها، وعلّمها فأحسنَ تعليمها، ثم أعتقَها فتزوّجَها فلَهُ أجران»[٢].

فإنْ كان هذا الأجرُ وَرَدَ في تعليم الأَمَة المملُوكة، فكيف بالابنة أو الأخت الحرّة؟! لا شكَّ أنّ الأجر سيضاعف.

كذلك نجدُ الرسولَ ﷺ يَسُنُّ للنّساء سُنّةً مؤكّدةً: هي شهودُ مجامع العلم والخير ليتزوّدْنَ منها بالفائدة والمعرفة والبركة، فعن أُمِّ عطية رضي الله عنها قالت: أمرنا

(١) صحيح مسلم، ج ٢٠٢٨/٤ ـ ٢٠٢٩.
(٢) صحيح البخاري، كتاب تعليم الرجل أمته وأهله ج ٣٥/١.

رسول الله ﷺ أنْ نُخرجهنّ ـ أي البنات الحيّض ـ في الفطر والأضحى. العَوَاتقُ، والحيّض، وذوات الخُدُور، فأمّا الحُيّض فيعتَزِلْنَ الصّلاةَ، ويشهدْنَ الخيرَ ـ أي خطبة العيد ـ ودعوةَ المسلمين» قلت: يا رسول الله! إحدانا لا يكون لها جلبابٌ؟ قال: «لتلبسها أختُها من جلبابِها»[١].

ولا يخفى ما في هذا الأمر المؤكّد في الحديث من التّكريم للبنات والعناية برفع مستواها العلمي والفكري والأدبي والخُلُقي، وخصَّهنّ رسول الله ﷺ بذلك لأنّهن على صغر أعمارهن أقدر على الاستيعاب والفهم والإدراك، كما في هذا الحديث من التّرغيب على خروجهنّ لشهود دعوة الخير ـ وهي الدّعوة إلى الله تعالى ـ وهذا يكسبها معرفةً عملية في الدّعوة إلى الله تعالى وتبليغها، وهذا من دلائل لزوم مشاركة المرأة في الدّعوة إلى الإسلام بين بنات جنسها، كما يقوم الرّجالُ بالدّعوة بين بني جنسهم.

وهذا كتبُ السُّنّة والسيرة النّبويّة تحكي لنا عن مشاركة الصّحابيات في تلقي العلم عن رسول الله ﷺ وتبليغه للنّساء خاصّة وللرجالِ عامّةً، وعلى رأسهنّ «أمّهات المؤمنين» رضي الله تعالى عنهُنّ!!.

وقد ظلّتِ المرأة في ظلِّ الإسلام على مدى تاريخه النّاصع ـ عدا عهدِ التخلّفِ والتّعصّبِ حيثُ حُجِرَ التّعليمُ عن البنات ـ تطلبُ العلمَ وتنالُ منه بقدر حاجتها وضرورتها، وتقوم بتعليم غيرها ما تعلمتْهُ، وهذا مقتضى الحديث: «طلبُ العلم فريضة على كلِّ مسلم»[٢] وحكمُ الحديث يعمُّ الرجالَ والنّساء، وعليه إجماعُ العلماء!.

وقد فصّلَ العلماء مراتب تعلّم المرأة إلى: فرض عين، وفرض كفاية.

١ ـ فرض العين: هو العلمُ الذي يُبيّن لها عقيدتَهَا وعبادَتَهَا وأخلاقَهَا وآدابَهَا وسلُوكَهَا، وتربية أولادها ومعاشرة زوجها. فهذا مفروض عليها بلا استثناء لواحدة من النّساء.

---

(١) صحيح مسلم، كتاب صلاة العيدين، باب إباحة خروج النساء في العيدين ج ٢/ ٦٠٦.

(٢) سنن ابن ماجة، ج ١/ ٨٠، وهو حديث حسن لتعدد طرقه.

٢ ـ فرض كفاية: هو العلم الذي تحتاج إليه النّساء في الصّحة والطّبابة والولادة والتّمريض، وتعليم البنات والنّساء عموماً. فهذا مفروض على بعض النّساء القادرات على تحصيله، فيكون من باب الوجوب على الكفاية: مدرّساتٌ ومعلّماتٌ، وطبيباتٌ وقابلاتٌ وممرّضاتٌ.

ويجبُ أن نعلم أنّ المرأةَ في جميع مراحل تعلُّمِها وتعليمها ودعوتها مطلوبٌ منها المحافظة على أنوثتها ورقتها، لأنهما هبةٌ من الله تعالى للأزواج، وللأولاد وللمحارم، فالأنوثة هي أحدُ شقيّ الإنسانية، وهي مكملةٌ للرّجولة في تحقيقه، وهي ضرورة حياتية لكل أسرة بشرية لا يمكن الاستغناء عنها، بل لا تطيب حياة الأُسر ولا تستقيم بدونها!.

لذا وجب تعهدها بالرّعاية والتّربية بما يُنَاسب أُنوثتها، ويُنمي مواهبها ويُعرّفها بخصائصها، حتى تنشأ نشأةً واعيةً، كما ينشأ الرجال في معترك الحياة، فكما يفتخر الرجل برجولته وأعماله النّافعة، تعتزّ المرأة بأنوثتها، وبعملها الذي خصّها الله تعالى به، ولا يجوز لها أن تحتقر وظيفتها الطبيعية التي هيّأها الله تعالى لها، وهي أن تكون زوجة، وأن تحملَ، وتلدَ، وتربّي أطفالها، وتقومَ بشؤون البيت على قدر استطاعتها، مستظلّةً بقِوَامة زوجها الذي أوجبَ الله تعالى عليها طاعته بالمعروف.

فالتّربية الصّحيحة للبنات والفتيات وللنّساء لا بدَّ فيها من العناية الخاصّة، والإشراف الدّقيق سواء في البيت أو في المدرسة على أيدي الأمّهات الفاضلات، والمعلّمات المربّيات الكريمات اللائي يتصفْنَ بالخبرة والأخلاق الحميدة والعقل المستنير والتفكير النّاضج، ومن فقدتْ جانبَ التّربية الحسنة أو العلم الضروري من أمّها، فَلْتُعَوِّضْهُ من إحدَى المعلّمات الفاضلات والمربيات الكريمات المعروفات في كلِّ حيّ من أحياء المُدن والقُرى.

البحث الرابع:

مشكلات المرأة في التّربية والتّعليم وحلّها في ظلال الإسلام

تُواجه المرأةُ المسلمةُ بعضَ المشكلاتِ في التّربية والتّعليم، فيجبُ أن يكونَ حلُّها في ضَوْءِ القرآن الكريم والسّنّة النّبويّة، فأقول:

لقد ظهرتْ لنا مشكلاتٌ عدّةٌ في نواحي الحياة المختلفة، وسأذكر جانباً من هذه المشكلات وأسبابها وحلّها في ضوء القرآن والسّنّة حتّى يزول الغُموض اللّبس عنها، وتعود التّصوّرات الصّحيحة والنّظرة السّليمة للمرأة التي انخدعت بالحضارة الغربيّة المزيفة، وأهمّ هذه المشكلات هي مشكلات التّربية والتّعليم، وقبل أن نتعرّض لهذه المشكلات لا بدّ من تعريف معنى التّربية والتّعليم:

فالتّربية هي المجال لنموّ الأطفال جسداً وعاطفةً وعقلاً واجتماعياً، وهي باختصار: عمليةُ نموّ الشّخصية لدى الناشىء نموًّا متكاملاً بوصفها كلاًّ لا تتجزّأ؛ فالتّربيةُ الحقّةُ تشملُ بناءَ الشّخصيةِ الإنسانية في جميع جوانبها وكافّة مراحلها.

وأمّا التّعليم: فهو تلقين الاعتقاد، والأفكار، والمعارف، كما هو أيضاً: التّدريب على الأعمال اليدوية والآلية، فالتّعليم جزءٌ من التّربية العامّة، لأنّه يختصّ بالعقل.

إنّ التّربية السّليمة الصّحيحة لكلّ إنسانٍ مسؤولية الآباء والأُمّهات في تهيئة الجوّ الملائم لنموّ طفلهما ورعايته رعايةً متكاملةً، ويكون هذا للبنت كما هو للابن على حدٍّ سواء، أمّا مشكلةُ تفضيل الابن على البنت في أيّ مجالٍ من مجالاتِ البناءِ التّربوي، فقدْ عابَها الإسلامُ وذمّها ذمًّا شديداً، يتبيّن ذلك من قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾﴾[1] فكان الإنسانُ الجاهلي في عصر

---

(١) سورة: النحل، الآيتان: ٥٨ ـ ٥٩.

الجاهلية يقفُ من الأُنثى كما وصفه الله تعالى به في هذه الآية الكريمة، أمّا الإنسان الجاهل في هذا العصر فإنّه يدفنُ البنتَ في الجهل والتّخلّف، فلا يُحيِيها بالعلم والمعرفة والثقافة لتكونَ أُمًّا قادرةً على بناء أولادها بناءً كاملاً، فالأمُّ الجاهلةُ لا قدرةَ لها على تربية أولادها تربيةً مُتكاملةً، فهي تخبط في تربية أولادها خبطَ عشواءٍ بلا علمٍ ولا بصيرة، ومن هنا كانت أولى مشكلات المرأة في التّربية والتّعليم.

فعلاجُ هذه المشكلة هو مساواةُ البنتِ بالابن سواءً بسواءٍ، في التّربية والتعليم، وبدون هذا الحلِّ العادل والمتوازن ينتقل الظلمُ من بيتٍ إلى بيتٍ؛ من بيتِ الأب المتهاون ـ بل الظالم ـ إلى بيتِ زوج ابنته، حين تُصبح زوجةً، أي حينَ تكونُ أُمًّا غيرَ مُؤهّلةً لتربية أولادها تربيةً صحيحةً ومُتكاملة.

وهكذا ينتقل الفشلُ في حُسْنِ التّربية إلى كلِّ أسرةٍ متفتحةٍ من وراء الأمّ الجاهلة، وبمقدار ما تتحقّق التربيةُ والتعليم المتكاملان في كلِّ بنتٍ، يتحقّق النّجاحُ في كلِّ أسرةٍ متفتحةٍ على الدّوام!.

إنّ الاهتمام بالبنات اهتماماً تربوياً وتعليمياً هو اهتمامٌ بلا ريبٍ بكلِّ أسرةٍ جديدةٍ تنشأ على الحياة.

وإنّ حَجْرَ التّعليم المتكامل عن البنات باسم الدِّين ـ والدِّينُ الحنيفُ منه بَراءٌ ـ قد ولَّدَ في نفس البنات اللّاتي هنّ أمّهات المستقبل كراهيةَ الدِّين ـ والعياذُ بالله تعالى من ذلك ـ وهذا يعني نُشُوءَ أُسَرٍ غيرِ مُتديّنةٍ على أثرِ كراهةِ الأُمّ للدِّين.

وفوق ذلك نجدُ العلمانيـين ـ أعداءَ الدِّين ـ يستغلّون هذا الحَجْرَ على تعليم البنات ليُنَادُوا بقضية «تحرير المرأة» وهي كلمة حقٌّ أُريدَ بها باطلٌ، فإنّ الإسلام هو الذي حرّر المرأة من ظلم الجاهليّة، وهو الذي يُحرّرها من ظلم الجاهِلِيين حينَ يُوجبُ تعليمها تعليماً متكاملاً كما يُوجبُ تربيتَها تربيةً متكاملةً، ولن يكون الجُهَلاءُ من المسلمين عاراً على الإسلام، بل هم عارٌ على مَنْ حَجَرَ العلم عنهم، فإنّ الإسلام يُوجبُ العلمَ لاستقامة الدِّين والدّنيا على هدي الله تعالى وسنّة رسوله ﷺ.

فقضيةُ المُطَالبة بحقوق المرأة وتحريرها ومساواتها بالرّجل في كلِّ شأنٍ من شؤون الحياة في هذا العصر؛ قضيّةٌ ملفّقةٌ من عدّة وجوه:

الأول: نزعُ المرأة من إطار الحجاب الشّرعي الذي فرضه الله تعالى على المرأة، وجَعْلُها تخرجُ متبرّجةً ليسهلَ الوصولُ إليها بلا ضابطٍ ولا رابطٍ.

الثاني: تكليفُ المرأة أعمالاً لا تتوافق مع أنوثتها، أو إشغالها بأعمالٍ تتعارض مع وظيفتها «المُثْلى» وظيفة الأُمُومة.

الثالث: خِداعُها بالحريّة المزعومة، التي تتمثّلُ بالتّمرّد على أبويها، أو على زوجها، لتخرجَ متى شاءتْ، ولتذهبَ إلى حيثُ شاءتْ، وهم يقصدون من وراء ذلك تحريرها من قُيُود الحفاظ عليها ورعايتها والخوف عليها من ذئاب الشّهوات المحرّمة.

فإذا سلمتْ المرأةُ من خدعة «المطالبة بحقوقها وتحريرها» فقد سلمتْ من دُعاة العلمانية وذئاب الشّهوات الخبيثة الحيوانيّة، وهذه من أعظم المشكلات التي تُواجه المرأة في التّربية والتّعليم، حيث إنّها إنْ سلمتْ من هؤلاء سلمتْ تربيتُها وسَلِمَ تعليمُها!!!.

إنّ المرأةَ في الإسلام شريكةُ الرّجل في البناء الاجتماعي، فجهلُها خطرٌ عليها وعلى مَنْ تحتَ يدِها من أطفالٍ وأبناءٍ، وانخداعُها بدعوة المشبوهين خطرٌ عليها في شرفها وعفّتها وطهارتها وكرامتها، ولن تتكوّن الشّخصيّةُ المتكاملةُ للمرأة السّويّةِ الكريمةِ إلاّ بالعلم المتكامل وبالحَصَانة المُتكاملة.

ومن المشكلات التي تُواجه المرأة في التّربية والتّعليم «التّعليم المختلط»، إنّ الملاحظ في مناهج التّعليم في بعض بلاد المسلمين هذه الطّريقة المستوردة من الغرب، طريقة التعليم المختلط؛ اختلاط في الأجساد، واختلاط في الأفكار والنّفسيات، فالاختلاطُ الأول معروف وخطره ظاهرٌ بيّن.

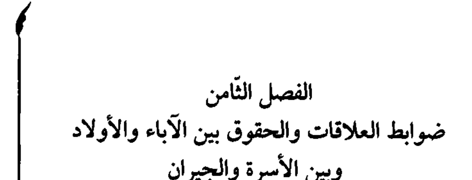
وأمّا الاختلاطُ الثاني: فهو في المناهج التي تتجاهل طبيعة المرأة، وتتناسى الفروق في تركيبها الجسماني والنّفسي، فهي حين تُزجّ في كليات الهندسة العمرانيّة أو الميكانيكيّة أو الكهربائيّة أو الزّراعيّة، من غير اختيارٍ لها ولا رغبةٍ منها؛ يُقْتَحَمُ بها عَالَم «الاسترجال» الذي ابتُليتْ به المرأةُ المعاصرة، فنتجَ عن ذلك مشكلاتٌ رهيبة، أودتْ بالمرأة في مهاوي المزعجات والاضطرابات، فلا هي بالقادرة على التعايش مع ما

فُرِض عليها من «الاسترجال» ولا هي بمتخليةٍ عن أنوثتها ولا عن رقّتها، وفوق ذلك؛ إنّ المرأة حينَ تنزلُ ميادين الرّجال، تتخلّى عن أعظم أعمالها وهو تربية أطفالها ورعاية بيتها، وفي هذا فسادٌ للأسرة، ثم هو فسادٌ للمجتمع، وذلك لفساد البيت وتشرّد الأطفال في غياب الرّاعية لهما. فلا بدّ من مُراعاة طبيعة المرأة من حيثُ تفكيرها بالأمومة أولاً وأخيراً، فتُوجَّهُ نحو هذا الهدف النّبيل، ونحو هذه الغاية العظيمة، ثم تُسخَّرُ لها العلومُ التي تعينُها على تحقيق ذلك.

وبتحقيق هذا تُحَلُّ هذه المشلكة التي تُواجه المرأة في التّربية والتّعليم، وذلك لأنّ الله تعالى لا يُكلِّفُ نَفْساً إلاّ وُسْعَها،ووسْعُ المرأةِ هو في وظيفتها العُظْمَى التي لا يقومُ بها أحدٌ سواها من البشر «زوجة صالحة» و«أُمّ مربّية فاضلة»!!!.

وحينَ تتخلّى المرأةُ عن وظيفتها العُظْمَى، فإنّنا سنرى الخلَلَ والاضطرابَ والضّياعَ والفسادَ، في الأسرة والمجتمع.

ويجبُ على المرأة مُراعاةُ ظروف زوجها في حالتي تعلّمها وتعليمها، تجنّباً لنشُوء الصّراع والمشاكل بينَها وبينَ زوجها، فإنّ هذا من أهمّ الواجبات المرعية في الحياة الزّوجيّة.



الفصل الثّامن

ضوابط العلاقات والحقوق بين الآباء والأولاد وبين الأسرة والجيران

المبحث الأوّل: تنظيم العلاقات الأبوية الأُسريّة.

المبحث الثّاني: حقوق الآباء والأُمّهات من الكتاب والسّنّة.

المبحث الثّالث: حقوق الأبناء على الآباء من الكتاب والسّنّة.

المبحث الرّابع: حقوق الأولاد على الأبوين.

المبحث الخامس: حقوق الأبوين على الأولاد.

المبحث السّادس: تنظيم العلاقة الأسرية مع الجيران.

البحث الأول:

تنظيم العلاقات الأبوية الأسريّـة

هذا التنظيم يأتي في الأهمية الثانية بعد تنظيـم العلاقات بين الزّوجين، ذلك أنه إذا كان التنظيم الأول يعتبر تنظيم أساس البـيت، فإن هذا التّنظيم يُعتبر تنظيمَ بناءِ البيتِ.

ولهذا كما يجب الاعتناء بالأول يجب الاعتناء بالثّاني، ولربّما كانت صلة هذا الأخير بالمجتمع وبحياة المجتمع أكثر من صلة الأول به؛ لأنّ هنا أولاداً ينمون ويكبرون ويخرجون إلى الحياة العامّة، الحياة الاجتماعية، فإذا لم يلقوا العناية التّامّة ولم يأخذوا نصيبَهُم من التّربية المتكاملة فهذا بلا شكٌّ سوف يُؤثّر في حياتهم الخاصّة وحياة المجتمع عامةً. والعلاقة بين الآباء والأبناء هي عبارة عن تبادل الواجبات، فلكلٍّ واجباتٌ نحو الآخر، فهناك واجباتُ الآباء نحو الأبناء، وهناك واجباتُ الأبناء نحو الآباء، ولنبدأ الآن بالطّرف الأوّل لأهميته الكبرىٰ!.

واجبات الآباء نحو الأبناء:

هناك واجباتٌ هامّة على الآباء نحو الأبناء، أهم هذه الواجبات هي النّفقة. وسيأتي ذكرها، والتّسوية بينهم في المعاملة، وأخيراً التّربية والتّعليـم. وفي الصّفحات القليلة الآتية سنحاول شرح هذين الموضوعين الأخيرين بشيء من التّفصيل فنقول:

١ ـ التّسوية بين الأولاد في المعاملة:

إنّ تسوية الأبناء في المعاملة من واجب الآباء، وهذه نقطة مهمّة، ذلك أنّ التّفرقة في المعاملة تُولِّد الحقدَ والحسدَ فيما بينهم وتزيل المحبّة والتّعاطف فيما بينهم من جهةٍ، وفيما بينهم وبين الآباء من جهة أخرى، إلى جانب هذا وذاك تكون هذه

التفرقة سبباً لنشأة بعض الأمراض السيكُولُوجيّة أو النّفسية في حالاتٍ كثيرة. ولهذا قال الرسول ﷺ: «اتّقُوا الله واعْدِلُوا في أولادكم»[١].

إنّ إيثار بعض الأولاد على البعض، ولا سيما إيثار الأبناء على البنات كما يحصل عادةً في مجتمعاتنا ـ هذا الإيثار من أقبح الأفعال وأرذل الخلال، وقد كان ذلك من العادات الجاهلية، وعادات بعض الشعوب البدائية، وقد تجاوز الجاهليون إيثار الأبناء على البنات إلى وَأْدِ البنات وهنّ أحياء، فلمّا جاء الإسلامُ حاربَ هذه الخصال وهذه العادة الشنيعة محاربةً شديدة. وشنّع على جريمتهم هذه فقال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ ﴾[٢]. وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ ﴾[٣]. وقال تعالى: ﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾[٤].

فعليهم أن يُسوّوا بينهم في المطعم والملبس والعطف والحنان وسائر الحقوق، وترغيباً في ذلك فقد رُوي عنه ﷺ: «مَنْ كان له أنثى فلم يُهنها ولم يُؤْثِرْ ولدَهُ عليها أدْخَلَهُ الله الجنّةَ»[٥]. فإنّ كثيراً من الناس ما يزالون يُؤثرون أبناءَهم على بناتهم كما كان الأمر في الجاهلية الأولى بالرغم من حرب الإسلام لهذه الفكرة السّيّئة والرأي الخاطىء الشّنيع والعادة الجائرة، ورغم إيعادِ فاعلهِ بألوان العذاب والعقوبة في الآخرة، وبالرّغم من ترغيبه في المساواة والعدالة الاجتماعية، ولا أدري كيف تُزيِّنُ لهم أنفسهم ترجيح الأبناء على البنات، ألاَ يعلمون أنّ كلا العنصرين انفصلا من صلبه؛ وأحدهما صنو للآخر؟ وكيف سوّلت لأحدهم نفسُهُ أن يجعل أحد فلذتي كبده بمرأى عينه مسروراً سعيداً، والآخر كئيباً محزوناً من غير ذنب، تذرف عيناه دماً وينفجر من الحرقة قلبه؟ أليس الذي خلق الذكر خلق الأنثى؟ أليسّ كلاهما من ماءٍ واحد؟ فمن أين أتى التّرجيح والإيثار؟ أأنزل عليه كتاب يقرؤه وهو على بيِّنةٍ منه؟ وقد تجاوز البعض هذا الحدّ إلى

---

(١) حديث صحيح، صحيح الجامع الصغير ج ١/ ٨٣.
(٢) سورة: الإسراء، الآية: ٣١.
(٣) سورة: التكوير، الآيتان: ٨ ـ ٩.
(٤) سورة: الأنعام، الآية: ١٤٠.
(٥) التاج الجامع في الأصول في أحاديث الرسول، ٨/٥ كتاب البر والأخلاق. وسنده ضعيف.

إيثار بعض أبنائه على البعض بدون مرجح فيخصص لأحدهم مالاً أو يزيده من العطف والحنان ما لا يقابل بمثله الآخر.

نعم الحب أمر قلبي قد يحصل لأحدهم أكثر من الآخر بسببٍ أو بغير سبب، فهذا عمل القلب ولا طاقة لنا به، وهذا ليس بقاصر على الأبناء بل يشمل الزّوجات والأقارب، إلاّ أنّ عمل القلب شيء والمعاملة الخارجية شيءٌ آخر، فنحنُ أُمرنا بالعدالة في معاملاتنا لمن نحب ولمن نكره، ولا جناح في الحب ولكن الجُنَاح في المعاملة بمقتضى الحبّ.

فالإيثار وعدم العدالة في المعاملة بالإضافة إلى إزالته المحبة من بين الأفراد والسعادة من البيت فإنه يخلق كذلك جوًّا مشحوناً، وظلماً قاتماً في سماء البيت، ونتيجةً لذلك تتحوّل الحياة فيه إلى جحيم لا يُطاق. وما أحسن ما قالته فاطمةُ الأنمارية عندما سُئلتْ: أيُّ ولدكِ أحبّ إليك؟ فأجابتْ: هم كالحلقة المفرغة لا يدرى أين طرفاها.

هذه هي الأم التي تمثل الأمومة الحانية العادلة بين أبنائها، وهذه هي المعاملة التي يرضى عنها الصّغير والكبير، والتي أمرَ بها الإسلامُ إنّما أمر بذلك لتزداد المحبة والتّرابط بين أفراد البيت جميعاً، وليعيشوا في عشهم متحابّين متكاتفين متعلّقين بعضهم ببعض كتعلق المحبّ بالمحبوبة.

٢ ـ التّربية والتّعليم:

إنّ التّربية والتّعليم في غاية الأهمية في البيت، لعل الإحساس بهذه الأهمية يجعلنا نُعالجها بشيء من التّفصيل، لكي يكون الآباء والأمهات على بيّنةٍ. فمن أهمّ مبادئها على أقل تقدير وليعرفوا مغازيها وأسرارها والنقط الهامة التي يُؤدي الخطأ فيها إلى أخطار قد لا يمكن علاجها فيما بعد.

فالتّربية تبدأ كما يقول كثير من التّربويين قبل الولادة أي منذ بدء الحمل، ولهذا فهم يقسمون مراحل التّربية إلى مرحلة ما قبل الولادة ومرحلة ما بعد الولادة. ثم يقسمون هذه الأخيرة إلى مراحل متعدّدة وذلك بناء على تقسيمهم الطفولة إلى ما قبل الولادة وإلى ما بعد الولادة.

وأهمية المرحلة الأولى إن لم تزد على الثانية فلا تقل عنها ذلك أن الأولى هي الأساس، فإذا لم يكن الأساس سليماً فإنّ ما بني عليه لا يمكن أن يكون سليماً، بل قد لا يمكن البناء عليه إذ أنّ الطفل كالنبتة، فإذا أردنا أن نُنبتَ نباتاً حسناً لا بدّ من اختيار بذرةٍ صالحةٍ، ولا بدّ مع ذلك من أن نزرعها في أرض صالحةٍ للزراعة، وقت الزّراعة، ذلك أنّه مهما كانت البذرة صالحة فإذا كانت الأرض غيرَ صالحةٍ فلا يُفيد الزرع أو لا يكون كالذي يُرجى منه ثم لا بدّ مع هذا وذاك من إعطاء العناية والرّعاية اللازمتين، لتنبثق النّبتة من الأرض وينمو كل ما فيها من إمكانيات النّمو حتى تستوي على سُوقها، ويُعجب الزُّرَّاعُ بمنظرها، ولقد أثبت العلماءُ أنّ الصّفات الجسمية والنّفسية والخُلُقية والعقلية تنتقل كلها إلى الذّريّة كميولٍ عن طريق الورَاثةِ.

ويعد أن وضع الإسلام أُسُسَ التّربية السّليمة في مرحلة ما قبل الولادة وجّه الآباءَ والأُمّهات إلى الرعاية والعناية بأبنائهم وتربيتهم وتأديبهم بأساليب تربوية إن لم تزد قيمة مبادئها التربوية على أحدث المبادىء التربوية فلا تقل عنها بأي حال من الأحوال ثم إن الإسلام لا يكتفي بتقرير تلك الحقائق التّربوية، ولا يكتفي بتشجيع الآباء على تعليم وتربية أبنائهم في ضوئها بل يشجع أيضاً على تعليم وتربية خادماتهم فقال الرّسول ﷺ: «ثلاثة لهم أجرهم [أحدهم] رجلٌ كانت عنده أمَةٌ فأدّبها فأحسن تأديبها وعلّمها فأحسنَ تعليمها»[1]. بل أكثر من هذا يُشجع على أن يعلم الرّجل الصّبيان الذين ليس لهم من يُعلّمهم ويُؤدبهم فقال الرسول: «مَنْ عال ثلاثَ بناتٍ فأدّبهنّ وزوجهنّ وأحسنَ إليهنّ فله الجنّة»[2]. وما ذلك إلاّ لتسود التّربية والتّعليم كلَّ أفراد المجتمع الإسلامي.

ثم إنّ تربية الأبناء وتعليمهم وخاصة في المرحلة المبكرة للتربية الصحيحة من أهمّ واجبات الآباء أو واجب البيت عموماً نحو المجتمع باعتباره مدرسة الأطفال الأولى، فإذا لم تقم بوظيفتها فلا تعوّضها أيُّ مدرسة أو مؤسّسَةٍ أُخرى كما يقول المربّون.

ولهذا فقد أعطى الإسلامُ العنايةَ الكبرى لتربية البيت وشجع الآباء على تربية

(١) فتح الباري بشرح البخاري ١/ ٢٠٠ كتاب العلم باب تعليم الرجل أمته.

(٢) سنن أبي داود، ٤/ ٣٣٨ حديث ٥١٤٧.

أبنائهم وخاصّة التّربية الخلقية ففي الأثر: «أكرِمُوا أولادكُمْ وأحسِنُوا أدبَهم» ولمّا نزل قوله تعالى: ﴿ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا ﴾[1] قال مجاهد: «قوا أنفسكم وأوصوا أهليكم وأدّبُوهم» وقال الرسول: «ما نحل والدٌ والداً خيراً من أدبٍ حسنٍ»[2] لأنّ التّربية الأخلاقية أهمُّ من تعليم العلوم في المرحلة الأولى من حياة الطفل.

أسس التّربية السّليمة:

ولكي تُحقّقَ التّربية هذا الهدفَ الأساسي منها فلا بدّ من أن تقوم على أُسس وفيما يلي سأشير إلى أهمّها:

الأساس الأول: تأسيس التّربية على حسب مراحل النّمو، فنحن لا نستطيع أن نُلقّنَ أيَّ فكرة في أيّ مرحلة من مراحل النّمو. وإن ادّعى ذلك البعض ـ لا نستطيع أن نطالب الطفل بالقيام بأيّ سلوك في أيّ سنٍّ، ولا نستطيع كذلك أن نُعلِّم كلَّ شيء في أيِّ مرحلةٍ، وكذلك تهذيب الأخلاق وغيره، فعملية التّربية لا بدّ من أن تُساير عمليةَ النّمو الطبيعي، وأن تُساير نموَّ الميول عند الطفل، وإلاّ فستُؤدّي التّربية إلى أضرار بالغة الخطورة لا يُدركها إلاّ التّربويُّون. وقد ذكر هؤلاء مراحلَ النّمو وكيف يرتبط سلوك الطفل بهذه المرحلة، ولا أستطيع بيانَ ذلك بالتّفصيل هنا لأنني لا أكتب كتاباً في التّربية ولكن أحبُّ إعطاءَ بعض المعالم الهامّة ليسترشد بها الآباء والأمّهات، ولأُثيرَ اهتمامهم بهذا المجال ليتوسَّعُوا في قراءة الكتب الخاصة بالتّربية إن أرادوا أن يربُّوا أولادَهُم تربيةً سليمةً.

وفيما يتعلق بمراحل نمو الطفل فقد ذكر التربويُّون أنّ الطّفل في المراحل الأولى من حياته إلى حوالي السنة السادسة من عمره يُقوِّمُ سلوكه وتربيتَهُ وتعليمَهُ على أساس اللّذة والألم الحسيين فإذا ترتب على سلوكه لذّةٌ حاول فعله مرة أخرى، وإذا ترتب عليه ألمٌ حاول تجنّبه مرةً ثانية. ومن هنا نجد الطّفل عند تعرفه على العالم المحيط به يُحاول أن يعرف كلَّ شيءٍ بلمسة بيده أو بفيه، لأنه لا يملك وسيلةً أخرى لمعرفة قيمة الشّيء غير ذلك، ونجده كذلك يقفز من المكان العالي؛ لأنّه لا يُقدّرُ قيمةَ المسافة

---

(١) سورة: التحريم، الآية: ٦.

(٢) سنن الترمذي ١٢/ ٢٢٧ كتاب البر، ومسند الإمام أحمد ٣/ ٤١٢، ومرسلٌ حسن.

بالإدراك والنظرة، فليست عنده طريقةٌ للتعرّف على قيمة العالم المحيط به إلاّ طريقة اللّذة والألم، أو بتعبير آخر عن طريق الحسّ والاختبار الحسّيّ.

وفي المرحلة التي تليها تُوجه سلوكه المنفعة، فإذا رأى فيه المنفعة فعله وإذا لم يَرَ تركه، وهذه المرحلة تستمر إلى حوالي السنة التّاسعة. وفي المرحلة التي بعدها يبدأ يبني سلوكه على أساس ما تكون عنده من الأخلاق فيقوِّم سلوكه على أساس أن هذا حسن وذاك قبيح، وأنّ هذا فعلٌ إنساني، وذاك فعل حيواني.

هنا نجدُ صلةً بين النّمو وبينَ السّلوك كما نجد مثل هذه الصّلة بين النّمو وبينَ عملية اختيار المهن ونوع المدرسة ونوع العمل إلى آخره. ففي عملية الاختيار يمرّ الفتى بثلاث مراحل:

المرحلة الأولى: مرحلة التخيل وتستمر إلى ما قبل البلوغ أو المراهقة. ففي هذه المرحلة يبني الفِتيَانُ اختيارهم للأعمال على الخيال، لأنهم لا يُـقدِّرُون الصّعوبات المترتّبة على هذا الاختيار أو ذاك، ولا يستطيعون أيضاً أن يوفقوا بين سلوكهم وقدراتهم لأنّهم لا يستطيعون أن يُقدِّروا مدَى ما عندهم من استعدادات وقُدُرَاتٍ ولأن قدرات الإنسان في هذه المرحلة في نموٍّ مستمرٍّ إذْ أنّها لا تكتمل إلاّ بعد مرحلة المراهقة.

المرحلة الثانية: مرحلة الاختيار المبدىء وتبدأ عند بدء مرحلة المراهقة، وفي هذه المرحلة يشكّ المراهق في قدراته بالرغم من إحساسه بنموّ هذه القُدُراتِ نموًّا سريعاً، وبالرّغم من بدء إحساسه بالتأكد من ذاته إلاّ أنّ تقديراته للأمور ونظرته إلى الأوضاع تنبع من أفكاره الذاتية وتخيلاته الداخلية، فتقديرُهُ للأمور يخضع غالباً للأفكار الذّاتية لا الموضوعية، وينظر إلى الأوضاع من زوايا ذاتِهِ لا من زوايا الوقائع الخارجية الموضوعية، ولهذا يحس بأخطائه عندما تُحوَّلُ إحساساتُهُ وأفكارهُ إلى وقائع، ويجد الفرق بينَ ما يحسُ وبينَ ما هو واقعٌ، بينَ ما يُفكِّر فيه داخل نفسه وبينَ الحقائق الخارجية. وهذا ما يجعله يختار مهنةً اختياراً مؤقّتاً ومبدئياً إلى أن يحسّ في قرارة نفسهِ باستقرار آرائه وقدراته وتصوّراته عن ذاته وإلى ذاته وإلى أن يحسَّ بالتّلائم بينَ هذه التّصورات، والمدركات الذاتية من جهة وبينَ الحقائق الموضوعية الخارجية الواقعية من جهةٍ أخرى.

المرحلة الثالثة: مرحلة الاختبار الموضوعي الواقعي، وهي تبدأ بعد مرحلة المراهقة. ففيها يبدأ اهتمامُهُ بالاعتبارات الموضوعيّة الواقعية في اختياره لنوع الدراسة أو المهنة أو العمل وفي مواجهته للمشكلات ويستقر في آرائه واختياراته، وفيها يُحاول أيضاً أنْ يُلائم وأن يُوفِّقَ بينَ ما يحسّ في قرارة ذاته وبينَ ما يُدرك من الحقائق الخارجية، وبينَ ما يُواجه من وقائع في حياته الرّاهنة.

إذنْ في هذه المرحلة تتدخَّلُ في سلوكه العوامل الذّاتية والعوامل البيئية وما يُدركه من الحقائق وما يقنع به منها، ونهاية المرحلة السّابقة وبداية هذه المرحلة تُعتبر من أهمِّ مراحل القلق والاضطراب في حياة الفرد إذْ التوفيق بينَ هذه العوامل، واتّخاذ اتّجاهٍ معيّن ثابت واختيار طريقة للحياة الفكرية والعملية من أصعب الأمور كما أنّها تُعتبر أخطر مرحلةٍ من حيث كونها مُلْتَقى الطّرق التي يجتاز فيها المرء بين مسالك الحياة والاتجاهات المختلفة من جهةٍ، وبينَ الدّوافع الذّاتيّة والأهدافِ من جهةٍ أخرى. ولهذا فمن السّهل أن يتيه الشّابُّ، ومن السّهل أن ينحرف، ومن أجل ذلك يجب على الآباء أن يتفهمُوا أولادَهم ويُقدروا مراحل نموّهم ويساعدوهم فيها على الاتّجاه السّليم بالإقناع وحسن الإرشاد وأن يبرّرُوا ما يقع منهم أحياناً من بعض الأخطاء دون أن يوافقوا عليه، وأن يتحمّلُوه دون أن يتقبّلُوه.

وأخيراً أرى أن أُنبِّـهَ إلى أنّ هذه المراحل السّابقة سواء فيما يتعلق بالنّمو أو فيما يتعلّق بالاختيار هي مراحل لا توجد بينها حدود قاطعة وفواصل حاسمة بل فيها تداخل وفيها ارتباط ويختلف فيها الأفراد من حيث سرعة النّمو وبطؤها، ولهذا لا ينبغي أن يتخذ ما نقوله هنا أساليب روتينيّـة دائماً، وإنّما هو مجرّد فكرة عامّة ولا بدّ من معرفتها أيضاً كمعالم في طريق التّوجيه والإرشاد.

الأساس الثّاني: وجود الفرق الفرديّة بينَ الذكور والإناث من جهةٍ وبين أفراد الجنس الواحد من جهةٍ أخرى، ولهذا فعلى المربّي أن يُلاحظ هذه الفروق وأن تكون تربيته وتوجيهه مبنية عليها، هذه الفروق قد تكون في الإحساس، وقد تكون في القدرات العقلية، وقد تكون في الميول وغيرها، هذا وأهمُّ وسيلةٍ لنجاح التّربية هي التّـوفيق بينَ القـدرات والاستعدادات من جهة وبينَ الميول والاتجاهات من جهةٍ أخرى.

الأساس الثالث: إنّ الطّبيعة الإنسانية طبيعةٌ بيُولُوجيّة سيكولوجيّة معاً؛ أي هي مركبة من العنصر الماديّ والرّوحي، أو النفسي، والصّلة بينهما وثيقة للغاية، إلاّ أنّهما ليسَا شيئاً واحداً في الحقيقة ونفس الأمر، بل هما شيئان جوهريّان مختلفان، ولكلٍّ منهما تأثيره على الآخر، ولا نقول باستغنائهما عن بعضهما، وهما بالرغم من اختلافهما يتبادلان التّأثير والتأثر، فالأمراض البيولوجية مثلاً تؤثر في الحالة السيكولوجية والأمراض السيكولوجية قد تكون سبباً للأمراض البيولوجية وقد تعالج هذه بتلك، هذه النّقطة مهمة في عملية تربية الأطفال ذلك أن بعض الآباء قد يكون اتجاههم روحياً صرفاً فلا يهتمون بجانب التّربية الجسمية كعدم الاهتمام بالتغذية.

الأساس الرابع: إنّ الطبيعة الإنسانية ليست خيراً محضاً كما يقول البعض وليست شرًّا محضاً كما يقول البعض الآخر، بل هي شيء خالٍ من هذا وذاك وقابلة لأن تكون شريرة وأن تكون خيرة ومصداق ذلك قوله تعالى وهو أعلم بمن خلق: ﴿وَهَدَيْنَهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝﴾[1]، أي خلقنا فيه استعداداً للخير وللشرّ معاً، وقال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝﴾[2] وقال الرّسول ﷺ: «ما من مولودٍ إلاّ يولد على الفطرة فأبواه يُهوّداه ويُنصرانه ويمجّسانه، كما تُنتج البهيمةُ بهيمةً جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء؟»[3].

أي أن الإنسان يولد خالياً من أي اعتقاد ومن أيّ مسلك، فأبواه هما اللّذان يجعلانه يعتقد هذا أو ذاك ويسلك هذا المسلك الخير أو ذلك المسلك الشرير، وأدلّ من كلّ هذا قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝﴾[4].

إذن الخير والشّرّ يأتيان إلى الإنسان من التّربية، فالتّربية الخيّرة تطبع الإنسان بالطّابع الخيّر، والتّربية السّيئة تطبعه بالطابع الشّرير.

الأساس الخامس: مرونة الطّبيعة الإنسانيّة، فالإنسان قابل للتشكيل بأشكالٍ

---

(١) سورة: البلد، الآية: ١٠.
(٢) سورة: الشمس، الآيتان: ٧ ـ ٨.
(٣) التاج، ج ٥، ص ١٩٦.
(٤) سورة: الشمس، الآيتان: ٩ ـ ١٠.

مختلفة وتكوين عادات جديدة وإزالة عاداتٍ قديمة. وسهولة ذلك وصعوبته تختلف بحسب عمر الإنسان ومدى قابليته للتشكيل من جهة وبين أساليب التّغيير والتّبديل من جهة أخرى، كما تتحكم في استعداد الإنسان بعض العوامل الوراثية التي أشرنا إلى بعضها فيما سبق.

الأساس السّادس: تختلف أساليب التّربية والتّعليم ووسائلها بحسب مراحل النّموّ، فمثلاً الأساليب المناسبة لمرحلة الطّفولة والوسائل المستعملة لعملية التّعليم غير الأساليب والوسائل التي ينبغي أن تستعمل في مرحلة المراهقة إذْ أنّها ينبغي أن تكون حسيّة بقدر الإمكان في المرحلة الأولى، وأن تكون عقلية إدراكية في المرحلة الثّانية، وقد يقتضي الأمر الجمع بين الوسيلتين في بعض الموضوعات التّعليمية.

الأساس السّابع: التّربية الأخلاقيّة والاجتماعيّة ينبغي أن تتمّ في وسطٍ اجتماعي وفي وسطٍ بيئيّ، فيجب تهيئة بيئة للطفل، يطبق فيها المفاهيم الملقنة وأن يعيش في بيئة لا تخالف الأوضاع فيها لما يلقن من المفاهيم والآداب السّلوكية، فمثلاً إذا أردنا أن نُربّي أولادنا بالتّربية الأخلاقيّة، والآداب الاجتماعية السّليمة، لا ينبغي أن نتركهم يصاحبون الرّفقاء الأشرار الفاسدين العاطلين الفاشلين، وأنْ نجدَ لهم الرّفقاءَ الصّالحين وأن نجعلهم يطبقون ما نُلقّن لهم من المبادىء والمفاهيم الصّحيحة في الأوساط الاجتماعية المختلفة، كذلك ينبغي أن نهيّىء لهم بيئةً طاهرةً من المفاسد والمظاهر المفسدة حتى لا تتسرّب إلى نفوسهم الرّذائلُ والخبائثُ من حيث لا يشعرُون.

الأساس الثّامن: تحقيق مطالب النّموّ عند الأطفال، يجب أن تُحقِّقَ التّربيةُ مطالبَ النّموّ الإنسانيّة في طبيعة الإنسان، إذْ أن هناك مطالبُ النّموّ الجسميّ والنّموّ العقليّ والنّفسيّ والاجتماعيّ والخُلُقيّ، فلا بدّ أن تكون التّربية متكاملةً متناسقة بحيث تتكامل فيها هذه الجوانب وأن تتمّ كلها على مستوى واحد وأن يكون هناك أيضاً تناسق فيما بينهما فلا يتعارض هذا الجانب مع الجانب الآخر، وهكذا.

وسوف نحاول بقدر الإمكان توضيح بعض المبادىء الهامّة في تربية كل جانب من الجوانب السّابقة في أبحاث:

المبادىء الهامّة في تربية المراهق وتوجيهه.
ثم مبادىء التّربية العاطفيّة.
ثم مبادىء التّربية الاجتماعيّة.
ثم مبادىء التّربية الخُلُقيّة.
ثم مبادىء التّربية العقلية.
فانظرها من هذا الكتاب.

البحث الثّاني:

حقوق الآباء والأمهات من الكتاب والسّنّة

قال الله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾[1].

ومن أقوال رسول الله ﷺ:

١ ـ عن عبد اللَّه بن مسعود رضي الله عنه: «سألتُ النّبيّ ﷺ أيّ العملِ أحبُّ إلى الله تعالى؟ قالَ: الصّلاةُ على أوقاتِها، قلتُ: ثمّ أيُّ؟ قال: برُّ الوالدين، قلتُ: ثُمّ أيُّ؟ قال: الجهادُ في سبيلِ الله» متفق عليه.

٢ ـ أقبل رجُلٌ إلى النّبيّ ﷺ فقال: «أُبايُعكَ على الهجرةِ والجهادِ أبتغي الأجرَ من الله تعالى، فقال: هل لك من والديكَ أحدٌ حيٌّ؟ قال: نعم بل كلاهُما، قال: فابتغ الأجرَ من الله تعالى؟ قالَ: فارجعْ إلى والديكَ فأحْسِنْ صُحْبَتَهُمَا» متفق عليه.

٣ ـ وقال رسول الله ﷺ: «ألا أنبئكم بأكبرِ الكبائر؟ ـ ثلاثاً ـ قُلنا: بلى يا رسول الله! قال: الإشراك بالله، وعقوقُ الوالدين، وكانَ متكئاً فجلس فقال: ألاَ وقول الزور، وشهادة الزور، فما زالَ يُكرِّرُها حتّى قُلنا ليتهُ سكت» متفق عليه.

٤ ـ وقالَ رسول الله ﷺ: «مِنَ الكبائرِ شتمُ الرّجلِ والديه، قالوا: يا رسول الله وهل يشتمُ الرَّجُلُ والديه؟ قال: نعم، يسبُّ أبَا الرَّجُلِ فيسُبُّ أبَاهُ ويسبُّ أمَّهُ فيسبُّ أمّه» متفق عليه.

٥ ـ وقال رسول الله ﷺ: «إنّ الله تعالى حرَّمَ عليكمُ عقوق الأمّهات ومنعاً

---

(١) سورة: الإسراء، الآية: ٢٣ ـ ٢٤.

وهاتِ، وَوَأْدَ البَنَاتِ، وكرهَ لكُم قيلَ وقالَ وكثرةَ السّؤال وإضاعةَ المال» متفق عليه.

٦ ـ وسأل رجلٌ رسول الله ﷺ: مَنْ أحقُّ النّاسِ بحُسن الصّحبةِ؟ فقال الرّسول ﷺ: أمُّكَ ثُمَّ أمُّكَ ثُمَّ أمُّكَ ثُمَّ أبوك»[1].

٧ ـ وقال النبي الكريم عليه أفضل الصلاة والتسليم: «رغمَ أنف ثم رغمَ أنف ثم رغم أنف. مَنْ أدرك أبويهِ عندَ الكِبَرِ أحدَهما أو كلاهُما فلم يدخل الجنّة»[2].

٨ ـ وقال رسول الله ﷺ: «ثلاثةٌ حرّم الله تبارك وتعالى عليهمُ الجنّةَ: مُدْمِنُ الخمر، والعاقُّ لوالديه، والدَّيوث الذي يقرُّ الخبثَ في أهلِه»[3].

٩ ـ وَجاءَ رَجُلٌ إلى الرّسولِ ﷺ، فقال: يا رسولَ الله: هلْ بقيَ من برِّ أبوَيَّ شيءٌ أبرّهما به بعد موتهما؟ قال: نعم، الصلاةُ عليهما والاستغفارُ لهما وإنفاذُ عهدهما من بعدهما وصلةُ الرَّحِمِ التي لا توصلُ إلاّ بهما، وإكرام صديقهما»[4].

(١) أخرجاه في الصحيحين واللفظ لمسلم.

(٢) رواه مسلم.

(٣) رواه أحمد والنسائي والبزار والحاكم.

(٤) رواه أبو داود.

البحث الثالث:

حقوق الأبناء على الآباء من الكتاب والسّنّة

قال الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾[1].

وقال الله تعالى أيضاً: ﴿وَعَلَى ٱلۡمَوۡلُودِ لَهُۥ رِزۡقُهُنَّ وَكِسۡوَتُهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ﴾[2].

وقال تعالى أيضاً: ﴿۞وَٱلۡوَٰلِدَٰتُ يُرۡضِعۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ حَوۡلَيۡنِ كَامِلَيۡنِۖ لِمَنۡ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَۚ﴾[3].

ومن أقوال المصطفى الكريم عليه الصَّلاةُ والسَّلام:

١ ـ «ليسَ منّا مَنْ لم يرحمْ صغيرَنَا، ويعرفْ حقَّ كبيرنا»[4].

٢ ـ وروى أبو رافع قال: «رأيتُ رسول الله ﷺ أذَّنَ في أُذُنِ الحسنِ بن عليٍّ حينَ ولدتْهُ فاطمةُ رضي الله عنها»[5].

٣ ـ «ما نَحَلَ والدٌ ولداً أفضلَ من أدبٍ حسنٍ»[6].

٤ ـ وعن أبي موسى الأشعريِّ رضي الله عنه قال: «وُلد لي غُلامٌ فأتيتُ بهِ إلى النّبيِّ ﷺ فسَمَّاهُ إبراهيم وحنَّكهُ بتمرةٍ ودعَا لهُ بالبركة، ورفعه إليّ»[7].

٥ ـ «معَ الغُلامِ عقيقتُـهُ فأهرقُوا عنهُ دماً وأميطوا عنه الأذىٰ»[8].

---

(١) سورة: التحريم، الآية: ٦.
(٢) سورة: البقرة، الآية: ٢٣٣.
(٣) سورة: البقرة، الآية: ٢٣٣.
(٤) سنن الترمذي ١٥٦٦.
(٥) رواه أبو داود والترمذي.
(٦) ضعيف الجامع الصغير ٥٢٢٧.
(٧) رواه البخاري ومسلم.
(٨) رواه البخاري ومسلم.

٦ ـ «كُلُّ غلامٍ مُرتَـهَنٌ بعقيقتِـهِ تُذبحُ عنهُ يومَ سابعهِ، ويُسمىٰ فيه ويُحلَقُ رأسُهُ»[١].

٧ ـ «اجعلُوا مكانَ الدّمِ خَلُوقاً»[٢]، «الخَلُوقُ: يعني الطِّيب».

٨ ـ «إنكم تُدعَونَ يومَ القيامةِ بأسمائِكم وأسماءِ آبائكم فأحسِنُوا أسماءكم»[٣].

٩ ـ «أحبُّ الأسماء إلى الله عبد اللّٰه وعبد الرحمٰن»[٤].

١٠ ـ «الرّجلُ راعٍ في أهلهِ ومسؤولٌ عن رعيتهِ والمرأةُ راعيةٌ في بيت زوجها ومسؤولةٌ عن رعيتِها»[٥].

١١ ـ «كفى بالمرءِ إثماً أن يحبس عمّن يملكُ قوتَـهُ»[٦].

١٢ ـ «من كان له ثلاثُ بناتٍ أو ثلاثُ أخواتٍ أو بنتان أو أُختانِ فأدَّبهُنَّ وأحسنَ إليهنَّ وزوَّجهنَّ فلهُ الجنّة»[٧].

١٣ ـ «دينارٌ أنفقته في سبيل الله، ودينارٌ أنفقتَهُ في رقبةٍ، ودينارٌ تصدَّقتَ به على مسكينٍ، ودينارٌ أنفقته على أهلك أعظمُها أجراً الذي أنفقتَهُ على أهلك»[٨].

١٤ ـ وجاء أعرابيٌّ إلى النّبيّ ﷺ فقال: أتقبّلونَ صبيانكم فما نُقبِّلُهم؟ فقال النّبيّ ﷺ: «أوَأمْلِكُ لكَ أنْ نزعَ الله من قلبك الرحمة؟»[٩].

١٥ ـ وعن النّعمان بن بشير رضي الله عنهما: أنَّ أباه أتى بهِ رسول الله ﷺ فقال:

---

(١) رواه أبو داود والترمذي والنسائي.
(٢) رواه ابن حبّان.
(٣) رواه أبو داود، وإسناده ضعيف، ضعيف الجامع الصغير.
(٤) رواه مسلم.
(٥) رواه البخاري ومسلم.
(٦) رواه مسلم.
(٧) رواه الترمذي وأبو داود.
(٨) رواه مسلم.
(٩) رواه البخاري في الأدب المفرد.

إنّي نحلتُ ابني هذا غلاماً كان لي ـ أي أعطيتُه ـ فقال رسول الله ﷺ: أكُلَّ وَلَدِكَ نحلته مثل هذا؟ فقال: لا، فقال رسول الله ﷺ: فأرْجِعْهُ»[1].

١٦ ـ «ساووا بينَ أولادِكم في العَطيّةِ»[2].

١٧ ـ «مِنْ حقِّ الولدِ على الوالدِ أن يُحسنَ أدبهُ ويحسنَ اسمه»[3].

١٨ ـ «مُروا أولادكم بالصَّلاةِ وهم أبناءُ سبعٍ واضْربُوهم عليها وهم أبناءُ عشرٍ وفرقوا بينهم في المضاجع»[4].

١٩ ـ «أدِّبوا أولادكم على ثلاثِ خِصَالٍ: حُبِّ نبيكم وحُبِّ آلِ بيته وتلاوةِ القرآنِ»[5].

٢٠ ـ «علِّموا أولادكم السِّباحة والرِّماية وركوبَ الخيل»[6].

٢١ ـ «رحمَ الله والداً أعانَ ولدَهُ على برِّه»[7].

وفي ختام هذه الطائفةِ من الآياتِ الكريمة والأحاديث الشريفة أقول: إنَّ من يطّلعُ على توصياتِ علمِ النّفس التّربويِّ الحديث يجدُ أنَّها تختلف عن كثيرٍ ممّا نادى به الإسلامُ منذُ زمنٍ بعيدٍ إلاّ في ظواهر الأمورِ، فالحمد لله على نعمةِ الإسلام!.

---

(١) رواه البخاري ومسلم.
(٢) رواه الطبراني، وسنده ضعيف.
(٣) رواه البيهقي.
(٤) رواه الحاكم وأبو داود.
(٥) رواه الطبراني، ضعيف الجامع الصغير برقم ٢٥١.
(٦) رواه النسائي وابن ماجة وابن حبّان، ضعيف الجامع الصغير برقم ٣٧٢٧.
(٧) رواه ابن حبّان، ضعيف الجامع/٣١١٨.

البحث الرابع:

حقوق الأولاد على الأبوين[1]

النّسل هدفٌ أصيل من أهداف الحياة الزّوجية. وهو رغبةٌ لها جذورُها في نفس الرّجل وفي نفس المرأة على السواء فكل إنسان يرغبُ في بقاء اسمه ودوام أثره.

والقرآن يجعل المباشرة معلّلة بقصد النّسل، إذْ هو أثرها اللاّزم في الغالب: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾[2]. والحرث هو موضع البذر والإنبات.

وقد عدَّ الإسلامُ النّسلَ من النّعم التي تُبهج الحياة، وتحقق السّعادة: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾[3].

هو نعمة تستحق الحمد ومنّة تُوجب التّقدير، ولذا توعّد القرآن من أعطيها فجحد ورزقها فلم يشكر.. ﴿ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۝ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ۝ وَبَنِينَ شُهُودًا ۝﴾[4].

ومهما قاسى النّاس المتاعبَ والمصاعبَ في كفالة الأولاد وتعهدهم، فلن تجفّ في نفوسهم الرغبةُ نحوهم والحنينُ إليهم!.

لهذا اهتم الإسلامُ برعاية النّسل وإعداد العدّة له، كي ينشأ سليماً من الآفات بعيداً عن المعاطب.

ويبدأ الإعداد لمستقبل الذرية باختيار الأم الصالحة، الطاهرة البيئة المستقيمة السلوك.

---

(١) الأسرة في الإسلام ـ عرض عام لنظام الأسرة في ضوء الكتاب والسنة: للدكتور مصطفى عبد الواحد/ ٧٣ ـ ٧٦، ط مكتبة المتنبي ـ القاهرة.

(٢) سورة: البقرة، الآية: ٢٢٣.

(٣) سورة: الكهف، الآية: ٤٦.

(٤) سورة: المدثر، الآيات: ١١ ـ ١٣.

فهذا إحسان مقصود إلى الأبناء، يضمن زكاء النشأة وسلامة الوجهة، كما قال الشاعر القديم:

وأوّلُ إحسـانـي إليكـم تخيّـري لمـا جـدةَ الأعـراق بـادٍ عفـافهـا

وهو يوافق ما جاء في الأثر: تخيّروا لنطفكُم فإنّ العرقَ دسّاس فإذا خرج الولد إلى الوجود، فينبغي إكرامه والاحتفاء به، بقدر ما يسمح حال الوالدين..

ومن مظاهر ذلك إحسان اسمه، كي لا يتأذى به إن كان كريهاً. وهذا من حقوق الولد على والده. وكذلك يسنّ أن يظهر الأب شكره لتلك النّعمة، بطعام يصنعه للمحتاجين يوم السّابع من مولده بما يقدرُ عليه. وهذا استقبال حسن وطالع كريم.

ثم يُوجب الإسلامُ نفقة الأولاد على الوالد ما داموا عاجزين عن العمل والكسب.

قال رسول الله: «وابدأْ بمَنْ تعولُ... يقولُ الولدُ أطعمني إلى مَنْ تدعني؟!»[1].

وتضييع الأولاد وترك الإنفاق عليهم وإهمال رعايتهم من كبائر الذّنوب التي قال النّبيّ ﷺ: «كفَى بالمَرْءِ إثماً أنْ يُضيِّعَ مَنْ يَقُوتُ»[2].

وبعد الرعاية المادية تأتي الرّعاية المعنوية. فللأولاد حقُّ الحبِّ والرحمة. وذلك وإن كان مما تدعو إليه الفطرة وتحمل عليه، إلاّ أن ما قد يُصيب الطّبائع من شذوذ وما يطرأ على الفطرة من مسخ وتشويه، اقتضى الإيقاظ والتّنبيه. قدِم ناسٌ من العرب على رسول الله ﷺ فسألوا: تقبّلون صبيانكم؟ فقالوا: نعم. فقالوا: لكنّا والله ما نُقبِّلُ!. فقال النّبيُّ: أوَ أَمْلِكُ إنْ كان الله نزعَ من قلوبِكُمُ الرّحمةَ؟!»[3].

إنّ الإسلام ينكر الجفاءَ والغِلظةَ مع الأولاد، ويفترض أن تعمهم الرّحمة ويحيطهم الحنوُّ والشفقة، والرّعاية والتّوجيه السليم حق ضروري للأبناء على الآباء في كل طور من أطوار النّشأة.

---

(١) رواه البخاري.
(٢) رواه أبو داود وأحمد والحاكم.
(٣) متفق عليه.

ففي الطّفولة يجب بَذْر بذور الدّين الصّحيح وتأكيد أساسه في نفوس الأطفال بقدر ما يطيقون. ولا بدّ من التّدريب على شعائر الدّين وإعطاء القدوة في ذلك.

يقول الرّسول ﷺ: «مُروا أبناءكم بالصّلاة وهُمْ أبناءُ سبعِ سنين، واضْرِبُوهم عليها وهُمْ أبناءُ عشرِ سنين، وفرِّقُوا بينَهُمْ في المضاجع»[1].

وفي كل مرحلة ينبغي بذل الرّعاية الواجبة لها، بما يخرج الفرد السويّ المكتمل، الذي تتضح فيه معالم الفطرة وخصائص الإنسانية ومثل الدين.

وذلك في مجموعة هو الأدب الذي فرض الإسلام على كل والد أن يأخذ به ولده، كما وردَ في الأثر: «مِنْ حقّ الولدِ على الوالد أن يُحسن أَدَبَهُ ويُحْسِنَ اسمَهُ» وفيه أيضاً: «أكْرِمُوا أولادكم وأحسِنُوا أدبَهم».

وفي التّعليم يتعيّن قدرٌ ضروري للفتى والفتاة على السّواء، وهو معرفة ضروريات الدِّين، عقيدته وأركانه وآدابه وشعائره، وحلاله وحرامه. فذلك لا ينبغي أن يجهله النّاشيء، مهما كان اتجاهه في فنون العلم أو أوجه العمل.

فإذا تبينتِ الرّغبات وجّه الأبُ ولدَهُ إلى ما اختاره واستعدّ له، بما لا يخرج عن آداب الشرع وحاجات الحياة.

أمّا الفتاة فالأمثل لها أن تتهيأ لما ترشحها له فطرتها من التّزوّد بثقافة الأمومة ورعاية البيت، والتّخصص فيما يُعينها على أداء رسالتها والنّهوض بعبئها.

---

(١) رواه الطبراني، صحيح الجامع ٥٨٦٨.

البحث الخامس:

حقوق الأبوين على الأولاد(١)

لم ينسَ الإسلامُ أن يُبيّن حقوقَ الوالدين، وأن يُشرِّعَ منهاجَ معاملتهم، فهما أصلُ الأسرة اللذان تحمّلا العبء وواجَها المصاعب في سبيل رعاية الأبناء وتوفير الأمن والسعادة لهم.

فجعل لهما حق البر واللّطف والرعاية والرحمة، وأكّد هذا الحق حيث قرنه بحق الله، له ما له من الإجلال والوفاء. ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا﴾(٢).

وخصَّ حال الشّيخوخة بمزيدٍ من الحُنوِّ والتّرفّق والإكرام والتوقير فهي المرحلة التي يجنيان فيها ثمار الكدح، ويتوّجان بتاج الكفاح ويجزيان جزاء الجهاد والدأب. ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾(٣).

وتلك مشاعر الفطرة نحو من لم يشُب إحسانهما غرض ولم يبغها بجهادهما أجراً، بل بذلا الرعاية الموصولة والحنان الغامر قربةً وفطرة. فلا أقل من التقدير والعرفان، حفظاً على الوفاء، وصيانة للإنسانية من آفات الجحود والنكران.

لقد كان حق الوالدين من العهود الخالدة التي أخذ الله بها الميثاق وكرر بها الوصاة، ولعن من أجلها النّاكثين الغادرين.

---

(١) الأسرة في الإسلام ـ عرض عام لنظام الأسرة في ضوء الكتاب والسنة: للدكتور مصطفى عبد الواحد/ ٨١ ـ ٨٥، ط مكتبة المتنبي ـ القاهرة.

(٢) سورة: الإسراء، الآية: ٢٣.

(٣) سورة: الإسراء، الآية: ٢٣ ـ ٢٤.

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾[١]. وهذا يعظم حرمة الأبوين ويهول إزعاجهما والعدوان عليهما. ولذا كان عقوق الوالدين وجحد إحسانهما من كبائر الذنوب التي لا تنبغي لمسلم، إذْ هو قرين الشرك بالله.

قال النبيّ ﷺ: «ألا أنبئكُمْ بأكبرِ الكبائر؟ الشركُ بالله، وعقوقُ الوالدين...»[٢].

والفشلُ في الظفر برضا الوالدين من دلائل الخسران والبوار، إذ أن رضا الوالدين من رضا الله، وسخطهما من سخطه، وحسبك بهذا قدسيةً وجلالاً.

وفي الحديث: «رغمَ أنفُ من أدركَ والديه عند الكِبر أو أحدهما ثم لم يدخل الجنة»[٣]. ما أجلّ ذلك!.

إنّ رضاهما طريق للجنة، فإذا حازه الولد فقد بلغ! فليعرف الأبناء الطريق إلى رضوان الله!.

وقد اختص الإسلام الأم بتأكيد الوصاة، حتى لا يستهان بحقها وهي ذات الفضل والتحمل، التي لا يقابل جهدها بشكر ولا يقدر بجزاء. ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ ۝١٤ ﴾[٤].

إن الولد جزءٌ من الأم، حملتْهُ في الأحشاء وغذّته من الغذاء، فلما خرج إلى الدنيا حضنته وسهرت عليه وربطت حياتها به، تتحمل الأثقال وتنهض بالأحمال عن رضا وفرحة.

فهل يسوغ أن يذهل الإنسان عن تلك المضحية من أجله المنهكة في سبيله. وهل يهون عليه كفاحها وضناها..؟! لذا نبّه القرآن على تلك المرحلة التي لا يعيها الإنسان، وإن كانت أهمّ مراحل عمره طرًّا وأخطرها، ولفته إلى ما فيها من بذل وفداء، حتى يضع ذلك أمام عينيه وينظر إلى أمه من خلاله.

---

(١) سورة: البقرة، الآية: ٨٣.
(٢) رواه البخاري.
(٣) رواه مسلم والترمذي.
(٤) سورة: لقمان، الآية: ١٤.

لقد جاء رجل إلى النّبيّ ﷺ يسأله: يا رسولَ الله من أحقُّ النّاس بحسن صحابتي؟! قال: أمُّكَ. قال: ثم مَنْ؟ قال: أمُّكَ. قال: ثم مَنْ؟ قال: أمُّكَ. قال: ثم مَنْ؟ قال: أبوك»[١]. ذلك لأنّ الإنسان يرى جهد أبيه في سبيله ورعايته له وإنفاقه عليه، ولكنّه لا يرى حمل أمّهِ له وقيامها عليه في مهده، فاحتاجتِ الأمُّ إلى تأكيد الوصية وتثبيت الحقّ لها في الحب والتوقير والإكرام.

كما جعل الإسلام إرضاء الأم وإيناسها ورحمتها طريقاً إلى الجنّة.. «الجنّةُ تحت أقدام الأُمّهات»[٢].

والنّاس بخير ما عرفوا حق الأمّهات!. فإن ربّهم يكره أن تنطمس بصائرهم وتجحد قلوبهم.. وذلك لا يستقيم مع الإيمان ولا يتفق مع عهده.

عن المغيرة عن النّبيّ ﷺ قال: «إنّ الله حرّمَ عليكم عُقُوقَ الأمّهات..»[٣]. والزمن الذي يفشو فيه عقوق الأمهات والقسوة عليهن والغفلة عن حقوقهنّ هو زمن الفناء، الذي يجفّ فيه الخير ويغيض الإيمان.

فقد ذكر الرّسول ﷺ من علامات الساعة: «أن تلدَ الأمَةُ ربّتَها» أي تلد المرأة من يعاملها معاملة السيّد لجاريته!. وهذا تحذير من الاستطالة وإرهاب من العدوان. لقد بلغ الإسلام في تقرير حق الوالدين قدراً رفيعاً من الرحمة والكرامة والوفاء.

ومن ذلك إيجاب الإحسان إليهما ولو مشركين، بل ولو بلغَا مرحلة الدعوة إلى الكفر وحمل الابن عليه.

فلا يمنع كفرهما من الإحسان إليهما، ولا يحمل على مضارتهما وجحد حقهما، يقول الله تعالى: ﴿ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ ﴾[٤].

---

(١) رواه البخاري.
(٢) رواه النسائي، وسنده ضعيف.
(٣) رواه البخاري.
(٤) سورة: لقمان، الآية: ١٥.

وسألت الرّسول ﷺ أسماءُ بنت أبي بكر: إنّ أمي زارتني وهي راغبة، أفأصلها؟ «وكانت أمها مشركةً». فقال: «صِلِي أمَّكِ»[١].

وهذا هَدْي رائعٌ، يدلُّ على مدَى رعاية الإسلام للأبوّة والأُمُومة، وحرصه على برّهما وشكرهما، وهو أيضاً دليل على إنسانية هذا الدِّين وتأكيده لعلائق البر والوفاء والخير والعطاء!!!.

(١) رواه البخاري.

البحث السادس:

تنظيم العلاقة الأسريّة مع الجيران

إنّ الإسلام ربطَ الفرد بالأسرة وربط الأسرة بالمجتمع لتكوين وحدة اجتماعية، وقد نعلم كيفَ ربطَ الفردَ بالبيت، ونذكر هنا كيف ربط البيت بالمجتمع عن طريق إقامة التّرابط والعلاقات بينَ البُيوت المتجاورة. وقد ربط الإسلام بينَ البيوت كما ربطَ بينَ الأفراد، وكانت الأُسس التي أقام عليها هذه العلاقة هي الأُسس التي أقام عليها علاقة كل مسلم بأخيه المسلم. وأهمّ هذه الأُسس هي:

أولاً: عدم التّجسس على البيوت المجاورة والبعيدة:

هذه النّقطة مهمّةٌ، ذلك أنّ هناك جيراناً يحاولون أن يعرفوا كلَّ شيءٍ حتى خصوصيات الأشياء السّريّة لدَى الجيران، ثم إذا كشفوا شيئاً من ذلك يُعلنونه فيما بينَ النّاس، وكأنهم كشفوا شيئاً هامًّا يكافأون عليه، أو كأنّهم اخترعوا شيئاً يفتخرون به؟!.

هذه الأمور تُثير البغضاءَ والفتنَ والخصُومات بينَ الجيران، ولهذا منعَ الله التّجسُّسَ فقال تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾[1].

كذلك منع الإسلامُ الاطّلاعَ على عورات الجيران، والنّظَرَ إلى البيوت ليطّلِعُوا على ما حرَّمَ الله الاطلاعَ عليه، وهذا من الخصال الخبيثة. ولهذا قال الرسولُ ﷺ: «مَنِ اطّلَعَ في بيتِ قومٍ بغيرِ إذنِهِم، فقدْ حلَّ لهم أنْ يفقؤوا عينَهُ» أي لا عقاب عليه[2].

---

(١) سورة: الحجرات، الآية: ١٢.

(٢) صحيح مسلم باب تحريم النّظر إلى بيتِ غيره برقم ٢١٥٨.

ثانياً: عدم إيذاء الجيران بأي شيء، كسدّ طرقهم أو إلقاء القُمامة أمام دورهم، أو فتح المذياع بصوتٍ مرتفع:

لقد منعَ الإسلامُ إيذاء الجيران حتى بريح القِدْرِ أو بألوان الأكلات الشّهية. فعليه أن يسترها عن أعينهم، وإلاّ فالواجب أن يعطيَهم منها، ولهذا ينبغي على المسلم ألاّ يترك أولاده يأكلون طعامهم خارج البيت، حتى لا تقع عيونُ جيرانهم على طعامهم، فتتُوقُ نفوسُهُم إليه، ثم لا يقدرون الحصولَ عليه، فيشعرون بالحرمان ويحسدونهم على ما آتاهم الله من فضله. لهذا قال الرّسول الكريم ﷺ: «مَنْ كانَ يُؤمنُ بالله واليوم الآخر فلا يؤذِ جارَهُ»[1].

ثالثاً: مشاركة الجيران مشاعرهم في السّرّاء والضرّاء:

إن مثل هذه المشاركة هي التي تضفي على العلاقات المودة والمحبة والمشاعر الإنسانية النبيلة ولهذا فعليهم أن يشاركوهم في أفراحهم وأتراحهم. فعليهم أن يهنئوهم إذا أصابهم الخير، وأن يعزُّوهم إذا ألمّتْ بهم الملمّات، وأن يعودوهم إذا مرضوا وأن يطعموهم إذا جاعوا، ولهذا كله كان يُوصي الرّسول ﷺ بالجار دائماً، وكان يقول: «ما زالَ جبريلُ يُوصِيني بالجار حتى ظننتُ أنّه سيُورّثُه»[2]. وقال أيضاً: «ليسَ المؤمنُ بالذي يشبع وجارُهُ جائع إلى جنبهِ»[3].

رابعاً: التّهادي والتّزاور واستقبالهم بالبشاشة والتّرحيب:

فالتّهادي يُورث المحبّة، كما قال الرّسولُ ﷺ: «تهادُوا تحابُّوا»[4] ولهذا دعا إلى عدم ازدراء الهدية مهما كانت صغيرة، لأنّ ازدراء الهدية يُورث النّقمة ويفسد العلاقات، لهذا وذاك كان الرّسول ﷺ يقول: «لو أُهْدِيَ لي فِرْسِنُ شاةٍ لقبلتُ»[5].

---

(١) اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق فيه الشيخان ١/ ١٠ كتاب الإيمان.
(٢) صحيح مسلم بشرح النووي ١٦/ ١٧٦.
(٣) صحيح الجامع الصغير ٢/ ٩٤٩.
(٤) صحيح الجامع الصغير ١/ ٥٧٧.
(٥) صحيح البخاري ٣/ ١٩٠ كتاب الهبة.

والتزاور سنّة لأنّهم قدْ يرون حاجةً يقضونها، أو عجزاً عن شيء يساعدون فيه. وكذلك استقبالهم بالبشاشة والترحيب له تأثيرٌ في الأُلفة وإدخال السّرور في نفوسهم، ولهذا قال الرسول ﷺ: «تبسُّمُكَ في وجهِ أخيكَ لكَ صَدَقةٌ»[١].

خامساً: التعاون على البرّ وإزالة المنكر:

يجب أن يعاون الجارُ جارَه إذا طلبَ منه العون، لأنّ ذلك من حقّه، كذلك يجب أن يتعاون المتجاورون على الأمر بالمعروف وتحقيق البر والتقوى، وذلك وفقاً لقوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ﴾[٢]. هذا التّعاون يجب أن يتم أولاً في إطار أفراد الأسرة، ثم في إطار الجيران وأخيراً في إطار المجتمع كله.

من هذا كله نرى مدى اهتمام الإسلام في تنظيم المجتمع الأسريّ من جميع النّواحي لأنّه أساس المجتمع الكبير. ومن هنا نرى الشّرع الشريف يُشير إلى تلك الأمور مجتمعة في هذا الأثر عن حقوق الجار فقدْ ورَدَ: «إنِ استعانَ بكَ أعنتَهُ، وإنِ استنصَرَكَ نصرتَهُ، وإنِ استقرَضَكَ أقرَضْتَهُ، وإنِ افتقرَ عدْتَ عليه، وإن مرض عُدته، وإن مات تبعتَ جنازتَهُ، وإنْ أصابه خيرٌ هنّأتَهُ، وإن أصابتْهُ مصيبةٌ عزّيتَهُ، ولا تستعل عليه بالبناء فتحجب عنه الريح إلا بإذنه، ولا تؤذه، وإذا اشتريت فاكهة فأهدِ له، فإنْ لم تفعلْ فأدخلها سرًّا، ولا يخرج بها ولدُكَ ليغيظَ بها ولدَهُ، ولا تؤذه بقتار قدرِكَ إلاّ أن تغرف له منها»[٣].

بل أكثر من هذا فالإسلام قد ربط إكرام الجار بالإيمان بالله تعالى فقال الرّسول ﷺ: «مَنْ كان يُؤمنُ بالله واليومِ الآخِرِ فليُكرِمْ جارَهُ»[٤].

ولننظر إلى هذه المبادىء الإسلامية المتعلّقة بالجيران لو أنّها طبقت في الحياة العملية هل يبقى إنسان جائع بين النّاس. وهل توجد هناك المشكلات والخصومات

---

(١) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، ٦/ ٨٩.
(٢) سورة: المائدة، الآية: ٢.
(٣) إحياء علوم الدين ٢/ ٢١٣.
(٤) صحيح البخاري ج ٨ ـ كتاب الأدب، ص ١٣.

التي نراها كل يوم فيما بين الجيران؟ وهل يبقى عاجز عن الشيء؟ بالإضافة إلى هذا، كم تكون هناك محبّة ومودة أو ألفة متبادلة بينهم وبالتّالي بينَ أفراد المجتمع كلّه. ثم كم يكون هناك هناء ووئام بينَ الأُسَرِ!؟ إنّ بهجة الحياة لا تكتمل ما لم تكن هناك معاشرة جميلة بين النّاس الذين يربطهم جميعاً المكان والزمان بصفة مستمرة. وكل ذلك من وسائل سعادة بناء البيت الإسلامي السّعيد، وهل يُمكن أن يشعر بالبهجة والسّرور إذا بنى علاقتَهُ مع جيرانه على العداوة والبغضاء والنّفور والكراهية؟ ولا يأمنون شرَّهُ ولا يأمنُ هو الآخر شرَّ جيرانِه، ولهذا فقد حذّر الرّسول ﷺ من عاقبة مثل هذه المعاملة السّيّئة فقال ﷺ: «لا يدخلُ الجنّةَ مَنْ لا يأمَنُ جارُهُ بوائقَهُ»[1].

والآن ربّما اتّضَحَ من الموضوعات السابقة أنّ الهدف من تكوين البيت الإسلامي ليس هدفاً فردياً فحسب بل هو هدف فردي واجتماعي معاً. إذنْ فإنّ مجتمع البيت ليس مستقلاً ذاتياً في جميع شؤونه ومخصصاته بل هو مجتمع صغير داخل مجتمعٍ كبير مرتبط به في نواحٍ كثيرة ولهذا كانت النّظرةُ له بأنّه كخليّة في جسم كائن حيّ نظرةً دقيقةً عن هذه العلاقة الوثيقة بينهما.

ولو أنّنا تأملنا في روح الإسلام في تكوين المجتمع لوجَدْنَا أنّها أدقّ ما يكون فقد بدأ الإسلام في تكوين المجتمع وفي بناء الجماعة من تكوين الفرد وبنائه، فكوَّنَ شخصيةً مسلمةً متكاملةً، تكتملُ فيها قوةُ الإيمان مع قوة الإرادة مع العلم والأخلاق.

وبالرغم من قوة هذه الشخصية المسلمة فهي ليست مخيفة متكبرة جبارة متعدية، بل متواضعةٌ هيّنة ليّنة هاشّةٌ باشّةٌ خاضعة للحق أينما كان وخادمة للإنسانية حيث تكون، تقف أمام الظلم والطّغيان كالطّود، وتقف أمام الحق والعدل كالعبد المسالم الخاضع.

ثم بعد بناء الشخصية وضع أساس المجتمع السليم بالزّواج بوضع أسس متينة للزّواج ثم رسم العلاقات بينَ الزّوجين من جهة، وبينهما وبين أبنائهما من جهة أخرى. ونظم الأسرة كوحدة اجتماعية ثم ربط المجتمع الصغير مجتمع البيت بالمجتمع الكبير.

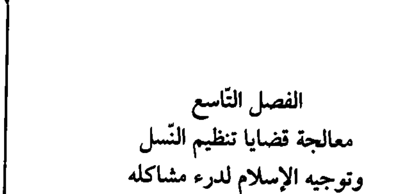
---

(١) التاج الجامع للأصول في أحاديث الرّسول ٥/ ١٥، وهو حديث صحيح.

وبذلك كوّن مجتمعاً له شخصية وربط بين شخصية الفرد وبينَ شخصية الأسرة وبين شخصية المجتمع كله، وقد جمعتْ بينَها جميعاً شخصية إسلامية واحدة.

وهكذا نجد هناك وحدةً بينَ اتّجاه الفرد واتجاه الأسرة واتّجاه المجتمع، وحدة الاتّجاه في النظرة إلى الكون والنّظرة إلى الحياة، وأسلوب الحياة وأسلوب التعامل في المجتمع، ووحدة الهدف والغاية.

صورة مختلفة ولكن الجوهر والروح واحدٌ.



الفصل التّاسع
معالجة قضايا تنظيم النّسل
وتوجيه الإسلام لدرء مشاكله

البحث الأوّل: تحديد النّسل بين العلم والإسلام.

البحث الثّاني: تنظيم النّسل وتحديده وحكم الشّرع فيهما.

البحث الثّالث: التّوجيه الإسلاميّ لمشكلة التّقليل من النّسل.

البحث الأول:

تحديد النّسل بين العلم والإسلام(1)

لقد أثارَ التّزايدُ السّكانيّ الهائل مخاوف الاقتصاديين والمفكّرين على مستقبل الأجيال المتعاقبة، وأثار قلقهم حول إمكانية تأمين الغذاء والسّكن والحياة الكريمة لهم، فانبعثتْ منهم فكرةٌ تدعُو إلى تحديد النّسل، ليبقَى عددُ السّكان متلائماً مع الإمكانيّات.

ولقد عرفت قديماً محاولات الإنسان لتحديد نسله، باتّباع بعض الطّرق المانعة لحصول الحمل أو المجهضة له، ونفذت تلك الطرق لغايات مختلفة من قبل فريق من النّاس.

أمّا الدّعوة إلى تحديد النّسل على نطاق واسع في مجتمعٍ أو دولةٍ ما، فقدْ بدأ في أوروبا في أواخر القرن الثّامن عشر الميلادي، وكان أول من دعا إليها في إنكلترا القسيس الاقتصادي «مالتوس» الذي نشر مقالاً سنة ١٧٩٨ م، تحت عنوان «تزايد السّكان وتأثيره في تقدم المجتمع في المستقبل». وكان «مالتوس» يرمي إلى منع الحمل بالوسائل الأخلاقية مثل الرّهبنة وتأخير الزّواج، وذلك حتى لا يزداد السّكان بشكل يُؤثّر على معدّل الدّخل القومي للفرد. فكانت هذه النظرة من هذا القسيس فارغة من معنى التّديّن. ثم قام كُتّاب من أوروبا وأمريكا بالدّعوة إلى تحديد النّسل لأغراض اقتصادية، حتى عمّتِ الدّعوة أرجاء العالم، فدعا إليها أُناسٌ من البلاد العربية والإسلامية أيضاً، حتى أضحت دعوةً عالميةً.

ولقد انشرح كثير من النّاس لفكرة تحديد النّسل، منهم لِظَرْفِهِ ووضعِهِ الخاصّين، ومنهم لِما تحمله من مظاهر اليُسر وتخفيف الأعباء والتّكاليف عن الزّوجين، وإمكانيّة رعاية النّسل القليل بشكل أفضل.

---

(1) الطب النبوي والعلم الحديث: للدكتور محمود ناظم النسيمي ج ٢/ ٥٥ ـ ٦٠ و٧٢ ـ ٧٥، ط مؤسسة الرسالة ـ بيروت.

إنّ تحديد النّسل بشكل إفرادي ولظروف اضطرارية أو محرجة خاصة بأصحابها، يدعى تنظيم النّسل أو تنظيم الأسرة، ولا يعني رقماً معيّناً من الذّرّيّة لأسر المجتمع، مهما كانت إمكانيات الأسرة المادّيّة. وسأفرد له بحثاً خاصاً مُبيّناً فيه الدّوافع المقبولة طباً وشرعاً. أمّا الدّوافع المرفوضة فسأبيّنها في هذا البحث، مع بيان مثالب حركة تحديد النّسل.

إنّ ممّا يدعو إلى الغرابة من هذه الدّعوة لتحديد النّسل أنّها تناست قُدْرَةَ الخالق العظيم على رزق خلقه مهما تكاثَرُوا، فالدّعوةُ قائمةٌ على جُحُودِ قدرةِ الرّزاقِ الذي تكفّلَ برزق خلقهِ بعدما أمرهم بالسّعي له.

الإنجاب هدف رئيسي في الفطرة البشرية:

يهدف وجود الغريزة الجنسيّة إلى غاية التّناسل وبقاء النّوع البشري. أمّا الرّغبة الجنسيّة المنبعثة عن تلك الغريزة وكذلك اللّذة المرافقة لإروائها فإنّهما وسيلتان مشوّقتان على تحقيق المقصود من وضع تلك الغريزة. ولا بدّ للتّناسل من ضوابط تقي المجتمع من الفوضى الجنسيّة ومساوئها الخُلُقيّة، وتحدد المسؤولين عن حضانة الذّرّيّة، ورعايتها وتربيتها، ولذا شرع الزّواج. فللزّواج هدفان رئيسيان: أوّلهما إرواءُ الميل الجنسي بطريقةٍ مشروعة، وثانيهما هو الذّرّيّة التي تُحقّق بقاءَ النّوع الإنساني، واستمرارَ الأسرة، ونماءَ الأمّة وبقاءَها. وأيّاً من الهدفين قصدَ كلٌّ من الزّوجين في المناسبة الجنسيّة فإن له أجراً، أي سواء نوى إعفافَ نفسهِ وزوجهِ بضبط الغريزة الجنسية في مجال الحلال، أو ابتغى النّسل الصّالح الذي يخلفه ويزيد في تعداد أمّة الإسلام. ففي نيّة إرواءِ وضبطِ الغريزة الجنسيّة في مجال الحلال قال الرسولُ عليه الصّلاة والسّلام: «وفي بُضْعِ أحدِكم صدقةٌ، قالوا: يا رسولَ الله، أيأتي أحدُنا شهوتَهُ ويكونُ له فيها أجرٌ؟ قال: أرأيتُمْ لو وضَعَها ـ أي سفاحاً ـ في حرام أكان عليه وزرٌ؟ فكذلك إذا وضَعَها في الحلال كان له أجرٌ»[١].

ولقد نبّهَ الله تعالى المؤمنين إلى غاية الإنجاب عند إرواء الميل الجنسي، وذلك

---

(١) صحيح مسلم برقم ١٠٠٦.

في الآية التي أباح فيها المعاشرةَ الزّوجية ليلة الصّيام، فقال سبحانه: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾[١] الآية. أي اقصدوا ما قدَّرَهُ من الولد بسبب المُنَاسبةِ.

قال القرطبي: قال ابنُ عباس ومجاهدُ والحكمُ وابنُ عُيينة وعكرمةُ والحسنُ والسّدّي والرّبيعُ والضّحاك: معناه وابتغُوا الولَدَ.

وأشار الله تعالى إلى غاية التناسل أيضاً في قوله: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَـٰقُوهُ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾﴾[٢] ففي قوله: ﴿حَرْثٌ لَّكُمْ﴾ تشبيه، فالنّساء مزرعٌ ومنبتٌ للولد، وفي تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ﴾ أقوال؛ قال القرطبي: أي قدّمُوا ما ينفعكم غداً، فحذف المفعول، وقد صرّح به في قوله تعالى: وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله، فالمعنى قدِّمُوا لأنفسكم الطّاعة والعملَ الصّالح، وقيل ابتغاء الولد والنّسل، لأن الولد خير الدنيا والآخرة، فقد يكون شفيعاً وجنّة. ثم ذكر القرطبي أقوالاً أخرى. أمّا الرّازي فقدْ قال في تفسير ﴿وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ﴾: أي لا تكونُوا في قيد قضاء الشهوة، بل كُونُوا في قيد تقديم الطّاعة.

ولقد مدح الله تعالى أولياءه المؤمنين بسؤال الزّوجة والذّرّيّة الصّالحة فقال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّـٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾﴾[٣].

وحكم الإسلام بأن الولد الصّالح سببٌ من أسباب تجدّد الثّواب واستمراره للأبوين بعد وفاتهما، فقال الرّسول عليه السّلام: «إذا ماتَ الإنسانُ انقطع عملُهُ إلا من ثلاثٍ: إلا من صدقةٍ جارية أو علمٍ يُنتفعُ بهِ، أو وَلَدٍ صَالحٍ يَدْعُو لهُ»[٤].

(١) سورة: البقرة، الآية: ١٨٧.
(٢) سورة: البقرة، الآية: ٢٢٣.
(٣) سورة: الفرقان، الآية: ٧٤.
(٤) حديث صحيح.

أَضِفْ إلى ذلك أنّ الإنسان يجد غالباً في ذُرّيّتِهِ، من يعطفُ عليه ويُعينه في مرضه وهرمه.

ولهذا كانت الذّرّيّة امتداداً للنّوع البشري، وإبقاءً على الوجود الأُسَرِيّ، وإمداداً للبقاء الاجتماعي.

نماء الأمّة بنماء أسرها:

كلُّ أُمّة لا تزيد مواليدُها على وفياتها أو تتساوى فيهما، تكون أُمّةً فاشلةً في الحياة، محكومة بالفناء والاضمحلال؛ لأنّ كل كارثة تُصيبها من حربٍ أو قحطٍ أو جائحةِ وباءٍ، أو ما شابه ذلك يظهر إفلاسُها، وتأخّرُها في مضمار الحياة، أو توردها الهلاك عاجلاً أو آجلاً.

ومن البديهي أنّ كثرةَ النّسل أو النّشء لا تكون مضمونة محقّقةً إلا بالزّواج الشّرعي النّظامي، الذي يشعر فيه الزّوجان بالمسؤولية تجاه نسلهما، فلا بدّ من تشجيع الزّواج وتذليل عقباته، وتسهيل الحياة الكريمة للأسر النّاشئة. وذلك لتحظى الأمة بثمرات الزّواج الحيّة التي تحفظ للأسرة الاستمرارية وللأمة البقاء.

قال الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي في كتابه القيّم «تحديد النّسل وقايةً وعلاجاً»: «السّعي إلى إيقاف النّسل أو تقليصه مُنافٍ لأصلِ ما شُرِعَ النكاحُ من أجله، ولكن المشرّع الحكيم جلّ جلالهُ رخّص للزّوجين في محاولةٍ جزئيّةٍ وفرديّةٍ للحدّ من النّسل نظراً لظروف أو مصالح شخصية قد تكتنفها أو تكتنف أحدَهُما، أمّا الحكم العامُّ فقد بقي على أصله وهو المنع». أي منع تحديد النّسل بشكل جماعي وقال: «إنّ للأفراد أن يتخذوا وسائلهم إلى تحديد النّسل إذا كان العدد الذي يقابلهم من أعضاء البلدة أو الأمّة يقعون موقع الكفاية في العمل على زيادة النسل ويقومون بواجبهم في ذلك فأما إن سرت العدوى حتى شملت أفراد الأمة كلها أو شملت معظمهم، بحيث أصبح الباقون قلة لا تقع موقع الكفاية في تحقيق مصلحة الجماعة، فإنّ الكل يتلبسون بالإثم بسبب ذلك. وإذا أمعنتَ فيما أقول عرفتَ أنّ هذا كما يقول الإمام الشّاطبي «لونٌ من ألوان الفرض الكفائي».

وقال: «وما ينبغي أن يفوت كل داع حصيف حرٍّ في هذه الأمّة أنّ الغربيين إنّما

يبثُّون هذه الدّعوة ـ تحديد النّسل ـ فيما بيّنّا حذراً من أن يقود التّفوق السّكاني في منطقة الشّرق الأوسط وسائر العالم الإسلامي إلى تفوق في استخدام الآلة والاطّلاع في العلوم، فيتحرر بذلك من سلطان الغرب، بل يمتلك زمام القيادة في إدارة دولاب اقتصادي وسياسي يقود المنطقة إلى سدة الرّيادة في العالم».

ويفضح آرثر كورمان مقاصد الأوروبيين في إلحاحهم على المسلمين بضرورة تحديد النّسل، فيقول بكل صراحة: «إن أهل الشّرق سوفَ لا يلبثون إلاّ قليلاً حتى يطلعوا على حقيقة هذا الدّجل لأهل الغرب؛ لأنّه استعمار من نوع جديد يهدف إلى دفع الأمم غير المتقدمة، ولا سيما الأمم السّوداء إلى مزيد من الذّل والخسف حتى تتمكن الأمم البيضاء من الاحتفاظ بسيادتها».

فدعوة الغربيين للمسلمين لتحديد النّسل دعوة مشبوهة، يُقصد بها تحجيمهم وتقليل عددهم ومسخ قوّتهم.

المبحث الثّاني:

تنظيم النّسل وتحديده وحكم الشّرع فيهما

هناك خلط بين تحديد النّسل وتنظيم النّسل.

فتحديدُ النّسل معناه: إنجاب عدد معين من الأولاد لا تتعداه كل أسرة دون مراعاة لحالتها المادّيّة والاجتماعية، والنّفسيّة والصّحيّة.

أمّا تنظيم النّسل فليس معناه الإنجاب ولا تحديد عددٍ معيّنٍ من الأولاد، وإلا ما قامت الدولة بإنشاء عيادات خاصة لعلاج حالات العُقم ومحاولة إيجاد طفل لمن لا طفل لهم بعلاج الأبوين.

ولقد اختلفت نظرة الناس وكثر الجدل وتعددت الآراء من حيث عدد الأولاد وكثرتهم أو قلّتهم، فثمّة مَنْ يراهم عبثاً يقصم الظّهر ويجلبُ الفكرَ، ويحيل الحياة الزّوجية إلى جحيم لا يُطاق، ومنهم من يرى فيهم ـ مهما بلغ عددهم ـ قوام الأسرة وعزّة الأمّة وعماد الدِّين، وأودُّ أن أناقش هذين الرأيين في صراحةٍ تامّة:

ثمّة أسرة تفضّل أن يكون أبناؤها قليلي العدد، صحيحِي البُنية قد توافرت لهم أسباب التّربية السّليمة والمعيشة الحسنة على أن يكونوا كثيري العدد مُعْتلّي الأبدان ضعاف الصّحة، ويردون ذلك إلى عدة أسباب: فالأبناء المحدودو العدد تتوافر لهم عوامل الرّخاء والمقدرة المادية بما يكفي معاشهم ويزيد، بعكسِ ما إذا كثر عددهم وظلّتْ موارد رزق أبيهم محدودة غير كافية لهم، وليست العبرةُ بعدد الأولاد وإنّما بنوعهم وشخصياتهم، فخير للأمّة أن تعيش أقل عدداً وفي مستوى معقول من أن تكون متأخرة كثيرة الأبناء، كبيرة العدد.

ولقد أجرى علماء النّفس والأطباء في أمريكا أبحاثاً كثيرةً عن الأسرة وانتهت الدّراسات في معظمها إلى أنّ العائلة المثالية يجب أن يتحدّد عدد الأطفال فيها بأربعة لأن مثل هذه العائلة تعدّ وحدةً تسعى إلى حياة أكثر سعادةً وصحةً ونجاحاً. ذلك أن

الأم التي لها أربعة أطفال تكون دوماً في حالة نفسية وصحية أحسن ممّا لو كانت الأسرة أكبر عدداً.

والحقيقة التي لا مِراءَ فيها هي أن طاقة الآباء والأمهات في الرعاية محدودة، فلو افترضنا أنّ أسرةً ما أنجبت طفلين أو ثلاثةً مثلاً، فستكون طاقة هذه الأسرة المادية والعاطفية موزعةً بين هؤلاء الأطفال، مما يكسبهم صحةً نفسيّةً وبدنيةً سليمةً، أمّا إذا أنجبت نفس هذه الأسرة ستّةَ أطفالٍ أو أكثر ستكون نفس طاقة الأبوين المادية والمعنوية موزعة عليهم ممّا يترتّبُ عليه ألّا ينال كل طفلٍ منهم القدر الكافي من الرّعاية والحاجات الأساسية اللاّزمة للنّمو البدني والنّفسي، فليست العبرة إذن بالكم وإنما بالكيف؟ وفي ذلك يقول رسول الله ﷺ: «المؤمنُ القويُّ خيرٌ وأحبُّ إلى الله من المؤمنِ الضّعيفِ، وفي كلٍّ خيرٌ»[1]. وعلى ذلك فقد أصبح تنظيم النّسل ضرورة اجتماعية ملحة اقتضتها ظروف العصر الحاضر والحياة الأفضل، حيث إنّه إذا ما قارنّا بينَ نسبة الزّيادة في السكان نجد أنّ الأخيرة تفوق الأولى بكثير، الشّيء الذي يهدد الأمر بإيقاف التّطوّر والوصول إلى حياة أرقى ومستوى أرفع.

وقد أباح الفقهاء تحديد النّسل في ظروف معيّنة نُورد منها ما يأتي:

١ ـ أن يكون الحمل والولادة ضارًّا بصحة المرأة، أو يكون مهدّداً لحياتها بالخطر.

٢ ـ من مسوّغات منع الحمل رغبة المرأة في أن تبدو جميلةً أمام زوجها باعتدال قوامها وامتلاء جسمها استدامةً لحبِّه وإبقاءً على عشرتِه. وذلك إذا علمتْ أنّ كثرةَ الحمل تضرُّ بجسمها وتسبب لها الهزال والضّعف.

يقول الإمام الغزالي في الإحياء: «ومن الأسباب الموجبة لمنع الحمل استيفاء جمال المرأة لدوام التّمتع واستبقاء حياتها خوفاً من خطر الحمل، وهذا ليس منهياً عنه إن كان الحمل ضارًّا بها ومضرًّا بصحتها».

٣ ـ ومن تلك الحالات رغبةُ الرّجل في التّخفيف عن نفسه عبء المعيشة بالتّقليل للنّسل، وحتى لا يضطر إلى ارتياد موارد السوء وكسب الحرام من أجل سدّ

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه برقم ٢٦٦٤.

حاجات من يعولهم وقد روى في ذلك أحمد ومسلم عن أسامة بن زيد رضي الله عنه «أنّ رجلاً جاء النّبيّ ﷺ فقال: «إنّي أعزِل عن امرأتي» فقال الرسـول الكريم: «لِمَ تفعلُ ذلك؟» فقال الرّجل: «أشفق على ولدِها ـ وأولادها» فقال عليه السلام: «لو كان ضارًّا ضرَّ الفرس والرُّوم»[1]. ومن ذلك نرى أنّ الرّسول الكريم لم ينكر من الرّجل ما صنع.

وقد ذهب الإمام الشّوكاني هذا المذهب في نيل الأوطار وهو يشرح هذا الحديث فقال: «ومن الأمور التي تحمل على العزل القرار من كثرة العيال، والفرار من حصولهم من الأصل». ويعني قبل أن تصير النّطفةُ جنيناً وإنشائها وتصل إلى مكانتها السّامية المرجوّة، وتزيد موارد الدولة من استصلاح المساحات الواسعة من الأرض القابلة للزّراعة ومن توسع في تجارتنا واستخراج البترول والكنوز من باطن الأرض، وإنماء لقوّتنا الاقتصادية والعسكرية ـ فإنّه ليس هناك ثمّةَ ما يدعُو إلى تحديدِ النّسل أو تنظيمه تمشياً مع ظروف المستقبل. فتحديدُ النّسل أمرٌ طارىء وعلاج مؤقّت.

وسائل منع الحمل:

كانت الوسيلة الوحيدة المعروفة لمنع الحمل في عصر النّبيّ ﷺ «العزل» أي أن يعزل الرّجل ماءَهُ عند المباشرة ـ وفي جواز العزل وردت أحاديث صحيحة، من ذلك ما رواه أبو سعيد الخدري أنّه وجماعة من الصحابة سألوا النّبيّ عليه الصّلاة والسّلام عن العزل؟ فقال: «لا عليكم ألاّ تفعلُوا، ما كتبَ الله خَلْقَ نسمةٍ وهي كائنة إلى يوم القيامة إلاّ ستكون»[2].

وعن جابر بن عبد اللّه رضي الله عنه قال: كنّا نعزلُ على عهدِ رسول الله ﷺ والقرآنُ ينزلُ.

وفي رواية في الصّحيحين: «كنا نعزلُ على عهد الرّسول ﷺ فبلغه ذلك فلم يَنْهَنَا»[3].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه/١٤٤٣.
(٢) صحيح مسلم برقم/١٤٣٨.
(٣) صحيح البخاري برقم ٥٢٠٨، وصحيح مسلم برقم ١٤٤٠.

٤ ـ أن يكون للمرأة من الأعمال ما لا تستطيع النّهوض به مع الحمل فتتعرّض لمشقة العمل والحمل معاً وقد ذكر جابر رضي الله عنه: «أنّ رجلاً أتى النّبيّ ﷺ فقال: إنّ لي جاريةً هي خادمتُنَا وساقيتُنَا في النّخل، وأنا أطوف عليها وأكره أن تحمل، فقال: «اعزلْ عنها إنْ شئتَ، فإنّه سيأتيها ما قُدِّرَ لها»[1].

وإذا كان الفقهاء قد أباحُوا ـ كما ذكرنا آنفاً ـ عملية العزل، مستندين إلى نُصوص وردت عن الرّسولِ ﷺ، حتى بالنّسبة لجمال المرأة، فما بالُنَا إذا كانت كثرة الأولاد تذهب بموارد الدولة ولا تهيّىء الحياة السعيدة لأبنائها، أفلا يكون من الإنصاف أن دعوة تنظيم النّسل متمشيةً مع المنطق السّليم، وروح الإسلام المصلح والمرشد لكلِّ عصرٍ ولكلِّ زمانٍ!؟.

على أنّ الدّعوة لتنظيم النّسل ليست بفرضٍ واجب في كل زمان ومكان، إنّما الحاجة والضّرورة لها التي تُمليها الظروف التي نعيشها، هي التي حَدَتْ بالمفكّرين الحريصين على مصلحة الأمّة أن يتبنّوا هذا الرأي وأن يبذلوا الكثير في تحقيقه. ويوم تتجاوز أمّتنا العظيمة مرحلة بنائها.

وإذا كان العزل هو الوسيلة الوحيدة التي كان يعرفها المسلمون في عهد النّبيّ ولم يمنع ممارستها، فقد ظهرت في عصرنا وسائل أخرى يقرر الأطباء أنّها أقل إيذاء للرّجل والمرأة من العزل، وأنّها لا تضرُّ المرأةَ ولا الرّجلَ، وأنّها تؤدّي إلى عدم الحمل، فلا شك في أن حكم العزل ينسحب على هذه الوسائل أيضاً، ويقول بعض الفقهاء: يجوز لكلٍّ من الزّوجين برضاء الآخر أن يتخذَا من الوسائل ما يمنع الماء إلى الرحم، أو بدون رضا الآخر إذا كان له عذرٌ من الأعذار الشّرعية.

(١) أخرجه مسلم في صحيحه برقم/١٤٣٩.

البحث الثّالث:

التّوجيه الإسلامي لمشكلة التّقليل للنّسل

قال الله تباركَ وتعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ۝٣١﴾[1]، وقال سبحانه: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ﴾[2].

إنّ الحدّ من كثرة التّناسل بطريقةٍ من طرق منع الحمل دونَ الإسقاطِ والإجهاضِ أمرٌ وردتْ فيه نصوصٌ من السّنّة النّبوية لإباحته على النّطاق الفردي، لا أن يكون دعوةً عامّة.

وإذا بحثنا عن دوافع التّقليل للنّسل وأهدافه، وجدناه ينحصر في أحد الأحوال التّالية:

الأول: التّخلّص من الضّائقة الاقتصادية، أو الخشية من ضيق الرّزق.

الثّاني: اجتناب الضّرر الذي قد يلحق بالأولاد، أو بأحد الوالِدَين، أو كليهما، أيًّا كان نوع هذا الضّرر.

الثّالث: المحافظة على جمال المرأة ورشاقة جسمها وحُسن التّمتّع بها.

من خلال هذه الأحوال الثلاثة يتذرّعُ المُنادون، أو الرّاغبون في التّقليل للنّسل [ونحنُ هنا لا نقولُ: التّقليل من النّسل، فإنّه يعني التّخلّص من زوائده وهو من غير ريبٍ حرامٌ إجماعاً، وإنّما نقول: التّقليل للنّسل بمعنى التّحكم بحدوثه].

إنّ فكرة التّحكّم بحدوث الحمل ليستْ وليدة العصر الحديث، بشكلها الفردي الأُسَريّ، وإنّما الدّعوة إليها دعوة عامّة، أو الإجبار عليها كما هو الحال في «الصّين»

---

(١) سورة: الإسراء، الآية: ٣١.

(٢) سورة: البقرة، الآية: ٢٦٨.

هي وليدة هذا العصر الذي يشكُو دائماً خوفَه من الأزمات الاقتصادية، إلى رجال الاقتصاد والتّمويل الرّأسمالي، فلأصحاب هذه الشّكاوى نقول: ﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾[1]. فالله عزَّ وجلَّ هو الخالقُ وهو المتكفّل لخلقهِ بالرّزق، فما عليهم إلاّ أن يُؤمنوا به إيماناً جازماً، ويتوكّلوا عليه توكّلاً صادقاً، وأنْ يلتزموا طاعتَهُ في عبادتهِ، وفي العمل في سبيل كسب الرّزق، فإنّه من واجبات شرعه.

وهنا يأتي علاجُ مشكلة الضّائقة الاقتصادية، وهي:

الحالة الأولى: التي يـتذرّعُ بها المنادون بتحديد النّـسل، وعلاج هـذه الحالة الثّقة بضـمان الله تبارك وتعالى لجمـيع خَلْقه بالرّزق، يقول سبـحانه: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا ﴾[2] ﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ﴾[3] ﴿ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾[4] ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾[5] ﴿ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ﴾[6] ﴿ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴾[7] ﴿ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلرِّزْقِ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ ﴾[8] ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ﴾[9].

فالله تبارك وتعالى وَحْدَهُ هو المتكفّل برفع الضّائقة الاقتصادية متى حلّتْ وأينما

---

(١) سورة: البقرة، الآية: ٢٦٨.
(٢) سورة: هود، الآية: ٦.
(٣) سورة: العنكبوت، الآية: ٦٠.
(٤) سورة: سبأ، الآية: ٣٩.
(٥) سورة: الذاريات، الآية: ٥٨.
(٦) سورة: الشورى، الآية: ١٢.
(٧) سورة: الشورى، الآية: ٢٧.
(٨) سورة: النّحل، الآية: ٧١.
(٩) سورة: الزخرف، الآية: ٣٢.

نزلتْ، وهذا ما لا يفقههُ خبراءُ الاقتصاد الحديث، ولا أصحابُ البلايين من الأثرياء، فهم أكبرُ عقبةٍ تواجهُ حلَّ كلِّ ضائقة اقتصادية، بنظامهم الرّبويّ العقيم من كلِّ خير، والشّحيحُ بكل معروف، والبخيل بكل إحسان، فإذا بطلَ هذا النّظام الرّبوي في الأرض عمَّ الخيرُ وانتشرَ الإحسانُ وشاعَ المعروفُ!؟.

فخلاصةُ القول في علاج الضّائقة الاقتصادية هو الخلاصُ من النّظام الرّبوي المفروض على رقاب الشّعوب، وليس حلّها بتحديد النّسل.

وهذا على الصّعيد العالمي والدّولي.

أمّا على الصّعيد الاجتماعي والأُسَرِيّ والفرديّ فإنّ الإسلام العظيم يُراعي مدى أهمية الاقتصاد في تكوين الأسرة، ولهذا نرى إرشاده في تكوين الأسرة موجّهاً لمن يملك القدرةَ على كسب الرّزق، ولمن يملك الإمكانيات لذلك؛ لأنّ توفيرَهُ لبناءِ الأسرة لا يتحقّق إلاّ بذلك، فمَنْ لم يكن قادراً على طلب الرّزق لا يُؤمَرُ بإنشاء أُسرةٍ، قال رسول الله ﷺ: «يا معشرَ الشّباب مَن استطاعَ منكُمُ الباءَةَ ـ أي التّزوّج ـ فليتزوّجْ، ومَنْ لم يستطع فعليهِ بالصّومِ فإنّهُ لهُ وِجاءٌ»[1].

فعلى الرّاغب في الزّواج لبناء أسرة سعيدة أنْ يكونَ مالكاً للقدرة على كسبِ الرّزق بطريق مشروع؛ لأنّه مُكلّف بالإنفاق على زوجته وأولاده، فلا يصح أن يُقدم على هذا الأمر وهو لا يملك المال الكافي لبناء الأسرة، قال الله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾[2].

وأمّا فيما يتّصل بالدّافع الثاني للتّقليل من النّسل، وهو اجتناب الأضرار، فهو داخل في الحديث: «لا ضَرَرَ ولا ضِرَارَ»[3]. فرفعُ الضّرر، واجتنابُ أسبابه، والتّخلّصُ من آثاره مشروع، وعلى هذا يكون التّقليل للنّسل مشروع بهذا الأصل الشّرعي.

وأمّا الدّافعُ الثالث في حالات التّقليل للنّسل: فهو المحافظة على صحة المرأة وجمالها وحُسْنِ التّمتّع بها، فقد تقدّم بيانُ جواز ذلك في أواخر البحث المتقدّم، ودليله

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، فتح الباري ج ١١/٨.

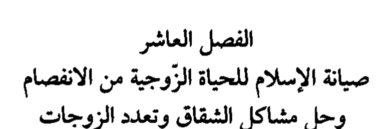
(٢) سورة: البقرة، الآية: ٢٣٣.

(٣) وهو حديث صحيح، الأحاديث الصحيحة برقم ٢٥٠.

أنّ: «رجلاً جاءَ إلى النّبيّ ﷺ فقال: إنّي أعزل عن امرأتي؟ فقال رسول الله ﷺ: «لِمَ تفعل ذلك؟» فقال الرّجلُ: أشفقُ على ولدها، وأولادها..»[1] فلم يُـنكرْ عليه ذلك. فإذا كان لأجل الإشفاق على المرأة فجائزٌ أيضاً. والله أعلم.

كلّ هذا قبل أن تستقرَّ النّطفة في الرَّحم، فإن استقرتْ فيه فلا يجوز إسقاطُها.

(١) أخرجه مسلم في صحيحه برقم ١٤٤٣.



الفصل العاشر
صيانة الإسلام للحياة الزّوجية من الانفصام وحل مشاكل الشقاق وتعدد الزوجات

البحـــــث الأوّل: معالجة النّفرة بين الزّوجين.

البحث الثّانـــــي: معالجة التّوتّر النّاشىء بين الزّوجين.

البحث الثّالـــــث: التّخوّف من نُشوز الزّوجة والإسراع إلى تلافيه.

البحث الرّابـــع: معالجة نُشُوز الزّوج.

البحث الخامس: حلّ المشاكل الحاصلة بين أقارب الزّوجين وبين الأزواج.

البحث السّادس: ضوابط تعدّد الزّوجات في الإسلام.

البحث السّابـع: مبرّرات تعدّد الزّوجات عُموماً وخُصوصاً.

البحث الأول:

معالجة النّفرة بين الزّوجين

قال الله تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾[١]. ويقول سبحانه: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾﴾[٢].

ويقول الرسول ﷺ: «لا يَفْرِكْ ـ أي لا يبغض ـ مؤمنٌ مُؤمنةً! إن كَرِهَ منها خُلقاً رضي منها آخر»[٣].

جعل الله العُشرة بالمعروف فريضةً على الرّجال ـ حتى في حالة كراهية الزوج لزوجته، ما لم تصبح العُشرة متعذّرة ـ وتسمو في هذه الحالة نسمةُ الرجاء في غيب الله وفي علم الله تعالى كي لا يُطاوع المَرْءُ انفعالَهُ الأوّل، فيبثُّ وشيجة الزّوجية العزيزة. فما يدريه أنّ هنالك خيراً فيما يكره، وهو لا يدريه.. خيراً مَخْبُوءاً كامناً، لعلّه إن كظم انفعاله واستبقى زوجه سيلاقيه.

﴿فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾﴾[٤]!. وهذه اللمسة الأخيرة في الآية، تعلّق النّفس بالله، وتُهدىء من فورة الغضب، وتفثأ من حدة الكره، حتى يُعاود الإنسانُ نفسَهُ في هدوءٍ، وحتى لا تكون العلاقة الزّوجية ريشةً في مهب الرياح، فهي مربوطة العُرى بالعُرْوة الوثقى!. العروة الدّائمة!. العروة التي تربط بين قلب المؤمن وربِّهِ، وهي أوثق العُرَى وأبقاها!!.

والإسلام الذي ينظر إلى البيت بوصفه سكناً وأمناً وسلاماً، وينظر إلى العلاقة

---

(١) سورة: البقرة، الآية: ٢١٦.
(٢) سورة: النساء، الآية: ١٩.
(٣) أخرجه مسلم وغيره.
(٤) سورة: النساء، الآية: ١٩.

بينَ الزّوجين بوصفها مودّةً ورحمةً وأُنساً، ويُقيم هذه الآصرة على الاختيار المطلق، كي تقوم على التّجاوب والتّعاطف والتّحاب!. هو الإسلام ذاته الذي يقول للأزواج: ﴿ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾ ﴾[1]! كي يستأني بعقدة الزّوجية، فلا تفصم لأول خاطر، وكي يستمسك بعقدة الزّوجية، فلا تنفك لأوّل نزوةٍ، وكي يحفظ لهذه المؤسسة الإنسانية الكبرى جديتها، فلا يجعلها عُرضةً لنزوة العاطفة المتقلبة، وحماقة الميل الطائش هنا وهناك.

وما أعظم قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه لرجل أرادَ أن يُطلّق زوجتَهُ، لأنّه لا يُحبها: «ويحك! ألم تُبْنَ البيُوت إلاّ على الحبّ؟ فأينَ الرّعاية وأينَ التّذمّم؟!!.

وما أتفه الكلام الرخيص الذي ينعق به المتحذلقُون باسم الحبّ وهم يعنون به نزوة العاطفة المتقلبة، ويُبيحون باسمه ـ لانفصال الزّوجين وتحطيم المؤسسة الزّوجية ـ بل خيانة الزّوجة لزوجها! أليست لا تحبه؟ وخيانة الزّوج لزوجته! أليس أنه لا يحبها؟! وما يهجس في هذه النّفوس التّافهة الصّغيرة معنى أكبر من نزوة العاطفة الصغيرة المتقلبة، ونزوة الميل الحيواني المسعُور. ومن المؤكد أنّه لا يخطر لهم أنّ في الحياة من المروءة والنّبل والتّجمل والاحتمال، ما هو أكبر وأعظم من هذا الذي يتشدّقون به في تصور هابط هزيل. ومن المؤكّد طبعاً أنه لا يخطر لهم خاطر لذكر الله تعالى، فهم بعيدون عنه في جاهليتهم المزوقة! فما تستشعر قلوبهم ما يقوله الله للمؤمنين: ﴿ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾ ﴾.

إنّ العقيدة الإيمانية هي وحدها التي ترفع النّفوس وترفع الاهتمامات، وترفع الحياة الإنسانية عن نزوة البهيمة، وطمع التاجر، وتفاهة الفارغ!.

قد روي أنّ رجلاً جاء إلى عمر رضي الله عنه يشكو خلُق زوجته، فوقف على بابه ينتظر خروجه، فسمع امرأة عمر تستطيل عليه بلسانها وتخاصمه وعمر ساكتٌ لا يردّ عليها، فانصرف الرجلُ راجعاً، وقال: إنْ كان هذا حال عمر مع شدّته وصلابته وهو أمير المؤمنين، فكيف حالي؟ وخرج عمر فرآه مولّياً عن بابه، فناداه وقال: ما حاجتُكَ أيّها الرّجل؟ فقال: يا أمير المؤمنين جئتُ أشكو إليك سوءَ خُلُقِ امرأتي

---

(١) سورة: النساء، الآية: ١٩.

واستطالتها عليّ، فسمعتُ زوجتكَ كذلك فرجعتُ وقلت: إذا كان هذا حال أمير المؤمنين مع زوجته، فكيف حالي؟ فقال عمر: يا أخي.. إنّي أحتملها لحقوقٍ لها عليّ: إنّها لطبّاخةٌ لطعامي، خبّازة لخبزي، غسّالة لثيابي، مرضعة لولدي، وليس ذلك كله بواجب عليها، ويسكن قلبي بها عن الحرام، فأنا أحتملها لذلك. فقال الرّجل: يا أمير المؤمنين وكذلك زوجتي. قال عمر: فاحتملها يا أخي، فإنّما هي مدّة يسيرة [فهذه القصةُ على فرض ثبوتها فيها عبرة وتذكرة].

وقال رسول الله ﷺ: «اسْتَوْصُوا بالنّساء خيراً، فإنّهُنّ خُلِقْن من ضلعٍ أعوج، وإنّ أعوج شيء في الضّلع أعلاه، فإنْ ذهبتَ تُقِيمُهُ كسرتَهُ، وإن تركتَهُ لمْ يزلْ أعوج، فاسْتَوْصُوا بالنّساء خيراً»(١). وهذا الحديث يُنبّه الأزواج إلى وجوب التّجاوز عن بعض الأمور؛ فإنّه ليس هناك وَرْدٌ بلا شوكٍ؟!. وقد أحسن الشّاعر حين قال:

وَمَنْ ذَا الذي تُرْضَى سَجَايَاهُ كلُّها كَفَى المَرْءُ نُبْلاً أن تُعَدَّ مَعَايِبُهُ

فيجب على كلٍّ من الزّوجين التّغاضي عن بعض ما لا يحب أن يراه في الآخر، ويضع كلاهما في حسبانه أنّه إذا كره في الآخر صفة فإنّه لا بد أن تكون فيه صفة أخرى تشفع له. وهذا هو بعينه ما أشار إليه الرّسولُ ﷺ حين قال: «لا يَفْرِكُ ـ لا يُبغضُ ـ مؤمنٌ مؤمنةً! إنْ كَرِهَ منها خُلُقاً رضي منها آخر»(٢).

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه برقم ٣٣٣١ و٥١٨٦.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه برقم ١٤٦٩.

البحث الثّاني:

معالجة التّوتّر النّاشىء بين الزّوجين

ينبغي بصفة عامة عند حدوث أي توتّر في الأسرة أن يظل أمره مكتوماً بين الزّوجين يحاولان معاً إزالتَه والقضاءَ عليه. وفي القول المتداول بين النّاس ـ وليس بحديث نبوي ـ [استعينوا على إنجاح الحوائج بالكتمان].

فإن لم يكن هناك بدٌّ من إعلام أحد، فليكن أقرب المقرّبين إلى الأسرة، ولا يُخْبَر إلا بوجود خلافٍ ما، أمّا طبيعة الخلاف وماهيته فلا ينبغي إعلامه بها في هذه المرحلة. ولنا في آل بيت الرّسولِ ﷺ أسوة حسنة، فقد جاء النّبيّ إلى بيت فاطمة فلم يجد عليًا، فقال: أينَ ابْنُ عمِّكِ؟ فقالت: كان بيني وبينه شيء فغاضبني، فخرج. فقال النّبي لرجل: انظر أين هو؟ فقال: هو في المسجد راقد. فجاءه وهو مضطجع، وقد سقط رداؤه عن شقّه فأصابه ترابٌ، فجعل النّبيّ ﷺ يقول: «قُمْ يا أبا تُرابٍ!! قُمْ يا أبا تُرابٍ!!» يسترضيه ويُداعبه. وقال راوي الحديث سهل بن سعد: «وما كان له اسمٌ أحبَّ إليه منه!». الحديث أخرجه الشيخان[1]. وبنظرة سريعة إلى هذا الخبر يتبيّن لنا كيفَ أنّ السّيّدة فاطمة عليها السّلام لم تخبر النّبيّ ﷺ بطبيعة الخلاف وماهيته بل كان ما أعلمته إياه هو مجرد وجود خلافٍ وحسب. كما يتبيّن حُسْن تصرّف الإمام عليّ بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه الذي لم يدع مجالاً لاتّساع شقة الخلاف والغضب، فتركَ زوجتَهُ وذهبَ إلى أفضل مكان ترتاح فيه الأعصاب وتصفُو فيه النّفوس ألاَ وهو بيتُ الله [المسجد]!!!. كما يتبيّن لنا كيف كان الرسولُ ﷺ حكيماً، إذْ لم يسأل ابنتَهُ عن أسباب الخلاف وتفاصيله، كما لم يُعاتبْ ولم يلمِ الإمام عليًا، بلْ داعَبَهُ ولاَطَفَهُ بأسلوبٍ كان له أبعد الأثر في زوال رواسب الغضب والضّيق.

---

(١) صحيح البخاري برقم ٤٤١ و٦١٨٠.

وهذا ما يجب علينا اتّباعه أزواجاً وزوجاتٍ وآباءً في مثل هذه المواقف، سواء كان التوتّر من جانب الزوجة أم من جانب الزوج ولكن إنِ استمرّ التوتر من جانب أحد الطّرفين فسيكون هناك علاج آخر، وهو الإصلاح بين الزّوجين!.

البحث الثّالث:

التخوّف من نُشوز الزّوجة والإسراع إلى تلافيه

النّشُوز في اللّغةِ: من النّشز وهو المكان المرتفع من الأرض، وجمعه نُشوز ويقال: نشزت المرأةُ بزوجها وعلى زوجها، إذا استعصت عليه وأبغضتْهُ.

وفي الاصطلاح الشّرعي عند أكثر الفقهاء يدور على أربع خصال: ترك الزّينة والزّوج يُريدُها، وعصيان الزّوج في الفراش، والخروجُ من البيتِ بدونِ إذنه، وترك الفرائض الدينية كالغسل والصّلاة. وقال الإمام محمد عبده وفئةٌ من الفقهاء: إنّ النّشوزَ أعمُّ فيشمل كل عصيان سببه التّرفع والإباء.

قال سيّد قطب: أما غير الصّالحات، فهن النّاشزات. وهو من الوقوف على النّشز، وهو المرتفع البارز من الأرض. وهي صورة حسيّة للتّعبير عن حالة نفسية. فالنّاشز تبرزُ وتستعلي بالعصيان والتمرّد على حياتها الزّوجية.

والإسلام لا ينتظر حتى وقوع التّمرّد والعصيان واستفحال أمرهما، بل يُسارع باتخاذ إجراءات تدريجية تبغي القضاء على أعراض النّشوز منذ الوهلة الأولى، بهدف إصلاح الشأن، وجمع الشمل، وبقاء ما كان من المودة والرحمة على ما كان عليه.

وهذه الإجراءات ليست أبداً للقسر والإرغام، ولا للإهانة والإذلال، وإنّما هي فقط لمواجهة بوادر التّصدع والانشقاق، وللقضاء على أيّ انحراف من الممكن أن يُفضي بالأسرة إلى الانهيار والدمار.

﴿وَالَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ﴾[1]. أول خطوة يجب اتخاذها هي: التّنبيهُ ولفتُ النّظر بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن، فليس الأمر استبداداً وطغياناً، إنّما هو أخذٌ وردٌّ ومناقشة هادئة تبغي ردّ الأمور إلى نصابها.

---

(١) سورة: النساء، الآية: ٣٤.

والموعظة الحسنة ذات أثر بالغ في النّفس والوجدان!! ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾[١] والوعظ له أساليب متعددة متشعبة. والقرآن والسّنّة بهما حشد كبيرٌ من المواعظ الرقيقة والجادّة في ذات الوقت!. هذه المواعظ لها أبلغ الأثر في النّفوس بما تُثيره فيها من مشاعر تتفجّرُ وتفيض في نفس المؤمن والمؤمنة.

ويحسن في هذا المقام تذكير الزّوجة بالذكريات الجميلة التي عاشوها معاً حيناً من الدّهر!. لا سيما تلك الإفضاءات الجميلة التي كانت بينهما.. إفضاءات الجسد والمشاعر!. وإفضاءات الهُمُوم والأسرار، وإفضاءات الحبّ والتّراحم!. وإفضاءات الآهات والنّظرات!. كما يجمل بالزّوج أن يلفت نظر زوجته إلى ذلك الميثاق الغليظ الذي بينهما!. ميثاق الزّواج الذي لا يستهين به قلبٌ أو عقل!.

فضلاً عن تبصيرها بالعواقب الوخيمة التي ستحل بعلاقاتهما إن هي تمادتْ في المسلك الذي تسلكه!. وكم هنّ كثيرات تلك الزوجات اللاتي يستجبن لمثل هذا الأسلوب المهذب الرّقيق!. ولكن في نفس الوقت والحين ـ هناك زوجات لا يجدي معهنّ مثل هذا الأسلوب، فيبقين على ما هنّ عليه، بل قد يتمادين في الانحراف كلما زيد لهنّ في النّصح والتّوجيه!.

فتزداد الواحدة منهنّ في ترفعها واستكبارها، كلّما رأت الزّوج مقبلاً عليها يحاول الإصلاح ورأْبَ الصّدع، وترفعها قد يكون بما لها من جمال، أو بما تملك من مال، أو بما لها من حسبٍ ونسبٍ، أو لأيّ سمةٍ أخرى قد تكون متسمة بها.

ومثل هذه يتبع معها الأسلوب الآخر.. ﴿وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ﴾[٢]. الهجر في المضجع. أن يدير الزوج ظهره لزوجته في الفراش ولا يلتفت إليها، وليس معناه ترك حجرة النّوم، أو منزل الزّوجيّة، لأن هذا هجر للمضجع وليس هجراً في المضجع. إن الهجر في المضجع ـ هو أن ينام الزّوج مع زوجته في نفس الفراش ولكن يولّيها ظهره ولا يلتفت إليها. وسنرى حكمة ذلك بعد قليل.

---

(١) سورة: فصلت، الآية: ٣٤.

(٢) سورة: النساء، الآية: ٣٤.

وهناك تفسير مرفوض تماماً ذكره البعض في تفاسيرهم. وهو أن الهجر يعني الربط. واستدلوا بكلام العرب، فيقال: هجر البعير: إذاربطه صاحبه بالهجار، والهجار، هو الحبل تشد به رقبة البعير إلى سوقه. فيكون المعنى المقصود إذن ـ في رأيهم ـ من هذه الآية: أن الزّوجة إنْ لم تستجب فقيّدوها واربطوها في المضجع مكرهين لها على الجماع.

وقد تعقب هذا التفسير البعيد كل البعد عن مقصد القرآن ـ غير واحد من المفسرين ـ فرد عليه القاضي أبو بكر بن العربي في أحكامه فقال: يا لها من هفوة من عالم بالقرآن والسنة!. والذي حمله على هذا التّأويل حديث غريب رواه ابن وهب عن مالك. كما تعقّب الزّمخشري بأنّه من تفسير الثّقلاء!!.

وقال العلامة أبو الأعلى المودودي: بأنه معنى بعيد عن قصد القرآن. وبأنه لغو، لا معنى له. فكيف يليق بزوج أن يربط زوجته في الفراش مكرهاً لها على الجماع إلاّ إذا كان سخيفاً خسيساً، يسقط بفعله هذا عن مرتبة الحيوان، إذ أنّ الحيوان لا يفضي إلى رفيقته إلاّ بعد أن يُقدّم بينَ يديه شيئاً كثيراً من المداعبة والملاطفة حتى يحظى بالرضا والقبول! فهذا المعنى بعيد تماماً عن مراد القرآن!.

والمعنى المأثور لدى جهابذة التفسير، والمتفق مع قصد القرآن، والموافق لمنطق العقل وسلامة الفطرة: هو أن ينام الزّوج مع زوجته في نفس مكان خلوة الزّوجين، ولكن يولّيها ظهره ولا يلتفت إليها.

ولهذا الإجراء: ﴿وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ﴾[1] حكمة عالية ويخطىء بعض الكتاب ـ كما يقول الأستاذ العقاد ـ فيحسب أن العقوبة بالقطيعة والهجر في المضاجع تروع المرأة بما ينالها من الإيلام الحسّيّ، وفوات المتعة الجسدية، إذ كانت حكمة القرآن الكريم أبلغ من ذلك، وأنفع في هذه الخصومة الزّوجية، وإنما تردع هذه العقوبة المرأة، لأنها تذكرها بالمقدرة التي توجب للرجل الطّاعة في أعماق وجدانها، وهي مقدرة العزم والإرادة والغلبة على الدوافع الحسّيّة. وبهذه المقدرة يستحق

(١) سورة: النساء، الآية: ٣٤.

الرّجل من المرأة أن يطاع، فلا تشعر بالفضاضة من تسليمها له بهذه الطّاعة.

قال الأستاذ رشيد رضا رحمه الله في كتابه «نداء للجنس اللطيف»: أما الهجر: فهو ضرب من ضروب التأديب لمن تحب زوجها، ويشق عليها هجره إياها، ولا يتحقق هذا بهجر المضجع نفسه، وهو الفراش، ولا بهجر الحجرة التي يكون فيها الاضطجاع، وإنَّما يتحقق بهجر الفراش نفسه، وتعمد هجر الفراش، أو الحجرة زيادة في العقوبة لم يأذن بها الله تعالى. وربما يكون سبباً لزيادة الجفوة، وفي الهجر في المضجع نفسه معنى لا يتحقق بهجر المضجع والبيت الذي هو فيه، لأن الاجتماع في المضجع هو الذي يهيج شعور الزّوجيّة، فتسكن نفس كل من الزّوجين إلى الآخر، ويزول اضطرابها الذي أثارته الحوادث قبل ذلك. فإذا هجر المرأة وأعرض عنها في هذه الحالة رجا أن يدعوها ذلك الشعور والسكون النّفسي إلى سؤاله عن السّبب، ويهبط بها من نشز المخالفة إلى صف الموافقة.

والذي يراه الأستاذ العقاد رحمه الله تعالى في كتابه: «عبقرية محمد» أن الأستاذ رشيد رضا رحمه الله قد أخطأه المراد الدّقيق من هذه العقوبة النّفسية، وأن الحكمة في إيثارها أعمق جداً من ظاهر الأمر كما رآه الأستاذ.

فأبلغ العقوبات ولا ريب هي العقوبة التي تمس الإنسان في غروره وتشكّكه في صميم كيانه: في المزية التي يعتزّ بها، ويحسبها مناط وجوده وتكوينه.

والمرأة تعلم أنها ضعيفة إلى جانب الرّجل، ولكنها لا تأسى لذلك ما علمت أنها فاتنة له، وأنها غالبته بفتنتها وقادرة على تعويض ضعفها بما تبعثه فيه من شوق إليها ورغبة فيها. فليكن له ما شاء من قوة، فلها ما تشاء من سحر وفتنة وعزاؤها الأكبر عن ضعفها أن فتنتها لا تقاوم، وحسبها أنها لا «تقاوم» بديلاً من القوة والضلاعة في الأجساد والعقول.

فإذا قاربت الرّجل مضاجعة له، وهي في أشد حالاتها إغراء بالفتنة، ثم لم يُبال بها، ولم يؤخذ بسحرها، فما الذي يقع في وقرها وهي تهجس بما تهجس به في صدرها.

أفوات سرور؟ أحنين إلى السّؤال والمعاتبة؟ كلا، بل يقع في وقرها أن تشك

في صميم أنوثـتها وأن ترى الرّجل في أقدر حالاته جديراً بهيـبتها وإذعانها، وأن تشعر بالضّعف ثم لا تتعزى بالفتنة ولا بغلبة الرغبة. فهو مالك أمره إلى جانبها وهي إلى جانبه لا تملك شيئاً إلاّ أن تثوب إلى التّسليم، وتفرّ من هوان سحرها في نظرها قبل فرارها من هوان سحرها في نظر مضاجعها. فهذا تأديب نفس وليس بتأديب جسدٍ، بل هذا هو الصراع الذي تتجرّد فيه الأنثى من كل سلاح، لأنها جربت أمضى سلاح في يديها فارتـدت بعده إلى الهزيمة التي لا تكابر نفسها فيها، فإنما تكابر ضعفها حين تلوذ بفتـنتها، فإذا لاذت بها فخذلتها فلن يبقى لها ما تلوذ به بعد ذاك، وهنا حكمة العقوبة البالغة التي لا تقاس بفوات متعة ولا باغتنام فرصة للحديث والمعاتبة.

إنما العقوبة إبطال العصيان، ولن يبطل العصيان بشيء كما يبطل بإحساس العاصي غاية ضعفه وغاية قوة من يعصيه. والهجر في المضاجع هو بمثابة الرجوع إلى هذا الإحساس.

هذا هو الإجراء الثاني لمعالجة الزّوجة، وإذا لم يُجْدِ كما لم يُجْدِ الإجراء الأول، لا بدّ أن تكون مثل هذه الزوجة من نوع آخر، نوع لا تجدي معه مثل هذه الإجراءات، وقد يجدي معه إجراء آخر! ﴿وَٱضْرِبُوهُنَّ﴾[1].

ومثل هذا الإجراء لا يُتخذ إلاّ مع هذا النوع من الزّوجات اللاّتي لا يستجبن إلاّ له ولا يجدي معهُنّ أي إجراء آخر! وهذا هو بعينه ما توصل إليه علم النّفس الحديث، وذلك بشأن بعض أنواع المرض النّفسي لنوع معيّن من النّساء!.

والذي ظهرَ بعد كثيرٍ من الدّراسات النّفسية المستندة إلى الواقع المشهود والملاحظات العلمية، قرر علم النفس أنّ هناك صنفين من النّساء يناسبهما هذا الأسلوب تماماً، لأنّه يعالج عند الصّنف الأول انحرافاً نفسياً معيّناً، ويُسبب نوعاً من اللذة والرضا للصّنف الثّاني. وهاكم تصنيف علم النّفس لهذين الصّنفين من النّساء:

الصّنف الأول: هو الذي يسلك «المسلك التحكّمي» وهذا الصنف من النّساء

---

(١) سورة: النّساء، الآية: ٣٤.

يجدن لذةً ومتعةً في القسوة والتسلّط والسّيطرة على الزّوج. ومثل هذا الصّنف لا بدّ من كسر شوكته، حتى يرتد إلى حالته السّوية، وهذا لا يكون إلا بالضّرب.

الصّنف الثّاني: هو الذي يسلك «المسلك الخضوعي» وبعض هذا الصّنف من النّساء يجدْنَ لذّةً في الضّرب. وبعضهنّ قد يكون للقهر والإجبار، وتُمنع أن يكون للإهانة والإذلال وتُمنع أن يكون فيه أي إيذاء أو انتقام.

روى ابن ماجه والتّرمذي عن عمرو بن الأخوص الجشمي: أنّه سمع رسولَ الله ﷺ في حجة الوداع يقول بعد أن حمد الله وأثنى عليه، وذكر ووعظ. ثم قال: «ألا واستوصُوا بالنّساء خيراً، فإنّما هُنّ عَوَانٌ عندكم، ليس تملكون منهنّ شيئاً غير ذلك، إلاّ أنْ يأتينَ بفاحشة مبيّنة، فإنْ فعلنَ فاهجروهُنّ في المضاجع، واضربوهُنّ ضرباً غير مبرح، فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً، ألا إنّ لكم على نسائكم حقاً، ولنسائكم عليكم حقاً، فحقكم عليهن: أن لا يوطئن فرشكم من تكرهون. ألا وحقهن عليكم: أن تحسنوا إليهنّ في كسوتهن وطعامهن».

وجاء في السّنن والمسند عن معاوية بن حيدة القشيري، أنّه قال: يا رسول الله، ما حقُّ امرأةِ أحدِنَا عليه؟ قال: «أن تُطعمها إذا طعمت، وتكسوها إذا اكتسيتَ، ولا تضربِ الوَجْهَ، ولا تُقبّحْ، ولا تهجرْ إلاّ في البيتِ».

وجاء في الصحيحين أنّ رسولَ الله ﷺ قال: «أيضرب أحدكم امرأتَهُ، كما يضربُ العبدَ، ثم يجامِعُها في آخر اللّيل؟!» وفي رواية عائشة عن عبد الرازق: «أمَا يستحي أحدُكم أن يضرب امرأته كما يضرب العبدَ، يضربُها أوّلَ النّهار ثم يُجامِعُها آخره؟!».

وروى أبو داود والنسائي وابن ماجه: قال النّبيّ ﷺ: «لا تضربُوا إماءَ الله». فجاء عمر رضي الله عنه إلى رسول الله ﷺ، فقال: زئرت النّساء على أزواجهنّ! فرخّص رسول الله ﷺ في ضربهنّ. فأطاف بآل رسول الله ﷺ نساءٌ كثير يشتكين أزواجهن! فقال رسول الله ﷺ: «لقد أطاف بآل محمّد نساءٌ كثيرٌ يشتكين من أزواجهنّ، ليس أولئك بخياركم».

وأخرج ابن سعد والبيهقي عن أم كلثوم بنت الصّديق رضي الله عنه، قالت: «كان

الرّجال نُهوا عن ضرب النّساء ثم شكوهنّ إلى رسول الله ﷺ، فخلى بينهم وبين ضربهن.. ثم قال: ولن يضرب خياركم».

فهذه التقييدات والتوجيهات ينبغي مراعاتها في إجراء الضّرب. لأن الرسول ﷺ بسنته العملية والقولية والتقريرية موضح ومبين لآيات الذكر الحكيم، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾[١].

وبالإضافة إلى ذلك، فإن هناك آداباً معينة في تنفيذ مراحل المعالجة التدريجية لنشُوز الزّوجة، وهي: أن يكون تنفيذها أمراً محصوراً بين الزّوجين. فينبغي أن لا تمارس أمام أحد سواء كان من الأقارب أم من الغرباء. وأن لا تكون أمام الأطفال، لأن ذلك سيكون له أثر غير محمود في تكوينهم النّفسي والشعوري وفي نظرتهم إلى أمهم وأبيهم. فضلاً عن عدم إعلام أي أحد بها لأن ذلك مما يخدش كرامة المرأة ويسبب لها إحراجاً قد يدفعها دفعاً إلى بقائها على ما هي عليه من النّشُوز والعناد، بل قد يدفعها إلى الازدياد والتمادي.

وإذا كان من الواجب أن تبقى هذه الإجراءات محتفظة بطابع السّرية، فالأولى أن لا يعلم أحد بأسباب اتّخاذها، لا سيما الضرب، لقول الرسول ﷺ فيما أخرجه أبو داود وغيره: «لا يُسألُ الرّجلُ فيمَ ضربَ امرأتَهُ»[٢]، لأنّه قد يكون في ذكر الأسباب ما يُخجل الزّوجين أو أحدهما، أو يكشف له سرًّا، أو يفضح له أمراً. والرّسولُ ﷺ يقول: «مَنْ سَتَرَ على مسلم عورةً فكأنّما أحيا مَيْتاً»[٣] وفي إسناده مجهول. وقال ﷺ: «من سترَ أخاهُ المسلم في الدنيا فلم يفضحه، ستره الله يوم القيامة»[٤].

وهكذا نرى الخطوات والإجراءات التّدريجية التي يجب اتخاذها في حالة خوف نُشوز الزّوجة، الوعظ، الهجر في المضجع، الضّرب، وهذه الإجراءات مشروعة على الترتيب والتّدرج، وعند تحقق استجابة الزّوجة لأيّ إجراء منها، يجب على الزّوج أن

---

(١) سورة: النحل، الآية: ٤٤.
(٢) وسنده ضعيف.
(٣) رواه الطبراني في الكبير ج ٧ برقم ٧٢٣١.
(٤) رواه أحمد وهو حديث صحيح.

لا يتجاوزه إلى ما وراءه، فإن تجاوزه فقد تعدّى وظلم. وهنا يجب أن يُوقَفَ عند حدّه: ﴿ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴾[1].
ولكن هذه الإجراءات الثلاثة قد لا تجدي. وهنا تكون العلاقة بين الزّوجين قد وصلت أوج توتّرها، ممّا قد يؤدّي إلى وقوع الشّقاق بينهما. في هذه الحالة لا بدّ من اتخاذ إجراءٍ آخر، هذا الإجراء يأتي من خارج الأسرة، لأنّ الإصلاح من داخل الأسرة قد أصبح غير مثمر، فلا بدّ إذنْ من «التّحكيم».

﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴾[2].

فالإسلام لا ينتظر حتى يقع الشقاق بالفعل، ويتصدّع البناء الأسريّ، ويفصم عقد الزواج، لأنّ العلاج حين يقع الشّقاق قلّما يُثمر، وما لم يتدارك الأمر منذ البداية فسيؤول إلى زعزعة الكيان الأسريّ زعزعةً لا يصلح معها استمرار حياة هنيئة مطمئنّة لأعضاء هذه الوحدة الاجتماعية الفتيّة.

فيتم بعثُ حكمٍ ثقةٍ، من أهل الزّوج، وحكم ثقةٍ من أهل الزّوجة، ليجتمعا في مجلس عائلي هادىء، بعيداً عن جوّ التّوتّر والنّزاع.

ولماذا يكون الحكمان من أهلهما؟.

لأنّه قد تكون هناك أشياء يخجل الزّوجان من إطلاع الغرباء عليها، ولكون الحكمين اللّذين من أهلهما أشدّ حرصاً من غيرهما على مصلحة الأسرة، وأقوى رغبةً في استمرار علاقة الزّوجين، وأكثر ائتماناً على أسرارهما؛ لأنّ في إفشائها مَسَاسٌ بهما بقدر ما فيها من مساس بالزّوجين.

ويقوم الحكمان بدراسة الأحوال، واستقصاء خلفيات النّزاع، ولا يدّخران وسعاً في إزالة أسباب المتاعب والخلاف، ﴿ إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا ﴾ وهنا ينبغي طرح السؤال التالي: ما هي السلطات التي يخوّلها التّشريع للحكمين؟ هل لهما سلطة

---

(١) سورة: النساء، الآية: ٣٤.
(٢) سورة: النساء، الآية: ٣٥.

الإصلاح والتّفريق بدون إذن الزّوجين، أم ليس لهما هذه السلطة إلاّ برضى الزّوجين؟.

في هذه المسألة اجتهادان:

الأول: ليس للحكمين أن يُفرِّقا إلاّ برضا الزّوجين لأنهما وكيلان عنهما، ولا بدّ من رضى الزّوجين فيما يحكمان به. وحجة مَنْ قال بهذا الاجتهاد: أنّ الله تعالى لم يضف إلى الحكمين إلاّ الإصلاح ﴿إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا﴾[1] وهذا يقتضي أن يكون ما وراء الإصلاح غير مفوض إليهما، ولأنّهما وكيلان ولا ينفذ حكمهما إلاّ برضى المُوكِّل. وهذا هو مذهب أبي حنيفة وأحمد رضي الله عنهما. وهو مروي عن الحسن البصري، وقتادة، وزيد بن أسلم، رضي الله عنهم.

والثّاني: للحكمين أن يُلزما الزّوجين بدون إذنهما ما رأيا فيه المصلحة، فإنْ رأيَا التّطليق طلّقا، وإنْ رأيَا أن تفتدي المرأةُ بشيءٍ من مالِها فَعَلا، فهما حاكمان موليّان من قبل الإمام وينفذ حكمُهما في الجمع والتّفرقة. وحجة مَنْ قال بهذا الاجتهاد: أنّ الله تعالى سمّى كلاًّ منهما حكَماً ﴿فَٱبۡعَثُواْ حَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهِۦ وَحَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهَآ﴾[2] والحكم هو الحاكم، ومن شأن الحاكم أن يحكم بغير رضا المحكوم عليه رضى أم سخط. وهذا هو مذهب مالك. وهو مروي عن عليّ، وابن عباس، والشّعبي رضي الله عنهم.

وقد رجّح الإمام الطّبري الاجتهاد الأول، فقال: وليس للحكمين، ولا لواحدٍ منهما الحكم بالفرقة بينهما، ولا بأخذ مال إلاّ برضى المحكوم عليه بذلك. وهذا أقرب إلى الاستدلال.

---

(١) سورة: النساء، الآية: ٣٥.

(٢) سورة: النساء، الآية: ٣٥.

البحث الرابع:

معالجة نشوز الزّوج

رأينا فيما سبق كيف وضح المنهج الإسلامي الحكيم الإجراءات الواجب اتخاذها في حالة نشوز الزّوجة، والآن نرى توضيحه لموقف الزّوجة حين تخشى نشوز الزّوج أو إعراضه عنها لسبب أو لآخر.

﴿ وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ وَإِن تُحْسِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾ ﴾[1].

وفي حالة خوف الزّوجة من زوجها نشوزاً: أي تجافياً عنها وترفعاً عن مصاحبتها، كراهة لها ومنعاً لحقوقها أو إعراضاً: بأن يقل مجالستها ومحادثتها ولا يأنس بها، في هذه الحالة يجمل بالزّوجين أن يجلسَا مجلساً عائلياً هادئاً، بعيداً عن الانفعالات النّفسية والتوترات الشعورية ويقومَا معاً بتقصي الأسباب التي قد تكون مؤدّية إلى نشوز الزّوج أو إعراضه، ويعملا بكامل جهدهما على إزالتها والقضاء عليها. ولا مانع إطلاقاً في هذا المقام من أن تقوم الزّوجة بعمليةِ استرضاءٍ لزوجها، وذلك بوسائل متعددة: مالية أو حيوية. والأمر في هذا متروك للزّوجة وتقديرها وما تراه متمشياً مع مصلحتها، لا إلزام عليها ولا تكليف.

وعلى الزّوجين أن يستجيبَا لبواعث الصّلح ودواعي الاستمرار، ويطردَا من داخلهما هواجسَ الخصومة والشّقاق، فالصّلح على الإطلاق خيرٌ من الفُرقة والطلاق: ﴿ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ ﴾[2] وإذا كان من السّمات الملازمة للنّفس الإنسانية، سمة البخل بمعناه الواسع، البخل بالأموال، والبخل بالعواطف والأحاسيس، والبخل بأي نوع من أنواع

---

(١) سورة: النساء، الآية: ١٢٨.

(٢) سورة: النساء، الآية: ١٢٨.

الماديات أو المعنويات عامة، فإن عليكم أيها الأزواج المؤمنون أن تتعالوا على هذه السّمة قدر وسعكم، وتستجيبوا لنداء الإحسان ولهتاف التقوى في نفوسكم فتحسنوا الصحبة والعُشْرة، وتتّقُوا ما لا يجوز من النُّشوز والإعراض في حق المرأة. والله الخبير بما تعملون سيجازيكم بما تستحقونه: ﴿وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ وَإِن تُحْسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾﴾[1].

روى البخاري عن عائشة في قوله تعالى: ﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ﴾[2] أنّها قالت: «هي المرأة تكون عند الرّجل، لا يستكثر منها، فيريد طلاقها، ويتزوّج عليها، تقول: أمسكني، ولا تطلقني، وتزوّج غيري، فأنتَ في حلٍّ من النّفقة عليَّ والقسمة لي».

ولا يخفى على أحد أن الأولاد عادةً ما يكونون خير سفراء بين أمهم وأبيهم عند حدوث أي توتّرٍ، ويمكن استخدامهم كوسيلة فعالةٍ ومؤثّرةٍ في إزالة أي أزمة، وفي خلق جوٍّ من التّفاهم والتقارب. فعلى الزّوجة أو الزّوج أن يضعَا في حُسْبانهما ونُصبَ عينيهما هذه الوسيلة عند حدوث أيّ نشوزٍ أو إعراض من أحدِ الزّوجين.

---

(١) سورة: النساء، الآية: ١٢٨.

(٢) سورة: النساء، الآية: ١٢٨.

البحث الخامس:

حلّ المشاكل الحاصلة بين أقارب الزّوجين وبين الأزواج

إنّ الزّوجين السّعيدين هما اللّذان تملأ البهجةُ والمحبّةُ أركانَ حياتهما، وملامحُ الانسجام مرفرفة على جباههما، ولكن سُرعان ما تطرأ الكآبةُ والقلقُ عليهما بعد زيارة والديّ الزّوج أو الزّوجة، أو أحد أقاربهما، ثم يتحوّل البيتُ السعيد إلى دارٍ تملؤهُ المنازعات والمشاحنات والمجادلات.

لماذا نرى هذا التّحوّل المفاجىء؟ وما سببه؟ ومَنِ الذي وراء تلك المشاكل والمنغصات؟.

إنّ الخلافَ الذي ينشأ عقبَ تلك الزّيارة من أقارب الزّوجين يقعُ على عاتق من أثار الخلاف أولاً، ثم على عاتق مَنْ أصغى إلى أسبابه ثانياً.

والتّنازعُ والخلاف هنا ليس من أجل بسط النّفوذ من الزّوج، أو من أجل انتزاعه من قِبَل الزّوجة؛ لأنّ الحياة الجديدة هذه لم تتفتح على مثل هذا النّزاع، ولكنّا نراه ينشبُ بعد الهمسات بين والدي الزّوجة وابنتهما، أو بين والدي الزّوج وابنهما، فيدور فيه الحديث عن ماضي حياتهما أو عن عاداتهما في الأيام الماضية، ويتجاذبون الذّكريات والأمنيات الحلوة، ما قد يُشعر الزّوجة بأنّ جزءاً من حياة هذا الشّريك الحبيب قد فُقِدَ من يديهما! ألاَ تراها وقد استولت عليها الكآبة والتّبرّم؟ ألاَ رفقاً يا سيدتي بنفسك، واعلمي أنّ هذين الوالدين هما بالتأكيد صاحبَا الفضل في منحك هذه السعادة التي تملأ نفسَكِ ودارَكِ متمثّلة في هذا الزّوج الحبيب!.

ثم يجب أن تعلمي أيتها العروس أن نظرات بعض الوالدين إليك أحياناً مملوءة بالغيرة والحقد لأنك سلبت منهما في نظرهما أعزّ عزيزٍ عندهما، وهو ابنهما الذي تربّى في أحضانهما، ونمّا وشبَّ بين عطفهما ورعايتهما، ثم أملهما المعقود وحلمهما المنشود، فالزّوجة أصبحتْ في رأيهما هي التي استولت على ابنهما الحبيب، وأصبح

«العريس» في نظرهما لا أمل منه ولا رجاء! ومن هنا يأتي النّقد اللاّذع على زوجة الابن عند كل زيارة يقومان بها له، فهي في نظرهما الخاملة التي تنام طول النهار، وغير الأنيقة فهي متهدلة في نفسها، وهي التي لا تجيد الطهي ولا فنّ تقديمه على المائدة! إلى غير ذلك من أنواع النّقد الذي يكمن وراءه حقدهما وغيرتهما من تلك الزّوجة التي استحوذت على ابنهما ولم يبق لهما منه إلاّ المقابلات الرسمية والزّيارات المحدودة!.

وستردين على الفور: لماذا إذن زَوّجاه ما داما لا يُحبّان منه أن يتركهما أو يُفارقهما؟ وهل أنا التي سعيت في طلبه أو هو الذي سعىٰ في طلبي؟.

والجواب عن ذلك يا أختي ألاّ تتسرّعي في الحكم على الأشياء، والوقت كفيل بتهدئة النّفوس وسير الأمور في مجراها الطبيعي. إنّ الزواج بالنّسبة للابن في أوله شديد الوقع على الأهل والأقارب لأنه افترق عنهم، وأصبح مستقلاً وهم الذين تكفّلوا برعايته دهراً من الزمن، فالعلاقة بينه وبينهم وطيدة وقوية، والعاطفة بينه وبينهم متأصّلة، وليس من السّهل محوها، والافتراق ليس بالنّسبة لهم سهلاً فلا بدّ إذن من إلقاء بعض الظّلال الخفيفة عليك، لأنّهم لم يروا أمامهم إلا هذا المشهد: زوجة استأثرت بحب زوجها، وزوج ألقى بعواطفه وبحبّه لزوجته وعروسه الشّابّة، فماذا بقي لهم هم أصحاب الفضل والتربية؟ إنه حقاً لمشهد مؤثر! يجب أن تتركي للزمن عوامل التّهدئة وأن تكبحي جماح نفسك حتى تمر الأزمة بسلام، وتقبلي نقدهم بروح عالية وصبر جميل، واعلمي أيتها الفتاة أنّها أزمة قد تحدث بعد كل زواج سرعان ما تهدأ، والأمور حتماً ستسير إلى أحسن إذا ما تقبلت تلك الأشياء الصغيرة بروحك وبتصرّفاتك اللّبقة وكِيَاستِكِ المعهودة؛ عاملي أهلَ زوجك بالحبّ والاحترام تكسبي عطفهم وحبّهم، تغاضي عن الصغائر يمدحوا فيكِ العقلَ والاتّزانَ والحكمةَ!.

تقرّبي إلى «حماتك» وقدري أنّها أمّك الثّانية، يكن لك ثناءُ زوجِكِ والأهل أجمعين، واعلمي أنّ زوجك لم يصبح ملكاً لك تماماً، وإنّما أودُّ أن تعلمي أنّكِ مهما أوتيتِ من لباقةٍ ودهاءٍ فلن تستطيعي أن تُغيري من عواطفه نحو والديه وأمّهِ وإخوته وأقاربه، فلا يمكن الفرع أن يتنكر للأصل لأنه سبب نشأته وإمداده وتعهده حتى أورق وأصبح جميلاً يُسرُّ الناظرين.

ومن الممكن أن تحتلي المنزلة الأولى في الأسرة بعطفك على الصغير والكبير وبقلبك الطّيّب الوادع، لأنّه يستطيع أن يسع أخلاق النّاس جميعاً، ويُروى عنه ﷺ: «إنكم لن تسَعُوا النّاسَ بأموالِكُمْ، ولكن سَعُوهم بأخلاقِكُمْ»[1]. فالخُلق الطّيّب والمعاملةُ الحسَنَةُ والوجهُ الباش يجعل منكِ المثل الخيّر، والزّوجة الطّيّبة الكريمة المحبوبة!!!.

(١) وسنده ضعيف، ضعيف الجامع/ ٢٠٤٣.

البحث السادس:

ضوابط تعدّد الزّوجات في الإسلام

قبل كل شيء يجبُ أن ندرك أنّ الإسلام لم يأت بهذا النّظام باعتباره تشريعاً جديداً أو فرضاً لازماً على المسلمين، بل جاء ليحد ويقيد العادة التي كانت مطلقةً دون حدود أو قُيود. ولكي يرفع الظلم عن المرأة ويحفظ حقوقَها بعد أن كانت مستباحة. لقد عرف التّعدد قديماً في مختلف الشرائع والأديان.

عند الصينيين والرومان والأشوريين والهنود البراهميين وكذلك عرف في الديانات القديمة كاليهودية ولم تأت المسيحية بناسخ. وكان تعدّد الزّوجات في عرب الجاهلية شائعاً غير محدود حتى قيل: إنه كانت قريش في الجاهلية يكثرون التزوج بلا حصر، فإذا كثرتْ عليهم المؤن، وقلّ ما بأيديهم أكلوا ما عندهم من أموال اليتامَى.

وقد ورد أن غيلان بن سلمة الثقفي «أسلم وعنده عشر نسوة فأمره النّبيّ ﷺ أن يتخير منهن أربعاً»[1].

وقال وهب الأسدي: «أسلمت وعندي ثماني نسوة، قال: فذكرت ذلك للنّبيّ ﷺ فقال النّبيّ ﷺ: اخترْ منهُنّ أربعاً»[2].

هكذا كان الحال قبيل وإبان ظهور الإسلام.. ومحال أن يلتقي طريقُ الجاهلية والإسلام معاً، غير أنّنا نُثبتُ بهذه النّصوص الموثقة أنّ التّعدد في الإسلام لم ينشئه الإسلام إنشاءً، ولم يفرضه على جميع الرجال فرضاً بل جاء الإسلامُ ليضعه في ميزان الاعتدال، فهو نظام واقعي إيجابي يُوافق فطرة الإنسان وواقعه الاجتماعي والشّخصي، بحيث يتفق مع ما يطرأ عليه من متغيّرات في مختلف الأحوال والظروف، فهو لا يدعو

---

(١) تحفة الأحوذي شرح جامع الترمذي ج ٤، ص ٢٧٨.

(٢) عون المعبود شرح سنن أبي داود ج ٦، ص ٢٣٩.

إلى المثالية الخيالية المطلقة، ولا يسمح بإنشاء واقع ماديٍّ بحتٍ يُطلق فيه العَنَانَ للغرائز والشّهوات، بل هو يُراعي فطرةَ الإنسان، ويضبط سلوكه ويُحافظ على نظافة المجتمع وصيانة الأخلاق، إنّه تشريع إلٰهي حكيم، شرّعه الله وهو أعلم بما يَصْلُحُ لخلقه، وما يُناسب فطرتهم البشرية ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾[1].

فالإسلام عالج ظاهرةً اجتماعية شائعةً، فوضع لها الضوابط والشّروط ليكون التّعدّد قائماً على العدل والمساواة، وفي البحث التالي بيان لمبرّرات التّعدّد العامّة والخاصّة.

---

(١) سورة: الملك، الآية: ١٤.

البحث السّابع:

مبرّرات تعدّد الزّوجات عموماً وخصوصاً

إنّ الإسلام عندما يسن تشريعاً من التّشريعات فإنّه يُراعي فيه طبيعة المجتمع من ناحية التّوازن، فحينَ يختلُّ توازن الأمّة فيقل عدد الرّجال الصّالحين للزواج ويكثر عدد النّساء سواء كانت هذه القلة ناتجة من جرّاء حروب وحوادث يتعرّض لها الرّجال أكثر من النّساء غالباً، أو لسببٍ اقتصادي أو اجتماعي يمتنع الشباب به عن الزّواج لعدم القدرة عليه فماذا يكون الحلّ السّليم لمثل هذه القضية؟ لا شك أنّه أباح تعدّد الزّوجات للقادرين والصّالحين منهم حتى يعود التّوازن. وما أكثر ما دخل المسلمون في معارك طاحنة استشهد فيها عشرات الآلاف من الرّجال، رغم ذلك لم يشكُ المجتمع الإسلامي في يوم من الأيام من قلّة الرّجال وكثرة النّساء؛ لأنّ الإسلام قد وضع علاجاً لمثل هذا الوضع، بإباحته نظام تعدّد الزوجات، يقول العلامة سيّد قطب رحمه الله موضحاً هذا: فلننظر في هذه الحالة، وأقرب الأمثلة لها ألمانيا بعد الحرب العالمية الثانية «حيث كانت تُوجد ثلاث فتيات في سن الزواج مقابل كل شاب في هذا السّنّ» ما بين سنّ/ ٢٠/ وسنّ/ ٤٥/ . إنّها حالة اختلال اجتماعي واضحة، فكيف يُواجهها المشرّع الذي يعمل لحساب المجتمع ولحساب المرأة والرّجل ولحساب النّفس الإنسانية جمعاء، إنّ هناك حلاًّ من حلول ثلاثة:

الحلُّ الأوّل: أن يتزوج كل رجل امرأة، وتبقى اثنتان لا تعرفان في حياتهما رجلاً ولا بيتاً ولا طفلاً ولا أسرة.

الحلّ الثّاني: أن يتزوج كل رجل امرأة، فيُعاشرها معاشرة زوجته، وأن يختلف إلى الأخريين لتعرفا في حياتهما الرّجل دون أن تعرفا البيت أو الطفل أو الأسرة، فإذا عرفتا الطفل «تلبية لنوازعهما الأنثوية العميقة، عرفتاه عن طريق الجريمة، وعرفتاه متهماً مشبوهاً، ليس له والدٌ معروف، وحملتا نفسيهما وحملت الأطفال الأبرياء ذلك العار وذلك الضّياع».

الحلّ الثّالث: أن يتزوج الرّجل أكثر من امرأة، فيرفعها إلى شرف الزّوجية، وأمان البيت وضمانة الأسرة، وتأمين الطفولة، ويرفع الضمير من لوثة الجريمة وقلق الإثم وعذاب الضمير، ويرفع المجتمع عن لوثة الفوضى واختلاط الأنساب وقذارة الفاحشة! ويمنح الأمة فرصة التعويض عن هذا الاختلال بنسل جديد يتم فيه التوازن بعد الحروب والأوبئة التي تنشىء هذا الاختلال». وإنّ الحلّ الثّالث هو أنسب الحلول وأشرفها للمرأة أولاً، ثم للمجتمع بأسره!!!.

وهناك مبررات طبيعية وذلك:

مثل تكاثر عدد البنات والبنين كما هو ملاحظ ومشاهد وملموسٌ في الواقع، فمن المقرّر في بحوث الديموجرافيا «علم إحصاء السكان» أن ذكور الآدميين بحسب طبيعتهم أكثر تعرّضاً للوفاة من الإناث في أثناء الولادة، وفي الطفولة المبكّرة.

ومن حكمة الله أنه أباح التعدد وقيّده بأربع في أقصى الحالات ولم يقيّده بأكثر أو أقل. فقد ورد في ظلال القرآن: «أن هناك حالات واقعية في مجتمعات كثيرة تاريخية وحاضرة تبدو فيها زيادة النّساء الصّالحات للزّواج على عدد الرّجال الصّالحين والقادرين للزواج. والحدّ الأعلى لهذا الاختلال الذي يعتري بعض المجتمعات لم يعرف تاريخياً أنه تجاوز نسبة أربع إلى واحدٍ، وهو دائماً يدور في حدودها.

هناك مبررات خاصّة تتمثّل فيما يطرأ في الحياة الزّوجية من أمور تجعل التّعدّد ضرورةً:

١ ـ قد تكون الزّوجة عقيماً لا تُنجب، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا﴾[١] فلا يتحقق بذلك أهم مقصد من مقاصد الزّواج، وهو إنجاب الذّرّيّة، وحفظ النّوع البشري، وقد تكون الزّوجة مصابة بمرض معدٍ أو مزمنٍ لا يستطيع معه الزّوج أن يمارس حياته الزّوجية، فهل من العدل أن يُطلّقها ويرمي بها؟ أم يبقي عليها وفاءً ثم يستضيف إلى جانبها زوجةً أخرى تحقق له رغباته في الذّرّيّة وهدوء البال؟ فهذا النّظام في مصلحة المرأة ولفائدتها أكثر من الرّجل، لأنّه ليس من صالحها أن تفارقه

(١) سورة: الشورى، الآية: ٥٠.

ومثلها لا يرغب فيها لعلتها، فمن الأفضل أن تظل في رعاية زوجها معزّزةً مكرّمةً وذلك خيرٌ لها من التّشتّت والضّياع.

٢ ـ قد يكون الرجل كثير الأسفار دائم التّنقّل والسّعي وراء رزقه، وهو لا يستطيع أن يتنقل بأفراد أسرته دائماً، وفي نفس الوقت يخشى على نفسه من الوقوع في الفاحشة والمعصية، فهل من العدالة أن يتزوّج زواجاً حلالاً يعترف بأولاده الشّرعيين، أو نتركه يقترف الآثام ويرتكب الحرام وينجب أولاداً من السفاح؟ الأنفع والأصلح للمرأة والأولاد والرّجل نفسه والمجتمع أن يتزوّج!!.

٣ ـ وقد يكون لبعض الرّجال طبعٌ خاص كما قال الإمام الغزالي: من أن هناك من الطباع ما تغلب عليه الشهوة، بحيث لا تُحصنه المرأة الواحدة، فيستحب لصاحب هذا الفوران الجنسي، الزيادة عن الواحدة إلى الأربع، فإن يسّر الله له مودّة ورحمة واطمأن قلبه بهنّ، وإلاّ فيستحب له الاستبدال. ثم لا يلبث الإمام الغزالي أن يضع تقنيناً لكل ما سبق فيقول: ومهما كان الباعث معلوماً فينبغي أن يكون العلاج بقدر العلة، لأن المراد تسكين النّفس ولا بدّ من النّظر إلى ذلك في القلّة والكثرة[1].

وإن الإسلام قد حفظ للمرأة حريتها التي يتشدق بها نُقّاد الشّريعة الإسلامية في أمر الزّواج، لأن إباحة تعدد الزّوجات لا يحرم المرأة حريتها، ولا يكرهها على قبول من لا ترتضيه زوجاً لها، ولكن تحريمَ التّعدد يكرهها على حالة واحدة لا تملك غيرها، حينَ تُلجئها الضّرورة إلى الاختيار بينَ الزّواج بصاحب زوجة وبينَ عزوبة لا يعولها أحد، وقد يعجزها أن تعول نفسَها.

إنّ التّعدّد في الإسلام لم يترك دون قيد أو شرط، بل اشترط القرآن الكريم العدل بين الزّوجات على ألاّ يزيد عددهنّ عن أربع يقول تعالى: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا ۝ ﴾[2]. ثم ذكّر الرجال بصعوبة العدل عسى أن يتريّثوا قبل الإقدام على التّعدّد.

---

(١) إحياء علوم الدين، ج ٢، ص ٣٠.
(٢) سورة: النساء، الآية: ٣.

ويقول جلّ وعلا: ﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ۚ وَإِن تُصْلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾﴾[١].

يقول ابن كثير رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾[٢]: أي إن خفتُم من تعداد النّساء أن لا تعدلوا بينهنّ، فمن خاف من ذلك فيقتصر على واحدةٍ أو على الجواري السّراري، فإنّه لا يجب القسم بينهنّ، ولكن يُستحب، فمن فعلَ فحسَنٌ، ومن لا فلا حرَجَ. وقوله: ﴿أَلَّا تَعُولُواْ ﴿٣﴾﴾[٣] أي تجُورُوا وهو قول الجمهور[٤].

والمقصود بالعدل هنا هو القسم بين الزّوجات في الأمور الظّاهرة كالنّفقة والكسوة والمسكن والمبيت والمعاملة الحسنة.

أمّا العدل القلبي وهو الميل والمحبة فهذا ما لا يستطيعه الإنسان، لأنّ القلوب بين يدي الرحمٰن يُـقلّبها كيف يشاء. وهو المقصود في الآية الثانية بقوله تعالى: ﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾[٥] ويُوضح ابن كثير رحمه الله في تفسير الآية فيقول: أي لن تستطيعُوا أيها النّاس أن تساووا بين النّساء من جميع الوجوه، فإنّه وإن وقع القسم الصّوري ليلة وليلة، فلا بدّ من التّفاوت في المحبة والشّهوة والجماع، كما قاله ابن عباس وغيره[٦]. وممّا يُؤكد ذلك المعنى ما ورد عن رسول الله ﷺ عن عائشة رضي الله عنها: أنّ النّبيّ ﷺ كان يقسم بينَ نسائه فيعدل ويقول: «اللّهمَّ هذه قسمي فيما أملك، فلا تلمني فيما تملِكُ ولا أملك»[٧]. إنّما يعني به الحبّ والمودّة.

(١) سورة: النساء، الآية: ١٢٩.
(٢) سورة: النساء ، الآية: ٣.
(٣) سورة: النساء، الآية: ٣.
(٤) تفسير القرآن العظيم ج ١، ص ٤٥١.
(٥) سورة: النساء، الآية: ١٢٩.
(٦) تفسير القرآن العظيم ج ١، ص ٥٦٣.
(٧) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي ج ٦، ص ٢٩٤، وصححه ابن حبان والحاكم، نيل الأوطار ج ٦، ص ٣٧٢.

ومع ذلك فقد حذّر الله سبحانه وتعالى بقوله: ﴿فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ﴾[١]: أي فلا تجورُوا على المرغوب عنها كل الجور، واعدِلُوا ما استطعتم فإنّ عجزكم عن حقيقة العدل إنّما يصحح عدم تكيفكم بها لا بما دونها من المراتب الداخلة تحت استطاعتكم ﴿فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِن تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾﴾[٢]: أي التي ملتُم عنها ﴿كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِن تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾﴾[٣] التي ليست ذات بعل أو مطلقة.

وهذا تحذيرٌ وترهيبٌ للرجال الذين يجانبون الصّواب والعدل المطلوب فيميلون للزّوجة التي يحبونها، ويتركون الأخرى مهضومة الحقوق ضعيفةً مكسورةَ الخاطر.

وفي التحذير من مثل هذا العمل، ورد في الحديث الشّريف عن رسول الله ﷺ أنّه قال: «إذا كانت عند رجل امرأتان فلم يعدلْ بينهما جاء يوم القيامة وشقُّهُ ساقط»[٤]: أي مائل والجزاء من جنس العمل فميله الزائد في الدنيا يقابله ميل شقه يجره يوم القيامة بحيث يراه أهل المحشر ليكون هذا زيادة في التّعذيب وأبلغ في الزّجر. إذن فالآيتان متّفقتان، ولا تعارض بينهما، كما يدّعي البعض؛ لأن العدل في الآية الأولى غير العدل المقصود في الآية الثانية، فهو في الأولى: «العدل في الأمور الظاهرة الحسيّة».

أمّا العدل المقصود في الآية الثانية: «فهو الميل القلبي والمودة والحب» والعدل الظاهري مطلوب بكل صوره ومعانيه فنص الآية مطلق: «كالعدل في النّفقة والمسكن والكسوة والمبيت والعدل في كفالة الأسرة بجميع أفرادها من زوجة وأولادٍ في جميع الأمور الظّاهرية والمعاملة الحسنة، وكل واحد من هذه الأمور وردت تفصيلاتها في كتب الفقه لا يتسع المقام لذكرها. والمهمّ في ذلك كلّه الحرص على عدم الظلم، فالله سبحانه وتعالى حرّم التّعدّد في حالة الخوف من عدم القدرة على العدل بين الزّوجات، ويلاحظ من حالة الخوف من عدم العدل، وهي حالة تنتاب أكثر الرّجال وُثُوقاً بنفسه،

---

(١) سورة: النساء، الآية: ١٢٩.
(٢) سورة: النساء، الآية: ١٢٩.
(٣) سورة: النساء، الآية: ١٢٩.
(٤) تحفة الأحوذي شرح جامع الترمذي ج ٦، ص ٢٩٤.

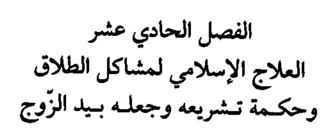
والله تعالى إنّما يُخاطب المؤمنين الذين يخشون ربّهم، ويزنون تصرفاتهم بميزان دقيق، ويخافون أن يقعوا في معصية الله، فيقول لهم: إذا وثقتم تماماً كلّ الثّقة من أنفسكم وإنكم ـ لا بدّ عادلون وقادرون على العدل بينهنّ، فلا مانع حينئذٍ من التّزوج بأكثر من واحدة ـ أما إذا خفتم ألاّ تعدلوا، فحرام عليكم أن تتزوّجوا بثانية، بل اقْتَصِرُوا على واحدةٍ، فهذا هو الأسلم لكم ولصلتكم بربكم، فالقرآن الكريم إذنْ لم يطلق إباحة التّعدّد بل قيّدها بأهمّ وأعسر شرطٍ، وهو عدم الخوف من التّفرقة بينهنّ!! فلا يمكن لأيّ إنسان أن يطلق هذه الإباحة، أو يجري وراء هواه مستهتراً، بل إن بعض الفقهاء أضافُوا لذلك اجتهاداً منهم «القدرة المالية على الإنفاق على زوجتين أو أكثر والأولاد، الإنفاق والسّكن المناسب والتعليم» وهذا الاجتهاد يستند على معانٍ شرعية ثابتة. وذلك سدًّا للفساد الذي وقع من تسرّع بعض الرجال، وجريهم وراء شهوتهم والتّزوج ثانيةً وثالثةً، وهو غير قادر على الإنفاق على واحدةٍ، فيتولّد عن ذلك من الشّرور والخلافات وتشرد الأولاد ما يضج منه هو ويضج المجتمع معه...

رغم هذه القيود والشروط فإن وقع انحراف من بعض المسلمين في سلوكهم وتهاونهم في تنفيذ أوامر الشّرع وغلبة الشّهوات عليهم نتيجةَ جهلِهم بدين الله أو تجاهلهم المتعنّت وسلوكهم سلوكاً يُنافي الشّرع في مسألة التّعدّد لا يعني تحريم ما شرع الله أو الطعن في الدِّين. كما يفعله بعض المقلّدين وأعداء الإسلام حيث يُوجِّهون الاتهامات والشّبهات حول هذا النّظام متخذين من هؤلاء المنحرفين حجة في تشويه هذا النّظام البديع الرّفيع، فالعيبُ ليس في نظام الإسلام بل في سوء التّطبيق، الذي يقترفه الجاهلون.

والمسلمون ليسُوا حُجّةً على دينهم، بل الحجةُ قائمةٌ عليهم، وعلى غيرهم ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾[1]. فإنّهم لو التزموا هديَ الإسلام، ونهجُوا سبيلَ القرآن، لرفعُوا عن أنفسِهم كاهلَ المسؤوليةِ التي يتحملونها أمامَ دينِهم وربّهم تبارك وتعالى.

---

(١) سورة: الأنعام، الآية: ١٤٩.



الفصل الحادي عشر
العلاج الإسلامي لمشاكل الطلاق
وحكـمة تـشريعه وجعلـه بـيد الزّوج

البحـث الأوّل: معالجة الإسلام لمشاكل الطّلاق.

البحث الثّاني: حكمة تملّـك الزّوج حـقَّ الطّلاق.

البحث الثّالث: الطّلاق ومقارنته بينَ التّشريع الإسلامي والشّرائع القديمة.

البحث الأول:

معالجة الإسلام لمشاكل الطلاق

عوامل الوقاية من وقوع الطلاق، واجبة على كلا الزّوجين.

إن الإسلام حين نظّم الحياة الاجتماعية عامّة، خصَّ الحياة الزّوجية والأسريّة باهتمامه، وشرع لها مجموعة من القوانين والنظم تحفظ رابطتها وتزيدها متانة وتماسكاً على مدى الأيام؛ لأنّ الأسرة الصّالحة نواة المجتمع السّليم، لذا حرص الإسلام منذ بداية تكوين الأسرة على تيسير جميع الأسباب التي تُوفّر الوِفَاقَ والرّضا والاقتناع لكلا الطّرفين. حيث نرى الرّسولَ الكريم يحث الرّجل على اختيار الزّوجة الصّالحة بقوله ﷺ: «فاظْفَرْ بذَاتِ الدِّينِ تربتْ يَدَاكَ»[1]. وشرع الخطبة وأجاز النّظر إلى المخطوبة بقوله ﷺ: «انْظُرْ إليها فإنّه أحرى أن يُؤدمَ بينكُما»[2]. وقرّر الإسلامُ للمرأة المهر كي تطيب نفسها بقوله تعالى: ﴿ وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً ﴾[3] كما شرع الإسلام للمرأة أن لا تخطب بغير إذنها بقوله ﷺ: «لا تُنكحُ الأيّمُ حتى تُستَأمَرَ، ولا تُنكح البكرُ حتّى تُستأذَنَ» قالوا: يا رسولَ الله وكيف إذنُها؟ قال: «أنْ تسكتَ».

وأمر بتوفير الكفاءة في الزّوج الخاطب، وقرر الحقوق والواجبات المتبادلة بين الزّوجين، ومن أهمها الوصية بحسن العشرة، واحترام المشاعر، والطّاعة في المعروف بما يكفل دوام الألفة والانسجام وتحقيق الخلافة في الأرض بكثرة النسل وعمارة الكون بالصّلاح والخير.

ولكن النّفوس البشريّة ليست ذات طبيعة واحدة متآلفة، فهناك اختلاف في

---

(١) صحيح مسلم/١٤٦٦.

(٢) مسند أحمد ج ٤/٢٤٦، وهو حديث حسن.

(٣) سورة: النّساء، الآية: ٤.

الميول والأخلاق والعادات والأذواق لقول رسول الله ﷺ: «الأرواح جنود مجندة، فما تعارف منها ائتلف وما تناكرَ منها اختلفَ»[١].

وقد ينشأ الخلاف ويحصل النّفور والكراهية أحياناً بين الزّوجين فلا تصبر المرأة على زوجها وتندفع إلى المشاكسة والشجار، ويندفع هو إلى الظلم والتّضييق بالمرأة. فهل تترك الخلاف والشّجار هكذا يدمر الحياة الزّوجية، أم تبحث عن حلول تنقذ الحياة الزّوجية من الخراب والدّمار؟ لهذا شرع الإسلام من الوسائل الإصلاحية المتعدّدة ما يعيد المياه إلى مجاريها والسلام إلى الطرفين. وشرع الطلاق آخر الحلول وصمام أمان للحياة الزّوجية حين تفشل جميع الوسائل والحلول، ومن هذه الحلول والمراحل العلاجية:

المرحلة الأولى: التوصية بالنساء ومداراتهن:

التّوصية بالنّساء ومداراتهن، وإحسان العشرة معهن بالصّبر والتّأنّي، وتحمل ما يصدر منهنّ من أفعال وأقوال قد يكرهها الزّوج فالرّسولُ ﷺ يقول: «استوصُوا بالنّساء، فإنّ المرأةَ خلقتْ من ضلع، وإنّ أعوجَ شيء في الضّلع أعلاه، وإنْ ذهبتَ تقيمه كسرته، وإنْ تركته لم يزل أعوج، فاستوصُوا بالنّساء خيراً»[٢]، يعني أنها خلقت من أشد أجزاء الضّلع عوجاً، فلا يتهيأ الانتفاع بها إلاّ بالصّبر على تعوجها وتحمّل ما يصدر منها من أقوال وأفعال ويقول ﷺ: «لا يفرِكُ مؤمنٌ مؤمنةً إنْ كرِهَ منها خُلقاً رضي منها آخرَ»[٣] والفرك: البُغْض.

كل هذه التوصيات جاءت لضمان استمرار العشرة الزّوجية، وحفاظاً على رباط الزّوجية، والرّجل هو قوام الأسرة والحارس الأمين على مصالحها. فجاء الخطاب موجهاً له في قوله تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾﴾[٤].

---

(١) صحيح البخاري برقم ٣٣٣٦.
(٢) صحيح البخاري برقم ٢٨٦١ و٣٣٣١.
(٣) صحيح مسلم/١٤٦٩.
(٤) سورة: النساء، الآية: ١٩.

جاء في تفسير ابن كثير قوله في الآية: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ﴾[(١)]: أي طيّبوا أقوالكم لهنّ، وحسّنُوا أفعالكم وهيئاتكم بحسب قدرتكم، كما تُحب ذلك منها فافعل أنت بها مثلها كما قال تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ﴾[(٢)] وقال ﷺ: «خيرُكم خيرُكم لأهله، وأنا خيرُكم لأهلي»[(٣)].

وكان من أخلاقه ﷺ أنه جميل العشرة، دائم البشر، يداعب أهله ويتلطف بهم، ويوسعهم نفقته، وقوله تعالى: ﴿فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾﴾[(٤)] أي فعسى أن يكون صبركم في «إمساكهنّ» مع الكراهة فيه خير كثير لكم في الدنيا والآخرة.

كما قال ابن عباس في هذه الآية: «هو أن يعطف عليها فيرزق منها ولداً ويكون في ذلك الولد خير كثير» ويقول الإمام الزمخشري رحمه الله في الآية: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ﴾[(٥)] وهو النّصفة في المبيت والنّفقة والإجمال في القول ﴿فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ﴾[(٦)] فلا تفارقُوهُنّ لكراهة الأنفس وحدها فربما كرهت النّفسُ ما هو أصلح في الدِّين وأحمد وأدنى إلى الخير، وأحبت ما هو بضد ذلك.

فالإنسانُ يكرهُ بعض الأشياء، ولكن قد يكون فيها الخير الكثير، لذا أمر سبحانه وتعالى أن يصبر الرّجل على ما يكره من زوجته عسى أن يكون فيه المصلحة والخير العميم. ونختم قولنا بما أورده العلامة سيّد قطب في هذه الآية العظيمة وهي قوله تعالى: ﴿فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾﴾[(٧)] هذه اللّمسة الأخيرة في الآية تعلق النّفس بالله، وتهدىء من فورة الغضب، وتفثأ من حدّة الكره حتى يعاود الإنسان نفسه في هدوء. وحتى لا تكون العلاقة الزّوجية في

(١) سورة: النساء، الآية: ١٩.
(٢) سورة: البقرة، الآية: ٢٢٨.
(٣) صحيح الجامع الصغير برقم ٣٣١٤.
(٤) سورة: النساء، الآية: ١٩.
(٥) سورة: النساء، الآية: ١٩.
(٦) سورة: النساء، الآية: ١٩.
(٧) سورة: النساء، الآية: ١٩.

مهب الرّيح، فهي مربوطة العُرَى بالعروة الوثقى، العُروة الدّائمة التي تربط بين قلب المؤمن بربّه وهي أوثق العُرى وأبقاها «الإسلام» الذي ينظر إلى البيت سكناً وأمناً وسلاماً وينظر إلى العلاقة بينَ الزّوجين بوصفها مودّةً ورحمةً وأُنساً، ويُقيم هذه الآخرة على الاختيار المطلق كي تقوم على التّجاوب والتّعاطف والتّحابّ، هو الإسلام ذاته الذي يقول للأزواج: ﴿فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ۝١٩﴾[1] كي يستأني بعقدة الزّوجية فلا تفصم لأول خاطرة وكي يستمسك بعُقدة الزّوجية فلا تنفك لأوّل نزوةٍ، وكي يحفظ لهذه المؤسسة الإنسانية الكبرى جدّيتَها فلا يجعلها عرضةً لنزوة العاطفة المتقلّبة وحماقة الميل الطائش هنا وهناك.

وما أعظم قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه لرجل أرادَ أن يُطلّق لأنه لا يحبها، فقال: «ويحك!! ألم تُبْنَ البيوتُ إلاّ على الحبِّ؟ فأين الرّعاية وأين التّذمم؟».

إذاً هناك معانٍ جميلةٌ غير الحبّ، هناك النّبل والتّذمم وحفظ العُشرة والتّحمّل كلها مشاعرٌ وصفاتٌ تجعل من العُشرة المعتادة جميلةً، هذا بالنّسبة للزّوج، أما الزّوجة فقد بيّنّا سابقاً وظيفتَها ودورها في الحياة تجاه زوجها وأولادها بما فيه الكفاية.

المرحلة الثّانية: الخوف من النّشوز:

قال القرطبي: «النّشُوزُ لغةً: العصيان، مأخوذ من النّشزِ، وهو ما ارتفع من الأرض. والنّشوز: كراهية كل واحد من الزّوجين لصاحبه. ونشزت المرأةُ: استصعبت على بعلها، ونشز بعلها عليها: إذا ضَرَّ بها وجفاها».

فالنّشوز: حالة تعتري الزّوج أو الزّوجة من النّفور والإعراض والكراهية والتّرفع وعدم الاستجابة والعصيان من الزّوجة، والإعراض من الزّوج، وقد شرع الله سبحانه وتعالى لكل حالةٍ علاجَها حسب تطوّرها بتأنٍّ ورويّةٍ، وصبر، ولم يأمر بحسم العلاقة بينهما بالطلاق مباشرة بل أرشد كلاًّ من الزّوج أو الزّوجة بإرشادات لحسم بوادر النّشوز في بداياتها الأولى.

---

(١) سورة: النساء، الآية: ١٩.

نشوز الزّوج:

قال تعالى: ﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ وَإِن تُحْسِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾﴾[1].

والخوف: توقع ما يكره بوقوع بعض أسبابه أو ظهور بعض أماراته. قال الزّجّاج: إن امرأةٌ خافت من بعلها دوام النّشوز. والفرق بينَ النّشُوز والإعراض: أنّ النّشوز التّباعد والإعراض: ألاّ يُكلّمها ولا يأنَسُ إليها. وقيل المراد بالنّشوز: إظهار الخشونة في القول أو الفعل أو فيهما.

والمرادُ من الإعراض: ـ السّكوت عن الخير والشّرّ، والمداعبة والإيذاء، وذلك لأن مثل هذه الأعراض تدل دلالة قوية على النّفرة والكراهة. وتوضح السيدة عائشةُ رضي الله عنها صفة النّشوز من الزّوج وطريق العلاج فتقول في الآية: ﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا﴾ قالت: هي المرأة تكون عند الرّجل لا يستكثر منها فيريد طلاقها ويتزوّج غيرها، تقول له: أمسكني ولا تطلّقني، ثم تزوجْ غيري، فأنتَ في حلٍّ من النّفقة عليّ والقسمة لي، فذلك قوله تعالى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ﴾.

وفي تفسير معنى الصّلح وكيفيته يقول الإمام الرّازي: والصّلح إنّما يحصل في شيء يكون حقاً له، وحقُّ المرأة على الزّوج: المهر والنّفقة والقسم فهذه الثلاثة التي تقدر المرأة على طلبها من الزّوج شاء أم أبى. أمّا الوطء فلها الحقُّ فيه لإحصانها وكفّها عن المحرّمات.

وهذا الصّلح عبارة عما إذا بذلت المرأة كلّ صداقها، أو بعضه للزوج، أو أسقطت مؤنة النّفقة، أو أسقطت عنه القسم، وكان غرضها من ذلك ألا يُطلّقها زوجها، فإذا وقعت المصالحة على ذلك كان جائزاً.

فالمرأة مدعوة في هذه الحالة إلى الصّبر والحكمة والتّصرف بدقة إن تحسست

---

(١) سورة: النساء، الآية: ١٢٨.

من زوجها نفوراً أو إعراضاً، حفاظاً على رابطة الزّوجية فتستطيع بسياستها وحنكتها وحسّها الأنثوي، أن تتبيّن سبب الإعراض والجفاء، وتحاول إزالة هذه الأسباب وإصلاح الحال، والتعرف على مواطن الداء والعلة لعلاجها، وليس معنى ذلك أن أيّ إعراض من الرّجل يعتبر نُشوزاً. فهناك كثير من المسائل الحياتية المهمة قد تُشغلُ بالَـهُ وتأخذ من وقته وجهده الكثير، كالمسائـل الاقتصادية والسياسية أو العلمية والعملية، يستغرق فيها طاقتَهُ وجهدَهُ، فيأتي إليها وهو مجهد متعبٌ لا يستطيع معها مُنَاغَاتَها ومُسَامَرتَها أو مُبَاعَلَـتَها، فالواجب عليها أن تتبيّن كلَّ هذه الأسباب، وتتثبّت فيما تراه وتشعر به من أمارات النّشوز والإعراض، فإن كان كما شرحنا أو غيرها من الأسباب المؤقتة فإنّه يجب عليها الصّـبر والتحمل حتى تزول هذه الأسباب. بل الواجب عليها أن تصبر عليه وتساعده إن استطاعت إلى ذلك سبيلاً وتهيّـيء له جـوًّا من الراحة النّفسية والسّكون الرّوحي في الدار، وتزيل عنه الكرب والشّقاء بلطافتها وحنانها وإشراقها وتمسح عنه الأحزان وما يلاقيه من متاعب في الخارج وفي عمله ببسمة راضية، ونفس متفائلةٍ وتبث في نفسه الأمل والاطمئنان والطموح والتفاؤل وغالباً ما تزول أسباب الخلاف إن راعت الزّوجة مثل هذه الأمور في حياتها الزّوجية. وإن ظهر لها أن إعراضَهُ عنها ونفورَهُ منها لسبب يكرهه فيها، فعليها أن تُصلح من حالها، وتُراعي مواضع عينه وأنفه وأذنه، وتحاول إزالة أسباب الكراهية التي تُعتبر من أهمّ أسباب الإعراض والنّفور، وإن لم تنفع جميع الوسائل، وظل مع ذلك على إعراضه ونُشوزه. فالجواب أو العلاج ورد في الآية الكريمة: ﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًاۚ ﴾[1] أي لا بأس أن يصطلحا على نوع من الصّلح، كأنْ تسمح له ببعض حقها عليه في المهر والنّفقة أو المبيت، لتبقى في عصمته، أو ترد له المهر ليُخالعها إن لم تستطع الصبر كما قال تعالى: ﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦۗ ﴾[2] الآية. شرط أن لا يكون الرّجل فيها ظالماً يُلجئها إلى المخالعة ليستردَّ المهر منها إلاّ إذا كان هذا الخُلْع برضاها واعتقادها بأن ذلك خيرٌ لها. وسيأتي بيان ذلك في حينه. ونتابع حديث القرطبي في تحديد الصّلح، حيث يقول

(١) سورة: النساء، الآية: ١٢٨.

(٢) سورة: البقرة، الآية: ٢٢٩.

تعالى: ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾[١] ولفظ عام مطلق يقتضي أنّ الصّلح الحقيقي الذي تسكن إليه النّفوس، ويزول به الخلاف، خيرٌ على الإطلاق، ويدخل في هذا المعنى جميعُ ما يقع عليه الصّلح بين الرّجل وامرأتهِ، من مالٍ أو مبيتٍ، أو غير ذلك «خيرٌ» أي خير من الفرقة، فإنّ التّمادي على الخلاف والشّحناء والمُبَاغضَة هي قواعد الشّر.

والإسلام يدعو إلى بذل كل الجهود لتثبيت دعائم الحياة الزّوجية وتقوية عُرَاها لأنّ رابطة الزّوجية من أعظم الرّوابط وأحقها بالحفظ، وميثاقها أغلظ المواثيق وأجدرها بالوفاء.

علاج نشوز الزّوجة:

هنا يقع العكس فالنّشوز من الزّوجة: حالة من النّفور تعتريها فتصبح صعبة القياد، عاصية لزوجها، ناكرة لحقوقه مترفعة عليه بالعصيان والإعراض وعدم الطاعة يقول الله تعالى: ﴿وَالَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾[٢]. فقد أوجب الإسلام على الزّوج أن يسلك في إصلاحها ثلاث مراحل:

١ ـ النّصح والموعظة الحسنة والتّبصير بالعاقبة، وهو المراد من قوله تعالى: ﴿وَالَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ﴾[٣] يقول الإمام ابن كثير رحمه الله: أي ليعظها ويُخوّفها عقابَ الله في عصيانه، فإن الله قد أوجب حقّ الزّوج عليها وطاعته، وحرَّمَ عليها معصيتَهُ لِما له عليها من الفضل والإفضال. وقد ورد النّهي الشّديد والزجر البالغ في حديث رسول الله للمرأة التي لا تطيع زوجها بقوله: «إذا باتتِ المرأةُ هاجرةً فراشَ زوجِها لعنتْهَا الملائكةُ حتى ترجع»[٤].

ويورد الإمام القرطبي طريقة الموعظة فيقول: ذكروهن ما أوجب الله عليهنّ من حسن الصّحبة، وجميل المعاشرة للزوج، والاعتراف بالدّرجة التي له عليها.

---

(١) سورة: النساء، الآية: ١٢٨.
(٢) سورة: النساء، الآية: ٣٤.
(٣) سورة: النساء، الآية: ٣٤.
(٤) صحيح الجامع الصغير برقم ٤٠٨.

والوعظ يختلف باختلاف حال المرأة، فمنهن من يؤثر في نفسها التخويف من الله عزّ وجلّ وعقابه على النّشوز، ومنهن من يُؤثر في نفسها التّهديد والتّحذير من سوء العاقبة في الدنيا كشماتة الأعداء، والمنع من بعض الرغائب، كالثياب الحسنة والحلي، والرّجل العاقل لا يخفى عليه الوعظ الذي يؤثر في قلب امرأته.

ويجب أن يكون التذكير والوعظ في أوقات مناسبة وبطريقة مؤثرة لا يكتفي بمرة واحدةٍ فقط، بل يكرّر ذلك مراتٍ ومراتٍ حسب الظّروف والمناسبات لأن التذكير والوعظ الهادىء من شأنه أن يُخفف حِدّة الغضب والثّورة ويُبصر العقل بالنتائج الوخيمة، ويستميل القلب والعاطفة إلى الرشد والصّلاح، فإن لم يُثمر الوعظ بالكلام وظلت المرأة على نشوزها تأتي مرحلة أخرى وهي:

٢ ـ الهجر في المضاجع: يقول الله تعالى: ﴿وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ﴾[١] والهجر في المضاجع: هو أن يُضاجعها ويوليها ظهره ولا يُجامعها. فالواجب على المسلم أن يلتزم بالآداب الإسلامية والأخلاق الحميدة في جميع شؤونه في الحياة، وخصوصاً في حلّ مشاكل الحياة الزّوجيّة، وفي حالة الغضب والاستياء «ليسَ الشّديدُ بالصّرعة إنّما الشّديد الذي يملكُ نفسَهُ عند الغضب»[٢]، وقد مدح الله سبحانه وتعالى المؤمنين بصفة الحلم والعفو عند المقدرة فقال تعالى: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾[٣]. لكننا نرى في الوقت الحاضر أن كثيراً من الأزواج يخالف ذلك فهو إذا غضب، أو حصل خلافٌ بينهُ وبينَ زوجتهِ، فإنّه يترك الدّار ويبيتُ خارجه، أو ينفعل مُغضباً لدرجة أنّه يطرد زوجته من دارها، وقد يسمع الجار أحياناً صراخَهُ ويقع كلّ ذلك أمام أعين الأطفال الأبرياء، وهذا ممّا لا يليق بالرّجل المسلم فعله لِما يتركه ذلك التّصرف الشّائن من آثارٍ وخيمة على نفسه وزوجه وأولاده، بالإضافة إلى افتضاح أمر العائلة، فيزداد النّفورُ ويشتد الصّراع وهذا مما لا يرضاه الدِّين، وتأباه الفطرة القويمة. فالدّينُ أمرَ بالهجر في المضجع، فإن كانت الزّوجة تحب زوجها شقّ ذلك عليها، فتترك النّشوز، وإن

---

(١) سورة: النساء، الآية: ٣٤.
(٢) صحيح البخاري برقم ٦١١٤.
(٣) سورة: آل عمران، الآية: ١٣٤.

كانت تُبغضه وافقها ذلك الهجران وكان ذلك دليلاً على كمال نشوزها[١].

فإن تمادتِ الزّوجةُ في العصيان ولم يُؤثّر فيها الهجران والوعظ فذلك دليل على مرضِ مشاعرها وانحراف طبيعتها، وهنا تأتي المرحلةُ التّالية وهي:

٣ ـ أسلوب الضّرب: يقول الله تعالى: ﴿وَٱضۡرِبُوهُنَّ﴾[٢] وهو أمر للعلاج. والضّرب يكون أحياناً وسيلة من وسائل التّأديب والزّجر، وقد يشفي كثيراً من حالات العصيان في كثير من الأحوال والبيئات وقد يطعن قوم في تشريع الضّرب للمرأة النّاشز، ويوصف ذلك بالغلظة والقسوة والظّلم على المرأة، ولكن كما نعلم أنّ الإسلام دينٌ عامٌّ لجميع البشر ولكافّة طبقات النّاس. والمرأة الرشيدة لا تُوصل نفسَها إلى هذا العلاج الشّديد، فعليها أن تتعظ.

والعلاج الثالث شرعه من يعلمُ نفوسَ البشر وطبائعهم، فهو لم يعرض وسيلة الضّرب وحدها للعلاج بل أباح ذلك في حالات الضّرورة بطريقة بعيدة عن الاعتداء والظلم.

يقول الإمام القرطبي رحمه الله: «والضّرب في هذه الآية: هو الضّرب غير المبرح، وهو الذي لا يكسر عظماً، ولا يشين جارحةً، فالمقصودُ منه الإصلاح لا غيره، كاللكزة ونحوها، فإن المقصود الإصلاح لا غير، فلا جرم إذا أدى إلى الهلاك وجب الضّمان!. وسُئل ابن عباس عن الضّرب غير المبرح قال: بالسّواك ونحوه»[٣].
وعن معاوية العشيري عن أبيه: قلتُ: يا رسولَ الله ما حقُّ زوجةِ أحدِنَا عليه؟ قال: «أن تطعمها إذا طعمتَ، وتكسوها إذا اكتسيت، ولا تضربِ الوَجْهَ ولا تُقَبّحْ، ولا تهجر إلاّ في البيتِ»[٤]. يقول صاحب عون المعبود: ومعنى «لا تضربِ الوَجْهَ» لأنّه من أعظم الأعضاء وأظهرها، ومشتمل على أجزاء شريفة وأعضاء لطيفة، وفيه دليل على وجوب اجتناب الوجه عند التّأديب، ولا تُقَبّحْ ـ بتشديد الباء ـ أي لا تقلْ قولاً قبيحاً ولا تشتمها بقولكَ قبحكِ الله، ونحوه من السّباب.

---

(١) التفسير الكبير ج ١٠، ص ٩٧.
(٢) سورة: النساء، الآية: ٣٤.
(٣) الجامع لأحكام القرآن ج ٥، ص ١٧٢ ـ ١٧٣.
(٤) عون المعبود، كتاب النكاح ج ٦، ص ١٨٠.

«ولا تهجرْ إلاّ في البيتِ» أي لا تتحوّل عنها إلى دارٍ أخرى لقوله تعالى: ﴿وَٱهْجُرُوهُنَّ فِي ٱلْمَضَاجِعِ﴾[١].

وورد عن رسول الله ﷺ أنّه قال: «لا تضربُوا إماءَ الله». فجاء عمر إلى رسول الله ﷺ فقال: «ذئرن النّساء على أزواجهن؟» فرخّصَ النّبيّ ﷺ ضربهنّ، فأطاف بآل رسول الله نساءٌ كثيرٌ يشكون أزواجهن، فقال النّبيّ ﷺ: «لقد طاف بآل محمّدٍ نساءٌ كثيرٌ يشكون أزواجَهُنّ، ليس أولئك بخياركم»!! أي الرجال الذين يضربُونَ نساءَهم ضرباً مبرحاً ليسوا بخياركم بل خياركم من لا يضربهنّ، ويتحمل عنهُنّ، أو يُؤدّبهُنّ بحكمةٍ ولا يضربن ضرباً شديداً يؤدي إلى شكايتهنّ، ووجه ترتب السّنّة على الكتاب في الضّرب يحتمل أنّ نهي النّبيّ ﷺ قبل نزوله الآية ثم لما ذئرن النّساء: أذن في ضربهنّ، ونزل القرآن موافقاً له، ثم لمّا بالغوا في الضّرب أخبر النبي ﷺ أنّ الضّرب «وإن كان مباحاً على شكاسة أخلاقهنّ فالتّحمّل والصّبر على سوء أخلاقهنّ وترك الضّرب أفضل وأجمل» هذه إرشادات القرآن والسّنّة في اتخاذ الطّرق الحكيمة واتّباع الأساليب الصّحيحة لمعالجة النّشوز والعصيان من الزّوجة، فحث على الصّبر والتّحمل ثم أمر بالوعظ والإرشاد ثم الهجر في المضاجع، فإنْ لم تنفع جميع هذه الوسائل يستعمل الضّرب وهو آخر الوسائل التي قد تعيد المرأة إلى صوابها. فضرب بالسواك ونحوه أقل ضرراً من إيقاع الطلاق عليها وهدم الأسرة وتشتيت الأطفال فإن رجعن إلى رشدهنّ فلا داعي لمواصلة الهجر أو الضّرب. يقول الله تعالى: ﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾[٢] ويقول القرطبي: أي لا تجنوا عليهن بقولٍ أو فعلٍ، وهذا نهي عن ظلمهنّ بعد تقرير الفضل عليهنّ، والتّمكين من أدبهنّ. ويُكمل الإمام قوله: إذا ثبت هذا فاعلم أنّ الله عزّ وجلّ لم يأمر في شيء من كتابه بالضّرب صراحاً إلاّ هنا، وفي الحدود والعظام فساوى معصيتهن بأزواجهن بمعصية الكبائر، وولى الأزواج ذلك دون الأئمة، وجعله لهم دون القضاة بغير شهود ولا بيّنات. ائتماناً من الله تعالى للأزواج على النّساء[٣].

---

(١) سورة: النساء، الآية: ٣٤.
(٢) سورة: النساء، الآية: ٣٤.
(٣) الجامع لأحكام القرآن ج ٥، ص ١٧٢ ـ ١٧٣.

فعلى الزّوج أن يخاف الله في استعمال الحقوق التي أباحها له الشّرع، فلا يتجاوز ولا يُفرِط في الهجر والضّرب والاستعلاء على زوجته بقوّته وقدرته التي فضّله الله بها، ولو شاء لنزعَها منهُ. فالله مطّلعٌ على الجميع، وقد وصّى رسول الله ﷺ بالنساء في حجة الوداع بقوله: «اتقوا الله في النّساء، فإنكم أخذتموهُنّ بأمان الله، واستحللتم فروجَهُنّ بكلمةِ الله، ولكم عليهنّ أنْ لا يُوطئن فُرُشَكُم أحداً تكرهونه فإن فعلن ذلك، فاضربوهُنّ ضرباً غير مبرح، ولهنّ عليكم رزقهنّ وكسوتهنّ بالمعروف»[1].

فالضّرب ليس إهانة للمرأة وإنما هو من طرق العلاج ينفع بعض النّفوس الشّاذّة المنحرفة. وقد أثبتَ الطّبّ النّفسي الحديث أن هناك نوعاً من النّساء لا يستجبن إلاّ بالعنف والضّرب رغم ذلك فإن الإسلام قد نهى عن الضّرب المبرح، أو الذي يُؤدي إلى ضرر بالغ، وجعل هذه الوسيلة شبه معطّلة لحثّه على الترفق واللين الدّائم. لقول رسول الله ﷺ: «إنّ الله يُحب الرِّفْقَ في الأمرِ كلّهِ»[2].

المرحلة الثالثة: الشقاق بين الزّوجين:

وحلّ ذلك عن طريق الحَكَمين: يقول الله تعالى: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾ ﴾[3].

يقول الإمام القرطبي في معنى الشّقاق: المنازعة، وقيل: الشّقاق المجادلة والمخالفة والتّعادي، وأصله من الشّق، وهو الجانب، فكأن كلَّ واحد من الزّوجين يأخذ شقاً غير شق صاحبه أي ناحية غير ناحية صاحبه.

ويكمل الإمام القرطبي قوله: والحكمان لا يكونان إلاّ من أهل الرجل والمرأة إذ هما أقعد ـ أعرف ـ بحال الزّوجين ويكونان من أهل العدالة وحسن النّظر والبصر بالفقه، فإن لم يوجد من أهلهما مَنْ يصلحُ لذلك فيرسل الحاكم أو الوالي من غيرهما

(١) صحيح مسلم ج ٣، ص ٨٩٠.
(٢) صحيح البخاري ج ٨، ص ١٤.
(٣) سورة: النّساء، الآية: ٣٥.

عدلين عالمين وذلك إذا أشكل أمرهما ولم يدر ممن الإساءة منهما، فأمّا إن عرف الظّالم فإنّه يُؤخذ له الحق من صاحبه ويجبر على إزالة الضّرر.

المرحلة الرابعة: الطّلاق:

حين تتعرّض الحياة الزّوجية للانهيار وتتحطّم جميع الوسائل الإصلاحية وتُصبح الحياة شقاءً وعذاباً لجميع أفراد الأسرة فالأفضل في هذه الحالة انفصال كل طرف عن الآخر ليبدأ حياته من جديد فيرتفع الضّرر وينتهي الشقاق؛ ويقول الله تعالى: ﴿ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾ ﴾[1]. رغم كل هذا فإن الإسلام لم يُحبّذ وقوعه بل كره النّاس في إيقاعه فهو كالدواء المرّ الذي يوصف للمريض عندما لا يُوجد دواء غيره.

يقول العلامة أبو الطّيّب صاحب عون المعبود: قال الخطابي: اتفق أهل العلم أن صرح لفظ الطلاق على لسان الإنسان البالغ العاقل مؤاخذ به، ولا ينفعه أن يقول كنتُ لاعباً أو هازلاً. أو لم أنوه طلاقاً أو ما أشبه ذلك من الأمور واحتجَّ بعض العلماء في ذلك بقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا ﴾[2]. وقال: لو أطلق للنّاس ذلك لتعطّلت الأحكام ولم يؤمن مطلّق أو ناكح أو معتق أن يقول كنت في قولي هازلاً فيكون في ذلك إبطال حكم الله تعالى وذلك غير جائز فكل من تكلّم بشيء ممّا جاء ذكره في هذا الحديث لزمه حكمه ولم يقبل منه أن المدعى خلافه، وذلك تأكيداً لأمر الفروج واحتياطاً لها والله أعلم[3].

هكذا يتبيّن أن حدود الله يجب أن تحفظ، والأمور التي تتعلق بالحياة عامّة والحياة الاجتماعية والأسريّة خاصّةً. يجب أن تؤخذ بعين الحذر والجدّ لا بالهزل والاستهتار، كما يجب على الرّجل أن يضبط أعصابه بقدر الإمكان ويتروّى في معالجة المشاكل بهدوء، وتعقل مع زوجته. وألاّ يتهوّر في استخدام حق الطلاق لمجرد نزوة عابرة أو انفعال مؤقت أو تسلطاً وتجبّراً وتهديداً وما أكثر ما يقع الطلاق نتيجة التهور

---

(١) سورة: النساء، الآية: ١٣٠.

(٢) سورة: البقرة، الآية: ٢٣١.

(٣) عون المعبود ج ٦، ص ٢٦٣.

فيجب التعقل والاحتياط لأن فصم عُرى الحياة الزّوجية وإنقاضها أمر عظيم وبلاء كبير لا يقع تأثيره السّيىء على الزّوجة والزّوج فقط بل يشمل الأولاد والمجتمع وسائر أفراد الأسرة. لذا فإن الشّرع الحكيم لم يجعل الطلاق كلمة يتفوّه بها الرّجل فيحرم كل منهما على الآخر تحريماً أبدياً وإنما تدرج في إيقاعه وحدده بقيود تجعل منه سبيل إصلاح في كثير من الأحيان، ووسيلة لإعادة الحياة إلى مجراها الطبيعي وذلك بتقرير وإباحة الرجعة إن كان الطلاق رجعياً لا كما حرمته جميع الأديان المحرفة والقوانين السابقة ـ كما مرّ بنا سابقاً ـ كما يجوز للمرأة أن تتزوج بعد طلاقها من غير زوجها ولا حرج عليها في ذلك. فمن جملة القيود التي وضعها الإسلام على الطّلاق:

أولاً: أن حدده بعدد معيّن، بعد أن كان الرّجل يُطلّق دونما حصر أو عدّ، فقال تعالى: ﴿ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ﴾[1] إلى قوله تعالى: ﴿ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوۡجًا غَيۡرَهُۥۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۗ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ۝٢٣٠﴾[2].

يقول ابن كثير رحمه الله في قوله تعالى: ﴿ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوۡجًا غَيۡرَهُۥۗ﴾ أي إنْ طلق الرّجل امرأته طلقة ثالثة بعدما أرسل عليها الطلاق مرّتين فإنّها تحرم عليه حتى تنكح زوجاً غيره، أي حتى يطأها زوج آخر في نكاح صحيح. وقوله تعالى: ﴿ فَإِن طَلَّقَهَا﴾ أي الزّوج الثاني، بعد الدخول بها ﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ﴾ أي المرأة والزّوج الأول ﴿ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۗ﴾ أي يتعاشَرَا بالمعروف، قال مجاهد: إن ظنّا أنّ نكاحهما على غير دلسة[3]. إذا يجوز للمرأة أن تعود إلى زوجها الأول إن كان طلّقها ثلاثاً بعد أن تنكح زوجاً غيره نكاحاً صحيحاً ثم يُطلّقها طوعاً وباختياره دون جبرٍ أو إكراهٍ.

أمّا بالنّسبة لعدد الطلاق وكيفية وقوعه هل يقع مفرّقاً مرّةً بعد مرّةٍ أو يقع دفعةً واحدة إن نطق بالثلاث معاً فقد اختلفَ المفسّرون والفقهاء. وفي ذلك يقول الإمام

---

(١) سورة: البقرة، الآية: ٢٢٩.
(٢) سورة: البقرة، الآية: ٢٣٠.
(٣) تفسير القرآن العظيم ج ١، ص ٢٧٨ ـ ٢٨٠.

الرّازي في قوله تعالى: ﴿ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ ﴾[1] اختلف المفسّرون في أنّ هذا الكلام في حكم المبتدأ وهو متعلّق بما قبله. قال قوم: إنه حكم المبتدأ، ومعناه أن التطليق الشرعي يجب أن يكون تطليقة بعد تطليقة على التّفريق دون الجمع والإرسال «دفعة واحدة».

وهذا التّفسير هو قول من قال: الجمع بين الثّلاث حرام. قال أبو زيد الدّبوسي في الأسرار: إنّ هذا هو قول عمر وعثمان وعليّ وعبد اللّه بن مسعود وعبد اللّه بن عباس وعبد اللّه بن عمر وعمران بن الحُصَين، وأبي موسى الأشعري وأبي الدّرداء وحُذَيفة.

أمّا من قال: إنّ هذا الكلام ليس ابتداء كلام، بل هو متعلق بما قبله يصبح المعنى: أن الطّلاق الرجعي مرّتان، ولا رجعة بعد الثلاث، وهذا التّفسير هو قول: مَنْ جَوّز الجمع بين الثلاث، وهو مذهب الشافعي رضي الله عنه.

يقول الإمام الشّوكاني: اعلم أنّه قد وقع الخلاف في الطّلاق الثّلاث إذا وقعت في وقتٍ واحد، هل يقع جميعها ويتبع الطّلاق أم لا؟.

مذهب جمهور التّابعين وكثير من الصّحابة وأئمة المذاهب الأربعة وطائفة من أهل البيت منهم أمير المؤمنين عليّ رضي الله عنه، ذهبوا إلى أنّ الطّلاق يتبع الطّلاق، أي يقع.

وذهبتْ طائفةٌ من أهل العلم إلى أنّ الطّلاق لا يتبع الطّلاق بل يقع واحدة فقط وقد حكَى ذلك صاحبُ البحر عن أبي موسى، ورواية عن عليّ وابن عباس وطاووس وعطاء وجابر. وإليه يذهب جماعة من المتأخرين منهم ابن تيمية وابن القيم وجماعة من المحقّقين.

وقد ذكر الشّوكاني حجج الفريقين، ورجّح وقوعَ الواحدة بأدلّة لا مجالَ لذكرها الآن.

والذي يترجَّح بالأدلّة أنّ الطّلاق الشّرعي يجب أن يكون مرّة بعد مرّة حتى يتسنّى للزّوج والزّوجة النّظر والتّفكر في عواقب الأمور، وحتى يجرب كل من الرّجل والمرأة

---

(١) سورة: البقرة، الآية: ٢٢٩.

نفسيهما، ويتبيّنا حقيقة مشاعرهما تجاه بعضهما فتكون هناك فرصة للرجوع والاجتماع بعد التّفريق المؤقّت.

يقول الدكتور مصطفى عبد الواحد: «وتجربة المرتين في الطّلاق ينبغي أن تُبصِّرَ الزّوجَ بحقيقة الأمر، وتُتيح له اتخاذ قرار حاسم، إما بإمساك الزّوجة، وإمّا بفراقها فإذا فارقها المرّةَ الثالثةَ حجب الإسلام بينهما، إلا بشروط فيها تأديب وزجر، وفيها إرهاب من العبث بالطّلاق، واستعماله بلا حاجة ولا ضرورة ﴿ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوۡجًا غَيۡرَهُۥۗ ﴾[١] وهو شرط قد يعسر تحقيقه، مع ما فيه من لَذْعٍ وتأنيبٍ، فإن كانت للرجل حاجة في زوجته، فليتدبّر ويتروَّ، قبل أن يبتَّ الحبلَ ويسرف في الفراق والهجر، أمّا أن يصير الأمر عبثاً وفوضى بلا تحرج ولا خشية، فذلك يهدد كيان الأسرة ويضخم من مشكلات المجتمع.

ويجبُ إيقاعُ الطلاق على من عزم عليه على السّنّة وذلك بأن يُطلق الزّوج امرأته في طهر لم يُجامعها فيه، طلقةً واحدةً فقط.

فالطّلاق في أثناء الحيض إضرار بالمرأة، فإنّها تصاب ببعض التّغيّرات النّفسية والعصبية، وبنوع من الإرهاق والتّعب كما هو ملاحظ فمتى زالت هذه الفترة عاد كلٌّ منهما إلى صاحبه فيزول التّوتر والنّزاع ويُخيم الهدوء والسكون.

وكذلك ورد النّهي عن طلاق المرأة في طهرٍ جامعها فيه، فربّما حملتْ منه وهو لا يدري، فقد يندم على طلاقه بعد استبانة حملها، ويرغب في مواصلة العُشرة معها، وكذلك حتى لا تطول مدّة العدّة على المرأة الحامل، لأنّ عدّتها حتى تضع حملها، وفي ذلك ضررٌ بالغ لها من حيث طول المدّة.

لذا إن عزم الرّجل على الطّلاق فليوقع الطّلاق في طهر لم يمسها فيه. يقول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحۡصُواْ ٱلۡعِدَّةَ ﴾[٢].

وعن عبد اللّه بن عمر رضي الله عنهما أنّه طلق امرأتَه وهي حائض على عهد

---

(١) سورة: البقرة، الآية: ٢٣٠.

(٢) سورة: الطلاق، الآية: ١.

رسول الله ﷺ فسأل عمر بن الخطاب رسول الله ﷺ فقال رسولُ الله: «مُرْهُ فَلْيُراجِعْهَا، ثم لِيُمْسِكْهَا حتى تطهرَ، ثم تحيض ثم تطهر، ثم إن شاء أمسكَ بعدُ، وإن شاء طلّقَ قبلَ أن يمس، فتلك العدّة التي أمر الله أن تُطلَّقَ لها النّساء»(١).

ومن عظيم رعاية الإسلام للتّخفيف والحدّ من مشكلة الطّلاق: أن تَبْقَى المطلّقةُ الرجعيةُ في منزل الزّوجيّة. ولها حقُّ السّكن والنّفقة؛ لأنّ الزّوج له الحقُّ في مراجعتها متى شاءَ قبلَ أن تنتهي العدّة. يقول الله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾(٢).

يقول الإمام الشوكاني في الآية: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ﴾ أي التي كُنّ فيها عندَ الطّلاق ما دُمْنَ في العدّة، وأضاف البيُوت إليهنّ وهي لأزواجهنّ لتأكيد النّهي وبيان كمال استحقاقِهنّ للسكن مدّة العدّة.

وفي هذا الأمر مُنْتَهى الحكمة لإصلاح الأحوال الزّوجيّة، فإن الزّوجة في فترة العدّة حتى تبقى في منزل الزّوجية يكون ذلك أدعى للزّوج إلى رجعتها حين يحس بألم الفراق والوحشة والوحدة، فإنّه يراجع نفسه بعد أن يذهب عنه الغضب والانفعال ويشعر بالفراغ حين مقاطعتها، وهي كذلك تحس بألم الهجر والوحدة، وتقدر ما كان يبذله لها من وقتٍ وجهدٍ لإسعادها، كل ذلك يحصل حين تكون الزّوجة في منزل الزّوجية، فيتراجعا أمّا إذا أخرجت إلى بيت أبيها كما تفعل بعض النّساء الجاهلات بأحكام الله، أو إن أخرجَها زوجُها من بيتها بالقوّة فهذا أمر مخالفٌ لما أمرَ الله به، فتزداد حدّة النّفور ويشتدّ العناد من الرّجل والمرأة، ويزيدُ الطّين بلةً تَدَخُّلُ الأهل وتحريضُهم أو انحيازهم إلى جانبٍ واحد دون آخر ممّا يُفوّت المصلحة لكلا الزّوجين في إعادة التّفاهم ويقلل فرص الصّلح والاستمرار في الحياة الزّوجية من أجل ذلك شرع الله حقَّ الرجعة للزّوج ما دامت الزّوجة في العدّة فيقول الله تعالى: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا﴾(٣).

---

(١) صحيح البخاري كتاب الطلاق ج ٨، ص ٥٢.
(٢) سورة: الطلاق، الآية: ١.
(٣) سورة: البقرة، الآية: ٢٢٨.

والمعنى أنّ الزّوج أحق بالرجعة إن أراد الإصلاح وليس الضّرر ونظيره قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ﴾[١]. والسّبب في نزول هذه الآية: «أنّ أهلَ الجاهلية كانوا يرجعون المطلّقات ويُريدون بذلك الإضرار بهنّ ليطلقوهُنّ بعد الرجعة، حتى تحتاج المرأة إلى أن تعتد عدةً حادثةً، فنُهُوا عن ذلك، وجعل الشرط في حلّ المراجعة إرادة الإصلاح»[٢] وهو قوله تعالى: ﴿ إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَٰحًا ﴾[٣].

فإن انتهت العدةُ فقد وجب البتّ في شأن العلاقة المعلقة! يقول تعالى: ﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا۟ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ ﴾[٤]. يقول الإمام ابن كثير: يقول الله تعالى فإذا بلغتِ المعتدات أجلهنَّ أي شارَفْنَ على انقضاء العِدّة وقارين ذلك ولكن لم تفرغ العدة بالكلية، فحينئذٍ إما أن يعزم الزّوج على إمساكها وإمّا أنْ يعزم على مفارقتها بمعروف أي من غير مقابحة ولا مُشَاتمة ولا تعنيف، بل يطلقها على وجه جميل وسبيل حسن[٥].

إنّ الطّلاق الرّجعي الذي هو واحد من ثلاث ـ يحق فيه للرّجل ارتجاع زوجته قبل نهاية العدّة التي شرعها الله تعالى.

---

(١) سورة: البقرة، الآية: ٢٣١.
(٢) الرازي التفسير الكبير ج ٦، ص ١٠١.
(٣) سورة: البقرة، الآية: ٢٢٨.
(٤) سورة: الطلاق، الآية: ٢.
(٥) تفسير القرآن العظيم ج ٤، ص ٣٧٩.

المبحث الثّاني:

حكمة تملّك الزّوج حقَّ الطلاق

إنّ الإسلام جعل الطّلاق بيدِ الرّجل وحده، وهو عادل في إعطائه هذا الحقَّ لأنّ القاعدة تقول: «الغُنْمُ بالغُرْم» فالرّجل وحده يتحمّل تكاليف ونفقة الزّواج، ودفع المهر وتأثيث منزل الزّوجية ثم هو ملزم بالإنفاق على زوجته وعياله منها ولو كانت الزّوجة غنية. فمن حقه أن ينهي الحياة الزّوجية إذا رضي بتحمل الخسارة المادية والمعنوية، والرّجل كما سبق أن بينت في الفروق بين الذكر والأنثى أقدر على ضبط أعصابه والتروي والتعقّل والتّصرف بحكمة في المواقف الحرجة لذلك مُنح درجة القِوَامة على عكس المرأة فإنّها سريعة الانفعال والاندفاع متقلبة العاطفة شديدة التأثّر والحكم في مثل هذه الأمور الحسّاسة لا بدّ أن يكون في يد الحازم الذي يستطيع ضبط أعصابه ويُقدّر النّتائج المترتبة على إصدار الحكم ولو جعل في يد المرأة كما يطالب به المقلدون عندنا لارتفعت نسب الطلاق وازدادت حدة المشاكل وسهل على الزّوجة أن توقع الطّلاق متى اختصمت مع زوجها رغبة في تغريمه وانتقاماً منه لا سيما وهي سريعة الانفعال والغضب لا تُبالي كثيراً بالنّتائج، وهي في ثورة غضبها، وهذا ما هو حاصل في البلاد التي أباحت للمرأة تطليق زوجها بسبب ما أباحه القانون المدني هناك من حق للمرأة في تطليق زوجها، والمرأة غالباً ما تمشي وراء عواطفها الحادّة وتتصّرف سريعاً تحت تأثيراتها. إنّ هذه الدّلائل تُشير إلى أن نظام الطّلاق في الإسلام هو من أحسن الحلول، شرعهُ العليم الخبير تحقيقاً للخير وتقليلاً للشرّ ما أمكن، فليكف النّاعقون عن ترديد ما لقّنه لهم الأعداء الحاقدون دون تفكير وتعمق ولكن ليس معنى ذلك أن الشّرع الحكيم قد سدَّ جميع المنافذ على المرأة المسلمة المتضرّرة في حياتها الزّوجية وحاشا أن يكون كذلك فهو أرحم وأكرم بالمرأة في سائر شؤون حياتها فما بالك في أرخص أمور حياتها. فقد تولى بيان الحكم المتعلّق برفع الظلم عنها في حياتها الزّوجية في

القرآن الكريم. حيث شرع لها الخلع في حالات لا تستطيع معها العيش مع زوجها وهو تشريع عظيم لم يأتِ به أي قانون أو نظام على وجه الأرض. فالخلع: هو فراقُ الرّجلِ امرأتَهُ على عوضٍ يحصلُ له بألفاظ مخصوصةٍ[١].

والدليل على مشروعيته من القرآن:

قوله تعالى: ﴿ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا۟ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٢٢٩﴾ ﴾[٢].

يقول الإمام ابن كثير: إذا تشاقق الزوجان ولم تقم المرأة بحقوق الرّجل وأبغضته ولم تقدر على معاشرته فلها أن تفتدي منه بما أعطاها، ولا حَرجَ عليها في بذلها، ولا حَرجَ عليه في قبول ذلك منها[٣].

ودليله من السنّة:

ما ورد عن ابن عباس رضي الله عنهما: «أن امرأة ثابت بن قيس أتتِ النّبيّ ﷺ فقالت: يا رسولَ الله! ثابت بن قيس ما أعتب عليه في خُلُقٍ ولا دينٍ، ولكن أكره الكفر في الإسلام، قال رسول الله ﷺ: «أتردِّينَ عليه حديقتَهُ؟» قالت: نعم! فقال رسول الله ﷺ: «اقبلِ الحديقةَ وطلّقها تطليقةً»[٤].

إذنْ يجوز للمرأة أن تُخالع زوجَها إن كرهته وخافت أن ترتكب إثماً بترك حقه بعوض تفتدي به نفسها منه. وفي هذا عدل تام إذْ لا يُكلّف الرّجل خسارته في امرأته وفي ماله بغير ذنبٍ من جانبه. كما أنّه لا يجوز للزّوج أن يأخذ منها شيئاً من المال إلاّ برضاها واختيارها من غير إيذاءٍ منه ولا مضارّة لقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا۟ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ ﴾[٥]. وكل ذلك في حدود الاعتدال دون إفراط أو تفريط.

---

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري ج ٢، ص ٢٦٠.
(٢) سورة: البقرة، الآية: ٢٢٩.
(٣) تفسير القرآن العظيم ج ١، ص ٢٧٢.
(٤) صحيح البخاري، كتاب الطّلاق: باب الخلع ج ٧، ص ٦٠ ـ ٦١.
(٥) سورة: النّساء، الآية: ١٩.

فالواجب على كلا الزّوجين التحمّل والصّبر والمحافظة على العُشْرة الزّوجيّة ودوامها والعمل على كل ما يُساعد على استمرارها بحسن المعاشرة وتجنّب أسباب الشّقاق والنّفور وعدم الاستجابة والتّأثّر لادعاءات وشبهات أعداء الإسلام والمغرضين، فالمسلم يجب أن يكون يقظ الضمير واعياً لأحكام دينه لا يتهور في استعمال ما منحه له من حقوق وخصوصاً حقّ الطّلاق؛ لأنّه سيكون مسؤولاً ومؤاخذاً عندَ الله إنْ هو تجبَّر وظلم، وعلاج المشكلات التي تعترضه في حياته لا يكون بإيقاع الطّلاق فحسب، بل بمواجهة هذه المشاكل بطريقةٍ علميةٍ وتحليلٍ مباشرٍ لظواهر المشكلة، يشرك فيها زوجته بالمشاورة وأخذ الرأي. والتّعاون على عمل كل ما يُصلح الأسرة ويعود عليها بالرّخاء والأمن والاطمئنان فكم جرَّ التّهور في استعمال الطّلاق من بلاءٍ ودمارٍ للأفرادِ والأُسَرِ فنرى الرّجل يحرم على نفسه زوجتَه لأتْفَهِ الأسباب ثم يندم على ذلك فيبحث عن المبرّرات والفتاوى التي تُصحّح ما قد وقع فيه وقد يرتكب إثماً أو يتبع فتوى ضالّةً غير صحيحة في تحليل ما حرَّمَ الله.

فالأفضل أن يتروّى في مثل هذه الأمور التي هي في غاية الحساسية، وقد رأينا كيف أن الإسلام رغَّبَ وحَبَّبَ في استمرار العلاقة الزّوجية، وجعل الطّلاق آخر الحلول كما رغَّبَ المرأة في تحمل ما يصدر من زوجها مما قد يؤذي شعورها وأحاسيسها حتى يسلمَ العشُّ الزّوجي من الهدم وتشتت الأولاد وحرمانهم من جوّ الأسرة الحانية الرّحيمة.

عن كعب بنِ عُجرة قال: قال رسول الله ﷺ: «.. ألاَ أُخْبِرُكُم بنسائِكُم مِنْ أهلِ الجنّة؟ الوَدُودُ الوَلُودُ، العَوُودُ؛ التي إذا ظُلِمتْ قالتْ: هذه يدي في يدِكَ، لا أذُوقُ غُمْضاً حتى ترضى»[1] أيْ: لا تنام حتى تُرضي زوجَها!.

فهذه هي الزّوجةُ الصّابرةُ المحتسبة التي نذرتْ حياتَها لبناءِ أسرتها ورعاية أولادِها، والمحافظةِ على زوجِها، ولو كلّفها ذلك ما كلّفها من تحمّلِ المصاعبِ والمتاعبِ والمشاقّ. فهذه المنزلةُ العاليةُ الرّفيعةُ لمثلِ هذه الزّوجةِ الصّابرةِ الصّالحةِ!!!.

---

(١) إسناده حسن، صحيح الجامع الصغير، ج ٥٠٨/١.

البحث الثّالث:

الطلاق ومقارنته بين التشريع الإسلامي والشرائع القديمة[1]

الإسلام ليس أول من أباح الطلاق:

يعيبُ علينا المتعصبون من المستشرقين المحترفين أن الإسلام يبيح الطلاق والتفرقة بين الزّوجين، مع أن الإسلام كان مثلاً للإنسانية والعدالة حينما أجاز الطلاق عند استمرار النزاع، واشتداد الشقاق والخلاف، واستحالة إيجاد حياة سعيدة هادئة هانئة موفقة بين الزّوج وزوجه.

ولو وازنوا بين الديانات لأدركوا أن قوانين الطلاق في الإسلام أعطت المرأة حقها أكثر من أي دين آخر، وخاصة من ناحيتي الإنسانية والعدالة.

ولو درسوا تاريخ الأمم والأديان لعلموا أن الإسلام لم يكن أول من أباح الطلاق؛ فقد كان منتشراً لدى العرب قبل الإسلام، شائعاً بين الرومانيين والأثينيين، ومباحاً لدى اليهود في ديانة موسى عليه السلام، مباحاً لدى المسيحيين إذا ثبت الزنا.

ما ورد في سفر التثنية من العهد القديم عن الطلاق:

فقد ورد في سفر التثنية، من العهد القديم، في الإصحاح الرابع والعشرين (١ ـ ٤) ما يأتي:

١ ـ «إذا أخذ رجل امرأة وتزوجها فإن لم تجد نعمة في عينيه لأنه وجد فيها شيئاً معيباً، وكتب لها كتاب طلاق، ودفعه إلى يدها، وأخرجها من بيته.

٢ ـ ومتى خرجت من بيته ذهبت وصارت لرجل آخر.

---

(١) مكانة المرأة في الإسلام: لمحمد عطية الأبراشي ٧٧ ـ ٩٠، ط دار الشعب ـ مصر.

٣ ـ فإن أبغضها الرّجل الأخير، وكتب لها كتاب طلاق، ودفعه إلى يدها، وأخرجها من بيته أو إذا مات الرّجل الأخير الذي اتخذها زوجة له.

٤ ـ يقدر زوجها الأول الذي طلقها أن يعود يأخذها لتصير له زوجة بعد أن تنجست. لأن ذلك رجس لدى الرب، فلا تجلب خطية على الأرض التي يعطيك الرب إلٰهك نصيباً».

ما ورد في إرميا من العهد القديم أيضاً، في الإصحاح الثالث ما يأتي:

قائلاً: (١) «إذا طلق رجل امرأته فانطلقت من عنده، وصارت لرجل آخر، فهل يرجع إليها بعد؟ ألا تتنجس تلك الأرض نجاسة؟ أما أنت فقد زنيت بأصحاب كثيرين. لكن ارجعي إلي. يقول الرب».

وفي القوانين العبرية القديمة كانت السلطة كلها في يد الرّجل. فكان في استطاعته أن يطلق زوجته لأي سبب، ولم يكن يسمح للمرأة أن تطلب الطلاق من زوجها بأي حال من الأحوال لأي سبب من الأسباب.

ما ورد في إنجيل متّى من العهد الجديد عن الطلاق:

وقد ورد في إنجيل متى من العهد الجديد، في الإصحاح الخامس، (٣١ ـ ٣٢) ما يأتي:

وقيل: «من طلق امرأته فليعطها كتاب طلاق. وأما أنا فأقول لكم: إن من طلق امرأته إلا لعلة الزنا يجعلها تزني. ومن يتزوج مطلقة فإنه يزني».

ما ورد في إنجيل مرقس من العهد الجديد عن الطلاق:

وجاء في إنجيل مرقس، في الإصحاح العاشر (٢ ـ ١٢) ما يلي: «فتقدم الفريسيون وسألوه: هل يحل للرجل أن يطلق امرأته، ليجربوه؟ فأجاب، وقال لهم: بماذا أوصاكم موسى؟ فقالوا: موسى أذن أن يكتب كتاب طلاق فتطلق. فأجاب يسوع وقال لهم: من أجل قساوة قلوبكم كتب لكم هذه الوصية. ولكن من بدء الخليقة ذكراً وأنثى خلقهما الله. من أجل هذا يترك الرّجل أباه وأمه ويلتصق بامرأته. ويكون الاثنان جسداً واحداً. إذاً ليسا بعد اثنين، بل جسداً واحداً. فالذي جمعه الله لا يفرقه إنسان.

ثم في البيت سأله تلاميذه أيضاً عن ذلك. فقال لهم: من طلق امرأته وتزوج بأخرى يزني عليها. وإن طلقت امرأة زوجها وتزوجت بآخر تزني».

ما ورد في إنجيل متى عن الطلاق:

وقيل في إنجيل متى، في الإصحاح التاسع عشر (٣ ـ ١٠):

«وجاء إليه الفريسيون ليجربوه قائلين له: هل يحل للرجل أن يطلق امرأته لكل سبب؟ فأجاب وقال لهم: «أما قرأتم أن الذي خلق من البدء خلقهما ذكراً وأنثى؟ وقال: من أجل هذا يترك الرّجل أباه وأمه ويلتصق بامرأته، ويكون الاثنان جسداً واحداً. إذاً ليسا بعد اثنين، بل جسداً واحداً، فالذي جمعه الله لا يفرقه إنسان. قالوا له: فلماذا أوصى موسى أن يعطى كتاب طلاق فتطلق؟ قال لهم: إن موسى من أجل قساوة قلوبكم أذن لكم أن تطلقوا نساءكم. ولكن من البدء لم يكن هكذا. وأقول لكم: إن من طلق امرأته إلا بسبب الزنا وتزوج بأخرى يزني. والذي يتزوج بمطلقة يزني». قال له تلاميذه إن كان هكذا أمر الرّجل مع المرأة فلا يوافق أن يتزوج».

الطلاق قبل الإسلام بين العرب:

وإذا نظرنا إلى العرب قبل الإسلام وجدنا أن الرّجل العربي كان له سلطة لا حدّ لها في الطلاق، ورأينا أن العرب في معاملة زوجاتهم لم يفكروا في ناحية إنسانية أو عدالة، ولا عجب فقد كانوا قبل الإسلام غير مثقفين، وأنصاف متوحشين، ولكن الإسلام هذّبهم ونهض بهم، ورفع مستواهم، وطالبهم بالعدالة، ومراعاة النواحي الإنسانية في معاملاتهم لنسائهم. وأعلن بينهم أن لا شيء يغضب الله أكثر من الطلاق.

وإن من ينظر إلى أحوال المجتمع العربي وعادات العرب وتقاليدهم عندما بعث الرسول الحكيم ﷺ، يجد أنه كان من المستحيل أن يلغي محمد عادة الطلاق إلغاء تاماً. لهذا حد من السلطة المطلقة التي كان يتمتع بها الأزواج في الطلاق وقال: «إن أبغض الحلال إلى الله الطلاق». وقيده بقيود تتمثل فيها الحكمة والإنسانية والعدالة، وبعد النظر؛ لأن الطلاق يؤدي إلى شقاء الأسرة؛ ويحول دون سعادتها، ويقضي على تربية الأطفال.

وقد أعطى المرأة حقها في الحصول على الطلاق، إذا وجدت أسباب معقولة تبرره.

الإسلام أباح الطلاق بقيود عادلة:

وقد أباح الإسلام الطلاق في أحوال خاصة، وبشروط محددة، وقيود عادلة، إذا كانت هناك ضرورة ملحّة تستدعيه.

قال جل شأنه: ﴿ لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَٰحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا۟ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٢٩﴾ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾ ﴾[1] إلى قوله عز وجل: ﴿ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾ ﴾[2].

وقد جعلت الشّريعة الإسلامية الطلاق مرتين كي يعطى الزوجان وسيلة للتروي والتفاهم، والاتفاق والتحكيم والصلح، والرجوع إلى الحياة الزّوجية السعيدة.

﴿ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ ﴾[3].

الإسلام يبغض الطلاق كل البغض:

والإسلام يبغض الطلاق كل البغض ولا يشجع عليه مطلقاً، قال الرسول ﷺ: «إن أبغض الحلال إلى الله الطلاق»؛ لأن الطلاق يهدم بناء الأسرة، ويقضي على

---

(١) سورة: البقرة، الآيات: ٢٢٦ ـ ٢٣٠.
(٢) سورة: البقرة، الآية: ٢٣٢.
(٣) سورة: البقرة، الآية: ٢٢٩.

مستقبل الأبناء والبنات، وتربية الأولاد. وقد منح الإسلام المرأة الحق في أن تطلب الطلاق لأسباب قهرية يجيزها الشرع.

الحكمة في المحلّل منع الطلاق:

وقد عاب المستشرقون على الإسلام نظام المحلل الذي يؤخذ من قوله تعالى: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا﴾[1] (الزوج بعد اثنتين) ﴿فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ﴾[2] (أي بعد الطلقة الثالثة) ﴿حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ﴾[3].

ولم يدركوا أن الشّريعة الإسلامية تحتقر التحليل الاحتقار كله؛ فالرسول ﷺ يقول: «ألا أخبركم بالتيس المستعار؟» قالوا: ما هو يا رسول الله؟ قال: «هو المحلل... لعن الله المحلِّل والمحلَّل له».

لم يدركوا أن الحكمة في هذا المحلل منع الطلاق، وأن الغرض منه تحذير الزّوجين، وتفهيمهما نتيجة الطلاق، وتبنيههما إلى التروي والتمهل، والصبر والتفكير فيه قبل تنفيذه. وقد عرف الإنسان بالغيرة والإحساس والشعور. وإن غيرته أكبر زاجر له؛ حتى لا يقدم على الطلاق. وإن من يحس ويشعر لا يقبل أن يتزوج غيره امرأته. لهذا لا يقدم المسلم الكامل على الطلاق ثلاثاً؛ حتى لا يضطر أن يرى زوجه وقد تزوجت رجلاً آخر.

لماذا أبيح الطلاق بقيود:

والحق أن الإسلام لا عيب فيه، واللوم كل اللوم يجب أن يقع على المسلم الذي لا يدرك الحكمة التي قصدتها الشّريعة الإسلامية حينما أباحت الطلاق بقيود. ويجب ألا يطلق الرّجل زوجته ويهدم حياته الزّوجية، لسبب تافه لا يذكر، وأن يكون حكيماً في تصرفاته، صبوراً في معاملاته، مفكراً في شريكته في حياته، ذاكراً أبناءه وبناته، عاملاً على تقوية الرابطة الزّوجية بينه وبين زوجه، متجنباً الوسائل التي تضعف تلك الرابطة، حتى تعيش الأسرة كلها في سعادة تامة.

---

(١) سورة: البقرة، الآية: ٢٣٠.
(٢) سورة: البقرة، الآية: ٢٣٠.
(٣) سورة: البقرة، الآية: ٢٣٠.

قال جل شأنه: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾﴾[1]. وقال تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾﴾[2].

أي إن علمتم شقاقاً بين الزّوجين فأرسلوا إليهما حكماً عدلاً من أقاربه، وحكماً عدلاً من أقاربها للتحكيم بينهما، وبحث حالهما، والاجتهاد في إزالة ما بينهما من سوء تفاهم أو خلاف أو ظلم، والتوفيق بينهما، وتنفيذ ما فيه منفعتهما.

فالإسلام يطالب بحسن العشرة، والصبر في الحياة الزّوجية، وإزالة ما بين الزّوجين من خلاف وشقاق؛ حتى تكون الحياة الزّوجية هانئة سعيدة موفقة. وقد أعطى الإسلام المرأة حقوقها كاملة، ولكننا لم ندرك تلك الحقوق في العصور المظلمة، ونظر إليها نظرة عادلة، ورعاها وحافظ عليها، ودافع عنها قبل الزواج وبعده.

ومع إباحة الطلاق في الإسلام عند اشتداد الشقاق بين الزّوجين، واستحالة التوفيق بينهما، قال الرسول الكريم: «إن أبغض الحلال إلى الله الطلاق»، كما قلنا من قبل، كي لا يشجع المتزوجين على الإقدام على هذا الحلال الممقوت. وبإباحة الطلاق عند الضرورة القصوى حافظ الإسلام على التمسك بالفضيلة، واجتناب الرذيلة، وارتكاب الزنا، ولهذا قلّ اللقطاء، والأطفال غير الشرعيين في البلاد الإسلامية، وكثروا في البلاد الأخرى؛ حتى وصلت نسبتهم إلى خمسين في المائة من الأطفال المولودين في أوروبا وأمريكا.

وقال ﷺ: «ما زال جبريل يوصيني بالنساء حتى ظننت أنه سيحرم طلاقهن».

أسلوب التطليق في البلاد الأوروبية:

انظر إلى البلاد الأوروبية التي تحرم الطلاق إلا لعلة واحدة هي الزنا ـ تجد أن الأوروبي الذي يريد أن يطلق زوجته ويتخلص منها؛ لأن له صلة بصديقة أخرى يحبها

---

(١) سورة: النساء، الآية: ١٩.
(٢) سورة: النساء، الآية: ٣٥.

ويفضلها عليها ـ يترك زوجته، ويلجأ إلى فندق من الفنادق، ويعيش فيه عدة ليال مع صديقته أو محبوبته، بعد أن يدون اسمه واسمها في سجل الفندق، ويثبت الحجرة التي نزل الاثنان بها، وتاريخ إقامتهما، والمدة التي مكثاها، وهما يعيشان معاً معيشة الأزواج في حجرة واحدة، تحت سقف واحد، ثم يتقدم إلى المحكمة طالباً أن يطلق زوجته، مثبتاً للقاضي أنه كان يعيش مع صديقته فلانة في فندق كذا، بشارع كذا، بتاريخ كذا، في حجرة... بمدينة... معترفاً علناً بالزنا أمام المحكمة؛ لتصدر المحكمة حكمها بالطلاق، تحقيقاً لرغبته. وتنشر هذه الفضائح كلها في بعض الصحف التي تنشر أخبار الطلاق، وحوادثه وقصصه، وما أكثرها؟.

وبالمثل إذا أرادت الزّوجة أن تتخلص من زوجها لأنها تحب رجلاً آخر، وتريد أن تتزوجه، تذهب مع عشيقها إلى الفندق، وتثبت اسمها واسم من تحبه في سجل الفندق. وتمكث مع حبيبها المدة التي تريدها، ثم تتقدم هي نفسها إلى المحكمة طالبة الطلاق، معترفة بلا حياء ولا خجل بأنها كانت مع فلان في فندق كذا، في المدة من كذا إلى كذا، وأنها عاشت معه تلك المدة في الحجرة رقم كذا، كما تعيش المرأة مع زوجها، فتصدر المحكمة حكمها بالطلاق، وتفرق بين الزّوجين، حتى يخلو الجو للزوجة، وتتزوج هي من تحبه.

وقد تعيش المرأة مع غير زوجها، ويعيش الرّجل مع امرأة أخرى غير زوجته، بدون طلاق، عيشة كلها زنا، من غير مبالاة أو تفكير في شرف أو عرض أو كرامة كما يفكر المسلمون.

ولهذا لا نبالغ إذا قلنا إن الأخلاق قد فسدت، وانتشر الزنا علناً، وفشت الرذيلة، وقضي على الفضيلة في البلاد غير الإسلامية.

ولكن في الإسلام يحدث الطلاق البغيض إلى الله، مع المحافظة على العفاف والشرف والعرض، والكرامة الإسلامية، والأخلاق الإسلامية.

قال تعالى: ﴿ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾ ﴾[1].

---

(١) سورة: النساء، الآية: ١٣٠.

أي وإن يتفرق الزّوجان المتباغضان بالطلاق يغن الله كلاًّ منهما من فضله، بأن يرزق المرأة زوجاً خيراً منه رقة ولطفاً، وحناناً وعطفاً، ويرزق الرّجل زوجة خيراً منها خلقاً، وكان الله واسع الفضل والرحمة، حكيماً في تدبيره وصنعه.

قال «جورج سيل» في مقدمة كتابه: ترجمة القرآن: «إن المسلمين قد أعطوا حرية في الطلاق، ومع هذه الحرية لا يقدمون عليه إلا نادراً؛ لأنهم يعدونه فضيحة كبيرة». وهذه حقيقة لا مراء فيها، من مؤلف غير مسلم.

الوقاية من شبح الطلاق:

ولكي تتحقق السعادة الزّوجية، يجب ألا يحوم شبح الطلاق حول الزّوجة. يجب أن تحترم حقوق المرأة في الإسلام، وينظر إليها نظرة إسلامية عادلة، وتشعر أنها الشريكة الواحدة مدى الحياة. يجب ألا تزول تلك الرابطة الزّوجية المقدسة لأسباب تافهة، وأن نحاول المحافظة عليها وإصلاحها بكل وسيلة.

يجب أن يكون هناك تفاهم بين الزّوجين؛ حتى يزول كل سبب يدعو إلى التعب المنزلي. يجب ألا يكون الطلاق هو الحل الوحيد للراحة بين الزّوجين. يجب أن يحتمل كلاهما الآخر؛ حتى يعيشا في سعادة، وتكون الثقة متبادلة بينهما، بحيث يثق الزّوج بزوجته، وتثق الزّوجة بزوجها. وإذا لم تكن هناك ثقة فلا راحة، ولا سعادة في الحياة. يجب أن تكون ميولهما متفقة، والمحبة بينهما محققة، والإخلاص كاملاً، وأن يعمل كل منهما لإرضاء شريكه، وينكر نفسه، ولا يحب ذاته، حتى تكمل السعادة المنزلية والزّوجية.

ما أجمل هذا الشعور النبيل بين الزّوجين حينما يقترح الزّوج على زوجته أن يشتري لها بعض الملابس الضرورية فتقول له: إنك أكثر حاجة إليها مني، فلتشتر لك حلة، أما أنا فلست في حاجة إلى الملابس الآن!

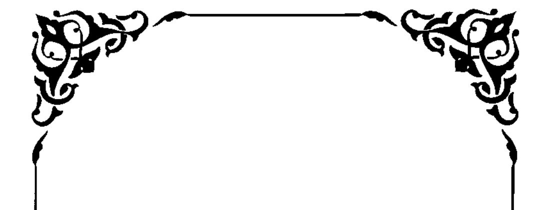
ما أجمل الحياة الزّوجية حينما تربطها المحبة والسعادة والإخلاص والمشاركة في الشعور، والتعاون والتفاهم، والثقة المتبادلة، ونسيان الذات!

قد تطلب الزّوجة الطلاق لحاجة مالية، أو لفقر زوجها أو لمرضه، ولكن يجب

أن تتذكر أنه يجب عليها أن تشارك زوجها في السراء والضراء، والغنى والفقر، والصحة والمرض، والسعادة والشقاء، وتحتمل معه كل صعوبة، وتسافر معه إلى أي جهة؛ حتى يتغلبا معاً على الدهر، وينالا السعادة المرجوّة في الحياة.

فإذا لم ينجح الزّوج اليوم في عمله فلتساعده زوجته حتى ينجح فيه، فإن النجاح يأتي بالتدريج، بعد التعب والمشقة. وهنا يكون له لذة. وحينما ينجح الزّوج يجب أن يدع زوجته تشاركه هذا النجاح، وتتمتع به معه، وتقاسمه السعادة.

ولكي تتحقق السعادة الزّوجية يجب أن يخلص الزّوج لزوجته، والزّوجة لزوجها الإخلاص كله، ويقدر كل منهما الآخر، فلا يتهكم الزّوج بزوجته، ولا تهزأ الزّوجة بزوجها، بل يجب أن يكون كل منهما موضع احترام الآخر، ويكون رقيقاً في إجابته، وتكون لطيفة في إجابتها. ويجب أن يتذكر الزّوج أن لزوجته شخصية يجب أن تحترم، فلا يتدخل في كل شأن من شؤونها، ولا يعدها آلة مهملة، بل يعدها عضواً عاملاً في بيته، مسؤولاً عن إدارته. يجب أن يضحي الرّجل بكل شيء في سبيل راحة زوجته، وتضحي هي بكل ما تملك في سبيل راحة زوجها. يجب أن يتبادلا الأفكار والآراء في شؤون حياتهما، ومستقبل أولادهما، حتى يشعر الجميع بالسعادة. وإن الشعور المتبادل بين الزّوجين أساس للسعادة الزّوجية.



الفصل الثّاني عشر
الحجاب الشّرعي للمرأة
وأحكام لباسها في الصلاة وخارجها

البحث الأوّل: الإسلام يصون المرأة ويجعلها بحجابها عزيزةً كريمةً.

البحث الثّاني: حجاب المرأة المسلمة بين الواجب والمسنُون.

البحث الثّالث: لباس المرأة في الصّلاة وخارجها.

البحث الأول:

الإسلام يصُون المرأة ويجعلها بحجابها عزيزةً كريمةً

لقد كان من تكريم الإسلام للمرأة أن صانها بالحجاب لتحيى عزيزةً كريمةً، فالمرأةُ يجبُ أن تُصانَ وتحفظ عن عبث العابثين وعن نظرات الشّهوانيين، ولهذا خصّها الله تعالى بالحجاب، وترك إبداء الزّينة للأجانب، وترك التّبرّج إذا خرجت من بيتها.

فيجب في حقّها الاستتار باللباس والبُيُوتِ ما لا يجب في حقِّ الرّجال، لأنّ ظهور جمال النّساء ومفاتنهنّ سبب لإثارةِ غرائز الشهوة عند الرّجال، والله عزَّ وجلَّ يأمر المؤمنين بقوله لرسوله ﷺ: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ۝٣٠ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ﴾[1] الآية. ثم قال تعالى في آخرها: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوٓا إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٣١﴾[2]، فأمر الله تعالى جميع الرّجال وجميع النساء بالغضّ من البصر، وحفظ الفُرُوج، صوناً للكرامة وحفاظاً على الأعراض والأنساب.

وأمرَ الله تعالى النّساءَ خصُوصاً بالاستتار، وأنْ لا يُبْدِينَ زينتَهُنَّ إلاّ ما ظهرَ منها.

وأمرَ سبحانه وتعالى بإرخاء الجلابيب لئلاّ يُعْرَفْنَ؛ أي إذا فعلنَ ذلك عُرِفْنَ أنّهنّ حرائر شريفاتٌ طاهراتٌ عفيفاتٌ، فلا يُؤذين بكلام السّفهاء والأغراض الشّهوانية الدّنيّة.

وكانت النّساء في عهد النّبوة والخلافة الرّاشدة يُدْنين عليهنّ الجلابيب من فوق رؤوسهنّ، حتى لا يظهر إلاّ عيونهنّ لأجل رؤية الطريق. ومضى على ذلك السّلف الصّالح، ومَنْ نهجَ نهجهم.

---

(١) سورة: النور، الآيتان: ٣٠ ـ ٣١.

(٢) سورة: النور، الآية: ٣١.

وثبتَ في الصّحيح أنّ المرأة المحرمة لا تلبس النّقاب ولا القفّازين، وهذا يدلّ على أنّهنّ كُنّ يسترنَ وجوهَهُنّ وأيديَهُنّ في غير الإحرام ـ أي في أيام حياتهنّ إذا خرجن من بُيُوتِهِنَّ.

وقد نهى الله تعالى عمّا يوجب العلم بالزينة الخفية بلبس الشّفاف أو الضّيّق، ولمّا نزل قولُهُ تعالى: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾[1] عمدَ نساءُ المؤمنين إلى خُمُرِهِنَّ فشقَقْنَهَا وأرخينها على أعناقِهِنَّ.

والجيبُ: هو شقٌّ في طول القميص، فإذا ضربتِ المرأة بالخمار على الجيب سترت عُنقَهَا.

وأُمرتْ بعد ذلك أنْ ترخي من جلبابها، والإرخاء إنّما يكون إذا خرجت من البيت.

والحجابُ مختصٌّ بالحرائر دون الإماء، كما كانت سُنّة المؤمنين في زمن النّبيّ ﷺ وخلفائه، أنّ الحُرَّة تحتجب، والأمة تُبرز، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا رأى أمَةً مختمرةً ضربها، وقال: أتتشبهينَ بالحرائر؟.

وأمّا النّساءُ الطاعناتُ في السّنّ واللاتي لا يرغبْنَ في الزّواج، فقد قال الله تعالى في حقّهِنّ: ﴿وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ ۖ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ﴾[2]. فرخّصَ للعجوز التي لا تطمع في النّكاح أن تضعَ ثيابها، أي فلا ترتدي جلبابها ولا تحتجب، وهذا تخفيفٌ عنها، وذلك لأنها مأمونة الفتنة.

والحجابُ شُرِع للشّابّات لأنّهُنّ مظنة الفتنة. وخلاصة الحجاب قول الله تبارك وتعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾[3] أي في الطهارة والصّون والاحتشام والإكرام والإعزاز.

فالمرأةُ المؤمنةُ المحتجبةُ طاهرةٌ مَصُونةٌ محتشمةٌ مكرّمةٌ معزّزةٌ!!.

---

(١) سورة: النور، الآية: ٣١.
(٢) سورة: النور، الآية: ٦٠.
(٣) سورة: النور، الآية: ٣٠.

البحث الثاني:

حجاب المرأة المسلمة بين الواجب والمَسْنُون

إنّ النّاظر في الآيات الكريمة التي نزلت بشأن الحجاب يجد أنّها تُعالج قضيةً مُهمّةً يعودُ نفعُها على المجتمع الإسلامي كله، ذلك أنّها تبرز أهمية الحياء في حياة الرّجل والمرأة، وتدعوهما إلى العفاف والحشمة والوَقَار، وكل ذلك من مكارم الأخلاق.

ولقد أمرَ الله سبحانه وتعالى كلاًّ من الرّجل والمرأة بأوامر تتوافق مع ما منح كلاًّ منهما من قدرات.

وإنّ ممّا تقتضيه النّصوص الشّرعية في الكتاب والسّنّة وما كانت عليه أمهات المؤمنين وبقية نساء الصّحابة رضوان الله عليهم أجمعين، هو حجاب المرأة المسلمة لبدنها كله عن الرجال الأجانب بما في ذلك الوجه والكفّان، للأدلة التّالية:

١ ـ الأدلة من القرآن الكريم:

الدليل الأول قوله تعالى: ﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ . . . ﴾[١].

فالله سبحانه وتعالى قد نهى المؤمنات عن إبداء زينتهنّ. والوجه عنوان الزينة وملاكها، ولقد قال بذلك جمعٌ من المفسرين أمثال عبد اللّه بن مسعود، والحسن بن عليّ، وابن سيرين، وأبو الجوزاء، وإبراهيم النخعي رضي الله عنهم أجمعين[٢].

---

(١) سورة: النور، الآية: ٣١.

(٢) تفسير الطبري، المجلد ٨، ج ١٨، ص ٩٢ ـ ٩٣. وتفسير ابن كثير ج ٦، ص ٤٧.

الدّليل الثّاني قوله تعالى: ﴿ وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[(١)].

ومعلوم أنّ المقصود بالثياب هنا هي الجلباب أو الرداء الذي هو بمنزلة العباءة التي تغطي كل جسم المرأة من فوق رأسها إلى أسفل قدمها وقد قال بذلك ابن مسعود وابن عمر ومجاهد وسعيد بن جُبير وإبراهيم النخعي والحسن وقتادة والزّهري والأوزاعي[(٢)]. وهذا التّرخيص للقواعد من النّساء بوضع الرداء دليل على أنّ الأصل وجوب بقائه لغيرهنّ من النساء الشّوابّ إذا أردْنَ الخروجَ لحوائجهنّ.

الدّليل الثّالث قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾[(٣)].

فإشراك نساء المؤمنين مع أزواج النّبيّ ﷺ بالأمر بإدناء الجلباب يستلزم وجوبَ ستر الوجه لنساء المؤمنين كافّةً، إذْ لا نزاعَ بينَ المسلمين في وجوب احتجاب أزواج النّبيّ ﷺ وستر وجوههنّ[(٤)].

يقول عبد اللّه بن عباس رضي الله عنهما في تفسير هذه الآية: «أمرَ الله نساء المؤمنين إذا خرجن من بيوتهنّ في حاجة، أن يغطين وجوهَهُنّ من فوق رؤوسهن بالجلابيب، ويُبدين عيناً واحدة»[(٥)]. وهو صحيح.

وقد وافق ابن عباس في تفسيره محمد بن سيرين وابن عون وعبيدة السّلماني، فعن محمد بن سيرين قال: سألت عبيدة عن قوله: ﴿ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ﴾[(٦)] فعند ابن جرير قال: فقال بثوبه فغطى رأسه ووجهه وأبرز ثوبه عن

---

(١) سورة: النور، الآية: ٦٠.
(٢) تفسير ابن جرير الطبري، المجلد ٨، ج ١٨، ص ١٢٦ ـ ١٢٧. وتفسير ابن كثير ج ٦، ص ٩١.
(٣) سورة: الأحزاب، الآية: ٥٩.
(٤) أضواء البيان ج ٦، ص ٥٨٦.
(٥) تفسير الطبري، المجلد ١١، ج ٢٢، ص ٣٣. وتفسير ابن كثير ج ٦، ص ٤٧١.
(٦) سورة: الأحزاب، الآية: ٥٩.

إحدى عينيه، وأمّا عند ابن كثير: فغطى وجهه ورأسه وأبرزَ عينه اليُسرَى[(١)].

الدّليل الرّابع قوله تعالى: ﴿ لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ ۗ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾ ﴾[(٢)].

قال ابن كثير رحمه الله تعالى: «لمّا أمرَ الله النّساءَ بالحجاب عن الأجانب بيّنَ أنّ هؤلاء الأقارب لا يجب الاحتجاب عنهم»[(٣)] كما استثناهم في سورة النور عند قوله تعالى: ﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ ﴾[(٤)].

فهذه أربعة أدلة من القرآن الكريم: «تُفيد وجوب احتجاب المرأة عن الرجال الأجانب»[(٥)].

٢ـ الأدلّة من السنّة:

الدّليل الأول:

ما روته أمّ المؤمنين حفصة رضي الله عنها عن امرأة سألت النّبيّ ﷺ: أعَلَى إحْدَانَا بأسٌ إذا لم يكنْ لها جلبابٌ أنْ لا تخرجَ؟ ـ أي إلى مصلى العيد ـ فقال ﷺ: «لِتُلْبِسْهَا صاحبتُها من جلبابِها، ولْتَشْهدِ الخيرَ، ودعوةَ المسلمين»[(٦)].

ويبدو من الحديث: أن المعتاد عند نساء الصّحابة أنْ لا تخرج المرأة إلاّ بجلباب، وأنّها عند عدمه لا يمكن أن تخرجَ[(٧)]. كما أنّ الرّسولَ ﷺ أجاب المرأة بقوله: «لِتُلْبِسْهَا صاحبتُها من جلبابِها» ممّا دلّ على وجوب الحجاب الكاملِ للمرأة إذا خرجتْ ولو للعبادة، وقد عُلِمَ بيانُ كيفية لبس الجلباب.

---

(١) تفسير الطبري، مجلد ٨، ج ٢٢، ص ٣٣. وتفسير ابن كثير ج ٦، ص ٤٧١.
(٢) سورة: الأحزاب، الآية: ٥٥.
(٣) تفسير ابن كثير ج ٦، ص ٤٤٦.
(٤) سورة: النور، الآية: ٣١.
(٥) رسالة الحجاب ص ١٣.
(٦) صحيح البخاري مع الفتح ج ١، ص ٤٢٣، رقم الحديث ٣٢٤.
(٧) رسالة الحجاب في الكتاب والسّنّة، ص ١٥.

الدّليل الثّاني:

عن عائشة رضي الله عنها قالت: «لقدْ كانَ رسول الله ﷺ يصلي الفجرَ فيشهدُ معه نساءٌ من المؤمنات، متلفّعاتٌ في مُروطهِنّ ثم يرجعنَ إلى بيُوتهنّ ما يعرفهنّ أحدٌ»[١].

فقول عائشة رضي الله عنها: «ما يعرفهنّ أحد» دليل واضح على أنّ النساء يخرجنَ للصّلاة في الظلام محجبات بالمُروط [المرط: يعني الكساء المصنوع من خزٍّ أو كتان] حجاباً كاملاً بحيث لا يعرفنَ بعضَهُنَّ، ومن المعلوم أنّ التّعارف لا يكون إلاّ عن طريق الوجه وهو أبرز شيء في الإنسان، ويُضاف إلى ذلك كونهنّ يرتدين الحجاب في اللّيل، فلا بدّ أن يكُنَّ في النّهار أكثر احتياطاً بالحجاب.

الدّليل الثّالث:

عن أمّ سلمةَ رضي الله تعالى عنها قالت: «سُئلَ رسول الله ﷺ كم تجرُّ المرأةُ من ذيلها؟ قال: «شِبْراً» قلت: إذاً ينكشفُ عنها؟ قال: «ذراعٌ لا تزيد عليه»[٢].

وهذا يدلُّ على أنّ قدمَ المرأة عورة لا يجوزُ كشفه، فإذا كانتْ هذه حال القدم فإن حال الوجه من باب أولى، فهو أحقُّ بالسّتر لأنّه عنوان الفتنة، والتنبيه بالأدنى تنبيهٌ على ما فوقه.

الدّليل الرّابع:

عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها وعن أبيها قالتْ: «كنّا نُغطّي وجُوهَنَا مِنَ الرّجالِ وكنّا نمتشط قبلَ ذلك في الإحرام»[٣].

ولهذا الحديث شاهد من رواية عائشة رضي الله عنها قالت: «كان الرّكبانُ يمرُّون بنا ونحن محرمات مع رسول الله ﷺ فإذا حاذُوا بنا سدلتْ إحدانا جلبابَها من رأسها على وجهها، فإذا جاوزُونا كشفنَاهُ»[٤].

---

(١) البخاري مع الفتح ج ١، ص ٤٨٢، رقم الحديث ٣٧٢.
(٢) صحيح سنن ابن ماجة ج ٢، ص ٢٧٩، رقم الحديث ٢٨٨١.
(٣) مستدرك الإمام الحاكم ج ١، ص ٤٥٤. وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.
(٤) سنن أبي داود المطبوعة مع معالم السنن ج ٢، ص ٤١٦، وأخرجه الإمام أحمد في مسنده ج ٦، ص ٣٠، وهو شاهدٌ لحديث عائشة رضي الله عنها، في مستدرك الحاكم. قال الإمام =

الدّليل الخامس:

ما ثبت عن عائشة رضي الله عنها في قصة حديث الإفك أنّها حجبت وجهها عندما رأت صفوان بن المعطل السُّلمي الصّحابي الجليل رضي الله عنه وأرضاه، وفي ذلك تقول عائشةُ: «فخمرت وجهي بجلبابي»[١].

والأحاديث الواردة في ذلك كثيرة لا يمكن حصرها هنا، وإنّما الهدف هو بيان الحكم الشرعي في حجاب وجه المرأة الذي أرادَ الإسلامُ بها صيانةَ زينةِ المرأة عن نظر الرجال الأجانب، ومن المعلوم أنّ الوجه مجمع المحاسن.

يقول الإمام ابن تيمية رحمه الله: «وحقيقة الأمر: أنّ الله جعل الزينة زينتين: زينة ظاهرة، وزينة غير ظاهرة، وجوز لها إبداء زينتها الظاهرة لغير الزّوج وذوي المحارم» والمقصود بالزينة الظاهرة هي الثّياب التي تغطي جسم المرأة كاملاً، كما سبق تفسير ذلك عن ابن مسعود وغيره رحمهم الله.

ويقول الإمام ابن القيم في العورة: «العورةُ عورتان، عورة في النّظر، وعورة في الصّلاة، فالحرةُ لها أن تصلي مكشوفة الوجه والكفّين، وليس لها أن تخرج في الأسواق ومجامع النّاس كذلك»[٢].

أدلّة القائلين بعدم الوجوب:

وبعد أن عرضنا رأي القائلين بوجوب ستر المرأة وجهها عن الرّجال الأجانب نعرض رأي القائلين بعدم الوجوب بعرض أدلتهم ومناقشتها إنْ شاء الله تعالى.

١ـ الأدلة من الكتاب والسنّة:

أما الأدلة فهي ما يلي:

= الخطّابي: قلتُ: قد ثبت عن النبي ﷺ أنّه نهى المحرمة عن النقاب، فأمّا سدلُ الثّوبِ على وجهها من رأسها فقد رخّص فيه غير واحد من الفقهاء. وممّن قال بالتّرخيص، عطاء ومالك وسفيان الثوري وأحمد بن حنبل.

(١) صحيح البخاري مع الفتح ج ٨، ص ٤٥٢، رقم الحديث ٤٧٥٠.

(٢) أعلام الموقعين عن ربّ العالمين، ج ٢، ص ٦١.

الدّليل الأوّل:

قوله تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾(١). حيث قال ابن عباس رضي الله عنهما: «هي وجهُهَا وكفَّاهَا والخاتَمُ»، وفي رواية: «الكحل والمسكة والخدّان». قال الأعمشُ عن سعيد بن جُبير: «وتفسيرُ الصّحابي حُجّةٌ».

الدّليل الثّاني:

ما رواه أبو داود في سننه عن عائشة رضي الله عنها أن أسماء بنت أبي بكر دخلت على رسول الله ﷺ وعليها ثيابٌ رِقاقٌ فأعرضَ عنها وقال: «يا أسماءُ إنّ المرأة إذا بلغتِ المحيضَ لم يصلحْ أن يُرَى منها إلّا هذا وهذا، وأشارَ إلى وجهِهِ وكفّيهِ»(٢).

الدّليل الثّالث:

ما رواه البخاري وغيره عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كانَ الفضلُ رديفَ رسول الله ﷺ فجاءت امرأةٌ من خثعم، فجعل الفضلُ ينظرُ إليها وتنظر إليه، وجعل النّبيُّ ﷺ يصرفُ وَجْهَ الفضلِ إلى الشّقِّ الآخَرِ». ففي هذا دليل على أنّ المرأةَ كاشفةٌ وَجْهَهَا(٣).

الدّليل الرّابع:

ما وراه البخاري وغيره من حديث جابر بن عبد اللّه رضي الله عنه في صلاة النّبيّ ﷺ بالنّاس صلاة العيد: «ووعظَ النّاسَ وذكّرَهُمْ، ثم مضى حتى أتى النّساء فوعظهنّ وذكرهنّ، فقال: «تَصَدّقْنَ فإنّ أكثركُنّ حَطَبُ جهنّم، فقامتِ امرأةٌ من سِطَةِ [أشرافهنّ] النّساء، سفعاء [أي سوداء مشرب بحمرة] الخدّين...»(٤). ففهم من هذا الحديث أن هذه المرأة كانت مكشوفةَ الوجهِ.

مناقشة أدلتهم:

وبعد عرض هذه الأدلّة التي اعتمد عليها المجيزون لكشف الوجه نقوم

---

(١) سورة: النور، الآية: ٣١.

(٢) سنن أبي داود المطبوعة مع معالم السنن ج ٤، ص ٣٥٧، رقم الحديث ٤١٠٤.

(٣) صحيح البخاري مع فتح الباري ج ٣، ص ٣٧٨، رقم الحديث ١٥١٣.

(٤) صحيح مسلم، كتاب صلاة العيدين ج ٢، ص ٦٠٣، رقم الحديث ٤.

بمناقشتها عُموماً ثم نناقش كل دليل منها على حِدَةٍ.

فأمّا من حيث المناقشة العامة فيمكن القولُ بأن أدلّة وجوب ستر الوجه ناقلة عن الأصل وهو بقاء الشيء على ما كان عليه من قبل وهو الكشف. وأما أدلة جواز الكشف فمبقية على الأصل، والنّاقل عن الأصل مقدَّم كما هو معروف عند الأصوليين.

فإذا وُجِدَ الدّليل النّاقلُ عن الأصل دلَّ ذلك على طروء الحكم على الأصل، وتغييره له، والنّاقلُ معهُ زيادةُ علمٍ، وهو إثبات تغيير الحكم الأصلي. والمُثْبتُ مقدَّمٌ على النّافي.

وأمّا من حيث مناقشةُ كل دليلٍ على حِدَةٍ فهو كما يلي:

أولاً: فيما يتعلّق بتفسير ابن عباس رضي الله عنهما فيمكن مناقشته فيما يلي:

١ ـ لقدْ صحت روايةُ الاستثناء (بالوجه والكفين) فيُحتمل أن يكون مراد ابن عباس أول الأمرين قبل نزول آية الحجاب، كما قاله شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[1].

٢ ـ ويُحتمل كما قال ابن كثير أنّ مراد ابن عباس في قوله: «وجهها وكفيها والخاتم» عائد إلى الزينة التي نهي النساء عن إبدائها، كما قال أبو إسحاق السبيعي بسنده إلى ابن عباس: الزينة بالقرط والدّملج والخلخال والقلادة، والمقصود مواضع هذه الزّينة لأنه لا تحرم رؤية أدوات الزينة خارجاً عن مواضعها.

ويُؤيّد ما ذكرنا تفسير ابن عباسٍ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾[2] حيث قال: «أمرَ الله نساء المؤمنين إذا خرجْنَ من بيوتهنّ في حاجةٍ أن يغطين وجوههُنّ من فوق رؤوسهنّ بالجلابيب ويُبدين عيناً واحدةً».

وفي روايةٍ عن أبي إسحاق السبيعي أيضاً أنّه قال: «الزّينة زينتان، فزينة لا يراها إلاّ الزّوج: الخاتم والسوار، وزينة يراها الأجانب وهي الظاهر من الثياب».

---

(١) فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ج ٢٢، ص ١١٠.

(٢) سورة: الأحزاب، الآية: ٥٩.

٣ ـ أنّ ابن عباس لا يكون حجةً يجب قبولها إلاّ إذا لم يُعارضه صحابي آخر، فإنْ عارضه صحابي آخر بما تُرجِّحُهُ الأدلةُ الأُخرَى.

وإذا نظرنا إلى تفسير ابن مسعود رضي الله تعالى عنه نجد أنّه فسّر قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾[1] بالرداء والثّياب وما لا بدّ من ظهوره، فلزم طلب التّرجيح، والعمل بما كان راجحاً في تفسيريهما[2].

ثانياً: فيما يتعلّق بحديث عائشة فإنّه ضعيف بسبب الانقطاع بين عائشة وخالد بن دُريك، فهو لم يُدْرِكْ عائشةَ كما ذكر ذلك أبو داود نفسه[3] كما أن في إسناده سعيد بن بشير البصري، ضعفه أحمد وابن معين وابن المديني والنسائي وتركه ابن مهدي.

ثالثاً: أمّا فيما يتعلق بحديث المرأة الخثعمية فلا دليل فيه على جواز النّظر إلى الأجنبية لعدّة أمور نذكر منها ما يلي:

١ ـ أنّ الرسولَ ﷺ لم يقرَّ الفَضْلَ على النّظرِ إلى المرأةِ بل صرف وَجْهَهُ إلى الشّق الآخر.

٢ ـ على تقدير أنّ الفضلَ قد رأى وَجْهَ الخثعمية، فيُحتمل أنّه انكشفَ بغير قصدٍ منها فرآه الفضلُ وحدَهُ.

فإذا كان هذا التحذير في زمن القرون الأولى المفضّلة فما الظّنّ بزماننا هذا؟!.

هذا وإن على وليّ الأمر مسؤولية منع النساء من التّبرج والسّفور، وإجبارهنّ على ذلك، ومنعهنّ من الحديث مع الرجال في الطّرقات، وفي ذلك يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى: ويجب على وليّ الأمرِ منعُ النّساء من الخروج متزيّناتٍ، مُتجمّلاتٍ، ومنعهنّ من الثّياب التي يكنّ بها كاسياتٍ عارياتٍ، كالثياب الواسعة والرّقاق ومنعهنّ من تحديث الرّجال في الطرقات، ومنع الرّجال من ذلك»[4].

---

(١) سورة: النور، الآية: ٣١.

(٢) تفسير ابن كثير ج ٦، ص ٤٧.

(٣) سنن أبي داود مع معالم السّنن، ص ٣٥٨.

(٤) الطرق الحكمية في السياسة الشرعية/ ٢٨٠.

البحث الثّالث:

لباس المرأة في الصّلاة وخارجها[1]

اللباس للصلاة هو أخذ الزينة عند كل مسجد، الذي يسميه الفقهاء: «باب ستر العورة في الصلاة» فإن طائفة من الفقهاء ظنوا أن الذي يستر في الصلاة هو الذي يستتر عن أعين الناظرين وهو العورة، وأخذوا ما يستر في الصّلاة من قوله تعالى: ﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ﴾[2] ثم قال: ﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ ﴾[3] يعني الباطنة ﴿ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ ﴾[4] الآية. فقالوا بجوازها في الصّلاة أن تبدي الزينة الظاهرة دون الباطنة.

والسّلف قد تنازعوا في الزينة الظاهرة على قولين:

١ ـ فقال ابن مسعود ومن وافقه: هي الثّياب.

٢ ـ وقال ابن عباس ومن وافقه: هو ما في الوجه واليدين، مثل الكحل والخاتم. وعلى هذين القولين تنازع الفقهاء في النّظر إلى المرأة الأجنبية.

فقيل: يجوز النّظر لغير شهوة إلى وجهها ويديها وهو مذهب أبي حنيفة والشّافعي، وقول في مذهب أحمد.

وقيل: لا يجوز، وهو ظاهر مذهب أحمد، قال: كل شيء منها عورة حتى ظفرها، وهو قول مالك.

وحقيقة الأمر أنّ الله جعل الزّينة زينتين: زينة ظاهرة، وزينة باطنة. وجوّز لها

---

(١) حجاب المرأة المسلمة ولباسها في الصلاة: لشيخ الإسلام ابن تيمية.

(٢) سورة: النور، الآية: ٣١.

(٣) سورة: النور، الآية: ٣١.

(٤) سورة: النور، الآية: ٣١.

إبداءَ زينتها الظاهرة لغير الزّوج، وذوي المحارم. وأمّا الباطنة فلا تُبديها إلاّ للزوج، وذوي المحارم.

وكانوا قبل أن تنزل آيةُ الحجاب، كان النّساء يخرجن بلا جلبابٍ، يرى الرجال وجهها ويديها، وكان إذْ ذاك يجوز لها أن تظهر الوجه والكفّين، وكان حينئذ يجوز النّظر إليها، لأنّه يجوز إظهاره.

ثم لما أنزلَ الله عزّ وجلّ آيةَ الحجاب بقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَـٰبِيبِهِنَّ﴾[1] حُجِبَ النّساءُ عن الرّجالِ.

وكان ذلك لما تزوّجَ النّبيّ ﷺ زينب بنت جحش، فأرخىٰ النّبيّ ﷺ السترَ، ومنعَ أنَساً أنْ ينظرَ [وكان خادمه].

ولمّا اصطفى صفية بنت حُييّ بعد ذلك، عام خيبر، قالوا: إنْ حجبها فهي من أمّهات المؤمنين، وإلاّ فهي ممّا ملكتْ يمينُهُ فحجبَها. فلذا أمرَ الله أنْ لا يُسْأَلْنَ إلاّ من وراءِ حجابٍ، وأمر أزواجَه وبناتَه ونساءَ المؤمنين أنْ يُدْنينَ عليهنّ من جلابيبِهِنّ.

والجلبابُ: هو المَلاَءَةُ، وهو الذي يسميه ابن مسعود وغيره: الرّداء، وتُسميه العامة: الإزارُ وهو الإزارُ الكبيرُ الذي يُغطي رأسَها وسائرَ بدنها.

وقد حكى عبيدةُ وغيره أنّها تُدنيه من فوق رأسها فلا تظهر إلاّ عينيها، ومن جنسه النّقاب. فكان النّساء ينتقبْنَ.

وفي الصّحيح: «إنّ المحرمةَ لا تَنْتَقِبُ ولا تلبسُ القفّازَيْن».

فإذا كُنّ مأمورات بالجلباب لئلاّ يُعْرَفْنَ ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ﴾[2] وهو سَتْرُ الوجه، أو سَتْرُ الوجه بالنّقاب. كان حينئذٍ الوجهُ واليدان من الزّينة التي أُمِرَتْ أنْ لا تُظهرَها للأجانب.

فما بقي يحل للأجانب النّظر إلا الثياب الظاهرة. فابن مسعود ذكر آخر الأمرين، وابن عباس أوّلَ الأمرين.

---

(١) سورة: الأحزاب، الآية: ٥٩.
(٢) سورة: الأحزاب، الآية: ٥٩.

وعلى هذا قوله: ﴿أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُنَّ﴾[1]، يدل على أنّها لا تُبْدِي الزينةَ الباطنةَ لمملوكها. وفيه قولان:

١ ـ قيل: المراد الإماء، أو الإماء الكتابيات، كما قاله ابن المسيب، ورجحه أحمد وغيره.

٢ ـ وقيل: هو المملوك الرّجل، كما قال ابن عباس وغيره، وهذا مذهب الشّافعي وغيره، وهو الرّواية الأُخرى عن أحمد، فهذا يقتضي جواز نظر العبد إلى موالاتهِ.

وقد جاءت بذلك أحاديث. وهذا لأجل الحاجة لأنّها محتاجة إلى مخاطبة عبدِها أكثر من حاجتِها إلى رؤيةِ الشّاهد والعاملِ والخاطب.

فإذا جاز نظر أولئك، فنظرُ العبدِ أوْلَى. وليس في هذا ما يوجب أن يكون مُحْرِماً يُسافر بها، كغير أُولِي الإرْبَةِ، فإنّهم يجوز لهم النّظر، وليسُوا محارم يُسافرون بها.

فليس كل من جازَ له النّظر، جاز له السّفرُ بها، ولا الخلوة بها، بل عبدها ينظرُ إليها للحاجة، وإن كان لا يخلو بها ولا يُسافر بها، فإنّه لم يدخل في قوله ﷺ: «لا تُسافِرُ المرأةُ إلاّ مع زوج أو ذي محرم»[2] فإنه يجوزُ له أنْ يتزوجها إذا عُتِقَ. كما يجوز لزوج أختها أن يتزوجها إذا طَلَّقَ أُختَها.

والمحرم: من تحرم عليه على التأبيد، ولهذا قال ابن عمر: سفر المرأة مع عبدها ضيعة.

فالآية رخّصتْ في إبداء الزّينة لذوي المحارم وغيرهم، وحديثُ السّفر ليس فيه إلاّ ذَوُوا المحارم، وذكر في الآية: ﴿أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ﴾[3] و﴿ٱلتَّـٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِى ٱلْإِرْبَةِ﴾[4]، وهي لا تسافر معهم.

---

(١) سورة: النور، الآية: ٣١.
(٢) متفق عليه من حديث ابن عباس وغيره.
(٣) سورة: النور، الآية: ٣١.
(٤) سورة: النور، الآية: ٣١.

وقوله: ﴿أَوْ نِسَآئِهِنَّ﴾[1] قالوا: احتراز عن النّساء المشركات، فلا تكون المشركةُ قابلةً للمسلمة، ولا تدخل المشركةُ معهنّ الحمام.

لكن قد كان النّسوة اليهوديات يدخلْنَ على عائشة وغيرها، فيرين وجهَها ويديها، بخلاف الرّجال، فيكون هذا في الزّينة الظاهرة في حق النّساء الذّميّات، وليس للذّميّات أن يطلعنَ على الزينة الباطنة، ويكون الظّهور والبطون بحسب ما يجوز لها إظهاره.

ولهذا كان أقاربها تبدي لهن الباطنة، وللزّوج خاصة ما ليس للأقارب. وقوله: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾[2] دليل على أنّها تغطي العُنقَ، فيكون من الباطن ـ لا الظاهر ـ ما فيه من القلادة وغيرها.

فهذا ستر النساء على الرّجال، وستر الرجال على الرجال، والنّساء عن النّساء في العورة الخاصّة، كما قال ﷺ: «لا ينظرُ الرّجلُ إلى عورة الرّجل، ولا تنظر المرأة إلى عورة المرأة»[3]. وكما قال: «احفظ عورتك إلا عن زوجتك أو ما ملكت يمينك»، قلت: فإذا كان القوم بعضهم في بعض؟

قال: «إن استطعت أن لا يرينها أحد فلا يرينها»، قلت: فإذا كان أحدنا خالياً؟ قال: «فالله أحق أن يستحيا منه»[4]. و«نهى أن يفضي الرّجل إلى الرّجل في ثوب واحد، والمرأة إلى المرأة في ثوب واحد»[5]. وقال عن الأولاد: «مُرُوهُمْ بالصّلاةِ لسبعٍ، واضْرِبُوهُمْ عليها لعشرٍ، وفرّقُوا بينَهُمْ في المضاجع»[6].

فهذا نهيٌ عن النّظر والمسّ لعورةِ النّظيرِ، لِما في ذلك من القُبح والفُحْشِ، وأمّا الرّجال مع النّساء، فلأجل شهوة النّكاح، فهذان نوعان؛ وفي الصّلاة نوع ثالث، فإنّ المرأة لو صلّتْ وحدَها، كانتْ مأمورةً بالاختمار، وفي غير الصّلاة يجوز لها كشفُ

(١) سورة: النور، الآية: ٣١.
(٢) سورة: النور، الآية: ٣١.
(٣) أخرجه أحمد ومسلم وغيرهما.
(٤) أخرجه أحمد وغيره وهو حديث حسن.
(٥) متفق عليه.
(٦) أخرجه أبو داود وغيره من طريقين.

رأسها في بيتها، فأخذُ الزّينة في الصّلاة لحق الله، فليس لأحدٍ أنْ يطوفَ البيتَ عُرْيَاناً ولو كان وحدَهُ، فعُلِمَ أنّ أخْذَ الزّينة في الصّلاة لم يكن لتحتجب عن النّاس فهذا نوع، وهذا نوع.

وحينئذٍ فقد يسترُ المصلي في الصّلاة ما يجوز إبداؤه في غير الصّلاة، وقد يُبدي في الصّلاة ما يستره عن الرّجال.

فالأوّل مثل المنكبين، فإنّ النّبيّ ﷺ: «نهى أنْ يُصليَ الرّجلُ في الثوبِ الواحدِ ليسَ على عاتقِهِ منهُ شيءٌ»[١]، فهذا لحقِّ الصّلاة، ويجوزُ له كشفُ منكبيهِ للرّجال خارجَ الصّلاةِ.

وكذلك المرأةُ الحرّةُ تختمِرُ في الصّلاة، كما قال النّبيّ ﷺ: «لا يقبلُ الله صلاةَ حائضٍ إلاّ بخمارٍ»[٢]، وهي لا تختمر عند زوجها ولا عند ذوي محارمها. فقد جاز لها إبداءُ الزّينة الباطنة لهؤلاء، ولا يجوزُ لها في الصّلاة أنْ تكشف رأسها لا لهؤلاء ولا لغيرهم.

وعكس ذلك الوجه واليدان والقدمان، ليس لها أن تُبْدِي ذلك للأجانب على أصح القولين، بخلاف ما كان قبل النّسخ، بل لا تُبْدِي إلاّ الثّياب.

وأمّا ستر ذلك في الصّلاة، فلا يجب باتفاق المسلمين. بل يجوز لها كشفُ الوجه بالإجماع، وإن كان من الزّينة الباطنة، وكذلك اليدان يجوز إبداؤهما في الصّلاة عند جمهور العلماء، كأبي حنيفة والشّافعي وغيرهما، وهو إحدى الرّوايتين عند أحمد، وكذلك القدم يجوز إبداؤه عند أبي حنيفة، وهو الأقوى، فإنّ عائشة جعلته من الزّينة الظاهرة، قالت: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾[٣]، قالت: الفتخُ: حلقٌ من فضّةٍ في أصابع الرجلين. رواه ابن أبي حاتم، فهذا دليلٌ على أنّ النّساء كُنّ يُظهرنَ أقدامهنّ أوّلاً، كما يُظهِرْنَ الوَجْهَ واليدين، فإنّهنّ كُنّ يُرْخينَ ذُيُولَهُنَّ، فهي إذا مشت قد يظهرُ قدمُها، فإنْ لم يكنْ يمشين في خفافٍ أو أحذية. وتغطيةُ هذا في الصّلاة فيه حَرَجٌ

---

(١) متفق عليه.

(٢) حديث صحيح أخرجه أبو داود وغيره.

(٣) سورة: النور، الآية: ٣١.

عظيم، وأمّ سلمة قالت: تُصلّي المرأة في ثوبٍ سابغٍ يُغطي ظُهورَ قدميها، فهي إذا سجدتْ قد يَبْدُو باطنُ القدم.

وبالجملة فقد ثبت بالنصّ والإجماع أنّه ليس عليها في الصّلاة أن تلبسَ الجلبابَ الذي يسترها إذا كانت في بيتها، وإنّما ذلك إذا خرجت من بيتها، وحينئذٍ فتصلّي في بيتها، وإنْ بَدا وجهُهَا ويداها وقدمَاهَا، كما كُنّ يمشين أوّلاً قبل الأمر بإدْناء الجلابيب عليهنّ، فليستِ العورةُ في الصّلاة مرتبطة بعورة النّظر، لا طرداً ولا عكساً. وابن مسعودٍ رضي الله عنه لمّا قال: الزّينة الظّاهرة هي الثّياب، لم يقل: إنّها كلّها عورة حتّى ظُفْرها. بل هذا قول أحمد، يعني به أنّها تستره في الصّلاة، فإنّ الفقهاء يُسمُّون ذلك «باب ستر العورة» وليس هذا من ألفاظ الرسول ﷺ، ولا في الكتاب والسّنّة أنّ ما يسترهُ المصلي فهو عورة، بل قال تعالى: ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾[1]. ونهى النّبيّ ﷺ أن يطوف بالبيتِ عُرْيَاناً[2] فالصّلاةُ أوْلَى.

وسُئل ﷺ عن الصّلاة في الثوب الواحد؟ فقال: «أوَ لكلّكم ثوبان؟»[3] وقال ﷺ في الثّوب الواحد: «إن كان واسعاً فالْتَحِفْ به، وإنْ كان ضيقاً فاتّزِرْ به»[4]. و«نهى أن يُصلي الرّجل في ثوبٍ واحدٍ وليس على عاتقه منه شيءٌ»[5] فهذا دليلٌ على أنّه يُؤمر في الصّلاة بستر العورة الفخذ وغيره، وإن جوّزنا للرّجل النّظر إلى ذلك. فإذا قُلْنا على أحد القولين، وهو إحدى الرّوايتين عن أحمد: إنّ العورة هي السّوْءتان، وإنّ الفخذ ليست بعورة، فهذا في جواز نظر الرّجل إليها، ليس هو في الصّلاة والطّواف، فلا يجوزُ أنْ يُصلي الرّجلُ مكشوف الفخذين، سواء قيلَ: هُمَا عورة أو لا، ولا يطوف عُرْيَاناً، بل عليه أن يُصلّي في ثوب واحدٍ، ولا بدّ من ذلك، إن كان ضيقاً اتزرَ بهِ، وإن كان واسعاً التحفَ به، كما أنّه لو صلّى وحده في بيتٍ كان عليه تغطية ذلك باتفاق العلماء.

---

(١) سورة: الأعراف، الآية: ٣١.
(٢) متفق عليه.
(٣) متفق عليه.
(٤) صحيح البخاري، وبنحوه في صحيح مسلم.
(٥) حديث صحيح.

وأمّا الثّوب الذي كانتِ المرأةُ تُرْخِينَهُ، وسألْنَ عن ذلك النّبيّ ﷺ فقال: «شبراً» فقُلْنَ: إذاً تبدُو سُوقهُنّ؟ فقال: «ذِرَاعٌ لا يزِدْنَ عليه»[١].

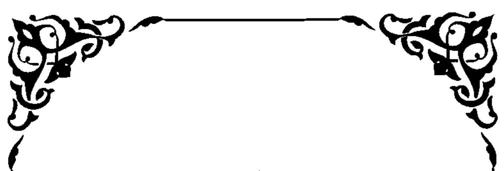
فهذا كان إذا خرجْنَ من البُيُوت، ولهذا سُئل ﷺ عن المرأة تجرُّ ذيلها على المكان القذر؟ فقال: «يُطهرهُ ما بعدَهُ»[٢]. وأمّا في نفس البيت فلم تكن تلبس مثل ذلك. كما أنّ الخفاف اتخذها النّساء بعد ذلك لستر السُّوق إذا خَرَجْنَ، وهنّ لا يلبسنها في البيوت، ولهذا قُلْنَ: إذاً تبدُو سوقُهُنّ، وكان المقصود تغطية السّوق؛ لأنّ الثّوب إذا كان فوقَ الكعبين بَدا السّاق عند المشي.

والمرأةُ في الإحرام لا تلبسُ النّقابَ ولا القفازين، وهذا هو إحرامُها، وذلك كما ورد في الصّحيح عن رسول الله ﷺ.

---

(١) حديث صحيح، رواه أبو داود في سننه، وغيره.

(٢) حديث حسن رواه أبو داود في سننه وغيره.



الفصل الثّالث عشر
زينة المرأة المشروعة والمحرّمة
وأحكام عمليات التّحسين والتّجميل

البحـــث الأوّل: زينة النّساء بين المباح والحرام.
البحث الثّانـــي: طِيب الرّجال والنّساء.
البحث الثّالــث: زينة المرأة من الذّهب والفضّة.
البحث الرّابــع: أحكام زكاة الحليّ.
البحث الخامس: حكم تحلّي النّساء بالجواهر النّفيسة.
البحث السّادس: ثياب الحرير للمرأة.
البحث السّابـع: الزينة المحرّمة على النّساء.
البحث الثّامــن: حكم نتف شعر وجه المرأة.
البحث التّاسـع: حكم وشر الأسنان للمرأة.
البحث العاشــر: حكم التّزيّن بأدوات التّجميل.
البحث الحادي عشر: عمليات التّجميل الجراحيّة.

البحث الأول:

زينة النّساء بينَ المباح والحرام

الزّينةُ في اللّغة:

ما تتزيّنُ به، ويومُ الزّينة يوم العيد، والزَّينُ ضدُّ الشَّين، وزانَهُ من باب (باع) وزينه تزييناً مثله، والحجّامُ مزيّن، وتزيّنَ وازْدَانَ بمعنًى، ويُقال: ازّينتِ الأرضُ بعُشْبِهَا، وازّيّنتْ مثله، وأصلهُ تزيّنتْ، فأدغم. وقيل: امرأةٌ زائنٌ أي متزيّنة[1].

ومعنى الزّينة في الاصطلاح:

اسمٌ يقعُ على محاسن الخَـلْقِ التي خلـقَها الله[2]، وعلى ما يـتزين به الإنسان من فضل لباس، أو حلي وغير ذلك. وقيل: الزّينة في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾[3]، يريدُ بها ثلاثةً معاً.

(أ) قال ابن مسعود إنّها الثّياب بمعنى أنها يظهر منها ثيابها خاصّةً.

(ب) قال ابن عباس: هي الكحل والخاتم.

(ج) وقيل: إنّها الوجه والكفّان، وهو القول الثاني بمعنى واحد لأنّ الكحل والخاتم في الوجه والكفّين[4].

وقيل: الزّينةُ تقسم إلى أربعة أنواع:

١ ـ الزّينة الخَلْقيةُ.

٢ ـ الزّينةُ المكتَسَبةُ.

---

(١) محمد بن أبي بكر الرازي، مختار الصحاح، مادة زيّن.

(٢) انظر ابن المنظور، لسان العرب، مادة زين.

(٣) سورة: النور، الآية: ٣١.

(٤) ابن العربي أحكام القرآن، ج ٣/ ١٣.

٣ ـ الزّينة الظاهرةُ.
٤ ـ الزّينة الباطنةُ.

أمّا الزّينةُ الخَلْقيّةُ: فهي الوجه فإنّه أصل الزّينة وجمال الخِلْقَةِ، وأمّا الزّينة المكتسبةُ فهي ما تحاولهُ المرأةُ من تحسين خلقتِها بالتّصنيع، كالثياب، والحلي، والكحل، والخِضَاب، وغيره[١].

وأمّا الزّينةُ الباطنةُ: فيُقصَدُ بها السِّوَار كالخلخال والدملج والقلادة والأكليل والوشاح، فلا يحلُّ إبداؤها إلاّ لمَنْ سماهم الله تعالى في الآية التي وردتْ في سورة النّور قال تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾[٢] الآية.

لأنّ هذه الزّينة واقعة على مواضع الجسد لا يحل لغير هؤلاء النّظر إليها وهي الذّراع، والسّاق، والعضد، والعُنق، والرأس، والصّدر، فنهى عن الزّينة ليعلم أنّ النّظر لم يحل لملامستها تلك المواقع[٣].

وأمّا الزّينة الظّاهرة: فهي الزّينة التي لا بأس بظهورها للرجال الأجانب كالخاتم وأطراف الثّياب، ولقد سُومح بالزّينة الظاهرة، لأن سترها فيه حَرَجٌ، فإنّ المرأة لا تجد بُدًّا من مزاولة الأشياء بيديها، ومن الحاجة إلى كشف وجهها خصوصاً في الشّهادة والمحاكمة[٤]. ونحو ذلك من الشّؤون التي لا بدّ فيها من معرفة الشّخصية.

حكم خضاب اليدين والرجلين للنّساء:

يستحب خضاب اليدين والرجلين للنساء، وقد حث الرسول ﷺ على الخضاب والعمل على أنْ لا تُشبه يَدَ الرجلِ في الخشونة والجفاف ما لم تكن حادّةً على زوجها فيحرم عليها الخضاب فترة العدّة، وقد جاء في هذا ما روته السّيدة عائشة رضي الله عنها: «أنّ امرأة أومأتْ من وراء ستر بيدها بكتابٍ إلى رسول الله ﷺ فقبض يده وقال:

---

(١) ابن العربي، أحكام القرآن، ج ٣/ ص ١٣.
(٢) سورة: النور، الآية: ٣١.
(٣) انظر: محمد علي الصابوني، روائع البيان في تفسير آيات الأحكام، ج ٢، ص ١٥٨.
(٤) روائع البيان في تفسير آيات الأحكام، ج ٢، ص ١٥٩.

ما أدري أيَدَ رجلٍ أم امرأةٍ؟ فقالتْ: بل يَدُ امرأةٍ، فقال: «لو كنتِ امرأةً لغيّرتِ أظفارَكِ يعني بالحنّاء»[1].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كانت امرأةُ عثمان بن مظعون تخضب وتتطيب فتركتْهُ فدخلتْ عليّ فقلتُ: أمشهدٌ أم مغيبٌ؟ فقالت: مشهدٌ، قالت: عثمان لا يُريد الدّنيا ولا يريد النّساء، قالت عائشةُ: فدخلَ عليَّ رسول الله ﷺ فأخبرتُه بذلك فلقي عثمان فقال: «يا عثمان تُؤمن بما نُؤمنُ بهِ؟» قال: نعم يا رسولَ الله، قال: «فأسوةٌ ما لَكَ لنَا؟»[2].

وعن كريمة بنت همام قالت: «دخلتُ المسجدَ الحرام فوجدتُ عائشةَ رضي الله عنها فسألتُها: ما تقولينَ يا أمَّ المؤمنين في الحنّاء؟ فقالتْ: كان حبيبي ﷺ يُعجبُهُ لونُهُ ويكرهُ ريحهُ، وليس بمحرّمٍ عليكن بينَ كلِّ حيضتين أو كلِّ حيضةٍ»[3] [4].

وخضابُ اليد والأظفار يجب أن يكون بمادة لا تمنع وصول الماء إلى البشرة كالحناء وما شابهها أمّا طلاء الأظافر المصنّع من المواد البلاستيكية، مثل المونياكير فهذا يمنع وصولَ الماءِ إلى البشَرةِ، ولهذا يمنع الوضوء والصّلاة، وكذلك لا تطهرُ مَنِ اغتسلتْ من الحدَثِ الأكبر مثل الحيض والنّفاس والجنابة وهي تضعُه على بشرتِها فلا تطهر وتبقى على حَدَثِها.

ولهذا نجد الإسلامَ يُبيح الزّينة بشرطِ أن لا تؤدي إلى حرام فكلُّ ما يُؤدّي إلى الحرام فهو حرامٌ.

---

(١) سنن أبي داود، كتاب الترجل، باب في خضاب النّساء، ح ٤١٦٦، ج ٤، ص ٦٦.
(٢) الشوكاني، نيل الأوطار، ج ٦، ص ٣٤٣.
(٣) الشوكاني، نيل الأوطار، ج ٦، ص ٣٤٣، رواه أحمد في مسنده.
(٤) بمعناه، أخرجه أبو داود، سنن أبي داود، كتاب الترجل، باب الخضاب للنساء، ح ٤١٦٤، ج ٤، ص ٣٩٥.

البحث الثّاني:

طيب الرّجال والنّساء

صفة طيب النّساء والرّجال:

روى أبو هريرة رضي الله عنه قالَ: قالَ رسول الله ﷺ: «طيبُ الرّجالِ ما ظهرَ ريحُهُ وخَفِيَ لونُهُ، وطيبُ النّساءِ ما ظهرَ لونه وخفيَ ريحُهُ»[1].

وجه التّفريق بينهما:

أنّ المرأة مأمورة بالاستتار حالةَ بروزها من منزلها، والطّيب الذي له رائحةٌ لو شرع لها لكانت فيه زيادة الفتنة بها وللجمع بين الحديثين نقول: إنّ لها مندوحة لو تطيبتْ بطيبٍ له رائحةٌ أن تغتسل إذا أرادَتِ الخروجَ، فعائشةُ رضي الله عنها طيّبتْ رسول الله ﷺ في بيتها ولم تخرج مِنه. فلو أرادتِ الخروجَ لوجبَ في حقّها الغسلُ من رائحة الطّيب الذي لمسته أثناء تطييبها رسول الله ﷺ لذا فالمرأة في بيتها لها أن تتطيَّبُ بكل أنواع الطّيب بشرطِ عدم خروجها من بيتها.

---

(١) ابن حجر العسقلاني فتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج ١٠/ص ٣٦٦.

البحث الثّالث:

زينة المرأة من الذّهب والفضّة

الزّينةُ الظّاهرة: وهي ما تتزيّنُ به النّساء من حليٍّ وحريرٍ، وفيه مسائل:

أولاً: تعريف الحلي:

الحليّ اسمٌ لكل ما يتزيّنُ به من مصَاغ الذّهبِ والفِضّةِ وغيرِه، والجمع حُليّ بالضّمّ والكسر.

ويُقال: حليةٌ والجمعُ: حِليّ، مثل لحية ولِحًى وربّما ضُمّ وتُطلق الحلية على الصّفة أيضاً[1].

وقيل: الحَلى بالفتح ما يزيّن به من مصوغ المعدنيات أو الحجارة، الجمع حُلى. أو هو جمعٌ الواحدُ حُلية كضبية، والحلية بالكسر جمعه حلى وحُلى[2].

ثانياً: في حكم تحلّي النّساء بالذهب والأدلة على ذلك:

قد ثبتتْ إباحةُ الذّهب والفضّة وسائر أنواع الحُليّ ما عدا الحديد والنحاس بأدلة من الكتاب والسّنّة.

من الكتاب: ١ ـ قولُه تعالى: ﴿ أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلۡحِلۡيَةِ وَهُوَ فِي ٱلۡخِصَامِ غَيۡرُ مُبِينٖ ﴿١٨﴾ ﴾[3].

قال ابن عباس: ﴿ أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ ﴾ يُغذّى ويُربّى في الحلية أي حلية الذّهب والفضّة ﴿ وَهُوَ فِي ٱلۡخِصَامِ ﴾ أي غير ثابت الحجة، ففي الآية تقريرُ أمرٍ قد جُبِلَتْ عليه

---

(١) الرازي، مختار الصحاح/ مادة «حلي».
(٢) الفيروز أبادي، القاموس المحيط، مادة «حلي».
(٣) سورة: الزخرف، الآية: ١٨.

النّساء ألاَ وهو التّحلي بالذّهب والفضّة وحُبّ التّزيّن بما أُبيحَ لهنّ من الحليّ[١].

٢ ـ قولُه تعالى: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ﴾[٢]. فسِّرتْ بمعنى طلب الزّينة ممّا توقدون عليه في النّار من جواهر الأرض كالذّهب والفضّة والنّحاس[٣].

هذه الآيات ظاهرها يدلُّ على أنّ لباسَ الذّهبِ والفضّة يجوز للنّساء عموماً كما تدلُّ عليه لفظة ﴿حِلْيَةٍ﴾[٤] حيث أنّه يعم كلّ ما يتزيّن به من مصاغ الذّهب والفضّة وغيره، وكذلك تفاسير العلماء لهذه الآيات حيث قرّروا إباحة حلي الذّهب والفضّة للنساء.

وروتْ أحاديثُ تُبيحُ لباسَ الذّهب والفضّة للنّساء، وأحاديث تُحرّمُ لباسَ الذهب عليهنّ.

من السّنّة: الأحاديث المبيحةُ للتّحلي بالذّهب والفضّة:

١ ـ عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: أخذَ النّبيُّ ﷺ حريراً فجعله في يمينه، وأخذ ذهباً فجعله في شماله ثم قال: «إنّ هذين حرامٌ على ذكورِ أُمّتي حِلٌّ لإناثِهم»[٥].

٢ ـ عن طاووس عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «شهدت العيد مع النبي ﷺ فصلى قبل الخطبة، قال أبو عبد الله، وزاد ابن وهب عن ابن جُريج، فأتى النّساء فأمرهنّ بالصّدقة فجعلْنَ يلقينَ الفَتَخَ والخواتم في ثوب بلال، وفي رواية فجعلتِ المرأةُ تتصدّقُ بخرصها وسخابها، وفي رواية فجعلتِ المرأةُ تلقي قِرْطها..»[٦].

٣ ـ عن عائشة رضي الله عنها: «أنّ النجاشي أهدىٰ للنّبيّ ﷺ حليةً فيها خاتم من

(١) القرطبي الجامع لأحكام القرآن ج ١٥، ص ٧١.
(٢) سورة: الرعد، الآية: ١٧.
(٣) محمد أحمد كنعان، قرة العينين على تفسير الجلالين، ص ٣٢٤.
(٤) سورة: الرعد، الآية: ١٧.
(٥) النووي، صحيح مسلم، ج ١٤، ص ٦٥.
(٦) ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ج ١٠، ص ٣٣١.
ـ القرط: قال ابن حجر ما يعلى به الأذن ذهباً كان أو فضة صرفاً أو مع لؤلؤ.

ذهبٍ فأخذَهُ وأنّه لَمُعْرِضٌ عنهُ، ثم دعا أُمَامَةَ بنتِ ابنتهِ فقال: تحلّي بهِ»[1].

وجه الدّلالة:

هذا الحديث فيه إفادة تحريم الذّهب على الرّجال وإباحته للنّساء، بلا شك حيث أنه أعرض عنه ولم يلبسه وألبسه بنت ابنته أُمامة.

٤ ـ وكان على عائشة رضي الله عنها خواتيم الذهب، ذكره البخاري معلّقاً في صحيحه ووصله ابن سعد عن طريق عمر بن عمرو مولى المطلب قال: سألتُ القاسم بن محمد فقال: «لقدْ رأيتُ والله عائشةَ تلبسُ المعصفر وتلبس خواتيمَ الذّهبِ»[2].

وجه الدّلالة:

هذا الحديث دليل قوي على إباحة لبس الذّهب للنّساء، فإنّه ليس من المعقول أنّه لو كان حراماً لِبْسُهُ أن تغفلَ عنه السّيدةُ عائشةُ، وهي زوجةُ رسول الله ﷺ وعاشتْ معه أكثر حياته في المدينة زمن نزول التّشريع.

حظر الذهب للحلي على النّساء:

الأحاديث التي جاءت في تحريم الذهب على النّساء:

١ ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «من أحب أن يحلق حبيبه بحلقة من نار فليحلقه من ذهب، ومن أحب أن يطوق حبيبه طوقاً من نار فليطوقه طوقاً من ذهب، ومن أحب أن يسور حبيبه سواراً من نار فليسوره سواراً من ذهب، لكن عليكم بالفضة فالعبوا بها العبوا بها العبوا بها»[3].

٢ ـ عن ثوبان رضي الله عنه قال: «جاءت بنت هبيرة إلى النّبيّ ﷺ وفي يدها فتخ (من ذهب) أي خواتم الكبار، فجعل النّبيّ ﷺ يضرب يدها بعصية معه يقول لها:

---

(١) ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ج ١٠، ص ٣٠.
(٢) ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ج ١٠، ص ٣٣٠.
(٣) أبو داود، سنن أبي داود ج ٤، ص ٩٣.

«أيسرك أن يجعلَ الله في يدِكِ خواتيمَ مِنْ نارٍ؟... فأتَتْ فاطمة تشكُو إليها، فقال: ثوبان، فدخل النّبيّ ﷺ على فاطمة وأنا معه وقد أخذتْ في عنقها سلسلةً من ذهب فقالت: هذا أهدى إليّ أبو الحسن... «تعني زوجها عليًّا رضي الله عنه» وفي يدها السلسلة ـ فقال النّبيّ ﷺ: يا فاطمة أيسرُّكِ أنْ يقولَ النّاسُ فاطمةُ بنتُ محمّدٍ في يدها سلسلةٌ من نارٍ..؟. ثم عزمها عزماً شديداً، فخرج ولم يقعد، فعمدت فاطمة إلى السلسلة فباعتْها فاشترتْ بها نسمةً فأعتقتْهَا، فبلغَ ذلك النّبيّ ﷺ فقال: «الحمدُ لله الذي نجّىٰ فاطمةَ مِنَ النّار»[1].

٣ ـ وعن أمّ سلمةَ زوج النّبيّ ﷺ قالت: «جعلت شعائر من ذهبٍ في رقبتها فدخلَ النّبيّ ﷺ، فأعرضَ عنها، فقلتْ ألا تنظر إلى زينتها فقال: عن زينتك أعرض، قال زعموا أنّه قال: ما ضرّ إحداكُنّ لو جعلتْ خرصاً من وَرِقٍ ثم جعلتْهُ بزعفران»[2].

قال ابن القيم رحمه الله: اختلف النّاس في فهم هذه الأحاديث وأشكلتْ عليهم.

١ ـ فمنهم مَنْ سلك بها مسلك التضعيف وعللها كلّها.

٢ ـ ومنهم من ادّعى أنّ ذلك كان أوّل الإسلام ثم نسخ واحتج بحديث أبي موسى الأشعري عن النّبيّ ﷺ قال: «أُحِلَّ الذهبُ والحريرُ للإناثِ مِنْ أمتي، وحُرِّمَ على ذكورِهَا»[3].

٣ ـ ومنهم من حمل أحاديث الوعيد على من لم يُؤدِّ زكاةَ حليِّها.

٤ ـ ومنهم من أهل الحديث من حملوا الأحاديث على من أظهرت حليّها وتبرّجتْ بها دُونَ مَنْ تزيّنت لزوجها.

فبالمقارنة بين أدلّة الإباحة وأدلّة التّحريم، في ضوء قواعد التّرجيح يتبيّنُ ما يأتي:

١ ـ أنّ أحاديث الإباحة كثيرة جداً ومشهورة ومستفيضة بخلاف أحاديث الحرمة

---

(١) البيهقي، سنن البيهقي، كتاب الزكاة، باب سياق أخبار تدل على تحريم التحلي بالذهب ج ٤، ص ١٤١.

(٢) ابن قيم، تهذيب سنن أبي داود، ج ٦، ص ١٢٦.

(٣) ابن ماجه، سنن ابن ماجه، باب من رُخّص له في لبس الحرير ج ٢/ ص ١١٨٨.

فقد قال الجصاص في تفسير قوله تعالى: ﴿ أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ ﴾[1]، بعد أن ذكر بعض أحاديث التحريم، الأخبار الواردة في إباحة الذهب للنّساء عن النّبيّ ﷺ أظهر وأشهر من أخبار الحظر.

٢ ـ أحاديث الإباحة قوية السّند لا كلام فيها، ولا مطعن بخلاف الحرمة فقد تطرّق لمعظمها الضعف كما تقدّم.

٣ ـ القائلون بالإباحة هم الجمهور بل هو إجماع السّلف من الصّحابة والتّابعين كما نقل ذلك جمع من الأئمة كابن حجر العسقلاني في فتح الباري، والنّووي في شرح صحيح مسلم، وابن تيمية في مجموع الفتاوي، وغيرهم فلو كان شيء من الذّهب محرّماً لنُقِلَ إلينا في ذلك الشّيء واشتهرَ بينَ الصّحابة وغيرهم فإنّهم نقلوا إلينا أصغر المسائل المختلف فيها في الشّريعة، كيف وتحريم الذهب من الأمور المهمّة ولم يُنقل فيه شيء.

قال الجصّاص: وقد استفاض لبس الحلي للنّساء من لدنه ﷺ والصحابة إلى يومنا هذا من غير نكير من أحدٍ عليهنّ.

قال النّووي: أجمع المسلمون على أنّه يجوز للنّساء لبس أنواع الحليّ من الذّهب والفضّة وجميعاً كالطّوق والعقد والخاتم والسّوار والخلخال والدملج والقلائد والمخانق وكل ما يُتخذ في العُنق وغيره وكل ما يعتذنَ لبسه ولا خلاف في شيء من هذا.

---

(١) سورة: الزخرف، الآية: ١٨.

البحث الرابع:

أحكام زكاة الحليّ

حكمُ زكاةِ حليِ النّساء المباح الوجوب:

اتّفق فـقهاءُ المذاهب على وجـوب زكاة الحليّ الذي لا يجوز اتخاذه كالخاتم من الذّهب للرّجل، وغيرها من الزّينة المحرم اتخاذها ولبسها، وكذلك ما كان معدًّا لكراءٍ أو لنفقةٍ أو معداً للتجارةِ أو كان غير مستعمل إذا بلغ نصاباً. إلاّ الحنفية والظّاهرية فهم يوجبون الزكاة في الحلي سواء أكان مباحاً أو غير مباح، مستعمل أو غير مستعمل.

١ ـ قال الحنفية: «في تبر الذّهب والفضّة وحليهما وأوانيهما الزّكاةُ فعمم في حلي الذهب والفضة مباحاً أو غير مباح مستعملاً كان أو غير مستعمل».

٢ ـ قالت الظاهرية: «الزكاة واجبة على حلي الذهب والفضة سواء كان حلي امرأة أو حلي رجل وكذلك حلية السّيف والمصحف والخاتم وكل مصوغ منهما حلّ اتّخاذه أو لم يحلّ».

٣ ـ قالت المالكية: عن مالك رحمه الله: «من كان عنده تبرٌ أو حليّ من ذهبٍ أو فضّة لا ينتفع به فإنّ عليه الزّكاةُ في كلّ عام».

٤ ـ قالت الشّافعية: عن الشّافعي رحمه الله: «فإن اتخذه من ذهبٍ أو اتخذَهُ لنفسه حلي المرأة أو قلادة أو دملجين أو غيره من حليّ النّساء ففيه الزّكاةُ لأنّه ليس له أن يتختم ذهباً أو يلبسه».

٥ ـ قالت الحنابلة: نص الخرقي: «وليس في حليّ المرأة زكاةٌ إذا كان مما تلبسه أو تعيره» وقال في الشرح: «فأمّا المعدّ للكرىٰ والنّفقة إذا احتيج إليه ففيه الزّكاةُ».

أدلة القائلين بوجوب زكاة الحلي:

أولاً: من الكتاب الكريم:

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾﴾[(١)].

وجه الدلالة:

الآية تُوضح أنّ الذّهب والفضّة تشمل الحليّ كما تشمل النّقود والسّبائك، فما لم تؤدَ الزكاة منها فهي كنز يكوىٰ به صاحبُهُ يومَ القيامة.

قال الكاساني: «الحقُّ الوعيدُ الشّديدُ بكنز الذّهب والفضّة وطرق إنفاقها في سبيل الله من غير فصل بين الحلي وغيره وكل ما لم تؤدَّ زكاتُهُ فهو كنز».

ثانياً: من السُّنّة:

١ ـ عن عمرو بن شعيب عن جدّه أنّ امرأةً أتت رسول الله ﷺ ومعها ابنةٌ لها في يدها مسكتان غليظتان من ذهب فقال لها: «أتعطينَ زكاةَ هذا؟ قالتْ: لا، قال: أَيَسُرّكِ أنْ يُسَوِّرَكِ الله بهما سِوَارينِ مِنْ نارٍ؟ قال: فخلعتهما ولَقَتْهُمَا إلى النّبيّ ﷺ وقالت: هما لله عز وجل ورسوله»[(٢)].

وجه الدلالة:

في الحديث تصريح بوجوب الزكاة في الحلي حيث توعدها بأن يسورها الله يوم القيامة بسوارين من نار إن لم تؤد الزكاة.

٢ ـ عن عائشة قالت: «دخل عليّ رسول الله ﷺ وفي يدي فتخات من ورق فقال: ما هذا يا عائشة؟ فقالت: صنعتهن أتزين لك يا رسول الله، قال: أتؤدينَ زكاتَهُنّ؟ فقالت: لا ما شاء الله، قال: هو حَسْبُكِ مِنَ النّار»[(٣)].

---

(١) سورة: التوبة، الآية: ٣٤.

(٢) سنن الترمذي، ص ٢١، ويُراجع ابن قدامة، المغني ج ٣، ص ١١.

(٣) سنن أبي داود، كتاب الزكاة، باب الكنز ما هو؟ وزكاة الحلي ح ١٥٦٥، ج ٢، ص ١٣.

وجه الدّلالة:

الحديث فيه دليل على وجوب زكاة الحلي.

عن أم سلمة قالت: «كنتُ ألبس أوضاحاً من ذهبٍ، فقلت: يا رسولَ الله أكنزهُ؟ فقال: ما بلغَ أن تُؤدّي زكاته فزكّي فليس بكنزٍ[١]»[٢].

وجه الدّلالة:

يدلُّ الحديث دلالة واضحة على أنّ الحلي إذا بلغ نصاباً ففيه الزّكاة الواجبة.

عن أسماء بنت يزيد قالت: «دخلتُ أنا وخالتي على النّبيّ ﷺ وعلينا أساور من ذهبٍ فقال لنا: أتعطيان زكاتَهُ؟ فقلنا: لا، فقال: أما تخافان أن يُسوّركما الله بسوارٍ من نارٍ؟ أدّيَا زكاتَهُ»[٣].

عن فاطمة بنت قيس قالتْ: «أتيتُ النّبيّ ﷺ بطوقٍ فيه سبعون مثقالاً من ذهبٍ فقلتُ: يا رسولَ الله: خُذْ منه الفريضةَ، فأخذ منه مثقالاً وثلاثة أرباع مثقالٍ»[٤].

---

(١) سنن أبي داود، كتاب الزكاة، باب الكنز ما هو؟ زكاة الحلي ج ٢، ص ٢١٢.
(٢) البيهقي، سنن البيهقي، كتاب الزكاة، ص ٢١٣، ج ١٥٦٤، باب من قال زكاة الحلي زكاة، ج ٤، ص ١٤٠.
(٣) مسند أحمد، ٦/٤٦١.
(٤) سنن الدارقطني، ج ٢، ص ١٠٧٠.

البحث الخامس:

حكم تحلّي النّساء بالجواهر النفيسة

وحكم تزيّن النّساء بالمجوهرات النّفيسة كاللؤلؤ والمرجان وغيره: يُباح باتّفاقِ التّحلّي للنّساء باللؤلؤ والياقوت والزمرد والعقيق والمرجان وسائر الأحجار الكريمة. قياساً على إباحة التّحلّي بالذّهب والفضّة.

ولأنّ الله تعالى ذكر هذه المجوهرات واللآلىء في معرض الامتنان وهو قوله عز وجل: ﴿ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾[1].

ففي الآيات حكم إباحة التّحلي بما يخرجه الله تعالى من البحر من اللآلىء والمرجان فهي حلية تُباح للزينة كما قال تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ﴾[2] [3].

وحكم تزيّن النّساء بالقطع الذّهبية والفضّيّة وهي مكتوب عليها آيات قرآنية:

لا شك أنّ القرآن الكريم وما فيه من آيات تتضمن تشريعات وأحكاماً وآداباً، وهذه الآيات فيها منهاج حياة المسلم وسعادته في الدنيا والآخرة، فلا يليقُ بالمسلم أنْ يرتدي أو يسمح بارتدائها لأنّ فيها امتهان لكلام الله تعالى.

وممّا يُؤسَف له أنْ نرى كثيراً من الأخوات المسلمات يُعلقن في صدور أولادهنّ أو يرتدينَ أنفسهنّ مثل هذه القطع الذّهبيّة أو الفضّية المكتوب عليها آيات مثل آية الكرسي، أو المعوّذتان، وغيرها وفي اعتقادهنّ أنّها حِرْزٌ من الشّياطين.

---

(١) سورة: فاطر، الآية: ١٢.

(٢) سورة: الأعراف، الآية: ٣٢.

(٣) ابن حزم، المحلّى، ج ١٠، ص ٨٢ ـ ٨٣، انظر النووي، المجموع، ج ٤، ص ٣٤٥، العقيق: خرز أحمر يكون باليمن وبسواحل رومية. الفيروز آبادي، القاموس، مادة عقق. وقيل هو ضرب من الفُصوص. الرازي، مختار الصّحاح، مادة (عقق).

لكن قد حدثتْ بادرة جيدة من قِبَل السعودية في وزارة التجارة حيث منعت بيع هذه المقتطعات، لأنّ منعها فيه حفظ لآيات القرآن الكريم من الامتهان. والله تعالى أعلم.

البحث السادس:

ثياب الحرير للمرأة

حكم لباس النّساء للحرير:

يتفق الفقهاء على إباحة لباس الحرير للنّساء لِما وردَ من أحاديث تفيد ذلك منها:

١ ـ عن عبد اللّه بن زرير الغافقي، سمعته يقول: سمعتُ عليَّ بن أبي طالب يقول: «أخذَ رسول الله ﷺ حريراً بشماله وذهباً بيمينِه، ثم رفع بهما يديه فقال: إنّ هذين حرامٌ على ذكور أمّتي حلٌّ لإناثهم»[١].

٢ ـ عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنه أنّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه رأى عطارد التميمي يُقيم بالسّوق حُلّةَ سِيَرَاء وكان رجلاً يغشى الملوك ويُصيب منهم، فقال عمر: يا رسولَ الله إنّي رأيتُ عطارداً يُقيم في السّوق حُلّةَ سيراء فلو اشتريتهما فلبستهما لوفود العرب إذا قدموا عليك وأظنه قال: ولبستها يوم الجمعة، فقال له رسول الله ﷺ: «إنّما يلبس الحرير في الدنيا من لا خلاقَ له في الآخرة»، فلمّا كان بعد ذلك أتى رسول الله ﷺ بحلل سيراء فبعثَ إلى عمر بحُلّة، وبعث إلى أسامة بن زيد بحلّةٍ وأعطى عليّ بن أبي طالب حلة وقال: شققها خمراً بين نسائك، قال: فجاء عمر بحلته يحملها فقال: يا رسول الله بعثتَ إليّ بهذه، وقد قلتُ بالأمس في حلّة عطارد ما قلتَ؟ فقال: «إنّي لم أبعث بها إليك لتلبسها ولكنّي بعثتُ إليكَ لتصيبَ بها، وأمّا أسامة فراح في حلته فنظر إليه رسول الله ﷺ نظراً عرف أن رسول الله ﷺ قد أنكر ما صنع، فقال: يا رسولَ الله ما تنظر إليّ فأنتَ بعثتَ إليَّ بها، فقال: إنّي لم أبعثْها إليكَ لتلبسها ولكنّي بعثتُ بها إليكَ لتشققها خُمُراً بينَ نسائِكَ»[٢].

---

(١) سنن ابن ماجة، ج ٢، ص ١١٨٩، رقم الحديث ٣٥٩٥.

(٢) النووي، صحيح مسلم، بشرح النووي، ج ١٤، ص ٣٩ ـ ٤٠، دار الفكر بيروت. انظر ابن =

٣ - عن عليّ رضي الله عنه أنّه قال: أُهدِيَ لرسول الله ﷺ حُلّةٌ مكفوفةٌ بحريرٍ إمّا سُدَاها وإمّا لُحمتُها، فأرسلَ بها إلينا فأتيتُه فقلتُ: يا رسولَ الله: ما أصنعُ بها؟ ألبَسُها؟ قال: «لاَ ولكنِ اجعلْهَا خُمُراً بينَ الفواطم»[١].

٤ - وعن عبد اللّه بن عمر رضي الله عنه قال: خرج علينا رسول الله ﷺ وفي إحدى يديه ثوب من حرير وفي الأخرى ذهب، فقال: «وإن هذين محرّمٌ على ذكور أُمّتي، حِلٌّ لإناثهم»[٢].

٥ - عن الزّهري قال: أخبرني أنس بن مالك: أنّه رأى على أم كلثوم عليها السّلام بنت رسول الله ﷺ بُرْد حريرٍ سَيَرَاء.

والأحاديث في جملتها تدلّ دلالة واضحة على تحريم لباس الحرير على الرّجال وإباحته للنّساء سواء أكان حريراً خالصاً أو غير ذلك، وأمرَ الرسول ﷺ عمر وعليّاً وأسامة بإلباس ما أُهدِيَ إليهم لنسائهم. وخاصّة أن أنس بن مالك رأى بنت رسول الله ﷺ وعليها برد حريرٍ سَيَرَاء.

= حجر العسقلاني، فتح الباري، ج ١٠، كتاب اللباس، باب الحرير للنساء، ص ٢٩٦.

(١) سنن ابن ماجه ج ٢، ص ١١٨٩، رقم الحديث ٣٥٩٦. قيل الفواطم: هن فاطمة الزهراء بنت الرسول ﷺ، وفاطمة بنت أسد أم علي بن أبي طالب، وفاطمة بنت حمزة وقيل فاطمة بنت عتبة بن ربيعة، انظر محمد القنوجي، حسن الأسوة بما ثبت من الله ورسوله في النسوة، ص ٤٦١، مؤسسة الرسالة.

(٢) سنن ابن ماجه، ج ٢، ص ١١٩٠، رقم الحديث ٣٥٩٧.

البحث السابع:

الزّينة المحرّمة على النّساء

وَصْلُ الشّعر:

والمقصود به وصل الشعر بغيره إيهاماً بكثرة الشعر أو جماله أو بهما معاً، وقد يكون ذلك الفعل من المرأة عن طريق إضافة شعرٍ إلى شعرها سواءٌ أكان شعراً طبيعياً لنسوة غيرها أو من شعرٍ مصنّع لهذا الغرض.

الأدلّة الواردة في تحريم الوصل:

١ ـ ما وردَ عن عبد الرحمٰن بن عوف رضي الله عنه أنّه سمع معاوية ابن أبي سفيان عام الحجّ وهو على المنبر يقول: وتناول قَصّةً من شعر كانت بيد حرسه: أينَ علماؤكم سمعتُ رسول الله ﷺ ينهىٰ عن مثل هذه ويقول: «إنّما هلكت بنو إسرائيل حينَ اتّخذَ هذه نساؤُهم»[١].

٢ ـ ما ورد عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النّبيّ ﷺ قال: «لعن الله الواصلةَ والمستوصِلَةَ، والوَاشِمَةَ والمُسْتَوشِمَةَ. . .»[٢] الحديث.

٣ ـ ما ورد عن صفية بنت شيبة عن عائشة رضي الله عنها أنّ جارية من الأنصار تزوجتْ وأنّها مرضت فتمعط شعرها فأرادوا أن يصلوها فسألوا النّبيّ ﷺ فقال: «لعنَ الله الوَاصِلةَ والمستوصلة»[٣].

---

(١) ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، كتاب اللباس، باب وصل الشعر، ج ١٠، ص ٣٧٣، ح ٥٩٣٢.

(٢) المرجع السابق ج ١٠، ص ٣٧٣ ـ ح ٥٩٣٣.

(٣) المرجع السابق ج ١٠، ص ٣٧٣، ح ٥٩٣٤.

٤ ـ ما ورد عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما أنّ امرأةً جاءتْ لرسول الله ﷺ، قالتْ: «إنّي أنكحتُ ابنتي ثم أصابها شكوىٰ فتمرّقَ رأسُها، وزوجُها يستحسن بها، أفأصل شعرها؟ فسبَّ ـ أي لعن ـ رسول الله ﷺ الواصلة والمستوصلة»[1].

(١) ابن حجر العسقلاني، فتح الباري ج ١٠، كتاب اللباس، باب وصل الشعر، ص ٣٧٣، ح ٥٩٣٥.

البحث الثّامن:

حكم نتف شعر وجه المرأة

النّمَصُ وحفّ الحواجب:

معنى النّمص في اللّغة: قال الفراء: النّامصة التي تنتف الشعر من الوجه، والمتنمّصة هي التي تفعل ذلك لنفسِها. وعن ابن الأثير أنّ بعضهم يقول: امرأة نمصاء، أي تأخذ منه بخيط والمِنْمَاص، المنقاش.

ومعنىٰ النّمص في الاصطلاح: عرّفه النّووي: أمّا النّامصة فهي التي تطلب المِنْمَاص والنّامصة التي تفعلُهُ، والنّماصُ هو إزالة الشّعر من الوجه بالمنقاش أو بالمِنْمَاص.

الأدلة التي وردت في النّمص:

١ ـ عن علقمة عن عبد اللَّه بن مسعود قال: «لعَنَ الله الواشـماتِ والمتوشمات، والنّامصات والمتنمّصات والمـتفلجات للحسن المغـيرات خَلْقَ الله، فبلغ ذلك امرأةً من بني أسد يُقال لها أم يعقوب كانت تقرأ القرآن فأتَتْه فقالت: ما حديثٌ بلغني عنك أنّك لعنتَ الواشمات والمتوشماتِ النّامصات والمتنمّصات والمتفلجات للحُسْنِ المغيّرات خَلْقَ الله، فقال عبد اللَّه: ما لي لا أَلْعَنُ مَنْ لَعَنَ رسول الله ﷺ وهو في كتابِ الله؟ فقالتِ المرأة: لقد قرأتُ ما بين لوحيّ المصحف فما وجدتُه، فقال: إنْ كنتِ قرأتِيهِ فقدْ وجديته، قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ۚ﴾[1].

فقالت المرأة: فإنّي أرى شيئاً من هذا على امرأتك الآن قال: اذهبي فانظري.

---

(١) سورة: الحشر، الآية: ٧.

قالت: فدخلتُ على امرأة عبد اللّه فلم تر شيئاً فجاءت إليه فقالت: ما رأيتُ شيئاً، فقال: أمَا لو كان ذلك لم نجامعها. أي لم نصاحبها[(١)] [(٢)].

٢ ـ ما رواه ابن مسعود رضي الله عنه أنّ النّبيّ ﷺ قال: «لعنَ الله الواشمَاتِ والمستوشماتِ والنّامِصَاتِ والمتنمّصات والمتفلّجات للحُسْنِ المغيّرات خلقَ الله»[(٣)].

٣ ـ عن ابن عباس قال: «لُعِنَتِ الوَاصِلَةُ والمستوصلةُ، والنّامصةُ والمتنمّصةُ والواشمةُ والمستوشمةُ من غير داء»[(٤)].

العلّة في التّحريم:

١ ـ التّدليس والغش، وهما حرام في شرع الله تعالى.
٢ ـ تغيير خَلْقِ الله تعالى، وهو محظورٌ أيضاً.

---

(١) ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ج ١، كتاب اللباس ح ٥٩٣٩، باب المتنمصات. وانظر النووي، صحيح مسلم، بشرح النووي ج ١٤، ص ١٠٧.
(٢) متفق عليه.
(٣) مسند أحمد، ج ١، ص ٣٣٩.
(٤) سُنن أبي داود، برقم ٤١٦٩.

البحث التاسع:

حكم وشر الأسنان للمرأة

قال الحافظ ابن حجر العسقلاني: إنّ المتفلّجة التي تطلب الفلج أو تصنعه، وهو انفراج ما بين الثّنيّتين، والتّفلج أن يُـفرّج بين المتلاصقين بالمبرد ونحوه، وهو مختص عادة بالثّنايَا والرّباعيّات ويُستحسن من المرأة فربّما صنعته المرأةُ التي أسنانها متلاصقة لتصير متفلّجة، وقد تفعله الكبيرة توهم أنّها صغيرة، لأنّ الصغيرة غالباً ما تكون المتفلّجة جديدة السّنّ ويذهب ذلك في الكِبَر.

قال النّووي: وتفعل الوشر العجوز ومن قاربتها السّن إظهاراً للصّغر ولحسن الأسنان لأن هذه الفرجة اللّطيفة بين الأسنان تكون للبنات الصّغار فإذا عجزت المرأةُ وكبرتْ سنُّها توحشت فتبردها بالمبرد لتصير لطيفة حسنة المنظر وتوهم كأنّها صغيرة.

فالوشر حَرامٌ على الفاعلة والمفعولِ بها لهذه الأحاديث، ولأنّه تغيـير لخلقِ الله تعالى، ولأنّه تزوير وتدليس. وقوله: «المتفلّجات للحُسْنِ» فمعناه يفعلن ذلك طلباً للحُسْنِ وفيه إشارة إلى أنّ الحرام هو المفعول لطلب الحُسْنِ، أمّا لو احتاجتْ إليه لعلاجٍ أو عيبٍ في السّنّ ونحوه فجائز، لأنّ الضّرورات تُقدّر بقدرها.

البحث العاشر:

حكم التّزيّن بأدوات التّجميل [المكياج]

اختلف العلماء في ذلك إلى فريقين:

الفريق الأول: قال بكراهة التّزيّن بأدوات التّجميل وقد استدل على ذلك بما يلي:

١ ـ بما ورد عن لميس عن عائشة رضي الله عنها أنّها سألتها عن المرأة تضع الدّهن تتحبّب إلى زوجها؟ قالتْ لها: «أميطي عنك، تلك التي لا ينظر الله عزّ وجلّ إليها»[١].

٢ ـ كما أنهم قاسوا التّزيّن بأدوات التّجميل على القَشْر الذي ورد النّص بالنّهي عنه حيث قال ﷺ: «لعَنَ الله القاشرة والمقشورة، والواشمة والمستوشمة والواصلة والمتصلة والنّامصة والمتنمّصة»[٢].

أضرارها على البشرة:

إنّ هذه المواد التّجميلية المصنّعة لتحمير الوجه وتبييضه لها مضار على بشَرَةِ المرأة، وأخطار كبيرة ثبتت طبيًّا، فهي تضرّ بالبشرة، لذا فهي مكروهة، لأنّ الله تعالى يقول: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾[٣]، ويقول أيضاً: ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾[٤].

---

(١) مسند أحمد عن عائشة رضي الله عنها، ج ٦، ص ١٤٦: الملاحظ أن أحاديث القشرة كلها رويت عن عائشة رضي الله عنها وأنّ الهيثمي قد ذكر في تخريجه أنّ في رواته جابر الجعفي وهو ضعيف جداً ولميس لم أعرفها. وعلى هذا فلا تصلح هذه الرّوايات للاحتجاج، فلا يصح الاعتماد في التّحليل والتّحريم إلاّ على الرّوايات الصّحيحة الثابتة.

(٢) مسند أحمد ج ٦/ ٢٥٠.

(٣) سورة: النساء، الآية: ٢٩.

(٤) سورة: البقرة، الآية: ١٩٥.

ولأن القاعدة الفقهيّة تنصّ على أنّ: «دَرْءَ المفاسد مقدَّمٌ على جلب المصالح» فضلاً على أنّه قد ثبت طبيًّا أنّ هذه المواد تُسبّب بعض الأمراض.

إنّ هذه المواد تقوم بسدّ منافذ التّعرق الذي هو في الحقيقة وسيلة لتخليص البدن من المواد الضّارة والسّموم، والمرأة التي تستعمل هذه المواد تكون قد ألجمت هذه السّموم عند الخروج بل أضافت لها سموماً جديدة.

والذين قالوا بإباحة الأصباغ التي تُحمّ الوجنتين وتبيّض الوجه المسمّاة «المكياج» سواء في ذلك المرأة المتزوّجة وغير المتزوجة مع مراعاة شروط ثلاثة:

الشّرط الأول: أنْ لا يكون الهدف من هذه الزّينة إظهارها للأجانب وإبراز المفاتن وإشاعة الفساد في المجتمع المسلم.

الشّرط الثاني: أنْ لا يكون الغرض منها الغش والتدليس على طالب الزّواج.

الشّرط الثالث: أن لا تكون هذه المواد مصنّعة من مواد دهنية أو شمعية أو زيتية تمنع وصول الماء إلى البشرة أثناء وضوئها أو غسلها من الجنابة أو الحيض أو النّفاس.

لأنّ من صحة الوضوء استيعاب الماء جميع أجزاء محل الطّهارة، وكذلك في الطّهارة من الحَدث الأكبر.

١ ـ لِما ورد عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: إنّ رجلاً جاء إلى النّبيّ ﷺ وقد توضأ وقد ترك على قدميه مثل موضع ظُفرٍ، فقال له النّبيّ ﷺ: «ارْجِعْ فأحْسِنْ وُضُوءَكَ»[١].

٢ ـ وفي لفظ أنّ النّبيّ ﷺ رأى رجلاً يُصلّي في ظهر قدمه لُمعَةٌ قدر الدّرهم لم يُصبْها الماء، فأمره النّبيّ ﷺ أن يُعيدَ الوُضُوءَ والصَّلاةَ»[٢].

---

(١) النووي، صحيح مسلم بشرح النووي، باب وجوب استيعاب جميع أجزاء محل الطهارة، ج ٣، ص ١٣٢.
(٢) سنن أبي داود، باب تفريق الوضوء، ج ١، ص ٤٥.

٣ ـ عن عبد اللّٰه بن عمر أنّ النبيّ ﷺ: «رأى قوماً يتوضؤون وأعقابهم تلوحُ فقال: «ويلٌ للأعقابِ مِنَ النّارِ»[1].

من هذا يتبيّنُ أنّ الموادّ الشّمعية والشّحمية والدّهنية اللّزجة مانعة لصحة الوضوء.

(١) النووي، صحيح مسلم بشرح النووي، باب وجوب استيعاب جميع أجزاء محل الطهارة ج ٣، ص ١٣١.

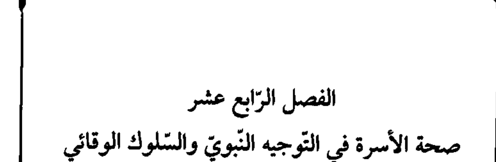
البحث الحادي عشر:

عمليات التّجميل الجراحية

حكم جراحات التّجميل: الحكم الشرعي في عمليّات التّجميل المعروفة اليوم والتي روّجتها حضارةُ الجسد والشّهوات الحرمة.

لِما فيها من تغيير لخلقة الله من غير ضرورة إلاّ الاهتمام بالمظهر. ولكن يبدُو لي والله أعلم أنّه إذا كان في الإنسان عيب ظاهر أو شاذ يلفت النظر كالزوائد التي تسبب ألماً حسّياً أو نفسياً كلّما جلس صاحبها بمجلس أو نزل بمكانٍ كتشوّهات الحروق والحوادث فإنّه لا بأس بأن يعالجه، ما دام يبغي إزالة الحرج الذي يلقاه ويُنغّص عليه حياته فإنّ الله لم يجعلْ علينا في الدِّين من حَرَجٍ، ولعلّ ما يؤيّد ذلك أنّ حديث اللّعن «للمتفلّجات للحُسْن» يُفهم منه أن المذمومة مَن فعلت ذلك لطلب الحُسْنِ والتّجمل الكاذب، أمّا لو احتاجت إليه لإزالة ألم أو تشوّهٍ أو غيره لم يكنْ بهِ بأسٌ، لأنّ الحديث ذُيّل بقول الرّسولِ ﷺ: «مِنْ غير دَاءٍ» فمفهومه أنّه إذا كان هناك داء جاز فعلُ ذلك. والله تعالى أعلم.

وأمّا عملياتُ التّجميل في الوجه لإزالة زوائد مشوِّهةٍ له، كالدّرن أو الثآليل ونحو ذلك فجائزٌ، والله تعالى أعلم.



الفصل الرّابع عشر
صحة الأسرة في التّوجيه النّبويّ والسّلوك الوقائي

البحـث الأوّل: الطّبّ النّبويّ طبٌّ وقائي لحفظ الصّحّة.
البحث الثّاني: رعاية الإسلام لمصلحة الإنسان.
البحث الثّالث: الوقايـة من الأمراض النّـفسيّة في هدي الإسلام.
البحث الرّابع: التّوكّل على الله تعالى مع التّداوي.

البحث الأول:

الطّبّ النّبويّ طبّ وقائي لحفظ الصّحّة

إنّ معظم ما جاء في الطّبّ النّبويّ إنّما هو من باب حفظ الصّحة بالطّبّ الوقائيّ، وليس غريباً أن يكون الأمر كذلك لأنّ التّخطيط الصحي والتّوعية الصّحية إنّما هما من مهام الدّولة، ولقد كان الرسولُ عليه الصّلاة والسّلام أول مؤسس لدولة إسلامية على أساس من شرع الله الحكيم. ومن أجل ذلك كانت التّعاليم والمناهج الصّحية في الإسلام كثيرة، منها ما هو موجود في نصوص آيات القرآن العظيم مؤكداً المهمّة الصّحية للرسول الكريم ﷺ. فعلى الرسول ﷺ أن يبلغها أيضاً وأن يُبيّن بإلهام من الله تعالى ما يتعلق بها من إيضاح وتفسير وأحكام استجابة لقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾[1]، والتّبيان أمرٌ زائد على التبليغ. وكما أن في القرآن أحكاماً لها مقاصد صحية يعطي تطبيقها مردوداً صحياً على المسلمين أن يلتزموا بها، فإن في تبيان الرسول ﷺ أحاديث شريفة لها مقاصد صحية يُعطي تطبيقُها مردُوداً صحّياً، عليهم أن يلتزموا بها أيضاً، فالقرآن كالدّستور والأحاديث النّبويّة كالقانون.

وفي العهد النّبوي حيث أحكمت صلة التّعاليم الصّحّيّة بشعب الإيمان وشعائر الدِّين، وفرائضه وسُننه واشتملت فريضتا الصّلاة والحج على حركات رياضية إضافة إلى الفوائد الرّوحية والنّفسية الأخرى، وحُرِّمت الخبائث من ميتةٍ ودمٍ ولحمِ الخنزير؛ لأضرارها على الصّحّة، وحرّم الخمر والمسكرات لِما في تعاطّيها من أضرار جسيمة واجتماعية، وكذلك حرمت الفواحش وقاية من الأمراض الزّهرية وحفاظاً على تماسك الأسرة وسلامة العلاقات الاجتماعية، وسيأتي التّفصيل في مباحثها. وحقّ للرسالة الخاتمة، التي جعلها الله للنّاس كافّةً، أن تجمع من التخطيط

---

(١) سورة: النحل، الآية: ٤٤.

والوصايا والمناهج والتّطبيقات الصّحية ما لا يوجد في غيرها من الرّسالات السّماوية.

لقد سها عن الحقائق التي أوضحتها آنفاً كثيرون ممّن كتبوا في الطّبّ النّبويّ قديماً وحديثاً أو علّقوا عليه كالعلاّمة ابن خلدون في مقدمته، فتكلّمُوا عن الطّب النّبوي وكأنّ معظمه علاجي أو كأنه طب متكامل، فلم يروا فيه طبّاً واسعاً أو علاجياً واضحاً ذا تأثير على مجرى الطّبّ العربي، ولو أنّهم توسّعُوا في دراسة الطّبّ النّبويّ لرأوا أنّ الطّبّ الوقائي في تعاليم الرّسول عليه الصّلاة والسّلام هو الذي ساعد في حفظ صحة الأمّة وهي مُعبّأة للجهاد والتّحرير وليس لها من مناهج صحية إلّا ما تنفذه باسم الدّين في فجر الإسلام قبل نهضتها الحضارية الدّنيوية الكبرى.

الطّب النّبوي الوقائي:

إنّ الباحث في الطّبّ النّبوي الوقائيّ يستدل من نص القرآن على بعض مناهجه، ومن دمج بعضها في صلب بعض العبادات واشتراط الطهارة لأداء كثير من العبادات المفروضة والمسنونة، وربط الثواب أو العقاب على أداء أو مخالفة بعضها، ومن إثارة الاهتمام بالصّحّة وبيان فضلها ومكانتها أنّه يستدل من ذلك على وجود تخطيط صحي إسلامي متميّز، يدفع أتباعه الملتزمين إلى تطبيق مناهجه الصّحية المتميّزة. كما يستدل على أن التّعاليم الصحية في الأحاديث النبوية ليست من باب النصائح غير الملزمة كما توهم بعضهم لأن شطرها يتعلّق به بيان فرائض ومحرمات. كما يستدل على أنّها لا علاقة لها البتة بالطّب الإسرائيلي طالما أنّها مفسّرة ومفصّلة ومكمّلة، لما ورد في القرآن الكريم، وإن النّقاد من المختصين بعلوم الحديث بيّنوا صحيحها وحسنها من ضعيفها وموضوعها. وإذا أردنا أن نقيّم المهام الصّحّية في الحكومة النّبويّة، وأن نُقدِّرَ لها حقّ قدرها يجب أن لا ننظر إليها بمنظار المهمات الصّحّية لوزارة الصّحة في دول هذا العصر، ولكن بمنظار يعتبر المستوى الصّحي في العالم أجمع في العهد النّبوي وخاصّة في الدّول المجاورة، كما يعتبر الظروف والمنجزات العديدة التي تمت في عهد الرّسول عليه الصّلاة والسّلام وخاصة إبان تكون الدولة الإسلامية العربية الأولى في العهد المدني ومدته عشر سنين مملوءة بالأحداث؛ أرسل فيها رسول الله ﷺ ما يُقارب من سبع وعشرين سريّة صغيرة وكبيرة للقيام بمهمات عسكرية خاطفة، فاشتبكت مع العدو في ثلاثة عشر موقعاً. كما قام عليه الصّلاة والسّلام مع أصحابه الكرام بما يُقارب من

سبع وعشرين غزوةٍ انتهت تسعُ غزوات منها بمعارك ضارية.

وكان الرّسول عليه الصّلاة والسّلام في تلك الغزوات يقودها ويُديرها ويقاتل فيها، ما عدا غزوة مُؤتة وعندما مرض رسول الله ﷺ مرض الموت كان يعدّ حملةً تأديبية للروم بقيادة أسامة بن زيد رضي الله عنه!!!.

وسترى في أبحاث هذا «الفصل» أنّ من تعاليم الإسلام في الطب الوقائي ما يعد إبداعاً لم يُسبق لمثله، ثم جاء العلم الحديث بعد أكثر من عشرة قرون مؤيّداً تلك الإرشادات، مشيراً في المطلع إعجاباً بما يراه من سبق علمي دالٌ أيضاً على صدقه عليه الصّلاة والسلام في نبوّتهِ ورسالته، وما أكثر الأدلة والبراهين على ذلك!!!.

وبقيت تعاليم الإسلام الصّحّية ذات قدسيّةٍ، وذات مردود صحيٌ حسن في متّبعها وموضع احترام من الطّبّ الحديث، وستبقى كذلك فإنّها تشريع الله للنّاس كافةً لجميع شعوبهم، وفي كل المستويات الحضارية في المدن والأرياف والبوادي، يمكن تطبيقها على مرّ العصور إلى جانب ما جدّ من وسائل علميّة تطوّر الطّبّ الوقائي وترقّيه.

البحث الثّاني:

رعاية الإسلام لمصلحة الإنسان[1]

إنّ جميع التّكاليف الإسلامية في ابتدائها ودوامها رُوعي فيها التخفيف والتيسير على الناس. يقولُ الله سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ﴾[2]. ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾[3]. ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾[4] فهذه الآيات صريحة في التزام مبدأ التّخفيف والتّيسير على النّاس في أحكام الشّرع. وفي الأحاديث النّبويّة ما يُؤيِّد هذا المبدأ حيث يقول الرسول عليه الصّلاة والسّلام: «بُعِثْتُ بالحَنِيفيّةِ السَّمْحَةَ»[5] «إنّ هذا الدِّين يُسْرٌ، ولن يُشادَّ الدِّينَ أحدٌ إلاّ غلبه، فسدِّدُوا وقَارِبُوا وأبْشِرُوا». والمقصود بقوله: «سدِّدُوا»: اقصدوا السّدادَ من الأمر وهو الصواب. والمقصود بقوله: «قارِبُوا» اطلبُوا المقاربة وهي القصد من الأمر الذي لا غلوَّ فيه ولا تقصير[6].

وقال عليه الصلاة والسلام: «يَسِّرُوا ولا تُعَسِّرُوا، وبَشِّرُوا ولا تُنَفِّرُوا»[7].

مما تقدم نستدلُّ على أنّ الله تعالى لم يقصد بالتّكليف الإعنات، وأن القاعدة الفقهية: «المشقَّةُ تجلبُ التّيسير» صحيحة مقتبسة من تلك الآيات والأحاديث النّبويّة.

ويدعم المعاني المتقدمة ما نرى في شرع الإسلام من رُخَصٍ؛ فما من أحكام

---

(١) الطب النبوي والعلم الحديث: للدكتور محمود ناظم النسيمي ج ١/ ١٣٠ ـ ١٣٢، ط مؤسسة الرسالة ـ بيروت.

(٢) سورة: البقرة، الآية: ١٨٥.

(٣) سورة: البقرة، الآية: ٢٨٦.

(٤) سورة: الحج، الآية: ٧٨.

(٥) أخرجه أحمد في مسنده.

(٦) أخرجه أحمد في مسنده.

(٧) رواه البخاري ومسلم في صحيحهما.

العبادات أو المعاملات إلا وشرع إلى جانبه سبل التيسير فيه، فلقد شرع الإسلام الصّلاة بأركانها الأساسية وشرع إلى جانب ذلك الأحكام الميسرة لأدائها عند لحوق المشقّة كالجمع والقصر في صلاة المسافر والصّلاة من جلوس للمريض مثلاً. وشرع الصّوم وشرع معه رخصة الفطر بالسّفر والمرض وشدة الجوع أو العطش ممّا يغلب على الظن معهما توقع الهلاك أو الوقوع في مرض.

وشرع حكم الطّهارة من النّجاسات للصلاة وشرع معه رخصة العفو عمّا يشق التّحرز عنه كدم القروح ومفرزاتها وأثر نجاسةٍ عَسُرَ زوالُـهُ، وزرق الطير إذا عمّ المساجدَ والطرقات. ونهى عن النظر إلى الأجنبية وأرخصَ فيه عند التّعليم والإشهاد والمعاملة والمُعَالجة.

وحرم الخبائث كالميتة والدّم ولحم الخنزير ورخّص في تناولهما في حالة الاضطرار، كما رخّص بالتّداوي بالمحرمات عند الضّرورة.

وأمر بالجهاد وأعفى من إثم التّخلّف عن المريض والأعمى والأعرج ومن لا يجد وسيلةً ليكون مع ركب المجاهدين. ولقد انعقد الاجماع بين علماء الأمة الإسلامية على عدم وقوع المشقة غير المألوفة في التكاليف الشرعية مما يدل على عدم قصد الشّرع إعنات المكلّفين أو تكليفهم ما لا يطيقون. «نظرية الضّرورة الشّرعية للدكتور الزّحيلي، وضوابط المصلحة في الشّريعة الإسلامية للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي في بحث المشقّة تجلب التيسير».

ولقد فهم من مجموع الشّريعة الإذن في رفع المؤذيات والمؤلمات رفعاً للمشقّة اللاّحقة، بل أذن لهم في التّحرز عنها عند توقّعها وإن لم تقع كالإذن في دفع ألم الجوع والعطش والحرّ والبرد، وفي التداوي عند وقوع الأمراض وفي التّوقي من كل مؤذٍ آدمياً كان أو غيره، والتّحرّز من المتوقعات حتى يقدم لها العدّة، وهكذا سائر ما يقوم به عيشُه من دَرْءِ المفاسد وجلب المصالح.

البحث الثّالث:

الوقاية من الأمراض النّفسية في هدي الإسلام[1]

إنّ التّوازن بين القِوَى العضوية والنّفسية المكوّنة للشخصيّة ضروري لحفظ الصّحّة العقلية، فكل اضطراب عقلي هو مشكلة شخصية لا يمكن معرفتها إلاّ بدراسة الشّخصية المصابة دراسة كاملةً من نواحيها الفيزيائية والعقلية والنّفسية والاجتماعية، ودراسة تطوّر هذه النّواحي في تلك الشّخصية بالذّات.

فإذا كان اضطراب التكامل الذي أدّى إلى اختلال الشخصية وفقد تلاؤمها عضوياً، قيل: إنّ هذه الاضطرابات النفسية الحادثة فيزيولوجية المنشأ، وأمّا إذا نجمت هذه الاضطرابات عن التّجارب النفسية الداخلية قيل: إنّ هذه الاضطرابات نفسية المنشأ. فدراسة أسباب المرض العقلي أو النّفسي هو دراسة القوى الكامنة تحت عواطف الشّخص، واهتماماته ومزاجه واعتقاده وسلوكه وأخلاقه.

ويُعتبر من المؤثرات النّفسية المرضية: الوراثة، والمراهقة، والعزوبة، وفترة الحيض، والحمل، وتأثير محيط الأسرة، وتأثيرات اجتماعية معينة.

ولهذا كانت سنّة رسول الله ﷺ في الحياة الواقعية والعملية ذات مردودٍ جيدٍ في الوقاية من الأمراض الجسمية والنفسية.

إنّ الطبّ الوقائي يجب أن يُعطىٰ عنايةً فائقة في كل بلدٍ ودولة على مستوى العلوم الكونية السّائدة في عصرها.

ولهذا تضمّنت سُنن رسول الله ﷺ الشيء العظيم في مجال الطّبّ الوقائي، إن العلوم الحديثة كلّما تقدمت اكتشفت خصائص هذا الطّبّ الوقائي الذي يحول دون وقوع الكوارث الصّحية، أو يُقلّل من شيوعها وانتشارها.

---

(١) الطب النبوي والعلم الحديث: للدكتور محمود النسيمي ج ٢/ ٧ ـ ١٢، باختصار.

إنّ التّربية البيتية السّليمة، والتّوجيه الأُسري القويم، القائم على فهم الإسلام فهماً صحيحاً ومتكاملاً، ثم الالتزام بأحكامه وتوجيهه وإرشاده، ضمان للبنية البشرية الصّاعدة، وبمقدار ما يكون الانحراف عن منهج الإسلام، أو سوء فهمه؛ تكون الارتكاسات النّفسية متفاقمة لدى المنحرفين عن الإسلام، أو لدى الجاهلين به.

ولهذا يجب على كل فرد من أفراد الأُمّة أن يعمل على تحصيل القدر الكافي من الثقافة الإسلامية، والأخلاق الإسلامية، والآداب الإسلامية، لحماية النّفس ممّا يُقلقها ويُزعزع كيانها، من الأخلاق السّيّئة والعادات المشينة، فالمسلمُ المتخلّق بأخلاق الإسلام والمتأدّب بآدابه والملتزم بأحكامه محميٌّ من الأمراض النّفسية الخطيرة.

ونحن في البحث عن «مناهج بناء الأسرة المسلمة» نُسلّط الأضواء على خطر «العُزوبة» التي تُعتبر المعطّل الأكبر في بناء «الأسرة المسلمة».

خطر العزوبة على الإنسان:

يبدو من الإحصاءات أنّ المرض النّفسي والعقلي أكثر حدوثاً بين العُزّاب منه بين المتزوّجين ـ رجالاً ونساءً ـ ويُعزى ذلك إلى تمتع المتزوجين بالحياة المستقرّة والمنظّمة مع ما يرافقها من الشّعور بالمسؤولية، والسّبب الهامّ في ذلك يعود إلى الطمأنينة التي يحياها المتزوّجون، فالحياة الزّوجية لا تُوفر إشباع الغريزة الجنسية فحسب، بل تُوفر جوانبَ عديدة في تحقيق الطمأنينات التي إذا فُقِدتْ في حياة الإنسان أخلّتْ بشخصيته، فشعور الزّوج بأنه موضع تقديرٍ واهتمامٍ وحبٌّ من الزّوج الآخر يُحقق شعوراً عميقاً بالطمأنينة، ويُضاف إلى ذلك التخلّص من الوحدة، التي نهى عنها رسول الله ﷺ.

عن ابن عمر: «أنّ النّبيّ ﷺ نهى عن الوَحْدَةِ؛ أنْ يبيتَ الرّجلُ وَحْدَه، أو يسافرَ وَحْدَهُ»[1].

ثم إنّ تحقيق الرّغبة لدى الزّوجين بالأبوّة والأُمومة، ينبعث منها الشّعور بالطمأنينة الإنسانية والرّضى الكامل في النّفس، قال الله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ج ٢/ ٩١، بإسنادٍ صحيح.

لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾[1]. وامتدح الله تعالى عباده المؤمنين الصّالحين بسؤالهم طلب الذّرّيّة الصّالحة فقال سبحانه: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّـٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ ﴾[2]، وقال سبحانه: ﴿ وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾ ﴾[3].

فالزّواجُ السّليم النّاجح وقايةٌ من الأمراض النّفسية، وحماية من الضّياع والشّقاء!.

(١) سورة: الروم، الآية: ٢١.
(٢) سورة: الفرقان، الآية: ٧٤.
(٣) سورة: النّور، الآية: ٣٢.

البحث الرابع:

التوكل على الله مع التداوي[1]

التّوكل هو اعتماد القلب على الله الوكيل وحده في نجاح الأعمال والأسباب المشروعة لبلوغ مسبباتها المقصودة والمشروعة أيضاً.

والأسباب إما أن تكون أعمالاً إيجابية وقائية كاللقاح ضد الإصابة بمرض معيّن، أو علاجية كالتّداوي والعمل في الحرفة، أو أعمالاً سلبية بالتّرك كترك بعض الأطعمة في الحمية المرضية، وعدم مجالسة المصاب بمرضٍ سارٍ عن طريق التّنفس مثلاً وعدم المشي على حافة جرفٍ هارٍ.

وأساس التّوكل مع الإتيان بالأسباب هو الاعتقاد بأنّ الله مالك الملك، لهُ القوّة جميعاً بيده الخيرُ وهو على كل شيءٍ قدير.

وللتوكّل على الله تعالى درجات أدناها الثّقة بكفالة الله وعنايته وهو المطلوب من كل المسلمين تصديقاً بقوله تعالى: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ﴾[2]. وكما يرتبط التّوكل بالعمل فإن له ارتباطاً بالإيمان على أساس أنّ القدر من إلٰهٍ عليمٍ خبيرٍ مريدٍ عادلٍ حكيمٍ.

إنّ التّوكل عملٌ من أعـمال القلب وهو شـعبةٌ من شعب الإيمان، وبابٌ من أبواب المحبّة الإلٰهية يشهد لذلك قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ ﴾[3]. ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾[4]. ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ

---

(١) الطب النبوي والعلم الحديث: للدكتور محمود ناظم النسيمي ج ١/ ١٣٥ ـ ١٣٨، ط مؤسسة الرسالة ـ بيروت.

(٢) سورة: الزمر، الآية: ٣٦.

(٣) سورة: المائدة، الآية: ١١.

(٤) سورة: الطلاق، الآية: ٣.

﴿ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ١٥٩﴾[(١)]. وبه يحصل اطمئنان النّفس وسكينتها في دار الدنيا وبه يحصل الثّواب الجزيل في جنّات النّعيم.

ولا تضادَّ بين التّوكل والعمل: وبما أنّ التّوكل من الأعـمال القلبية وهو شـعبة من شعب الإيمان بإلٰهٍ واحدٍ، فلا تضادّ بينه وبين الأعمال الحسّيّة غير المحرمة سواء أكانت مباحة أم واجبة.

فالمسلم يؤدّي الأسباب المشروعة معتمداً في بلوغ الغاية والمقصود منها على الله وحده، فيعطي الفلّاح الزّراعة حقها من اختيار البذار وفلح الأرض وتعشيبها وريّها ومكافحة الحشرات ضمن إمكانياته وطاقاته ويعتمد على الله راجياً أن يكلل عمله بالنّجاح وأن يُعطيه الثّمرات الطّيّبة لِما قدَّمَ.

وكذلك الطّبيب يتقن عمله ويتابع دراسته من أجل معرفة التّطوّر العلمي في التشخيص والمداواة ويُدقق في فحص مريضه، ثم يصف الدّواء معتمداً على الله أن يُكلّل عمله بالنّجاح، وأنْ يُشَافي مريضَهُ. وكذلك المريض يتقيّد بالحمية والدّواء الموصوفين من قِبَلِ الطّبيب ويتوكل على الله في بلوغ الشّفاء والعافية.

أمّا النّتائج الغيبية والطوارىء التي تعرض فهي ملك الله تعالى تنزل وفق قدره أي وفق علمه المقرون بحكمته وإرادته ورحمته وعدله تبارك وتعالى.

إن هذا الربط بين التوكل والعمل ليس بدعاً من القول وإنّما هو ما يدلُّ عليه القرآن الكريم، قال الله تـعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ١١﴾[(٢)]. ففي الآية أمر بالتقوى وبالتوكل، والتقوى تكون بطاعة الله بعمل أوامره واجتناب نواهيه. وقال تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ١٥٩﴾[(٣)]، أي شاور أصحابك في شؤون الدولة والحرب فإذا عَزَمْتَ على إمضاء ما تريد بعد المشورة فنفذه وتوكّلْ على الله، فالتّوكّل يقارن الإرادة المصممة

---

(١) سورة: آل عمران، الآية: ١٥٩.

(٢) سورة: المائدة، الآية: ١١.

(٣) سورة: آل عمران، الآية: ١٥٩.

العازمة على إجراء عمل مشروع. وقال رسول الله ﷺ: «لو أنكم كنتم توكَّلون على الله حقَّ توكله لرزقتم كما يُرْزَقُ الطّيرُ تغدُو خماصاً وترُوحُ بِطَاناً»[١]. أي تغدو بكرة وهي جياع وتروح عشية وهي ممتلئة الأجواف شِباعاً، والمعنى لو أنكم كنتم توكَّلون على الله في مساعيكم حقّ التّوكل لما خيبها ولسهّل لكم سبل العيش فيأتيكم رزقكم كما يأتي الطير تغدو خماصاً وتروحُ بِطَاناً. فلم يقل الرسول عليه الصّلاة والسلام: يأتيها رزقُها إلى أعشاشها دون أن تفتش عن قوتها.

وفي القرآن العظيم قوله تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ۝١٦﴾[٢]. فأمر الله بالعمل ونسب الرّزق إلى نفسه. وقال سبحانه في سورة الجمعة: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ﴾[٣].

ولئلا يُخطىء المسلم في فهمه فيتذكر قدرة الله على كل شيء ويغفل عن حكمة الله تعالى في خلق الأسباب فيتقاعس ويهمل متعلّلاً بالتّوكل والقدر لجهل في فهمهما، بيّن الرسول عليه الصّلاة والسّلام أن الأخذ بالأسباب هو من قدر الله تعالى. فعن أبي خزامة عن أبيه قال: «قلتُ: يا رسولَ الله أرأيتَ رقاة نسترقي بها، ودواءً نتداوَى به، وتُقَاةً نتقيها، هلْ تردُّ من قدر الله شيئاً؟ قال: هي مِنْ قَدَرِ الله»[٤]، أي أن الله قدر أن تكون للمطالب والمراغب أسباب فمن أهملَ الأسباب المادية والروحية والوقائية والعلاجية، فقد جهل حقيقة التّوكل والإيمان بالقدر.

---

(١) صحيح الجامع الصغير برقم ٥٢٥٤.
(٢) سورة: تبارك، الآية: ١٥.
(٣) سورة: الجمعة، الآية: ١٠.
(٤) سنن البيهقي ج ٣٤٩/٩.

الفصل الخامس عشر

العبادات العملية وأثرها الصّحيّ على الأبدان
وأحكام الضرورات في المعالجات

البحث الأوّل: الرّياضة البدنية محقّقة في أداء العبادات.
البحث الثّاني: الصّلاة وفوائدها النّفسية والاجتماعية.
البحث الثّالث: الصّيام والصّحّة النّفسيّة والفكريّة.
البحث الرّابع: الصّيام تقوىً ووقاية.
البحث الخامس: الصّيام وفوائده الصّحّية على النّفس الإنسانية.
البحث السّادس: الأمراض المبيحة للفطر.
البحث السّابع: إفطار الحامل والمرضع في رمضان.
البحث الثّامن: تحريم الصّيام على الحائض والنّفساء في رمضان.
البحث التّاسع: حكم الحقنة الشّرجية في حال الصّيام عند الضّرورة.

البحث الأول:

الرياضة البدنية محققة في أداء العبادات

قال الرّسول الكريم عليه الصّلاة والسّلام: «المؤمنُ القويّ خيرٌ وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضّعيف، وفي كلٍّ خيرٌ، احرصْ على ما ينفعك واسْتَعِنْ بالله ولا تعجزْ»[1] وهو يدل على أنّ المراد عموم القوّة لا قوة الدّين فحسب. ومن أنواع القوى قوّةُ الجسم التي يُحافَظُ عليها باتّباع التّعاليم الصّحّية التي تقي الأجهزة البدنية والحواس من الأمراض ساريةً كانت أم غير سارية. وتُنمَّى القوّةُ الجسدية بالعمل العضلي والرياضة البدنية.

إنّ أول تخطيط في الإسلام لدعم رياضة البدن هو احتواء الصّلاة والحج وهما من أركان الإسلام، على رياضة بدنيّة إضافة إلى النّواحي التّعبّدية الروحيّة، والراحة النّفسيّة من هموم الدّنيا ومشاغلها بالتّوجه إلى الله تعالى بالعبادة والعمل الصّالح.

لقد اعتنى الإسلامُ بالرّياضة الغريزية وسبق في نشر بعض حركاتها «العالم الشاعر لينغ السويديّ» بأربعة عشر قرناً!! وبما أنّها تصلح للصّغير والكبير والرّجال والنّساء، فقد قرن تلك الحركات مع التكبير والدّعاء والتّسبيح والتّحميد والتّمجيد في صورة صلاة المسلمين التي تضمّ وقوفاً وركوعاً وسجوداً وقعوداً ونُهوضاً وسلاماً، يُؤدّيها المسلم خمسَ مرّاتٍ يومياً أو أكثر، فيكتسب بذلك نشاطاً لجسمه واستجماماً لفكره!! ومن سُنَنِ الصّلاة أن تُؤدَّى أركانُها بأوضاع صحيحة تقي من الأوضاع المعيبة الضارّة بقوام الإنسان. وفي البحث التّالي سأذكر أهمَّ فوائد الصّلاة.

ويحتوي الحجُّ في شعائره إلى جانب الحِكَم التّعبّديّة الرّوحية والفوائد الاجتماعية أعمالاً عضلية في مشيٍ وسعيٍ ورَمَلٍ، وذلك في الطّواف والسّعي، والوقوف في عرفة

---

(١) صحيح مسلم برقم ٢٦٦٤.

وطواف الإفاضة منها، ورمي الجمار، والإكثار من العبادات وخاصّة الصلاة وتلاوة القرآن العظيم التي تكسب العقل والفكر الوعي والإدراك!!.

إنّ قوة الجسم هي إحدى أنواع القوى التي يجب أن تعدّها الأُمّة لجهاد أعدائها وتحرير أراضيها ونصرة الحق والمظلومين. وفي إعداد القوى إرهاب للأعداء والمنافقين والخائنين، قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾﴾[(١)].

ولذا رغّب رسول الله ﷺ بأنواع من الرياضة التي تضم إلى قوّة الجسم قوةً حربيّة أخرى تزيد الأُمّة في استعدادها للجهاد والكفاح.

من أنواع الرّياضة ذات الفائدة العسكرية التّدريب على الرّماية والاختلاف بين مكان التربّص وبين الهَدَفِ، قال رسول الله ﷺ: «وأعدُّوا لهم ما استطعتُم مِنْ قُوّةٍ، ألاَ إنّ القوةَ الرّمي، ألا إنّ القوّة الرمي، ألاَ إنّ القوة الرمي»[(٢)].

ولا تزال رماية السّهم من أنواع الرّياضة تستدعي تحريك عضلات الجسم في شدّ السّهم عن القوس والسّعي لانتزاع السهم من الدّريئة والعودة به إلى مكان التّربّص، ولذا قال الرّسولُ عليه الصّلاة والسّلام: «ستفتح عليكم أرضُون ويكفيكم الله فلا يعجزْ أحدُكم أنْ يلهوَ بأسهمِهِ»[(٣)].

ومن أنواع الرّياضة الفروسية، أو رياضة ركوب الخيل. ولذا قَرَنَها الرّسول عليه الصّلاة والسّلام مع الرّماية، التي تطوّرت كما تطورت وسائل الركوب، في قوله: «ارْمُوا وارْكَبُوا، ولأنْ تَرْمُوا أحبُّ إليّ من أن تركبوا، كل ما يلهو به المسلم باطلٌ إلاّ رميُهُ بقوسِهِ، وتأديبُهُ فرسَهُ، ومُلاَعَبَتُهُ أهلَهُ، فإنّهنّ مِنَ الحقّ»[(٤)].

---

(١) سورة: الأنفال، الآية: ٦٠.
(٢) أخرجه مسلم في الإمارة باب فضل الرّمي.
(٣) رواه مسلم في الإمارة باب فضل الرّمي.
(٤) رواه الترمذي في الجهاد، وقال: حسن صحيح.

الصّلاة عبادة ورياضة للنّفس والبدن:

تُعتبر صلاة المسلم في الدّرجة الأولى عبادةً روحيّةً بدنيّةً! وهي صلةٌ بينَ العبدِ وربّه، وسببٌ في رقيّهِ في مدارج الإيمان والإحسان بمقدار حضور قلبه وفكره وخشوعه، وسبب في تمكنه في مكارم الأخلاق، وبعده عن الفحشاء والمنكر ﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ﴾[1]. ويَجْنِي المصلّي إلى جانب تلك الثمرة الروحيّة التّعبّديّة ثمراتٍ شتّى اجتماعية وصحّيّة من طهارةٍ وعملٍ عضليٍّ بطيءٍ رتيبٍ، وتربيةٍ على النّظام والطّاعة والائتلاف!.

الفوائد البدنيّة من الصّلاة:

إنّ الالتزامَ بأداءِ الصّلواتِ دافعٌ إلى النّظافة والطّهارة؛ لأن من شروط الصّلاة طهارةُ المصلي من الحَدَثِ، وطهارةُ بدنهِ وثيابهِ ومكانِ صلاتهِ من الخَبَثِ. وفي الصّلاة عملٌ عضليٌّ معتدل. والعمل العضلي يُنشّط العضلات العاملة نفسها، ويُنشط البدن كلّه لدعوتهِ العمل في جهازي الدوران والتّنفس، وتنشيطه التغذية والإفراغ، فتستفيد من ذلك جميع أعضاء البدن. أضف إلى ذلك أن حركات الركوع والسجود والنّهوض فيها تزيد في نشاط الدّورة الدّمويّة في الدّماغ أكثر من مجرد العمل العضلي، كما أنّها تُنبّهُ الحركات الحيويّة المعوية مما يُساعد على نشاطها ومكافحة الإمساك، وفي القراءة أثناء الصّلاة وفي الانتقال من ركنٍ إلى ركنٍ رياضة مُقويّة لعضلات التّنفّس والبطن، كما أنّها تزيد في سعة الصّدر.

ويستفيدُ المصلّي من حركات الصّلاة وفي اتخاذ الأوضاع القويمة أثناء أداء الصّلاة، والانتقال من ركنٍ إلى ركنٍ، ويستفيد فائدة التّمرين الرياضي وتقوية العضلات الباسطة للعمود الفقري، وفائدة إصلاح الأوضاع المعيبة من جهة ثانية.

وبناء على ذلك تُعتبر الحركات والأوضاع الخاصّة في الصّلاة من الرياضة الغريزيّة، يجني ثمرتّها المُصلّي، مع أنه يُؤدّي تلك العبادة بنيّة طاعة أمرِ الله تعالى، طلباً لمرضاته وتقرُّباً إليه. وبما أنّ الرياضة الغريزية والسويديّة تصلح للصغير والكبير

---

(١) سورة: العنكبوت، الآية: ٤٥.

والرّجال والنّساء، فقد جعلها الله تعالى الحكيمُ الخبيرُ مع التّكبير والدّعاء والتّسبيح والتّحميد، في صورة صلاة المسلمين يؤديها المسلم خمس مراتٍ يومياً، موزّعةً على النّهار والليل، ويعتادها من صغره فتكون رياضة صالحة لعضلات جسمه ومفاصله، ومقوّمةً ومنشّطةً لبدنه، وأفضل مهذب لروحه ونفسه، من نشأته إلى شيخوخته!!!.

وإذا كان الجسم بحاجة إلى المزيد من الرّياضة الغريزيّة فإنّ باب التّنفُّل في الصّلوات مفتوحٌ، بل ومستحبٌّ في أكثر الأوقات، أي فيما عدا أوقات الكراهة المحدودة التي تذكرها كتب الفقه، ويُوضّحها الفقهاء. قال رسول الله ﷺ: «الصَّلَاةُ خيرٌ مَوْضُوعٌ!! فمَنْ شَاءَ اسْتَقَلَّ، ومَنْ شَاءَ اسْتَكْثَرَ»[1].

---

(١) رواه أحمد والبزار، ورواه ابن حبان في صحيحه، وهو في صحيح الجامع الصغير برقم ٣٨٧٠، وإسناد حسن.

البحث الثّاني:

الصّلاة وفوائدها النّفسية والاجتماعية

تعد الطّمأنينة النّفسية من فوائد الصّلاة المؤداة بآدابها الفكرية والنّفسية المتقدمة عليها من استغفار ورهبةٍ ورغبةٍ، والمرافقة لها من حضور وتدبّر. وتساعد هذه الطّمأنينة مع الالتزام بتعاليم الإسلام في الوقاية من الاضطرابات النّفسية التي قد تؤول إلى أمراضٍ نفسية. وقد رأينا بعضاً من تلك التّعاليم في بحث «الوقاية من الأمراض النّفسية في هدي الإسلام».

إنّ المصلي في محاولته طرد الخواطر الدّنيوية عن ذهنه، وفي محاولته تركيز انتباهه إلى تدبر معاني ما يتلو من سور وآيات وتعقلها وتعقل موقفه بين يدي الله تعالى واتجاهه إليه بالتكبير والتّسبيح والحمد والثّناء عليه سبحانه، إنّه بذلك يبتعد عن المشاغل والهموم الدنيوية، وعن الانفعال بما يمرضه نفسياً في خضم حياته اليومية، فيقترب بذلك من الطمأنينة النّفسية بمقدار ما يتدبّر ويعقل ويخشع، ولذا «كان رسول الله ﷺ إذا حزّ به أمرٌ صَلّى»[1].

وكان يقول: «قُمْ يا بلال فأرحنا بالصلاة»[2]. ولقد كانت الصّلاةُ قُرَّةَ عينِ النّبيّ عليه الصّلاة والسّلام فقد قال: «حُبِّبَ إليّ من دنياكم النّساء والطّيب، وجُعلت قرةُ عيني في الصلاة»[3]. فالصلاة سكنٌ وطمأنينةٌ وراحةٌ نفسيّة وقرة عين كلّ مؤمن بمقدار ما يعقل من صلاته وما يتدبر فيها من آيات وأذكار ودعاء.

وبعد أن يحظى المسلم بالفائدة النّفسية للصّلاة ويحسُّ بالصّلة الروحية مع الله تبارك وتعالى، فإنّه ترق مشاعرُهُ وتتلطّف عواطفه وتسمُو نفسُهُ، فيميل إلى التّوبة

---

(١) رواه أحمد ج ٥/٣٨٨. وأبو داود في الصلاة باب وقت قيام النبي ﷺ.

(٢) رواه أبو داود في الأدب باب في صلاة العتمة.

(٣) صحيح الجامع الصغير، ٣١٢٤.

والاستغفار والعزم على ترك الفواحش والمنكرات، ومنها إيذاء النّاس، وعلى التّمسّك بالفضيلة ومكارم الأخلاق، وعلى الأمانة والاستقامة كما أمر الله. فسلوك المصلّي شاهد وكاشف لحقيقة صلاته. فإنْ كان بعيداً عن جادة الصّواب والتّقوى في أخلاقه وتعامله علمنا أنّ صلاته لم تكن صلة قرب مع الله عز وجل، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾[1]. فلا بدّ من بيان برهان الصّدق في العبادة والصّلاة في الخلق والأدب والسّلوك.

---

(١) سورة: العنكبوت، الآية: ٤٥.

البحث الثالث:

الصّيام والصّحّة النّفسيّة والفكريّة

إنّ العلاقات المتبادلة بين الجسم والنّفس أمرٌ مسلّم به طبّياً. وكما أن للصّيام فوائد صحيّة جسمية، فإن له فوائد صحية نفسية أهمّها:

١ ـ تنمية الإخلاص في النّفْس لله تعالى، فجميع العبادات المفروضة علنية ظاهرة للعيان إلاّ الصّيام فإنّه سرٌّ بين العبد وربِّه، لا رقيب على الصّائم في صدق تنفيذه إلاّ النّيّة الخالصة، والرّغبة الصّادقة في إرضاء الله تعالى.

قال رسول الله ﷺ: «قال الله تعالى: كلُّ عملِ ابْنِ آدَمَ له إلاّ الصّيامَ فإنّه لي وأنا أَجْزِي به!..»[1].

٢ ـ زوال البطر عند الجوع وكسر حِدّة شهوات المعاصي؛ إنّ البَطرَ والفرحَ والأَشَرَ هو مبدأ الطّغيان والغفلة عن الله عزّ وجلّ، فلا تنكسر النّفس ولا تذل بشيء كما تذلّ بالجوع، فعنده تسكن لربّها وتخشع له. أضفْ إلى ذلك أن الصّوم يُخفّف من توفز الجهاز العصبي الودي ويُهدئه.

ويما أنّ المادة الأساسية للقوى والشّهوات هي الأطعمة فتقليلها والصّيام عنها يضعف كل شهوة وقدرة، ويُساعد الصّائم على السيطرة على نفسه إذا أمرته بسوءٍ وإلزامها حدود الإسلام.

ويدعم الجوع في كسر حِدّة الشهوات مراقبة الصّائم لله تعالى واستشعاره أنّه في عبادة له سبحانه، فإنّ ذلك يصرفه عن التّفكير في المعاصي والجنس والفواحش ويُلزمه بغضّ النّظر.

فإن تأمل الجنس والتفكير فيه يسبب زيادة إفرازات الهرمونات الجنسية، وبالتّالي

---

(١) رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما.

زيادة الرغبة ـ الشّهوة ـ الجنسية. ولأن الرغبة الجنسية عند الشباب أقوى وأشد، فأوصى رسول الله ﷺ الشّباب بالصوم في غير رمضان أيضاً فقال: «يا معشر الشّباب من استطاعَ منكُمُ البَاءَةَ فليتزوّجْ، فإنّه أغضّ للبصر وأحصنُ للفرج، ومن لم يستطعْ فعليه بالصّوم، فإنّه له وِجاءٌ» أي فمن لم يكن قادراً على المهر والنفقة والقيام بالحقوق الزّوجيّة، فإن الصّوم له وقاية تشبه الإخصاء حيث يُخفّف من شهوته كما يحول دون ارتكابه الفاحشة بآثاره الرّوحيّة.

٣ ـ صفاء الذهن لأنّ كثرة الأكل والشّرب يعقبها كَسَلٌ في الجسم وبلادة في الفكر، وميل إلى النّوم، وقد يحدث في بدء الصّوم تهيّج عصبي ولكن يعقب ذلك شعور بالضّعف.

٤ ـ تقوية الإرادة وترويض النّفس على الصبر والتّكيف على قلّة الطّعام والتّخلّي عن سيطرة العادات حيث يترك الصّائم كثيراً ممّا اعتاده من منوال الحياة اليومية مثل أوقات الاستيقاظ والنوم والأكل والشرب والعمل والرّاحة فلا تسيطر عليه عادة.

ويصبر على الجوع والعطش والصّبر عنصر ضروري لنجاح الفرد والأمة في بلوغ الغايات. وفيه قد وردَ: «الصّومُ نصفُ الصّبر» و«الصّبرُ نصفُ الإيمان».

٥ ـ إيقاظ الشّعور المشترك في صفوف الأمة، حيث يذوق الغني والفقير معاً آلام الجوع ومرارة العطش، فيتحرّك العمل في المجتمع على مكافحة الجوع وعلى مدِّ يد المعونة للمعوزين. وقديماً قيل: إنّ الشّبعان ينسى الجوع والجائعين.

البحث الرابع:

الصّيام تقوىٰ ووقاية

يُؤدّي المؤمنُ فريضةَ الصّيام عبادة لله وطاعة له وتقوى، ابتغاء لمرضاته واتقاء لسخطه وهو في هذا التّنفيذ يستفيد لصحّة جسمهِ ونفسهِ.

وللعبادات المؤداة كما يريد الإسلام آثار حميدة وثمرات طيّبة تظهر على صاحبها في سلوكه وعلاقاته بمجتمعه، فإن لم تظهر تلك الآثار والثمرات دلَّ ذلك على أنّه كان في صورة العبادة لا في حقيقتها، وفي ضعفها إشارة لضعف عبادته وتقواه لله سبحانه.

إنّ الصّيام جُنّة أي وقاية بين المسلم وبين ما يؤذي حياته الرّوحية والبدنيّة والنّفسيّة عاجلاً وآجلاً. وهو وسيلة إلى الزّيادة في تقوى الله تعالى. قال الله سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ ﴾[1].

وقال رسوله الكريم ﷺ: «الصّيامُ جُنّةٌ، فإذا كان أحدُكم صائماً فلا يَرْفَثْ ـ أي لا يفحش في القول ـ ولا يجهلْ ـ أي لا يسفه ـ فإنِ امرؤٌ قاتَلَهُ أو شاتمَهُ، فليقُلْ: إنّي صائم، مرّتين»[2].

قال الإمام الغزالي في كتاب «إحياء علوم الدِّين» في كتابه الصّوم: الصّومُ ثلاثُ درجاتٍ: صومُ العُمومِ، وصومُ الخُصُوصِ، وصومُ خصُوص الخصُوصِ. أمّا صوم العُمومِ فهو كفُّ البطن والفرج عن قضاء الشّهوة. وأمّا صومُ الخصُوصِ فهو كفُّ السّمع والبصرِ واللّسان واليد والرِّجْل وسائرِ الجوارح عن الآثام.

وأمّا صومُ خصوصِ الخُصوصِ فصومُ القلب عن الهمم الدّنيّة والأفكار الدّنيوية،

---

(١) سورة: البقرة، الآية: ١٨٣.

(٢) رواه البخاري برقم ١٨٩٤.

وكفّه عمّا سوى الله عزّ وجلّ بالكلية. إنّ أصحاب كلٍّ من المرتبتين الثّانية والثّالثة يزيدون على صوم المرتبة الأدْنَى طاعاتٍ وتَقْوَى، وليس معناه الاقتصار عليه دونه، وإلاّ صار صوماً باطنياً، وهو باطل بلا ريب.

وإنّ الصّيام الذي لا يحقق معناه الإلٰهي فلا يشعر الصّائم بأُنس عبادته تعالى، ولا يفتح قلبه لكثرة ذكر مولاه والقيام بما أوجبه والذي يُحقّق معناه الإنساني فلا يُهذِّبُ نفسَ الصّائم ولا يُقوِّم أخلاقه ولا يروّضه على الصّبر وتحمّل المشاق، والذي لا يُحقّق معناه الصحي فلا يكون حميةً أو علاجاً لإسرافٍ في الطعام والشراب، إنّه صورة الصّومِ لا حقيقته، والعيب في ذلك على المسيء في صيامه لا في الصّيام نفسه.

قال رسول الله ﷺ: «ليسَ الصّيام من الأكلِ والشّرب، إنّما الصّيامُ من اللّغوِ والرَّفثِ، فإنْ سابّك أحدٌ أو جهلَ عليك فقُلْ: إنّي صائم إنّي صائم»[١].

وقال عليه الصّلاة والسّلام: «رُبَّ صائمٍ ليس له من صيامه إلاّ الجوع، ورُبَّ قائم ليس له من قيامه إلاّ السّهر»[٢].

وقال عليه الصّلاة والسّلام: «مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزّورِ والعملَ به فليس لله حَاجَةٌ في أن يدع طعامه وشرابه»[٣].

فعلى المسلم أن يلحظ في صيامهِ الحِكَمَ الرّوحيّة والنّفسيّة والجسمية، وأن يُطبق التعليمات المتعلّقة بها ملتزماً بالاعتدال في الطّعام والشّراب، وبذلك يحظى بالثواب الكامل والفوائد الجمة.

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك ج ١/ ٤٣٠، وصححه. وأقره الذهبي على تصحيحه.
(٢) صحيح الجامع الصغير برقم ٣٤٨٨.
(٣) صحيح البخاري برقم ١٩٠٣.

البحث الخامس:

الصّيام وفوائده الصّحيّة على النّفس الإنسانية

لقد ذكرنا في بحث [الاعتدال في الطّعام والشّراب] فوائد الاعتدال ومضارّ الإسراف.

فإذا خرج المسلم عن ذلك الاعتدال في معظم أيامه فإنّه بصيامه، إذا التزم الاعتدال في طعامه وشرابه، يُخفّف عن مضارّ السرف السّابق ويُحقق له الفوائد الصّحّيّة الجسمية التّالية:

١ ـ إنّه يخفف العبء عنه جهاز الدوران، وخاصة في فترة الصّيام بعد أمراض هذا الجهاز.

٢ ـ إنّه يخفف العبء عن جهاز الدوران، وخاصّة في فترة الصّيام بعد هضم طعام السحور حيث تهبط في الدّم نسبة الدّسم وحمض البول، فيساعد ذلك في الوقاية من ارتفاعهما. وارتفاع دسم الدّم عامل يُساعد على تصلّب الشّرايين. وارتفاع حمض البول «أسيد أوريك» قد يسبب مرض النقرس الذي يتظاهر بألم في بعض المفاصل وخاصّة في إبهام القدم لترسّب ذلك الحمض عليها، وقد يُسبّب حصيات بولية.

٣ ـ إنّه يريح الكليتين وجهاز البول بإقلاله فضلات استقلاب الأغذية المنطرحة عن طريق الجهاز.

٤ ـ إنّه السليم من البدانة وممّا تساعد عليه من أمراض، والوقاية من البدانة أسهل من علاجها.

يقول الدكتور العالمي «أليكس كاريل» الحائز على جائزة نوبل في الطّبّ والجراحة في كلامه عن الصّيام في الأديان: «إنّ سكر الكبد سيتحرك ويتحرك معه أيضاً الدهن المخزون تحت الجلد وبروتينات العضل والغدد وخلايا الكبد وتُضحّي جميع

الأعضاء بمادتها الخاصة للإبقاء على كمال الوسط الداخلي وسلامة القلب، وإن الصّوم لينظف ويبدّل أنسجتنا».

تلك الفوائد التي عددتها للصيام هي للسليم والمريض بأمراض تستفيد من الصيام. وسيأتي ذكر الأمراض، والحالاتُ التي تُبيح الفطر حفاظاً على صحة الإنسان ووقايته من المرض أو من اشتدادهِ أو تأخر بُرْئِهِ.

البحث السادس:

الأمراض المبيحة للفطر

الأصلُ في إباحة الفطر للمريض قوله تعالى: ﴿ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ﴾[1].

فإذا مرض الصّائمُ أو خاف بالصوم زيادةَ المرض، أو تأخُّر البُرْء، أو حصول مشقّة شديدةٍ لا تُحتمل عادةً؛ جازَ لهُ الفطر في المذاهب الأربعة، وعليه القضاء بعد الشفاء التّامّ وعودة القدرة على الصّيام. وزاد الحنابلةُ أنّه يُسن له الفطر في هذه الأحوال، ويكره له الصّوم. أما إذا مرض وغلب على ظنّه الهلاك بسبب الصّوم أو الضّرر الشّديد في عضوٍ من أعضائه أو جهازٍ من أجهزة جسمه وجب عليه الفطرُ.

ولا يجب على المريض إذا أراد الفطر أن ينوي به التّرخص عند غير الشّافعية، وقال الشّافعية يجب عليه أن ينوي بفطرِهِ التّرخُّصَ وإلاّ كان آثماً. ولو كلّفَ المريض نفسَهُ وصام صحَّ صومُهُ.

ويدخل بالتّعريف السّابق للمرض المبيح للفطر تلك الأمراض التي لا تزيد بالصّوم ولا يؤخر شفاءها، ولكن يطيل مدّة النّقة، فالصّوم أو الفطر ثم القضاء جائزان، لأنّ الضّعف العام والوهن الذي يخلفه المرض يعتبر مرضاً، فإطالة مدّة النّقة معناها إطالة مدّة المرض.

وكما تتفاوت الأمراض في شدّتها وتأثيرها على صحة الجسم فإنّها تتفاوت في أثر الصّيام عليها بسبب تباعد أوقات الطّعام، وقلة الوارد ومقاومة الجسم، وبحسب طريق إدخال الدواء، ولذا يلجأ المسلم المريض إلى الإفطار في رمضان بناء على إخبار طبيب مؤمن ثقة، أو بناء على تجربة سابقة وتأثّرِه من الصّيام، أو على

---

(١) سورة: البقرة، الآية: ١٨٥.

غلبة ظنّه لدى استفتاء قلبه الخاشع الواعي لدى فقدان ذلك الطّبيب.

قال الرّسولُ الأعظم صلوات الله عليه: «استفتِ قَلْبَكَ وإنْ أفتَاكَ النّاسُ وأفتوك»[1].

القسم الأول: أمراض تشتدُّ الحاجةُ فيها إلى الغذاء:

١ ـ كالعلل الحادثة بنقص التّغذية، حيث تقلُّ فيها المواد المولّدة للحرور والبرُوتـينات، إمّا بسبب قلة الوارد، أو بسبب سوء الامتصاص، ولذا فهو يبدو في جملة حالات مرضية من شواشاتٍ عصبيّةٍ نفسانيّة تؤدي إلى توقف العمل في أنبوب الهضم.

٢ ـ والطفالة النّاجمة عن اضطراب التغذية وعوز الفيتامينات حيث يمكن إصلاح الخلل بالتدبير الغذائي الملائم.

٣ ـ وقصورات الكبد الشّديدة وتشمعاته؛ حيث تحتاج إلى حمية غنية جداً بالموادّ السّكّريّة، ما لا يقل عن / ٣٠٠ ـ ٤٠٠ غ/ تصل في تشمع الكبد إلى / ٥٠٠ غ/ مع إعطاء مقادير كافية من المواد البروتينية لتنشيط تعمّر الخلايا الكبدية / ٨٠ ـ ١٢٠ غ/ تصل في تشمع الكبد إلى ٢٠٠ غ أو أكثر/ هذا من جهة ومن جهة أخرى فإن الكبد المقصّرة ترهق بتوزيع الطعام على وجبتين فقط كما في الصّيام.

٤ ـ وأمراض ينقص فيها سكر الدّم: كما في داء أديسون، وداء سيموندس، وتناذر شيهان.

٥ ـ والداء السّكري الذي لا تفي الحمية وحدها في علاجه، وخاصة إذا كان المريض هزيلاً أو في طور النّمو، أو كان الداء شديداً، فإن الحمية التي يصفها الطبيب مع العلاج واجبان. وإن الصّيام في مثل هذه الحالات قد يُوقع المريض الآخذ للأنسولين في حالة نقص سكر الدّم. كما أنّ عهد النّمو وحالة الهزال يتطلبان تغذية إضافية.

٦ ـ وفرط نشاط الدّرق: حيث تقتضي حماية الأعضاء والنّسج، التي تتأثّر عادة من زيادة هرمون الدّرق الجائل، باتّباع تدبير غذائي يشتمل على المقدار الوافر من

(١) صحيح الجامع الصغير ٩٤٨.

الحرور بالإضافة إلى الفيتامينات والمزيد من الكالسيوم لسدّ حاجات البَدَنِ الزائدة، والإعاضة عن وافر ما يُطرح بالبول من الكالسيوم.

٧ ـ البرداء: يستريح المريض أثناء النوبة راحةً تامّةً، ويُحمىٰ على السوائل، ويجب ألّا يطول زمن هذه الحمية السائلة بل يشرع بتغذية المريض منذ نزول الحرارة خوفاً من الوَهَن وفقر الدّم خاصّةً في البرداء المزمنة.

٨ ـ هبوط الضّغط الدّموي: فإن المصاب به تزيد حاجته إلى التغذية، وبصيامه يكون عرضةً للإغماء أو للدّوخة.

٩ ـ أمراض مزمنة غير ما ذكرتُ، تُؤدّي إلى النّحول، وفاقة الدّم، وقد يُسيء إليها نقص الغذاء فالفطر معها مباحٌ في رمضان. كابيضاض الدّم مثلاً، ويُلحق بذلك الأمراض التي تطول كالسّلّ والحُمَّى المالطية، وكذلك الضّعف العام الشديد.

١٠ ـ النّقة من الأمراض الحادّة وخاصة الحميات.

القسم الثاني: أمراض تشتد فيها الحاجة إلى الماء:

يوفر للمريض عن طريق الإكثار من السّوائل والماء الطبيعي، أو المياه المعدنية، أو عن طريق زرق المصول من هذه الأمراض التالية الذّكر:

١ ـ التّجفّف أو نقص التميّة: يعني به الحالة التي ينقص فيها حجم سوائل البدن وأخصها حجم السّائل خارج الخلايا، الأمر الذي يبدو في حالات مرضية عديدة كالإسهالات المزمنة والنّزوف الغزيرة والأقياء العديدة والحروق المتسعة. فعلى المريض أن يعوض السوائل التي يفقدها، بل إن الطب يصف له زرق المصول ليعوّض عن الماء والأملاح الضّائعة.

٢ ـ الحميات عامة، وقسم من الإنتانات: كإنتانات الدم والرثية المفصلية الحادّة والحُمّى التيفية، وحمرة الوجه والنزلات المعويّة التي يصحبها إسهال. حيث يجب الإكثار من إعطاء السوائل للمريض في هذه الأمراض.

٣ ـ بعض آفات الكلى كالرمال الكثيرة والحصيات الكلويّة، والتهاب حُويضة الكلية، خاصّة إذا حلّ شهرُ رمضانَ في الصّيف، أو كان المريض في البلاد الحارّة،

حيث تحتاج هذه الأمراض إلى الإكثار من تناول السوائل /٣ ـ ٤ ليترات يومياً/ ليزداد مقدار البول فيجرف الرمال، ويمنع ركوده الجراثيم وتكاثرها في المجاري البولية.

٤ ـ الأوره ميا: حيث إنه بنقص سوائل البدن يشح البول وترتفع البَوْلة.

القسم الثالث: أمراض توجب تقسيم القوام الغذائي على وجبات عديدة:

١ ـ الدّاء السّكري في النحيلين وفي سن الشّباب: حيث يتطلّب توزيع الطّعام ضمن الحمية إلى ٣ ـ ٤ درجات.

٢ ـ القرحة الهضمية: والحمية فيها جزء أساسي من العلاج، وتتضمّنُ توزيع الطعام الخالي من المواد الحريفة والحوامض والمقالي والمخرشات على وجبات عديدة إضافة إلى أن معظم الأدوية لمعالجة القرحة الهضمية تُوخذ عن طريق الهضم عدة مرات في اليوم.

٣ ـ هبوط المعدة واتساعها حيث يوصى المريض أن يأكل ٤ ـ ٥ مرات في اليوم طعاماً مجزّءاً بكميات معتدلة مع مضغها جيداً.

٤ ـ الحميّات: إن القمة الحادث في معظمها والمسبب عن التهاب المعدة الخفيف المشارك، وكذلك القيء الحادث أحياناً يجعلان المعدة لا تحتمل الطّعام ويستوجبان تلافي نقص التّغذية بإعطاء وجبات خفيفة صغيرة وعديدة.

كما أن الحميات تشتد فيها الحاجة إلى الماء وتستوجب تناول السّوائل بكثرة.

البحث السابع:

إفطار الحامل والمرضع في رمضان[1]

تصبح المرأة إبان حملها، وإرضاعها بحاجة إلى المزيد من التغذية لتقدم بدورها الغذاء إلى جنينها أو رضيعها. وإن صيامها في تلك الحالة، وخاصّةً إذا استمرّ أياماً متتالية، قد يعرّضها أو يعرّض الجنين أو الرضيع إلى انحراف في الصّحة وبالأخصّ عندما يكون أحدهم ضعيفَ البُنية. ولذا أباحت الشّريعة السّمحةُ للحُبْلَى والمرضع أن تفطرا إذا خافتا على نفسيهما أو على ولديهما، وإلى ذلك ذهب الفقهاء، وقالوا إنّها تفطر حتماً، وقال أبو طالب: ولا خلاف في الجواز. قال رسول الله ﷺ: «إنّ الله عزّ وجلّ وضع عن المسافر الصّوم وشَطْرَ الصّلاةِ، وعن الحُبْلَى والمرضع الصّومَ»[2]. واتفق الأئمة الأربعة على وجوب القضاء، واختلَفُوا في وجوب كفارة الإطعام ـ وهي الفدية ـ فلم يرَ الأحنافُ وُجُوبَها، أمّا الإمامان أحمد والشّافعي رضي الله عنهما فقد ذهبا إلى وجوبهما إذا خافت المرضع أو الحامل على الرضيع أو الجنين فقط دون الخوف على أنفسهما، أما إذا خافتا على أنفسهما فقط أو أنفسهما وعلي ولدهما فعليهما القضاء لا غير.

أمّا المالكي فقد ذهب إلى القضاء فقط بالنّسبة للحامل بخلاف المرضع، فعليها الفدية، وهو أحد أقوال الشّافعي. وممّا سبق يتبيّن أنّ الحامل إذا خافت على نفسها أو على نفسها وجنينها معاً، فإنّها تفطر ثم تقضي ولا فدية عليها باتفاق المذاهب الأربعة.

وقال بعض أهل العلم: تفطر الحُبْلى والمرضع ويطعمان ولا قضاء عليهما وإن شاءتَا قضتَا ولا طعام عليهما، أخذاً من قول ابن عباس رضي الله عنهما لأم ولد له

---

(١) الطب النبوي والعلم الحديث: للدكتور محمود ناظم النسيمي ج ١/ ٣٠٣ ـ ٣٠٤، ط مؤسسة الرسالة ـ بيروت.

(٢) رواه الإمام أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجة.

حبلى: «أنتِ بمنزلةِ الذي يُطيقُهُ، فعليكِ الفداء، ولا قضاء عليك». وبه يقول إسحاق: إن فتوى ابن عباس هذه معقولة بالنّسبة للمرأة الضّعيفة الولود التي لا تكاد تنتهي من حمل ثم إرضاع إلاّ إلى حمل فإرضاع وقد تحمل وهي مرضع. فإذا بلغت هذه المرأة سن اليأس مثلاً كان من العسير والمشقّة الزائدة قيامها بقضاء ما فاتها من الصّيام لعدّة سنين، وأنّى لها ذلك؟! وخاصّةً إذا ولّى شبابها ووهن عظمُها؟! فقد أصبح حكمها كحكم الميؤوس من شفائه، والشّيخ الهرم.

هذا وهناك أمراضٌ قد تُصابُ بها الحاملُ، وتُوجب عليها الفطر وهي إقياء الحمل العنيدة والبيلة الآحينية الشّديدة، والتّشنّج النّفاسي، أو الارتجاج النّفاسي، والتهاب الحويضة والكلى الحملي.

أمّا المخاض فهو يُوجب الفطر لأن تغذية الماخض تكون بوجبات صغيرة عديدة سهلة الهضم. وتُعتبر المواد السكرية أسهل الأغذية هضماً، كما أنّها تقوّي التّقلّصات الرّحمية، ولقدْ منَّ الله تعالى قديماً على سيّدتنا مريم بطعام سكري حينَ ألجأها المخاض إلى جذع النّخلة، فأوحى الله إليها أنْ ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ٢٥﴾[1].

فهذه الثّمرة المباركة من أفضل الغذاء للتي جاءها المخاض، فيلزم الإكثار منه، قبلَهُ وفي حينِهِ وبعدَهُ.

(١) سورة: مريم، الآية: ٢٥.

البحث الثّامن:

تحريم الصيام على الحائض والنفساء في رمضان وغيره(١)

تشعرُ المرأةُ أثناء الطّمث بالتّعب والضّيق الغامض المبهم، وقد يضطرب الهضم. وتحدث آلام مرافقة للحيض وقد تسبقه بيوم أو يومين، وتختلف كثيراً في شدتها بين امرأة وأخرى كما تختَلفُ باختلاف فصول السّنة.

وتمتاز أيام الحيض واليومان السّابقان له بانخفاض قدرة الجسم على المقاومة وينقص حيويته ومهارته ورشاقته في الحركة، ويميل الأنثى للشكوى من الإرهاق والضيق والألم بسبب الشعور بالهبوط، إضافة لما يتتابها من الأعراض السابقة ولذا تُسمى تلك الأيام بحقّ أيام الهبوط الحيوي.

فالحائض إذاً تكاد تكون مريضة بل هي مريضة في كثير من الأحيان، والمريض ذو فعالية ناقصة ونفسية خاصّة، فاقتضت حكمة العليم الرحيم الذي لم يجعل على المريض حرجاً أن يمنع الحائض من الصّوم رأفة بها، ولئلا يفوتها خيرات وأنوار مدرسة الصّوم أوجب عليها القضاء في أوقات أخرى تكون فيها أشد قوة وحيوية.

فعن معاذ قال: «سألت عائشة فقلتُ: ما بال الحائض تقضي الصّوم ولا تقضي الصّلاة، قالت: كان يصيبنا ذلك مع رسول الله ﷺ فنُؤمر بقضاء الصّوم ولا نؤمر بقضاء الصّلاة»(٢).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «كنّا نحيض على عهد رسول الله ﷺ فنؤمر بقضاء الصوم ولا نُؤمر بقضاء الصلاة»(٣).

---

(١) الطب النبوي والعلم الحديث: للدكتور محمود ناظم النسيمي ج ١/ ٣٠٥ ـ ٣٠٦، ط مؤسسة الرسالة ـ بيروت.

(٢) رواه البخاري ومسلم وأحمد.

(٣) روه البخاري ومسلم.

أمّا النّفساء فقد أثقلت بالحمل وأرهقت أثناء الولادة، وها هي تقوم بحضانة وإرضاع وليدها ممّا يتمثله جسمها من الغذاء مع ما هي عليه من نفاس، فلا تقل حالتها عن الحائض بل هي أكثر منها ضعفاً وأشد حاجةً إلى الفطر.

أضف إلى الحكم السابقة أن للصيام مرتبة جليلة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «قال الله عزّ وجلّ: كُلُّ عمل ابن آدم له إلاّ الصيام فإنّه لي وأنا أجزي به»[1].

إنّ تلك المرتبة تستدعي نظافةً وطهارةً يتمكّن معها الصّائم من القيام بالعبادات المختلفة من صلاة وقراءةِ قرآنٍ، فجعل الله إفطار الحائض والنّفساء واجباً، وصيامهما محرّماً وباطلاً، وعليهما أن يقضيا ما فاتهما في وقت يكونان فيه أشد إمكانية وتحمّلاً، وفي هذا تعليم للرّجال أن يأخذوا بعين الاعتبار حالة المرأة خلال فترة الحيض والنّفاس.

وإذا طرأ الحيض أو النّفاس قبل المغرب ولو بدقيقةٍ فسَدَ صومُ ذلك اليوم، وعليهما القضاءُ. أمّا لو انقطع الدّم وانقطع قبل الفجر وتمّتْ نيّة الصّوم صحَّ. فإنّ تأخّر الغُسل غير ضارٌ إلاّ بالنّسبة للصّلاة التّي تقتضِي الطّهارة.

---

(١) رواه أحمد ومسلم والنّسائي.

البحث التاسع:

حكم الحقنة الشّرجـية في حالة الصيام عند الضرورة

لقد كشف الاختبارُ أنّ الأدوية تُمتصّ بسرعة من هذه الطريق حتى إنّ بعضهم يقول بأن طريق الشّرج تفوق في سرعة امتصاصها الأدوية طريق الفم أحياناً.

وأمّا الأدويةُ التي توصف بهذه الطرق فإنّها إمّا أن تكون مائعةً فتعمل رحضة «حقنة شرجية» أو تكون صلبة فتعمل فتائل أو تحاميل أو تكون مراهم. ومن الرّحضات الرحضة المغذية، ورحضة المصُول السكرية على طريقة مورفي «قطرة قطرة في المستقيم».

ثم إنّ الطّبيب قد يُجري من طرق الاستقصاء التّشخيصيّ مَساً مستبطناً للشّرج أو إدخال منظار المستقيم من الشّرج.

وإليكم الحكم الشّرعي في إجراء ما سبق أثناء الصّيام:

١ ـ الحُقنُ الشّرجيّة:

مفطرةٌ في قول الفقهاء الأحناف والشّافعيّة والحنابلة، وتُوجب عندهم القضاءَ دون الكفّارة.

٢ ـ الفتائل الشّرجية «التّحاميل»:

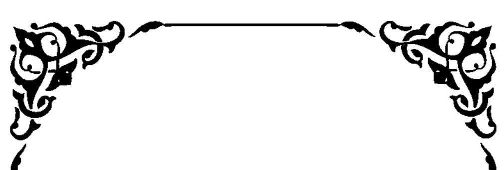
تفطر عند غير المالكيّة، حيث قال الإمام مالك رضي الله عنه: وأمّا السّبّار «أي الفتيلة تقوم مقام الحقنة» فإنّي أرجو ألاّ يكون به بأسٌ.

٣ ـ إدخال الإصبع أو الآلة كقنّية الحقنة أو نحو منظار المستقيم:

إذا أدخلت تلك الأشياء وكانت جافةً، فإنّها لا تُفسدُ الصّومَ عند السّادة الحنفية والمالكية. واشترط الحنفية لذلك ألاّ يغيب المُدْخَل، أمّا إذا غابَ كلُّه فإنّه يُفطر ويُوجب القضاء بلا كفّارة. أمّا إذا أدخلت تلك الأشياء مبلولة بماءٍ أو دُهن فإنّها تُفسد

الصّوم في قول الحنفية. أمّا حكم إدخال تلك الأشياء عند السّادة الشّافعية والحنابلة، فإنّه يُفسد الصّومَ ويُوجب القضاء بلا كفّارة.

وهذا قول الفقهاء قياساً على الدّاخل من طريق الفم. وواقعُ الدَّاخل من طريق الشّرج يكون في قضايا المعالجة الطّبيّة، وإن كان له مشابهة لِما يدخلُ إلى الجسم، فإنّه أشبه بالحقن الوريديّة والعضلية، وقد أفتى أستاذنا الدكتور الطّبيب الشيخ محمد أبو اليسر عابدين رحمه الله تعالى، بأنها لا تُفطر، فالحقنة الشّرجية أقرب شبهاً بالحقنة الوريدية والعضلية منها إلى الدّاخل عن طريق الفم حيث فيه ذهاب الجوع والعطش مباشرةً. مع تذوّق لذّة الطعام والشّراب، وليس هذا متحقّقاً في الحقنة الشّرجية عند التداوي، وبهذا جزم الحافظ ابن عبد البر في كتابه الكافي في الفقه المالكي. والله تعالى أعلم.



الفصل السّادس عشر
الغذاء من الطّيّبات وترشيد تناوله
وحكمة تحريم المحرّمات من المطعومات والمشروبات



البحث الأول:

الغذاء من الطيبات

يحتاج البدنُ في بنائه ونشاطه لأغذية تبني الجسمَ وتُرمّمُ الخَرِبَ فيه.

وأهمّها البروتينات «المواد الآحينية» وجزء من الدسم، منهما تُكوّن الخلايا والأغشية والأنسجة والهيكل والعضلات والأحشاء، وتكوّن كذلك الخمائر الضّرورية في عملية الهضم، وهرمونات ضرورية في عمليات الاستقلاب.

ويحتاج البدنُ كذلك لأغذية مولّدة للطّاقة. وتتألّف هذه الطّاقة من مجموعتين:

١ ـ تؤمن الحاجات الأساسية: تولد الحرارة اللازمة، والوظائف الإنباتية والوظائف الثابتة للقلب والتّنفّس والغدد الهاضمة.

٢ ـ تعطي للبدن حاجته الطارئة من الطاقة بأشكالها المختلفة الحركية والدماغية.

إن مصادر الطّاقة الغذائية هي السكريات بشكل عام والأدهان أحياناً.

٣ ـ ومن الضروري توافر كميّة من الماء كافية لتمام هذه المبادلات والتّفاعلات.

٤ ـ وكذلك لا بدّ من توافر بعض العناصر كملح الطعام وبعض الفيتامينات.

٥ ـ إنّ لأنواع الأغذية مصدرين كبيرين: فهي حيوانية أو نباتية، وإن جهاز الهضم في الإنسان السليم معد وقادر على أن يهضم أنواع الأغذية. ومن الأمثل له أن يناوب ويخالط بين تلك الأنواع دون أن يقصرَ نفسَهُ على الأغذية الحيوانية أو النباتية فقط؛ فلا بدّ منهما جميعاً.

يتعرّض جسم الإنسان إلى مضار في اقتصاره المستمر على أحد المصدرين أو على نوع من الأغذية الأساسية [الآحينية والسكريات والدّسم]؛ لأن في ذلك إسرافاً في

نوع على حساب الأنواع الأخرى وسنرى مضارّ ذلك في بحث «الاعتدال في الطعام والشّراب»، لأن في ذلك تعرّضاً لمضارّ الحرمان من الغذاء الرّئيسي المهمل.

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾[١] وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾[٢].

---

(١) سورة: البقرة، الآية: ١٦٨.

(٢) سورة: البقرة، الآية: ١٧٢.

البحث الثاني:

حِلّ الطّيبات ومنافعها للأبدان

أباح الله تعالى أن يأكل الإنسان مما في الأرض حلالاً طيباً مستلذاً غير مستقذَر ولا ضَارٍّ، وخالياً من ملابسات الاعتقادات الباطلة كالمذبوح على النُّصب أو ما أهلّ عند ذبحه باسم غير اسمه تعالى، وغير معتدٍ في تناوله على حق الغير.

وحرم الله سبحانه وتعالى أن يتناول الإنسان المطعومات والمشروبات الضّارّة والمستقذرات وكل ما فيه خبَثٌ مادي أو معنوي، ولتحريم الخبائث بحث خاص. قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَـٰلًا طَيِّبًا﴾[١]. ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾﴾[٢]. ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَـٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ﴾[٣]

تحريم الطّيبات حرام في الإسلام:

وليس للمسلم أن يحرم على نفسه بعض الطيبات ممّا أحلّه الله بنيّة التقرّب إليه تعالى. كما ليس له أن يتجاوز حدود المباحات إلى المحرمات لغير ضرورة. قال الله عزّ وجلّ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَـٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾﴾[٤].

ولم يكن الرسول عليه الصّلاة والسّلام يُحرّم على نفسه طعاماً بنيّة التّقرّب إلى الله عزّ وجلّ. وعندما حرّم على نفسه العسل لشيءٍ جرى بينَهُ وبينَ نسائه نزل قوله تعالى

---

(١) سورة: البقرة، الآية: ١٦٨.

(٢) سورة: البقرة، الآية: ١٧٢.

(٣) سورة: الأعراف، الآية: ٣٢.

(٤) سورة: المائدة، الآية: ٨٧.

مُعاتباً له على ذلك: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١ ﴾[1]. وكذلك نزلت الآية عندما حرّم أَمَتَهُ على نفسه.

وعندما حرَّمَ أحدُ الصّحابة على نفسه اللّحمَ، وحرَّمَ آخرُ النّساء، وثالثٌ النّومَ على الفراش، وبلغ ذلك النّبيّ عليه الصّلاة والسّلام قام خطيباً وأنكر عليهم ما عزموا عليه. عن أنس رضي الله عنه: «أنّ نفراً من أصحاب رسول الله ﷺ سألوا أزواج النّبيّ ﷺ عن عمله في السّرّ، فقال بعضُهم لا أتزوّجُ النّساءَ، وقال بعضُهم: لا آكُل اللّحمَ، وقال بعضهم: لا أنام في الفراش، وقال بعضُهم: أصوم ولا أفطر، فقام النّبيّ ﷺ فحمد الله وأثنى عليه فقال: «ما بال أقوام قالوا كذا وكذا؟ لكنّي أصلّي وأنامُ، وأصومُ وأفطرُ، وأتزوّج النّساءَ، فمَنْ رغبَ عن سُنّتي فليس منّي»[2].

ونزل في ذلك النّفر وأمثالهم قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ۝٨٧ ﴾[3].

أمّا الامتناع عن نوع غذائي من باب الحمية الطبيّة، أو إيثاراً للآخرين حتى ينالهم نصيبٌ من المواد الغذائية القليلة الوجود؛ فإنّه من السّنّة، وليس من باب تحريم الطّيبات المنهي عنه.

فذلكم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه يُحرّم على نفسه اللحم والسّمن واللّبن في عام الرمادة عندما أمحلَ النّاسُ فيه، إيثاراً للرعية، وحتى لا يزيد ارتفاع الأسعار بكثرة الطالبين.

---

(١) سورة: التحريم، الآية: ١.

(٢) رواه مسلم ٩/١٧٥، وأحمد ٣/٢٤١ و٢٥٩.

(٣) سورة: المائدة، الآية: ٨٧.

المبحث الثّالث:

الاعتدال في الطّعام والشّراب من أسباب العافية

إنّ في الاعتدال في الطّعام والشّراب وفي ترك الإسراف مجالاً للوفر الاقتصادي وراحة لجهاز الهضم وجهازي التنفس والدوران، ووقاية من مضار الشّره، وصفاء للفكر، وإقلالاً من تنبيه الشّهوات.

ومن أجل ذلك حذّر الإسلامُ من الشره ونهى عن الشّبع المفرط وبيّن أن التَّعلّق بالذّات والبعد عن الأهداف الإنسانية الربانية، إنّما هو من خُلُقِ الكافرين.

سنّة الاعتدال في الطّعام:

ولقد بيّن رسول الله ﷺ طريق الاعتدال في الطّعام والشّراب وأن على الإنسان أن يراعي أثناء تناوله الطّعام أنّه سيحتاج إلى الماء وأن حركة الحجاب الحاجز في التّنفس تتمدد بفرط الامتلاء بالطّعام والشّراب؛ وإذا تمددت شعر صاحبها بضيق وضعفت همّته وتكاسل من القيام بواجب الأعمال وتعرّض للإصابة بأضرار النّهم وشروره.

فعن المقدام بن معد يكرب رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: ما ملأ آدميٌّ وِعَاءً شرًّا من بطنِه، بحسب ابْنِ آدمَ لقيماتٌ يُقِمْنَ صُلْبَهُ، فإن كان لا محالة: فثلثٌ لطعامه، وثلثٌ لشرابِه، وثلثٌ لنَفَسِه»[1].

قال العلامة ابن قيم الجوزية في كتابه الطّبّ النّبوي: «فصل في هديه ﷺ في الاحتماء من التّخم»: مراتب الغذاء ثلاثة: أحدُهما مرتبة الحاجة، والثّانية مرتبة الكفاية، والثّالثة مرتبة الفضلة. فأخبر النّبيّ ﷺ أنّه يكفيه لقيماتٌ يُقِمْنَ صُلْبَهُ. أي ما يسدُّ الرّمق. فلا تسقط قوته ولا تضعف معها، فإن تجاوزها فليأكلْ في ثُلث بطنه،

---

(١) أخرجه الترمذي وقال: هذا حديث حسن صحيح.

ويدع الثّلثَ الآخر للماء والثّالث للنَفَس. وهذا أنفع للبدن والقلب فإن المعدة إذا امتلأت من الطّعام ضاقت عن الشراب، فإذا أورد عليها الشّراب ضاقت عن النّفس وعرض لها الكرب والتّعب.

لقد كان رسول الله ﷺ يتعهد أصحابه في كل مناسبة بالتّوجيه إلى طريق الاعتدال والخير والصّواب.

ولقد مرَّ معنا «أنّ رجلاً كان يأكل كثيراً فأسلمَ، فكان يأكلُ أكلاً قليلاً، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «إنّ المؤمن يأكل في معى واحد وإن الكافر يأكل في سبعة أمعاء»[1].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «تجشّأ رجلٌ عندَ النّبيّ ﷺ فقال: كف عنّا جشاءك فإن أكثرهم شبعاً في الدنيا أطولهم جوعاً يوم القيامة»[2].

للجشاء عدة أسباب، فقد يكون بسبب الإفراط في الطّعام، وقد يكون بسبب مرضٍ مَرَاريّ أو مَعِديّ أو كولونيّ، وقد يكون السّبب عادة ابتلاع الهواء، فكأن الرّجل المتجشّىء المتحدّث عنه كان من نوع المسرف في طعامه، ولذا اعتدل بعد سماعه موعظة النّبيّ ﷺ كما سأبين: إنّ هذا الرّجل الذي تحدث عنه ابن عمر وأخفىٰ اسمه بُعْداً عن الغيبة هو أبو جحيفة رضي الله عنه الذي تحدّث عن نفسه بمثل ذلك الحديث فقال: «أكلتُ ثريدة من خبز ولحم، ثم أتيتُ النّبيّ ﷺ فجعلتُ أتجشّأ، فقال: يا هذا كُفّ عنّا من جشائك، فإنّ أكثر النّاس شِبعاً في الدنيا أكثرهم جوعاً يوم القيامة»[3]. «فما أكل أبو جحيفة ملء بطنه حتى فَارقَ الدّنيا، كان إذا تغدَّى لا يتعشّى، وإذا تعشّى لا يتغدَّى». وفي رواية لابن أبي الدنيا قال أبو جحيفة: «فما ملأتُ بطني منذُ ثلاثين سنة».

(١) رواه البخاري في الأطعمة باب المؤمن يأكل في معى واحد.
(٢) رواه الترمذي، وقال: هذا حديث حسن غريب.
(٣) رواه البزار بإسنادين رواة أحدهما ثقات.

البحث الرابع:

الشّره في الطّعام وخطره

يُوصف النّهم بأكل مقدارٍ كبيرٍ من الأكل قبل حدوث الشّبع. وقد يكون أساسه وظيفياً أو عصبياً نفسياً، وقد يكون بسبب أمراض عضوية، كمرض السّكري الذي يُسبب الإكثار من الطعام. وتبدو مشكلة الشّره بصور مختلفةٍ، منها:

أن يأكل الإنسان أكثر ممّا يحتمل، أو أنْ يزدردَ الأكل، ازْدِرَاداً دون أن يُحسنَ مضغه. يكون الشّره دائماً، ويُعْزَى إلى عوامل مزمنةٍ، أو مؤقّتةٍ يظهر في مناسبات معينة دون أخرى، ويُعْزَى إلى عوامل طارئة.

وعلينا أن نُذكر بهذه المناسبة أنّ النّاس يقال عنهم: إنهم يأكلون غالباً أكثر ممّا تحتاج إليه جُسُومُهم، فتناول الطّعام لا يحدث عادةً لسدّ حاجةٍ جسميّةٍ فحسب، وإنما يحدث لأنه عادة معيّنة ومُعينةٌ، يريد أن يمارسها الفردُ في أوقاتٍ معيّنة.

فلا بدّ من الاهتمام بتنظيم وجبات الطّعام من غير شرهٍ ولا إسراف، وكذلك بلا تقتير ولا نقصان، ليأخذ الجسم حاجته وكفايته من الغذاء.

الوقاية من الإسراف في شرب الماء:

ينبغي تناولُ الماء على مراحلَ ثلاثة يتنفّس الشّاربُ بينَها مُبعداً القدح عن فيهِ، فاشربِ الماءَ ببطءٍ كأنّكَ تمصُّه مصًّا. وإذا كان الطّقس حارًّا فتناولْ كأسَ الماء قبل الطّعام بربع ساعة أو نصف ساعة، وكأساً آخر في وسطه؛ لئلا تعطش بعده قبل هضمه فتسرف في الشرب وتعيق الهضم.

تُوصي الكتب الطّبّية المصابين بالوذمات بالإقلال من شرب الماء وتناول السوائل وتعلمهم لدفع الشعور بالعطش أن يقسموا ماءَ الشّرب إلى جرعات صغيرة فيأخذون قليلاً من الماء كلّما شعروا بالعطش وذلك لأنّ بلل الفم والبلعوم يُخفّف من شدّة الشعور بالعطش.

فتناول الماء ببطءٍ وعلى جرعات يعطي الشّعور بالرّيّ أكثر، لأنَّ الرّيّ الحقيقي لا يحدث إلا بعد امتصاص الماء. فإذا عبَّ الإنسانُ الماءَ بسرعةٍ وتناول الكؤوس العديدة لعدم شعوره بالرّيّ أدّى به الأمر إلى تمدّد المعدة واضطراب الهضم.

وإذا فعل ذلك وهو متعرّق فقد يؤدي شرب الماء البارد بكثرة إلى السعال بتخريش الحنجرة والرّغامىٰ، أو إلى التهاب القصبات.

وللإسلام في هذا الشّأن تعاليم صحيّة فقد بيّن رسول الله ﷺ أن يُقسم الشّاربُ شرابَهُ إلى ثلاثة أجزاء يتنفّس بينَها مبعداً الإناء عن فيهِ، وعن نَفَسه وقايةً له من التّلوّث ـ وأن يمصَّ الماءَ مصًّا، وذلك لأنه أهنأ وأمرأ ـ فلا غَصَصَ ولا شَرَقَ ـ وأبرأ لداء العطش وأرْوَى.

فعن أنس رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ يتنفس في الشّراب ثلاثاً، ويقول: «إنّه أرْوَى وأبْرأ وأمْرَأ». قال أنس: فأنا أتنفّس في الشّراب ثلاثاً»[1].

قال الإمام النّووي في شرحه لصحيح مسلم: وقوله: «كان يتنفّس في الشّراب» معناه في أثناء شربه من الإناء، وهو بعيد عن فمه.

(١) رواه البخاري ومسلم واللفظ له برقم ٢٠٢٨.

البحث الخامس:

الإسراف في الطعام والشّراب

يكون الإسراف في الطّعام والشراب على أنواع:

١ ـ إسراف من جهة الكمية فإذا أضحى عادةً للإنسان فهو الشّره.

٢ ـ إسراف في نوع من الأغذية وهذا الإسراف، إمّا أن يتوافق مع تأمين حاجات البدن من الأنواع الأخرى الضرورية صحياً، وإمّا أن يكون على حساب الحرمان من تلك الأنواع كأن يقتصر على النشويات أو اللحوم.

٣ ـ إسراف بتبذير الأموال لتحصيل المستلذّات من الأطعمة والأشربة، وذلك منهيٌّ عنه بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾﴾[1].

وبقوله سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾﴾[2].

٤ ـ إسراف من جهة تلبية النّفس بإعطائها دائماً ما تشتهي، فيقع في براثن العادات السّيّئة. وقد يجرُّ ذلك إلى الإسراف في الكميّة أو تبذير في صرف الأموال بتتبّع المستلذّات. فلا بدّ من الاعتدال والقصد في الإنفاق في جميع الأحوال.

مضار الشره والإسراف:

الشّرهُ خُلُقٌ ذميم وعادة ضارّةٌ بصحة الإنسان عاجلاً أو آجلاً. وإليكم أهم أضراره:

---

(١) سورة: الإسراء، الآية: ٢٩.

(٢) سورة: الفرقان، الآية: ٦٧.

١ ـ أضراره في جهاز الهضم:

إنّ الإكثارَ المفرط أو الزّائد في تناول الطّعام والشّراب سببٌ من أسباب التّخمة وعُسر الهضم، واحتقان الكبد وتوسع المعدة.

إذا امتلأت المعدة بالطّعام تمدّدت جُدُرها واشتدت حركاتها وقوّة تقلّصها، غير أنه إذا فاق ذلك توتر المعدة الطّبيعي انقلبت الحالة وخفت الحركات من جراء تمدّد الجُدُر الشديد، ومكث الطّعام أمداً طويلاً، وأصيب الشّخص إذا استمرّ الحال بعُسر الهضم.

والإسراف في الطّعام يثير هجمة جديدة لأمراض المعدة والأمعاء والكبد والمرارة.

٢ ـ أضراره في جهاز الدورة الدّموية:

إن تناول كميّة كبيرة من الطّعام قد يؤدي إلى نوبة جديدة من خناق الصّدر «تشنج شرايين القلب الإكليلية» وخاصة إذا كانت الوجبةُ دسمةً. وقد يُؤدي إلى زيادة في ارتفاع التّوتر الشّرياني «الضّغط» وخاصّة عند المستعدين وعندما تكون نوعية الغذاء متنافية مع الحمية الموصوفة.

٣ ـ إثارته لأمراض التّغذية:

إنّ الإسراف المستمر في تناول الطّعام يزيد في إمكانية الإصابة بأمراض التّغذية، وخاصّة عند من يحمل استعداداً بنيويًّا أو إرثياً، كالبدانة الغذائية والنّقرس والداء السكري، كما أنّه يزيد في شدّة إصاباتها.

ومن الثّابت علمياً أنّ زيادة التّغذية عند الكهول من البشر مؤذية. وتزداد بين البَدِينِين نسبة الإصابة بأمراض الدوران «القلب والأوعية» والديابيت «الداء السكري».

وهذه الأمراض الاستحالية أكثر حدوثاً وتبكيراً ممّا كانت عليه قبل قرن من الزمن، وخاصّة في الولايات المتحدة الأمريكية.

٤ ـ مضاره على النّفس والفكر:

إنّ كثرة الأكل والشرب يعقبها كسلٌ في النّفس وبلادة في الفكر وميل إلى النّوم. وإن كثرة النّوم خسارة ومضيعة لأوقات يمكن أن يتقرب فيها العبد إلى الله بالتهجّد والتعلم وأداء الواجبات والأعمال النّافعة لذاته أو لأسرته أو لأمته. «فلا بدّ من الاعتدال في الطعام والشراب»!.

البحث السادس:

المحرّمات من المطعومات الميتة والدّم والخنزير وذوات المخالب والأنياب

قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ﴾[1].

وقال سبحانه: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ﴾[2].

لقد حرّمَ الله تعالى جميعَ ما تقدّم حمايةً لصحّة الإنسان؛ لِما فيها من الأخطار الجسيمة على حياة الإنسان.

الميتة: وهي التي فارقتها الحياةُ دون ذكاةٍ شرعيّة. ويُلحق بها ما أُهِلّ لغير الله والمنخنقة والموقوذة والمتردّية والنّطيحة وما أكله الوحوش، وما ذُبح على النّصب ـ أي ذبائح المشركين التي يذبحونها لأصنامهم وطواغيتهم.

والميتةُ من الخبائث لِما يطرأ عليها تغيّرات عديدة، منذ مفارقتها للحياة، فتُؤدّي الجاذبية الأرضية إلى انحدار الدّم وترسّبه في الأجزاء المنخفضة، مشكّلاً الزّرقة الموتية خلال ساعتين من الموت، ذلك ما يُسمّى بالمصل الموتي، حيث تميل الأنسجة إلى الإحمضاض ثم إلى التقلون عند بداية التّفسّخ. وتتكوّن أحماضٌ عديدة نتيجة التخمرات والتّفاعلات.

---

(١) سورة: البقرة، الآية: ١٧٣.
(٢) سورة: المائدة، الآية: ٣.

وتبدأ الميتةُ بالتّعفّن بتأثير الجراثيم الهوائيّة واللاهوائية، فتتكاثر أولاً الجراثيم اللّاهوائية، وأهمّ هذه الجراثيم: الأشريشياكولي، والمتقلّبات الاعتياديّة، والمصثيات الحاطمة، وينتج عن ذلك فساد الموادّ العضوية، وانطلاق غازات عفنة مثل كبريت الهيدروجين وثاني أكسيد الكربُون، والفحوم الهيدروجينيّة والهدروجين، ويُساعد على الإسراع في هذا الأمر انحباس الدّم وبقاؤهُ في بدن الميتة.

وبالإضافة إلى ما سبق، إنّ لحم الميتة يكون ليّناً ذا رائحةٍ كريهة، ممّا يُثير القرف في نفس الإنسان السّوي، ويدفع إلى الاشمئزاز، فينبو عن أكله كلُّ ذي ذوق سليم.

وأبرز الأمراض الفاتكة بالحيوان فتقتلها هي:

١ ـ السّلّ: وهو أكثر وقوعاً في البقر. وينبغي حرق الميتة المصابة به.

٢ ـ الجمرة الخبيثة: وهذه لا يصح مسّها، واللازم دفنها أو حرقها حتى لا تنتشر جراثيمها، فتعدي الإنسان عن طريق أكلها أو ملامستها، وهذه تسبّب للإنسان أمراضاً فتّاكةً.

٣ ـ جراثيم السالمونيلا: إنّ تناول لحم الميتة المصابة بالسالمونيلا، يُسبّب تسمّماً، إمّا بالجراثيم نفسها، أو بذيفاناتها، حتى لو تمَّ طهيُ لحم الميتة طهياً جيداً، حيث لا تتأثّر الذيفانات بالحرارة.

٤ ـ الجراثيم العُنقودية، وهي تضرّ بآكلها ضرراً بالغاً.

٥ ـ يُسبّب تناول لحم الميتة خصوصاً بعض الأمراض، مثل مرض كروتوزفيلد جاكوب، ومرض سكرا.

والمنخنقة: مهما كان سبب الاختناق؛ غرقاً، أو خنقاً، أو عن غازات سامّة، يبقى الدّم في الميتة بهيئة سائلة، ممّا يُساعد على التّفسخ والتّعفن؛ إضافةً لِما يحتويه الدم من سموم ومواد ضارّة. وكذا الموقوذة ـ التي ضربت بحجر أو عصا ـ والمتردّية، وهي التي سقطت من علوّ فماتت، والنّطيحة ما نطحتها أخرى فماتت.

في هذه الأنواع جميعاً يبقى الدّم منحبساً، ممّا يُهيّـىء بيئةً مناسبة لتكاثر الجراثيم وأمراضها.

ويُلحق بالميتة «المصعوقة بالكهرباء» وهي مليئة بالسّموم والغازات الحارقة، على أثر التفريغ الكهربائي في بدن المصعوقة، فيتفكّك عُنصري كلور الصّوديوم ـ المكوّنا للملح ـ وهما ملازمان لبعضهما، ولا ينفكان إلاّ بالتفريغ الكهربائي.

الدّم: حرّم الله تعالى أكل الدّم المسفوح، لِما يحمله من سمُومٍ وفضلاتٍ كثيرة، ومركّبات ضارّة؛ ذلك لأن إحدى أهم وظائفه هي: نقل فضلات الجسم وسمومه، ليُصار إلى طرحها عن طريق البول. وأهم هذه المواد التي يحويها الدّم: البَولة، وحمض البول، والكرياتينين، وهي المستقلبات النّهاية النّاتجة عن تقويض البروتينات.

ويحمل الدّمُ بعض السّمومِ التي ينقلها من الأمعاء إلى الكبد بغية تعديلها، وإذا ما تناول شخص كميّةً من الدّم، فإنّ هذه المركّبات تُمْتَصُّ، ويرتفع مقدارها في الجسم، إضافةً إلى المركبات التي تنتج عن هضم الدّم ذاته، ممّا يؤدي إلى ارتفاع نسبة «البولة الدّمويّة» وبالتّالي حدوث اعتلال دماغي، وينتهي بالسّبات فيما إذا ما استمرّ في تناول الدّم.

ويُعتبر الدّم المسفوحُ، أو المحتقنُ في الميتة مرتعاً ملائماً لنموٍّ أنواع كثيرة من الجراثيم، فلا يُعتبر الدَّمُ غذاءً بشرياً.

الخنزير: وهو حيوان قذرٌ كانسٌ لقمامات الزّريبة وفضلاته ومخلّفات المسالخ والجرذان والفئران والجيف والقاذورات. وهو ذو طبع شرس خبيث يهاجم الإنسان ويفترسه، وهو لا يختص لنفسه بأنثى معيّنة كما هو حال الوحوش الضّارية.

ويُصاب الخنزير بأمراض عديدة تصل إلى /٦٦/ مرضاً من الأمراض الطّفيلية، وهي تنقل إلى الإنسان بنسبة /٣٠/ تتوزّع كالتّالي:

سبعة أمراض تسببها طفيليات وحيدة الحفليّة.

خمسة أمراض تسببها الدّيدان الورقية.

أحد عشر مرضاً منشؤها الدّيدان الحبليّة أو الشّريطية.

أربعة أمراض شريطية الدّيدان.

ثلاثة أمراض خارجيّة، تُسببها طفيليات جلديّة.

وهناك عشرات الأمراض ـ على الأقل ـ تُصيب الإنسان نتيجةً لأكل لحم الخنزير، ونعدّ منها:

الطّفيليات الأولية «البُرزويّات» ١ ـ الزّحار ٢ ـ الزحار اللاأميبي ٣ ـ الزّحار الزقي ٤ ـ اللمبليا أو الجياردیا ٥ ـ داء المصورات الذيفانية المقوّسة ٦ ـ داء المكيّسات اللّحميّة «جسيمات ميشريانا» ٧ ـ مرض النّوم.

الدّيدان الشّريطية: ١ ـ الحصبة أو الحويصلات الخنزيريّة ٢ ـ الدّيدان القنفذية ٣ ـ داء اليرقات الشريطية الجوّالة ٤ ـ سباير ومتار أرنيسي ٥ ـ الدّودة الوحيدة المسلّحة.

الطفيليات الخارجيّة: ١ ـ الجرب ٢ ـ الجرب الغائر ٣ ـ البراغيث «التهاب الأدمة بسبب البراغيث».

الأمراض الفيروسية: ١ ـ الكَلَب الكاذب ٢ ـ التهاب عضلة القلب والدّماغ السّاري ٣ ـ الحُمّى القُلاعيّة ٤ ـ الأنفلُوَنزا الخنزيريّة ٥ ـ الحمّى الدماغية ٦ ـ التهاب السّحايا والمشيمة ذو الكرات اللمفيّة ٧ ـ السّعار؛ داء الكَلَب ٨ ـ التهاب الفم الحويصلي.

الطّفيليات الأسطوانيّة أو الحبليات: ١ ـ الدّيدان الخطّافيّة ٢ ـ داء الإسكارس ٣ ـ داء الشعيريات الشوكية ذات الفكّين ٤ ـ الدّيدان الرئوية الخنزيرية ٥ ـ ديدان فواغر المري أو الدّيدان العقيدية ٦ ـ الدّيدان الخنزيرية شوكية الرأس ٧ ـ الشعريات الحلزونية ٨ ـ الدّيدان السّوطية ٩ ـ الدّيدان الخطافية أو معقوفة الفم في الإنسان والخنزير.

الأمراض الجرثومية: ١ ـ الفطور الشعاعية ٢ ـ الفطور العصوية الشعاعية ٣ ـ الحُمّى الفحمية أو الجمرة الخبيثة ٤ ـ الانسمام الوشيقي ٥ ـ الحُمّى المتموّجة ٦ ـ الحُمرة الخنزيرية ٧ ـ الجمرة العريضة ٨ ـ التّسمّم الدّموي ٩ ـ داء وايل ١٠ ـ داء الدوران «ليستريا» ١١ ـ الرعام الكاذب أو مرض دايتمور ١٢ ـ سالمونيلاّ ١٣ ـ شيجالا ١٤ ـ العدوى العنقودية ١٥ ـ داء السّل ١٦ ـ سل باتي ١٧ ـ الكزاز.

الأمراض الفطريّة: ١ ـ داء المبيضات الفطرية «المونيلا» ٢ ـ داء الفطور الكروبانية ٣ ـ القراع.

وإنّ آكل لحم الخنزير يتأثر تأثراً بالغاً فوق مخاطره المرضية الآنفة الذكر، بالترسبات الدّهنيّة الخنزيريّة، فإنّ عصارة البنكرياس لا تستطيع أن تحوّل دهونه، لذلك فإنّ جزيئياتها تُمتصّ كما هي دون أن تُهضم، ولهذا فإنّها تترسّب في أنسجة جسم الإنسان.

عن جابر بن عبد اللّه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنّ الله ورسولَهُ حرّمَ بيع الخمر، والميتة، والخنزير، والأصنام»[1].

وأخرج أبو داود في سُننه عن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال: «إنّ الله حرّمَ الخمر وثمنها، وحرّمَ الميتة وثمنها، وحرّمَ الخنزير وثمنَهُ»[2].

ذوات المخالب من الطيور:

ويحرم أكل لحوم الطيور ذوات المخالب الجارحة؛ كالعقاب، والبازي، والصّقر، والشّاهين، والحدأة، والبومة، والنّسر، وأشباهها من الجوارح.

ويحرم الخطاف والخفاش، والحية، والعقرب، والحشرات، والدّيدان، والجزان.

ذوات الأنياب من الوحوش:

ويحرم أكل لحوم الضواري من ذوات الأنياب؛ كالأسد، واللبوة، والذئب، والنّمر، والفهد، والكلب، والثعلب، والفيل، والقرد، والهر البري والأهلي ـ وطهارة سوء الهر الأهلي رخصة رخّصها رسول الله ﷺ وقال: «إنّها من الطوّافين عليكم والطّوّافات»[3].

وفي مسند أحمد وصحيح مسلم وسنن أبي داود والنسائي عن عبد اللّه بن عباس قال: «نهى رسول الله ﷺ عن أكلِ كلِّ ذي نابٍ مِنَ السّباع، وعن أكلِ ذي مخلبٍ من الطّير»[4].

---

(١) البخاري في صحيحه برقم ٢١٢١.
(٢) برقم ٣٤٨٦، وإسناده حسن.
(٣) أخرجه أحمد في مسنده ج ٥/ ٣٠٣ و٣٠٩، وهو حديث صحيح.
(٤) صحيح الجامع الصغير برقم ٦٨٥٩.

ويُلحق بهذه الحمار الأهلي، ففي الصّحيحين عن البراء وجابر بن عبد اللّه، وأنس بن مالك قالوا: «نهى رسول الله ﷺ عن أكلِ لُحومِ الحُمُرِ الأهليّة»[1]. ويُلحق بالحمار الأهلي البغال.

وأمّا الفرس والحمار الوحشي، فيجوز أكل لحومها، وكذا البقر الوحشي والوعول والغزلان والأرانب.

إنّ الحكمةَ من تحريم أكل لحوم الميتة والخنزير الحفاظُ على صحة الإنسان، ولا ننسى ما حلّ في «البقر الإنكليزي» في عام ١٩٩٥ من إصابته بالجنون «جنون البقر» الذي ينقلُ الإصابةَ إلى الإنسان، فتُصيب الخلايا الدّماغية فيموت في فترةٍ وجيزة، ولم يجدوا دواءً ولا مضاداً، وما ذلك إلاّ من جرّاء إدخال شحوم الخنزير ولحوم الميتة على «علف البقر» طلباً لزيادةِ سُمْنِها وزيادة وزنها، فأصابهم الله تعالى بشرّ أعمالهم.

وأمّا حكمة تحريم أكل لحوم الوحُوش الضّواري «ذات الأنياب» آكلة اللحوم، فهي الحفاظ على طباع الإنسان وصونها من التّطبع بالطّباع الشّريرة.

فأكلُ لحوم الحيوانات الكاسرة يُكسب آكلها بعضَ طباعها الشريرة، فيميلون إلى ارتكاب الآثام والفواحش والجرائم، مع اكتساب حدّة العداوة والبغض والكراهية للنّاس، فإنّ النّاس تتأثر طبائعهم بما يتناولون من الغذاء، وهذا ما لمسناه من الغربيين والشرقيين ـ الشيوعيين ـ والأمريكيين الذين يداومون على أكل لحم الخنزير تضعف عندهم الغيرة على نسائهم، وذلك لأن الخنزير لا يأبه لمن ينزو على أنثاه، على عكس جميع الحيوانات الكاسرة، فإنها تحمي أنثاها من كل ذكر من الاقتراب منها. وقد قام مركزٌ من مراكز مراقبة طبائع الأسود بهذه التجربة؛ حيث حبسوا الأسد عن لبوته، وأتوا بغيره فنزى عليها، فولدتْ ثلاثة أشبال، ثم أطلقُوا ذكرَها المحبوس، فما كان منه حينَ وصل إلى مكان لبوته إلاّ أن قتل جميع أولادها من غيره، وذلك تأثراً من كونها حملت من غيره، وبقتله لأولادها يُلجئها إلى أن تحمل منه.

(١) صحيح الجامع الصغير برقم ٦٨٦٠.

وهكذا نجد الوحوش الكاسرة تحمي أنثاها من غيرها، ولكن الخنزير على عكس هذا الشعور. ولهذا نجد مشاعر آكلي لحم الخنزير منحطي الأخلاق بليدي المروءة فاقدي الغيرة على نسائهم، حيث يرضون لهن الرقص والتّقبيل لمن هبّ ودبّ.

فالحمدُ لله الذي أحلّ لنا الطّيّبات وحرّم علينا الخبائث!!! والحمدُ لله الذي جعل في الحلال ما يُغني عن الحرام!!!.

البحث السابع:

المحرّمات من المشروبات الخمر والمخدّرات والتّدخين

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ۝٩﴾[1].

الخمرُ: كلُّ مُسْكِرٍ خَامَرَ العقل وأذهبَ إدراكَهُ ومشاعِرَهُ وقوَاهُ.

قال رسول الله ﷺ: «الخمرُ أمُّ الخبائث، فمَنْ شربها لم تُقبل صلاتُهُ أربعين يوماً، فإنْ مات وهي في بطنِهِ ماتَ ميتةً جاهليّةً»[2].

وهي ممّا ذكرَهُ رسول الله ﷺ «مِنَ الحنطة خمرٌ، ومِنَ التّمرِ خمرٌ، ومِنَ الشعيرِ خمرٌ، ومِنَ الزبيب خمرٌ، ومِنَ العسلِ خمرٌ»[3].

وتُستَخرَجُ الخمر من عصير الفواكه بعد اختمارها، ولها ثلاثة أنواع هي: الخمور، والخمور المقطّرة، والسّوائل الروحية، وهي جميعها تحوي على «الغول ـ أي الكحول».

وهي تختلف عن بعضها بالشّدّة والخِفّة، فخمر عصير العنب، تتراوح نسبة «الغول» فيها ما بين ٥٪ و١٥٪ وقد تصل إلى ٢٥٪. فالشامبانيا خمر خفيفة.

والبيرة: هي خمر الشّعير، ونسبة الغول فيها ما بين ٢ ـ ٧٪.

والعَرَقُ: يستحصل من تقطير العنب المختمر بعد إضافة اليانسون إليه، مع تمريره حين التّقطير على «الاسبيرتو».

والكونياك: يستحصل من تقطير الخمر البيضاء.

---

(١) سورة: المائدة، الآية: ٩٠.

(٢) صحيح الجامع الصغير برقم ٣٣٤٤، وإسناد حسن.

(٣) صحيح الجامع الصغير برقم ٥٩٠٣، وإسناده صحيح.

والويسكي: يستحصل من تقطير خمر الحبوب.

ومن الخمور ما تكون من الغول الإيتيلي، وهو زائد السّميّة. ويأتي الخمر من تحويل سكر العنب أو سكر الفواكه إلى غول وحمض بلا ماء الفحم «غاز ثاني أوكسيد الكربون». أي أنّ السّكر يتحوّل إلى «غول إيتيلي» وهو أهم مركّبات الخمر، حين ينطلق غاز ثاني أوكسيد الكربون يفقد السّكر نصف قيمته الغذائية.

والغول الإيتيلي «وهو مركب سائل» لا لون له، قابل للاشتعال، يذوب في الماء، وفي المواد الدّسمة. والغول الإيثيلي عامل مشترك في كلّ أنواع الخمور والمسكرات.

والغول ليس مادةً من موادّ الغذاء، بل هو داء على جسم الإنسان، وهو إلى السّميّة أقرب، فهو مادة مخرّشة للأعصاب، فكثيره وقليله حرامٌ، قال رسول الله ﷺ: «ما أسْكَرَ كثيرُهُ فقليله حرامٌ» وقال ﷺ أيضاً: «ما أسْكَرَ منه الفَرَقُ ـ وهو مكيال يسع ستّةَ عشرَ رطلاً ـ فمِلْءُ الكفّ منهُ حرامٌ»[1].

الخمر وآثارها الضارة على مختلف أعضاء الجسم:

يُسببُ شربُ الخمر أضراراً شتّى على مختلف أجهزة الجسم وأنسجته، وفيما يلي أهمّ الأضرار فتكاً بالجسم:

الخمر وفتكه بالخلايا:

لقد تبيَّنَ أنّ الغول سامّ لأية خليّةٍ، وله قدرة على إهلاكها في بدء تطوّرها.

الخمر وأضرارها على الخلية العصبية:

على أثر إصابة الخلية العصبيّة بمادة «الغول ـ الكحول» يؤدي إلى الهزّ المرتجف «وهو هذيان السّكارىٰ».

وشارب الخمر معرّض لإصابة السّحايا، فقد تُصيب المدمن عليها نوباتٌ من الصّداع والتّهيج، وقد تُؤدّي إلى الغيبوبة الكاملة والموت.

(١) صحيح الجامع الصغير برقم ٥٥٣٠ و٥٥٣١، وإسنادهما صحيح.

كما يُصاب شارب الخمر باعتلال الأعصاب الغولي العديد، فيُصاب بضعف عقلي وهزال، وآلام في الأطراف بسبب تخريب الأعصاب المختلفة.

ويُصاب شارب الخمر بالتهاب العصب البصري، وهذا ما يُعاني منه معظم السّكّيرين، فيحصل لهم نقصٌ في القدرة البصرية، وربما يصل إلى العمىٰ.

وتترافق في حالات السّكر مرض الصَّرَع، وفي حالات الإدمان يكون أكثر تعرّضاً لهذا المرض. ويُؤثر المدمنُ على الخمر على مولوده بإصابته بالصَّرَع.

الخمر وجهاز التّنفس:

تُؤدّي الجرعة الخفيفة إلى زيادة سرعة التّنفس، ثم يحدث بطءٌ في التّنفس، ويُصبح سطحياً، وتنـقص المبادلات التّنفسية، وتحدث الالتهاب كذات القصبات وذات الرّئة، وتبلغ نسبة إصابة السّلّ بين المدمنين ١٥ ـ ٢٠٪. وقد يُصاب الأنف بنقصٍ في حاسّة الشّمّ. وتصاب الحنجرة كذلك بالالتهاب المزمن، فتحدث خشونة في الصّوت.

الخمر وجهاز الدّوران:

تُؤدي الجرعات المتوسطة من الخمر لازدياد ضربات القلب، ومن ثَمَّ يتناقص عدد هذه الضّربات. أمّا الجرعات الكبيرة من الخمر فتُؤدّي لنقص سعة ضربات القلب، وبالتّالي إلى انخفاض الضّغط وعدم انتظامه.

وثبت أن ٢٦ ـ ٨٣٪ من السّكيرين يشكون من أمراضٍ قلبيةٍ. ولهذا كان الخمر ضاراً بالقلب.

تأثير الخمر على القلب:

تُصاب عضلة بالاعتلال، وخاصّةً بعد تناول البيرة الحاوية على الكوبالت. ويُصاب القلبُ بالالتهاب نتيجة استنزاف / ف بْ أثناء حرق الغول. والمكثر من شرب البيرة يُحمل القلب زيادة إرهاق، وبالتّالي إلى توسّعه وتضخمه، وذلك يُؤدّي إلى قصور أدائه، وأخيراً الموت.

تأثير الخمر على الأوعية الدموية:

وذلك بتوسيعها آنياً، وبالتّالي يحدث انخفاض الضغط، ممّا يُؤدّي إلى حدوث غيبوبة. وتُساد الخمر على تهيىء حدوث تصلّب الشّرايين، وحدوث العصيدة.

الخمر وأضرارها في الجهاز الهضمي:

يبدأ الخمر بالإيذاء والتخريب في جسم شاربه من بداية تناوله، فيُحدث اضطراباً بالذّوق، وضمور الحليمات الذّوقية، وتشقّق اللسان، وإضعاف اللّثة والأسنان، واضطراب في الغدد اللّعابية، فيحدث جفاف في الفم، ثم ينقلب إلى سيلان اللعاب. كما يُشكّل طلاوةً بيضاءَ على اللّسان تتحوّل إلى سرطان اللّسان.

ويُؤثر على المريء، فيُسبّب له التهاباً. ويُثير الغشاء المخاطي للمري، كما يُسبب توسعاً في أوردته. ويُسبب حدوث قرحةٍ في المري، ثم إلى سرطان المري، وثبت أنّ ٩٠٪ من المصابين بسرطان المري هم من المدمنين على الخمر.

وأمّا أثرُ الخمر على المعدة، فهو معروف حيث يُسبّبُ التهاب المعدة السّطحي الحادّ، والتهاب المعدة المزمن الضموري، ويحصل عندَ معظم المدمنين، وسببه فقدان العامل الدّاخلي المسؤول عن امتصاص /ف ب ١٢/ وهذه الحالة تُؤهب لسرطان المعدة. فالخمرُ يُسبب سرطان المعدة.

والخمر يُسبب القرحة الهضمية، ويزيدها نزفاً. ثم يتعدّى المعدة إلى الأمعاء، فيُسبب التهاباً حاداً فيها، ويُولّد غازات كريهة. كما يُحدث المواسير، ويُفاقمها إن كانت موجودة، ويُسبب سوء الامتصاص المعوي.

الخمر وآثاره الخطيرة على الكبد:

ويُسبب الخمر أمراضاً خطيرة في الكبد، حيث يُؤثر ضمن آلياتٍ ثلاث هي:

١ ـ يُؤثّر على استقلاب الكبد، ممّا يؤدي لنقص تركيب السّكر في الكبد، وزيادة إنتاج الدّسم، وتراكمه داخل الخلية الكبدية.

٢ ـ يُؤثر سُمّياً على الخلية الكبديّة.

٣ ـ يسبّب عوزاً غذائياً نتيجة عزوف المدمن عن الطعام.

أمّا أخطر الأمراض الغوليّة الكبدية فهي:
١ ـ تشحم الكبد الغولي الذي يُصيب المدمنين.
٢ ـ تشحم الكبد مع ركودة صفراوية.
٣ ـ التهاب الكبد الحادّ.
٤ ـ تشحم الكبد الغولي.

وهذه الأمراض متداخلة مع بعضها، وأغلبها يتحوّل إلى تشمّع الكبد، ذلك المرض العُضال الذي لا بُرْءَ منه، وأخطر اختلاطات التّشمع الكبدي: السّبات الكبدي، وارتفاع توتر وريد الباب، الذي يُسبب تجمع السّائل في البطن بما يُسمّى «الحبن» ودوالي المري، وسرطان الكبد الأوّلي، وليس يُؤكد على خطر الخمر على الكبد أنّه في فرنسا سنوياً أكثر من / ٢٣ ألف/ مصاب بتشمع الكبد الغولي، وبنحو هذه النسبة في بريطانيا وألمانيا، أمّا في أمريكا فيُضاعف هذا الرقم، وكلّما كان الإدمان أكثر كانت الإصابات أكبر.

وهناك أمراض خطيرة يُسببها الخمر كالتهاب «المعثكلة» الحاد، وهو مرض خطير يشكل أهمّ حالات البصن الحادة غير الجراحية. ويُؤهب الغَوْل لحدوث حصيّات بنكرياسيةٍ.

الخمر وآثاره الضارة في الدم:

١ ـ الخمر وخضاب الدّم: يُؤدّي إلى نقص نسبة الخضاب، حيث يَحُول دون امتصاص الحديد ـ أي يُحدث فقر الدّم بعوز الحديد.

٢ ـ الخمر والكريّات البيض: ترتفعُ الكريّات البيض عند تعاطي الكحول لمرّة واحدة، بينما تنخفض عند التعاطي المتكرّر، كما أنها تُصبح محدودة الحركة في الدّم.

٣ ـ الخمر والكريّات الحمر: يُحدث فقر دم «كبير الكريات» بنقص حمض الفوليك. ويُحدث فقر دم خبيثٍ، بنقص /ف ب ١٢/ . كما يُحدث البروفيريا الكبدية الجلدية، ويُحدث داء «الهيموسيدريني».

٤ ـ الخمر وأثره على زمن التّخثّر: فهو يُنقص زمنَ التّخثر بالجرعات الصّغيرة. بينما يزداد بالجرعات الكبيرة.

ويُسبب الخمر «الغول» التصاق الكريات الحُمر في الدّم بعضها ببعض، ممّا يُؤدّي إلى خثرةٍ أو جلطة تسدّ الأوعية الشّعْرية، وتبعاً لذلك تتخرّب الأنسجة لانعدام توارد الأوكسجين إليها.

الخمر وكيمياء الدّم:

١ ـ ينخفض اليود في الدّم.

٢ ـ يرتفع حمض البول في الدّم، لذلك يُثير هجمات النّقرس.

٣ ـ ينخفض البوتاسيوم في الدّم.

٤ ـ ينخفض سكّر الدّم، وقد يصل لمرحلة السّبات، وبالتالي يُودي إلى الموت.

الخمر والشهوة الجنسيّة:

عند الذكور: يحدث عند مدمن الخمر شبق في العمل الجنسي، ومعظم حالات الحمل السّفاحي يحدث أثناء الثّمل.

وعند الإناث: ازدياد الشّبق الجنسي عندها، ولهذا تطلب الممارسة الجنسية تحت تأثير السّكر، على غير عادتها وهي في حالة الصّحو حيث تكون رغبتها بالمُمَانعة ثم بالاستجابة بعد المُدَاعبة. وأخطار الخمر على الأعضاء التناسلية عند الرّجل، حيث يُصاب المدمن على الخمر بالعنانة. ويُحدث الخمرُ ضُموراً في الخصية. ويزيد من أعراض تضخم البروستات. ويُؤدّي إلى تشوّه النطفة، وبالتّالي إلى تشوّهات الجنين.

وأمّا عند النّساء: فيحدث ضموراً في المبيض، وخاصّةً في قشرته، ممّا يُؤدي إلى العُقم، وقبل الوصول إلى العُقم يُحدث اضطراباً في الدّورة الطّمثية.

ويُسبب الخمر انحلالاً في أنسجة الثّدي، وكذلك نقصاً في إفرازاته عند المرضعات.

الخمر والجهاز البولي:

١ ـ يُحدث تسمّماً حادّاً، حيث تتكوّن أسطوانات داخل القنيات وتنطرح مع البول.

٢ ـ يُصيب الكلية بالتهاب مزمن.
٣ ـ قد يُصيب الكلية باستحالة شحمية.
٤ ـ حصول حصيّات كلوية مزدوجة عند المدمنين.

الخمر وخطره على الغُدد:

١ ـ يُسبب الخمر نقصاً في إفراز الكورتيزون في غدّة الكظر.
٢ ـ غدّة الدّرق، يُسبب لها نقصاً في إفراز هرمونها.
٣ ـ ويُؤثر على غدّة «النخامي».

خطر الخمر على البصر:

١ ـ يُصيب العين بالتهابٍ مزمنٍ، ودماع واحمرار في حافة العين.
٢ ـ يُصيب العصب البصري، فيُحدثُ ما يُسمّى بضعف الرّؤية الكحولي.
٣ ـ تنخفض القدرة على تميـيز الألوان.

كما يُؤثر على حاسّة السّمع والتّذوّق والشّمّ، وذلك بدرجات مختلفة بين المدمنين.

أثر الخمر على العضلات:

١ ـ يُؤثر «الغول» على إنجاز العضلات بنسبة ١٧٪ بعد تعاطي ٥٠ ـ ٨٠ غ من الغول.
٢ ـ يُسبب الاختلال بين تناسق العضلات. ويُؤثر عليها تأثيراً مباشراً.
٣ ـ يُحدث التهاباً في نهاية فروع الأعصاب.

أثر الخمر على الجلد:

١ ـ يوسع «الغَوْل» الأوعية فتكتظ بالدّم، فتُشكّل حُمرةً تتحوّل فيما بعد إلى زُرْقة.
٢ ـ قد يُسبب ما يُسمّى العدّ الوردي.
٣ ـ يُسبب حدوث الأنف الفقاعي «فيمة الأنف».
٤ ـ قد يُحدث الشَّرَى.

خطر الخمر على الجسم في إضعاف مقاومته:

يُضعف الخمر «الغَوْل» مقاومة الجسم للأمراض، ويجعله مؤهباً للإصابة ببعض هذه الأمراض، كما أنّه يزيد من فوعتها، وأهم هذه الأمراض: السّلّ الإفرنجي، التهاب الرّئة، خراجات الرّئة، الملاريا «البرداء»، الحُمّى التّيفيّة، الالتهابات الجلديّة مثل الدمامل، التهاب الغدد العرقية تحت الإبط، السيلان، وغير ذلك.

أثر الخمر على الصّحّة النّفسية:

يُسبب الخمر «الغَوْل» مجموعة من التّناذرات النّفسية، وذلك إمّا بالإدمان عليه، أو بالانقطاع المفاجىء عنه، وأهمّ هذه التّناذرات:

١ ـ الهذيان الارتعاشي: وهذه حالة يحدث فيها اختلاط عقلي، وفقدان التّوجّه، والرّعشة وسرعة الاستثارة.

٢ ـ ضَعْف الذّاكرة الشّديد مع الهذيان، والتهاب أعصاب مُحيطي وانعدام البصيرة.

٣ ـ الاعتلال الدّماغي لفيرنكة: ويُسبب شللاً لعضلات العين، وبلادةً في التفكير، وعدم وعي أو غيبوبة.

٤ ـ التّأخر العقلي الغولي: حيث يُحْدِث ضعفاً بالذاكرة مع خَلَلٍ بالعواطف، بالإضافة لعطب دماغي.

الخمر من عوامل انتشار السّرطان:

يُشكل «الغَوْل» أحدَ العناصر المؤهّبة للسّرطان، وهي: التّدخين ـ المسكرات ـ الإنتانات ـ التّوابل ـ السّفلس. ويعود التأثير المسرطن للمشروبات الغَوْلية لوجود مادة: «النيتروزامين» وهي المادة المُسَرْطِنَة.

خطر الخمر على المجتمع:

يزداد الإجرام من المتعاطين للخمور باطّراد متزايد، ممّا يُؤكد خطر الخمر على المجتمع، وتبلغ نسبة ٥٠٪ من المجرمين من السّكّيرين.

أخطار المخدّرات وآفاتها:

لقد تفاقمت مشكلة المخدّرات في السّنوات الأخيرة، وأصبحت مشكلةً عالميةً تقضّ مضجع مراكز الأمن والصّحّة في العَالَم أجمع.

وترتبط هذه المشكلة بمشاكل أخرى عديدة مثل فشوّ التّدخين وانتشار الخمور، وتزايد الجرائم، وانتشار أمراض الزنا وكافة أنواع الفواحش، وما يصحب ذلك من تفكّك عُرى المجتمع، وتحطّم كيان الأسرة، وموجات القلق والكآبة والانتحار.

وجميع ما تقدّم من مخاطر الخمر على الجسم والنفس والمجتمع، فأخطار المخدّرات أكبر وأفتك وأخبث.

إنّ المخدّرات والخمور تُضعف مقاومة الجسم، فيسهل على الميكروبات المختلفة غزو الجسم ثم الفتك به.

إن مُدمن المخدّرات كمدمن الخمر لا يعتني بصحته ولا بطعامه، ومعظم مدمني المخدّرات والخمور يُعانون من إسرافهم في التّدخين.

ويحدث لمدمني الخمور والمخدّرات نوبات إغماء متكرّرة، وفيه يحدث الإقياء ممّا يتسرّب منه إلى القصبات الهوائية والرّئتين بدلاً من خروجه، وهذا يُسبب التهاباً شديداً في الرّئتين أو إحداهما، مع وجود خراج في الرّئة، أو حدوث الذّبيلة.

إنّ انتشار التهاب الكبد الفيروسي من نوع /B/ في الدّول الغربية لدى مدمني المخدّرات والمسكرات والشّاذّين جنسيّاً، ويُعتبر التهاب الكبد الفيروسي خطيراً جداً؛ لأنّ كثيراً من المصابين يتحوّلون إلى الإصابة النّشطة المزمنة، ونسبة أخرى تتحوّل إلى تليّف الكبد، وهو مرض خطيرٌ مميتٌ في حدّ ذاته، بالإضافة إلى ذلك فإن ١٥٪ ممّن أُصيبُوا بالتّليّف الكبدي يُصَابُون بسرطان الكبد، وفي المجتمعات الغربية يُعتبر الشّذوذ الجنسي وإدمان المخدّرات وخاصّة تعاطي الهرويين والمورفين زرقاً بالحقن، هما أهم سبب لانتشار هذا المرض في تلك المجتمعات ذات المستوى الصّحّي العالي بالمقارنة مع المجتمعات في العَالَم الثالث.

المخدّرات تُسبب الإنتان الدّموي:

تنتقل الميكروبات بواسطة الحقن، أو المواد المغشوشة إلى الدّم، فتُسبّب حُمّى شديدة، وتنتقل الميكروبات عبر الدّم إلى الأعضاء المهمة مثل القلب، فتُسبّب التهاب غشاء القلب الدّاخلي الحادّ أو تحت الحادّ، وتكون الميكروبات المسبّبة لهذا الالتهاب عادة من النّوع العُنقودي الذهبي. ولا تكتفي الميكروبات بتحطيم الغشاء الدّاخلي للقلب بل تُحطم الصّمّامات، وبالذّات الصّمّام الأورطي والميترالي.

ويُصاب الدّماغ بالتهاب السّحَايَا، والتهاب النّخاع الشّوكي، وتُصاب الرئتين بالتهابات متعدّدة كثيرة منها الالتهاب الرّئوي، وخرّاج الرّئة، والتهاب البلورا، وتجمّع الصّديد في الغشاء البلوري «دبيلة» وارتشاح في الرّئة، وارتفاع في توتر الشّريان الرّئوي، وتكثر الإصابة لدى مدمني المخدّرات، وبالذّات الهرويـين والمورفين بالسّلّ الرّئوي مثلما يَحْدُث لدى مدمني الخُمُور.

ويُعتبر الهرويـين أشدّ العقاقير التي يتناولها مُتعاطو المخدّرات، تسبّباً للإدمان، فتكفي في الغالب حقنتان أو ثلاث متتاليات في جعل الشّخص المتعاطي يبحث عنها ويُدمن عليها، ولهذا يُعتبر الهرويـين من أخطر العقاقير في هذا الصّدد، ومن أسرعها تسبباً للاعتماد النّفسي والجسدي.

والاعتماد الجسدي هو أشدُّ خطورةً من الاعتماد النفسي، إذْ أن إهمال جرعة واحدة من العقار تُؤدّي إلى ظهور أعراض جسدية خطيرة. وخطورة المورفين والهرويـين أنّهما يُسببان اعتماداً جسدياً شديداً بالإضافة إلى الاعتماد النفسي القوي الذي يُسبّبانه.

وأمّا المتاجرون والمهربون للمخدّرات فإنهم يستحقون عقوبة الإفساد في الأرض، والحكم عليهم بالقتل عقوبةً تعزيريةً. فإنّ في ردع هؤلاء سلامة المجتمع من أهوال المخدّرات، فمهرب المخدّرات يقتل العشرات بل المئات بهذه المواد الفتّاكة.

التّسمم الحادّ بالهرويـين أو المورفين:

إنّ تعاطي هذه المخدّرات السّامة تُحدث الأعراض الخطيرة التّالية:

يحصل اضطرابٌ شديد في نبض القلب، وقد يُؤدّي هذا في حدّ ذاته إلى وفاة مفاجئة، أو إلى جلطة بالقلب أو الدّماغ.

ويحصل منه نوبات صرع وتشنج، وارتفاع درجة الحرارة إلى ٤٠ درجة مئوية أو ما فوقها. ويحدث منه صعوبة في التّنفس، وفقدان الوعي بدرجة متفاوتة تصل إلى حدّ الإغماء الكامل، وارتفاع الضغط الدّاخلي للجمجمة.

ويُؤدّي تعاطي المخدّرات إلى ضمور الدّماغ، وإلى حدوث حالات الجنون والخرف والهذيان. إلى غير ذلك من الأمراض الخطيرة التي كشف عنها العلم الحديث[١].

وممّا لا شكَّ فيه أنّ خطرَ المخدّرات بكافة أنواعها، أشدُّ فتكاً في الإنسان والمجتمع من المسكرات بأنواعها، فحكمها التّحريمُ الشّديدُ والحَظْرُ الأكيد.

أخطار التدخين:

لقد ثبت علمياً أنّ المدمن على التّدخين عرضةٌ للإصابة بأمراض القلب، وأشكال من الأورام السّرطانية.

والنيكوتين منعش للدّماغ، مع أنّ بعض المدخنين يجدون فيه وسيلة لتهدئة الأعصاب. وهو يُعجّل في خفقان القلب، ويرفع من الضّغط الدّموي، ويُقلّل من الشّهية للطّعام، ويُضعف القدرة الجنسيّة.

والمهيجات في دخان التّبغ تُضيّق من مسالك الهواء في الرّئتين. وهو فضلاً عن هذا يُعجل في فقد مرونة الرئة. وهذان العاملان يُسبّبان الإصابة بالبرونشيت «التهاب الشّعَب الهوائية» فيُقبل المدخن على مرحلة السّعال المزمن كأمر واقعي مفروغ منه. ولا شك أنّ نسبة الوفاة بالتهاب الشُّعب الهوائية «البرونشيت» بين المدخنين تزيد كثيراً عن نسبة وفاة غير المدخنين، بل وتبلغ ستّة أضعاف.

والتّدخين من العوامل الكبرى المؤدّية إلى تكوّن الجلطة والإصابة بالذبحة الصّدرية.

---

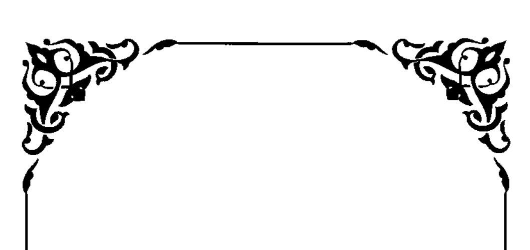
(١) انظر كتاب «المخدّرات الخطر الدّاهم» للدكتور محمد علي البار، ط دار القلم.

وسرطان الرّئة هو المرض الأكثر بروزاً الذي يُصيب المدخنين، وقلّما يُصاب به أحدٌ من غير المدخنين. وأظهرت التّجارب أنّ هذا يتوقّف على الكمية التي يُدخنها الإنسان.

كما أنّ المدخن يتعرّض لسرطان الحنجرة، وسرطان المعدة، وسرطان المثانة.

فالتّدخين بعد هذه الاكتشافات هو سبب الموت بعد أسباب المخدّرات والمسكرات، ولهذا فهو في التّحريم في الدّرجة التّالية بعد تلك المُهْلِكات الفاتكات بالصّحة والعافية.

وجاء في كتاب «الفواكه العديدة في المسائل المفيدة» للعلامة الشيخ أحمد المنقوبري النّجدي ج ٢/ ٧٨ ـ ٨٠/ في مسألة «التّدخين»: «ويترتّب على شاربه مِنَ الضّرر في بدنه وعقله وماله ما لا يخفى، وفيه إضاعة المال، وهي لا تجوز في الشّرع، ولا فرق في إضاعة المال بين إلقائه في البحر أو إحراقه في النّار. ثم إنّ ما أضرّ بالعقل أو البدن حرم لإضراره، ولا فرق في حرمة المُضر سواء كان ما نحن فيه وهو شرب الدّخان أو غيره، وبين كون ضرره دفعياً أو تدريجياً، فإنّ التّدريجي هو الأكثر شيوعاً»، فالتدخين حرام لا ريب في تحريم تعاطيه.



الفصل السّابع عشر

النّظافة منهاج يوميّ وسلوك عمليّ جاء بهما الإسلام

البحث الأوّل: نظافة بدن الزّوجين وأعضائهما التناسلية.

البحث الثّاني: السّواك الشّرعي وأثره الصّحّيّ على الجسم.

البحث الثّالث: الختان وأثره الصّحّي على الزّوجين.

البحث الأول:

نظافة بدن الزّوجين وأعضائهما التناسلية[1]

وهي تدور حول هذه الأمور التي نوردها فيما يلي:

١ ـ اليدان ونظافتهما:

لا يخفى أنّ اليدين هما أكثر أعضاء البدن الظّاهرة تعرّضاً للتّلوث والتّقذر، وأن إهمال نظافتهما وطهارتهما يُسبّب سريان الأقذار والجراثيم منهما إلى أماكن أخرى من الجسم وخاصّة الوجه وما فيه من حواسّ وفم، وبذلك تلج العوامل الممرضة إلى الجسم فتمرضه وتُعطّل صاحبه عن العمل إضافة إلى الضّرر الماديّ والمعنويّ الذي يصيبه وأسرته، وإضافة إلى تضرر اقتصاديات الأمّة بكثرة المرض.

فعلى المرء أن يكثر من تنظيف يديه وغسلهما وأن يلاحظ في ذلك التّعاريج والعقد والأفوات وما تحت الخاتم والأظافر، والعوالق التي تتراكم تحتها من الأوساخ. وإليكم الوصايا الصّحّية والإسلامية في نظافة اليدين.

٢ ـ تقليم الأظافر:

وذلك حتى لا تتراكم الأوساخ تحتها فتكون مجالاً لتخريش الجلد لدى الحكّ وتطعيمه بالجراثيم.

ولا يستثنى من ذلك الإناث بل إنهن أولى بتطبيق هذه الوصية فإنهنّ يهيئن الطعام لأسرهن، ولذا عدّ الإسلام تقليم الأظافر من أعمال الفطرة.

وعلى المرء أن يغسل يديه وأنامله جيداً بعد تقليم أظافره لتنظيف ما كان مختبئاً تحتها، ويفضل استعمال الصابون لذلك.

---

(١) الطب النبوي والعلم الحديث: للدكتور محمود ناظم النسيمي ج ١/ ١٧٤ ـ ١٨٢، ط مؤسسة الرسالة ـ بيروت.

٣ ـ غسل اليدين لدى الاستيقاظ من النّوم:

فإن النّائم لا يدري أين باتت يده وأين حكت، هل لمست سوأته أم لامست مرضاً جلدياً فيه أو حاسّة مريضة. ولذا كان من السّنّة أن يغسل المستيقظ يده قبل إدخالها في الإناء لوضوء أو غيره ولو لم يعلم أن يده لامست نجاسة، فإذا علم وجب عليه تطهيرها، قال رسول الله ﷺ: «إذا استيقظ أحدُكم من نومهِ فلا يَغْمسْ يدَه في الإناء حتى يغسلها ثلاثاً، فإنّه لا يدري أين باتتْ يدُهُ»[١].

٤ ـ غسلها لدى ملامستها لأي شيء قذرٍ أو ملوّث:

أي غسلها بعد التبوّل والتبرّز. قال رسول الله ﷺ: «مَنْ مسَّ ذكرَهُ فلا يصلِّ حتى يتوضأ»[٢].

فهم الشافعية والمالكية والحنابلة من هذا الحديث أنّ مسّ الذكر ناقض للوضوء مع بعض التّفصيل في مذاهبهم، وذلك لأنّهم رجَّحُوا هذا الحديث على حديث طلق بن عليّ اليماني رضي الله عنه قال: «قدمنا على رسول الله ﷺ فجاءه رجلٌ كأنّه بدويّ، فقال: يا نبي الله، ما ترَى في مسِّ الرّجلِ ذكرَه بعدما يتوضأ؟ فقال: «وهلْ هو إلاّ مضغة منه أو بضعة منه؟»»[٣].

وجمع الحنفيّة بين أحاديث الباب وقالوا: إن الوضوءَ من مسِّ الذّكر مستحبٌّ، وحمل بعضُهم الوضوء في الحديث الأول على الوضوء اللّغويّ وهو غسل اليدين.

ومن ذلك أيضاً غسلهما بعد العمل في أرض المزارع أو في الخضر الأرضية، سواء في البساتين أو في مكان العرض والبيع أو في المنزل، فقد تكون الخضر ملوثة بالسّماد الطّبيعي أو بالماء الملوّث به كماء الحوض الذي تنقع فيه مختلف الخضر في البساتين.

---

(١) رواه البخاري برقم ١٦٢، ومسلم برقم ٢٧٨.
(٢) أخرجه الترمذي. وقال: هذا حديث حسنٌ صحيح.
(٣) أخرجه أبو داود والترمذي والنسائي وهو حديث صحيح.

ويُفضّل أن يكون الغسل بالماء والصابون، وخاصّة بعد الاستنجاء من التبرّز، وفي الحالات المشتبهة، وعقب انتهاء الإنسان من عمله.

٥ ـ غسل اليدين قبل تناول الطعام وبعده:

أما غسلهما قبله فذلك لتنظيفهما من آثار العمل والتّلوث ممّا مسّتا من مصادر العدوى وقاية من الأمراض وخاصّة التي تحدث العدوى بها عن طريق الهضم كالتيفوئيد والكوليرا والزّحار.

وأمّا غسلهما بعده فلأن ذلك نظافة، ولأن بقايا الطّعام وسط صالح لتكاثر الجراثيم.

قال رسول الله ﷺ: «بركة الطعام الوُضُوء قبله والوُضُوء بعدَهُ»[١]. والمراد هنا هو الوضوء اللّغوي أي غسل اليدين إلى الرّسغين.

قال رسول الله ﷺ: «مَنْ باتَ وفي يدِهِ غَمَرٌ فأصابَهُ شيءٌ فلاَ يَلُومَنّ إلاّ نفسَهُ»[٢]. والغمر بقايا الطّعام في اليد.

٦ ـ الفم ونظافته:

ويكون بغسله صباحاً ومساءً على الأقل، وأن يمضمض بعد كل طعام وبعد تخليل الأسنان لرفع بقية الطّعام وباستعمال السواك بعود الأراك أو بغيره من الفراجين الخاصّة مع قليل من الصّابون النّقي.

وإنّ إهمال نظافته يكون سبباً في تكاثر الجراثيم العابرة إليه عن طريق الهواء والغذاء فيسيء إلى رائحة الفم ويضر بصحة اللّثة والأسنان، وقد يؤدي إلى التهاب اللّوزات والبلعوم.

وفي بحث الوضوء بينت اهتمام الإسلام بالمضمضة والغرغرة واستعمال

---

(١) رواه الإمام أحمد وأبو داود والترمذي، وإسناده ضعيف، ضعيف الجامع الصغير برقم ٢٣٣١.

(٢) رواه الترمذي والحاكم، صحيح الجامع الصغير برقم ٦١١٥.

السواك. وأضيف هنا أن رسول الله ﷺ حث على تنظيف الأسنان في مناسبات عديدة وعلى استعمال أفضل أداة في ذلك الزمن وحتى قرون عديدة وهي السواك أو عود الأراك، حيث يجمع بين تنظيف الأسنان وتقوية اللّثة وتطييب رائحة الفم، فقال عليه الصلاة والسّلام: «السّواكُ مطهرةٌ للفم مرضاةٌ للربِّ»[١].

ومن تلك المناسبات الوضوء والصلاة والنهوض من النّوم. قال عليه الصّلاة والسّلام: «لولا أنْ أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة»[٢].

وفي السّواك عند كل صلاة زيادة في نظافة الأسنان وتطييب لرائحة الفم حيث تزداد أهميّة طيبها في صلاة الجماعة.

ومن أهم المناسبات لتنظيف الأسنان الاستيقاظ من النوم حيث تحدث التخمرات في الفم خلال النوم وتتكاثر الجراثيم وتترسّب بعضُ مركبات اللّعاب المتغيّر على الأسنان لركودته، لذا سنَّ رسول الله ﷺ تنظيفَ الأسنان والفم بالسواك عقب الاستيقاظ، فعن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: «كان النّبيّ ﷺ إذا قام من اللّيل يشوصُ فَاهُ بالسّواك» وفي رواية عنه: «كُنّا نؤمر بالسّواك إذا قمنا من الليل أن نشوص أفواهنا بالسواك»[٣].

٧ ـ الأنف ونظافته:

إن مخاط الأنف يضبط الغبار والجراثيم التي تدخل بالهواء، ويحوي على خميرة الليزوزيم التي تفتك بالجراثيم. ولكن تراكمه في المنخرين يُؤدي إلى تزلقه إلى ما وراء الأنف، فيصبُّ في البلعوم وفيه ما فيه من الجراثيم والأقذار، كما أن تراكمه يُعيق مرور هواء التّنفس ويعزل المخاط الجديد عن القيام بوظيفته الحيوية. ولذا يجب رفع المواد المتراكمة في الأنف بالاستنثار أو المخط بلطف بعد سد أحد المنخرين مناوبة ـ لا كليهما معاً ـ وقد يغسل الأنف بعد ذلك باستنشاق الماء النّقي استنشاقاً خفيفاً ثم استنثاره.

---

(١) أخرجه النّسائي وابن حبان في صحيحه.
(٢) رواه الإمام مسلم برقم ٢٥٢.
(٣) رواه البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي.

ويخشى من الاستنثار الشديد الذي يحدث مع سدّ المنخرين من أن يعود المخاط إلى الخلف وأن يدخل بعضه من جراثيمهما إلى نفير أو ستاكي الواصل بين البلعوم الأنفي والأذن المتوسطة فيؤدي إلى التهاب هذه خلا ما ينشأ عن ذلك من زيادة ضغط الهواء على الأذن المتوسطة وما ينجم عنه من ألم أو ضرر.

وإضافة إلى سنّيّة الاستنشاق في كل وضوء وفرضه في كل غُسل فقد سُنَّ تنظيفُ الأيدي والأنف عقب الاستيقاظ. قال رسول الله ﷺ: «إذا استيقظ أحدكم من نومه فليستنثِرْ ثلاثَ مرّاتٍ، فإنّ الشّيطان يبيت على خياشيمه»[١].

٨ ـ الشّعر ونظافته:

إنّ شَعْرَ الرأس زينةٌ، ودرع للرأس، وقلّما يبقى طبيعياً بغير عنايةٍ خاصّة، من نظافةٍ وترجيلٍ أو تمشيط، وبإهماله تجتمع الأقذار مع المفرزات الدّهنيّة والعرق فتكوّن طبقةً ثخينةً تُعيق وظائف الجلد في تلك الناحية فيضعف. ويضعف ما فيه من بصيلات الشّعر، كما أن تلك الطبقة تخرش الجلد بما فيها من الأقذار والجراثيم فتسبب الحك الشديد، وبالحك ينسحج الجلد ويلتهب. فبالغُسْل والنّظافة تُزال الأقذارُ والموادُّ الدّهنية وتتفتح مسام فروة الرّأس، وبالتّرجيل أو التّمشيط يتخلل الهواء الشّعْرَ وتنشط دورة الدّم في فروة الرأس فتنمو الأشعار وتقوى. قال رسول الله ﷺ: «مَنْ كان له شعرٌ فَلْيُكْرِمْهُ»[٢]. أي يتعهده بالتنظيف والتمشيط. وعن أبي قتادة رضي الله عنه قال: كانت له جمة ضخمة، فسأل النّبيّ ﷺ فأمره أن يحسن إليها وأن يترجل كل يوم»[٣].

وعن عطاء بن يسار رحمه الله قال: «كان رسول الله ﷺ في المسجد فدخل رجل ثائر الرّأس واللحية، فأشار إليه رسول الله ﷺ أن اخرج كأنه يعني إصلاح شعر رأسه ولحيته، ففعل ثم رجع، فقال ﷺ: «أليس هذا خيراً من أن يأتي أحدكم ثائر الرأس كأنه شيطان»[٤].

---

(١) رواه البخاري برقم ١٦٢، ومسلم برقم ٢٧٨.
(٢) رواه أبو داود عن أبي هريرة برقم ٤١٦٣، وهو حديث حسن صحيح.
(٣) رواه النسائي بإسناد صحيح.
(٤) رواه مالك ورواته ثقات.

٩ - السَّبيلان ونظافتهما:

لا يخفى أن السبيلين مخرجان لأشدّ مفرغات البدن جميعاً خطراً، لما فيهما من المواد العضوية الكثيرة والجراثيم العديدة جداً، ولا سيما البراز منها، فنظافتهما أمرٌ لا بدّ منه وتكون نظافة السّبيلين على نوعين، بالاستجمار وبالاستنجاء، فالاستجمار عرفاً هو مسح المكان الملوّث بالحجر أو الورق أو ما شابه، والاستنجاء هو الغَسْل بالماء.

وإنّ النّظافة بالاستجمار وحده غير كافية وإن كان بالورق الهش النّظيف.

وإذا اضطر إليه لفقدان الماء أو لقلّته، فيحسن ألاّ يتكرّر، وأن يتجنّب الاستجمار بالوسائط الوسخة أو الخشنة المخرِّشة، ولقد نهى رسول الله ﷺ أن يستنجي بالروث لأنه قذر نجس وكذلك نهى عن الاستنجاء بالعظم لأنه قد يكون دسماً وملوّثاً بالجراثيم الكثيرة، ولأنه غذاء الجن، والحيوانات اللاحمة كالكلاب وغيرها، فالاستنجاء بها يزيدها قذارةً وجراثيم، كما أنّ دسمها يمنع كمال النّظافة. قال رسول الله ﷺ: «لا تستنجوا بالروثِ ولا بالعظام فإنّه زادُ إخوانكم من الجنّ»[١] وقال عليه الصلاة والسلام: «إذا ذهب أحدكم إلى الغائط فليذهب معه بثلاثة أحجار يستطيب بهنّ، فإنها تجزىء عنه»[٢].

أمّا الاستنجاء وهو الغَسْل بالماء، فذلك أدْعَى للنظافة التّامة وخاصةً إذا تلا الاستجمار، ولا بدّ من ملاحظة اليد التي تتلوّث أثناء الاستنجاء وغسلها أخيراً غَسْلاً جيّداً بالماء والصابون، أو بالماء والرّماد أو الأشنان أو ما شاكل مما يُنَظِّف به عادةً. وليس في ذلك غضاضة أو ثقلة على من يُريد أن يعتني بصحته تماماً.

عن معاذة بنت عبد اللّه العدوية أن عائشة رضي الله عنها قالت: «مرن أزواجكن أن يستطيبوا بالماء فإنّي أستحييهم منه، فإن رسول الله ﷺ كان يفعله»[٣].

صحيح أن البول لا يحتوي على جراثيم في الإنسان السّليم، ولكنّه إنْ بقي

(١) أخرجه الترمذي، صحيح الجامع الصغير برقم ٧٣٢٥.
(٢) أخرجه أبو داود والنّسائي صحيح الجامع برقم ٥٤٧.
(٣) أخرجه الترمذي والنسائي. قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

خارجاً فإنه يختمر سريعاً بسبب ما يُصيبه من الجراثيم المؤثّرة في اختماره والموجودة في الهواء وفي كل مكان غالباً.

ولا يخفى ما يكون في اختماره من القذارة والرائحة النشادرية الكريهة خلا ما تسببه كثرة الجراثيم هناك من التّخريش والأذية. ولذلك كان الاستجمار من البول أو الاستنجاء منه أيضاً وسيلة من وسائل حفظ الصّحّة. ولذلك أيضاً حذّر الإسلام المؤمنين من إهمال هذه النّاحية الصحية فقال رسول الله ﷺ: «عامة عذاب القبر في البول فاستنزِهُوا من البولِ» وقال عليه الصلاة والسّلام: «أَكْثَرُ عَذابِ القَبْرِ من البولِ»[1]. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أن النّبيّ ﷺ مرّ بقبرين وقال: «إنّهما ليعذّبَانِ وما يعذّبان في كبير، أمّا أحدُهُما فكان لا يستتر من بولهِ» وفي رواية «لا يستنزه من البول، وأمّا الآخر فكان يمشي بالنّميمة»[2].

(١) صحيح الجامع الصغير برقم ٣٩٧١.
(٢) صحيح الجامع الصغير برقم ٢٤٤٠ و٢٤٤١.

البحث الثّاني:

السّواك الشّرعي وأثره الصّحي على الجسم

بسبب اتصال الفم بالمحيط الخارجي يكون مضافة لكثير من الجراثيم التي نسميها الزمرة الجرثومية للفم، وأكثر هذه الجراثيم تكون عاطلة عند الشخص السّليم، وتنقلب مؤذيةً إذا أهمل الإنسان صحة فمه، أو إذا طرأ عليه ما يضعف مقاومة بدنه. وإن تكاثر تلك الجراثيم في الفم وما تؤدي إليه من تخمّرٍ وتفسّخ في الفضلات الباقية فيه يسيء إلى رائحته.

ولقد اهتمّ الإسلام بصحّة الفم عندما سنَّ للمؤمنين تنظيف الأسنان بالسّواك، وإزالة الفضلات من الفم بواسطته وواسطة المضمضة، وغسل الحلق بالغرغرة، وهي وسائط يتكرّر استعمالها كل يوم بسبب تكرر الوضوء، كما تستحب في ظروف أخرى غير الوضوء.

والسواك كما أنّه واسطة لتنظيف الأسنان فهو واسطة لتدليك اللّثّة، وتدليكها ولو بالإصبع ضروري، للحفاظ على صحتها ونموها وإبقاء سترها لعنيقات الأسنان حتى قيل يجب أن تسمى فرشاة الأسنان فرشاة اللّثّة.

خصائص السواك الطّبيّة:

السّواك: هو عُودُ الأراك.

وقد تمّ إجراء العديد من البحوث لمعرفة التركيب الكيميائي للسّواك، وذلك في العديد من مراكز الأبحاث الطّبيّة العربية والأجنبية، وقد تبيّن أنّ السّواك يحوي الكثير من المواد المفيدة:

١ ـ مادة العفص: وهي مادّةٌ مضادةٌ للعفُونة ومطهرةٌ للفم، وتساعد في إيقاف النزوف وشفاء الجروح.

٢ ـ مادة السينحرين: وهي مادّة قاتلة للجراثيم المسبّبة للالتهابات الفمويّة.

٣ ـ بيكربونات الصّوديوم: بشكل ألياف، وهي المادّة التي أوصى بها مجمع معالجة الأسنان التّابع لجمعيّة طبّ الأسنان الأمريكية لاستعمالها حديثاً في المعاجين السّنّية، حيث لهذه المادة دورٌ كبير في إيقاف نموّ الجراثيم، وتثبيط اللويحة الجرثومية، التي تسبّب النّخر، وكذلك إزالة حساسية الأسنان المرضية.

٤ ـ الفلور والكالسيوم: وهاتان المادّتان لهما دورٌ كبير في زيادة مناعة الأسنان ومقاومتها للنّخر والتّسوّس.

٥ ـ مواد عطرية زيتية بنسبة ١٪ وهي تساعد في تطهير الفم وإزالة الروائح الكريهة.

٦ ـ مواد قلوية وشبه قلوية تُعدِّل حموضة اللويحة الجرثومية وتثبطها.

٧ ـ مادة الفينول: وهي مادّة مطهرةٌ وقاتلة للجراثيم.

٨ ـ فيتامين ج: وله دور هام في وقاية اللّثة والأنسجة الدّاعمة للأسنان.

٩ ـ أملاح معدنية: كلور الصوديوم، كلور البوتاسيوم، حامضات السيليس، وأملاح الحديد والفوسفات والكبريت.

وفيما يلي أهمّ الأمراض السّنّيّة التي تنشأ عن إهمال تنظيف الأسنان والعناية بها:

نخر الأسنان وهو ينشأ عن عاملين:

١ ـ بعض الخمائر التي تفرزها بعض الجراثيم، وهي تؤثر في الهيكل العضوي للمينا.

٢ ـ المواد الحمضية النّاشئة عن تخمّر السكاكر والتي تحل الأملاح الكلسية في المينا، فينشأ عن كلا السّببين تصدع في المينا، وبالتّالي تنخر في السّنّ.

الرعال أو التّقيح السّنخي: وهو داء يُصيب الحافة السنخية للسّن.

القلح: وهو رسوب بعض الأملاح الكلسية على سطوح الأسنان، وبازدياد تراكمه يُصبح قاسياً ويُشكل طبقةً كثيفةً مصفرّةً. ولا شك أنّ السّواك يمنع تراكم هذه الأملاح.

التهاب الفم واللّثّة. التهاب الفم القرحي. التهاب الفم القلاعي. التهاب اللوزات والتهاب البلعوم.

ومن الاختلاطات الجسمية الناشئة عن أمراض الأسنان:
١ ـ التهاب المعدة وتقيمها.
٢ ـ الالتهاب الرّئوي.
٣ ـ الآلام العصبية الوجهية بسبب وجود تقيّح في الأسنان السّنيّة.
٤ ـ التهاب الشبكية العينية بسبب النّخر في الأسنان.
٥ ـ إنتانات عامة كانت جراثيمها أو حماتها الراشحة في الفم.

وممّا سبق يتبيّن لنا حكمة سنية السواك في هدي الرسول عليه الصّلاة والسّلام وخاصّة في ابتداء كل وضوء. روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لولا أنْ أشقَّ على أمّتي لأمرتُهُمْ بالسّواك عندَ كلِّ صلاةٍ». وفي صحيح البخاري تعليقاً في الصوم عن عائشة رضي الله عنها: «السّواكُ مَطْهَرَةٌ للفمِّ مرضاةٌ للرّبِّ» ورواه الإمام أحمد عن أبي بكر رضي الله عنه مرفوعاً.

ويُنبّهُ طبُّ الأسنان إلى أن يكون تنظيف الأسنان وتدليك اللثة بالفرشاة بالنّسبة لكل فكٍّ من اللّثة إلى الطّرف السّائب من الأسنان، لا العكس حتى لا تُخرّش اللّثة. وعلى ضوء ذلك نفهم كلمة عرضاً في الحديث المرسل:

«إذا شربتم فاشربوا مصّاً، وإذا استكتمُ فاستاكُوا عرضاً»[1]. فاستعمال الفرشاة عكس اتّجاه السّواك لاختلاف اتجاه الألياف فيهما.

ويكفي في تحصيل السّنّة أن يستاك بإصبعه أو بأيّ شيءٍ نافع للّثة، ولكن عود الأراك أفضل إن كان ناعماً لا يضر باللّثة. وقال الشّافعية: إن إصبعه لا يكفي في تحصيل السّنّة على الرّاجح. ويُوصي أطباء الأسنان بتدليك اللّثة بالإصبع عدّةَ مرّاتٍ يومياً إضافةً إلى استعمال فرشاة الأسنان.

عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يجزىء من السواك الأصابع»[2].

---

(١) رواه أبو داود في مراسيله.
(٢) أورده السيوطي في الجامع الصغير، وقال المناوي: قال الضياء: إسناده لا بأسّ به. وقال الشيخ ناصر الدِّين في ضعيف الجامع الصغير: ضعيف، برقم ٦٤١٥.

البحث الثّالث:

الختان وأثره الصحي على الزّوجين[1]

الختان هو قطع الجلدة التي تغطي الحشفة. قال الماوردي: والمستحب أن تُستوعب من أصلها عند أول الحشفة.

وأقل ما يجزىء ألاّ يبقى منها ما يتغشى به شيء من الحشفة. وذكر القرطبي الإجماع على أن إبراهيم عليه السلام أوّل من اختتن.

ولقد اعتبر الرسول عليه الصّلاة والسّلام أن الختان أحد الأمور التي تميل إليها النّفوس البشرية بفطرتها السّليمة فقال ﷺ: «الفطرة خمس: الختان والاستحداد وقص الشّارب ونتف الإبط وتقليم الأظافر»[2].

قال النّووي: يسمى ختان الرّجل إعذاراً، وختان المرأة خفضاً. وقال أبو شامة: كلام أهل اللّغة يقتضي تسمية الكل إعذاراً، والخفض يختص بالأنثى.

ومحلّ الخفض هو مكان البظر. قال الماوردي: ختان المرأة قطعُ جلدةٍ تكون في أعلى فرجها كالنّواة أو كعرف الدّيك. والواجب قطع الجلدة المستعلية منه دون استئصاله. كما في فتح الباري في شرح حديث: «الفطرةُ خمسٌ أو خمس من الفطرة».

فالخفض هو قطع شيء من البظر وأحياناً مع شيء من الشفرين الصّغيرين.

عن أنس بن مالك أن النّبيّ ﷺ قال لأم عطية، ختانةٌ كانتْ بالمدينة: «إذا خفضتِ فأشمّي ولا تنهكي فإنّه أسرى للوجه وأحظى عند الزّوج»[3].

---

(١) الطب النبوي والعلم الحديث للدكتور محمود ناظم النسيمي /ج ١/ ٣٨١ ـ ٣٨٥، ط مؤسسة الرسالة ـ بيروت.

(٢) رواه أحمد والبخاري ومسلم، صحيح الجامع الصغير برقم ٣٢٥٠.

(٣) أورده الهيثمي في مجمع الزوائد وقال: رواه الطبراني في الأوسط وإسناده حسن ٥/ ١٧٢.

الختان والحياة الصّحية:

وتتضح الحكمة الصّحية من الختان عند الرّجال أكثر منها عند النّساء، ونستطيع القول: إنه في البلاد ذات الطّقس الحار كما في السودان وغيرها من البلاد الإفريقية وفي مصر والجزيرة العربية وغيرها، فإنّه يغلب أن يكون للنساء بظرٌ نام مما يزيد في الشهوة الجنسيّة لدى احتكاكه بما جاوره من بدنٍ وثيابٍ أثناء المشي. وقد يكون شديد النّمو إلى درجة يستحيل معها الجماع، ومن هذا وجب استئصال مقدم البظر في مثل هذه الظروف لتعديل الشهوة، ولجعل الجماع ممكناً في الحالة الثانية.

أما عند الذكور فقد ثبت أن أمراضاً عديدة في الجهاز التّناسلي تشاهد بكثرة عند غير المختونين، بينما لا يكون عند المختونين.

فالتهاب القضيب مرض لا يصاب به إلاّ الأشخاص غير المختونين، وينتج عن إحاطة الأنسجة الجلدية برأس القضيب، وتشكيل جوف ذي فتحة ضيّقة لا تسمح لرأس القضيب بالظهور منها بمثابة كيس تتجمع فيه مفرزات القضيب المختلفة والمواد البروتينية المتفسّخة وخلايا البشرة المتوسطة وغيرها من المواد والفضلات التي تساعد على تشكّل الالتهابات المزمنة والحادة.

وهذه الالتهابات تكوّن التربة الملائمة لنمو السرطان وانتشاره وخاصّة عندما يترافق التهاب القضيب بالآفات الزّهرية والسّارية.

ومن الأمور المعروفة عدم مصادفة سرطان رأس القضيب تقريباً عند المسلمين واليهود الذين خُتِنُوا في سنٍّ مبكّرةٍ. بل لم يشاهدوا أية إصابة بسرطان القضيب عند المسلمين.

إن لختان الرّجال أثراً صحياً واقياً بالنّسبة لنسائهم، فإنّ النّساء المتزوّجات من رجال مختونين هم أقل تعرّضاً للإصابة بسرطان الرحم من النّساء المتزوّجات من رجالٍ غير مختونين. ولا تزال الأبحاث جارية حول هذه العلاقة التي اكتشفت مؤخراً، ولقد وجد أنّ سرطان عُنق الرحم عند البغايا أكثر بأربعة أضعاف منه عند بقية النّساء العفيفات.

الخاتمة

وفي الختام نحمدُ الله تبارك وتعالى الذي وفّقنا إلى اتّباع كتابه الكريم وسنّة رسوله عليه الصّلاة والسّلام وعلى آله الطّاهرين وأصحابه الميامين؛ حمداً طيباً مباركاً مِلْءَ السّموٰاتِ ومِلْءَ الأرضِ ومِلْءَ ما بينَهُما، على نعمةِ الإسلامِ، وعلى نعمةِ الصّحّةِ والعافيةِ على الدَّوَام.

هذا.. وإنّ الأملَ كبيرٌ في كلِّ مسلم ومسلمةٍ أن ينهجَا نهجَ الإسلام في بناء الأسرةِ المسلمة بناءً متكاملاً، فإنّ هذا في إمكانيتهما، وعلى الأخص الزّوجين اللذين أقدَما على تكوين أسرة فَتِيّةٍ، تحتلُّ مكانتَها في هذه الحياةِ، ولا بدّ في بناءِ الأسرةِ المسلمةِ من قواعدَ متينةٍ، وأصولٍ ثابتةٍ، ومنهجٍ مُتكاملٍ، وقد تكفّلَ الإسلامُ بتقديم تلكَ القواعدِ والأصولِ والمناهجِ، لتكوينِ الأسرةِ تكويناً إسلامياً إيمانيًّا على هَدي القرآنِ الكريم وهدي السُّنّةِ النّبويّةِ المطهرة!!!.

ولقد تفضَّلَ الله سبحانه عليّ بإتمامِ أبحاثِ هذا الكتابِ الذي أعددتُهُ من خِيْرةِ المصادرِ والمراجع التي أسهمتْ في بيانِ تلك القواعد والأصول والمناهج في بناء الأسرة المسلمة؛ لإعداد جيلٍ مسلم فاضلٍ صالح؛ فأسألُ الله تبارك وتعالى أن يكون هذا الكتابُ عَوْناً وسَبَباً في تحقيق هٰذه الغايةِ المرجوّةِ، فإنّ نظامَ الأسرةِ المسلمةِ نظامٌ ربّانيٌّ مباركٌ، تتحقَّقُ فيه رعايةُ الفطرةِ الإنسانيّةِ، وحَاجَاتُها النّفسيّة والفكريّة، باعتبارِها مَهْدَ الإنسانية، ومصدرَ نموِّها وتكاثرِها!!!.

وعلى الله توكلنا وبه استعنا وإليه المصير، والحمدُ لله الذي بنعمتهِ تتمُّ الصّالحات!!!.

مصادر أبحاث الكتاب ومراجعها

١ ـ القرآن العظيم، وتفسيره: تفسير القرطبي، وتفسير ابن كثير.

٢ ـ السّنّة النّبوية، وشروحها: صحيح البخاري مع شرحه فتح الباري، للحافظ ابن حجر. وصحيح مسلم مع شرحه للإمام النّووي. وسنن أبي داود مع شرحه عون المعبود. وسنن الترمذي مع شرحه تحفة الأحوذي. وسنن النّسائي. وسنن ابن ماجه. ومسند الإمام أحمد. وصحيح ابن حبان «الإحسان في ترتيب صحيح ابن حبان». والمستدرك للحاكم. ومسند أبي يعلى الموصلّي. والمصنف لابن أبي شيبة. صحيح الجامع الصغير. وضعيف الجامع الصغير. والموطأ للإمام مالك. وصحيح شعب الإيمان «للمؤلف».

٣ ـ آداب الحياة الزوجية في ضوء القرآن والسّنة/ للمؤلف ـ ط دار المعرفة، بيروت. دستور الأسرة في ظلال القرآن/ أحمد فايز ـ ط مؤسسة الرّسالة، بيروت. مشكلات المرأة المسلمة المعاصرة وحلّها في ضوء الكتاب والسّنّة/ الدكتورة مكية مرزا ـ ط دار المجتمع للنشر، السعودية. المرأة المسلمة المعاصرة إعدادها ومسؤوليتها في الدعوة/ الدكتور أحمد بن محمد بن عبد اللّه أبا بطين ـ ط دار عالم الكتب للنشر، الرياض. شخصية المرأة المسلمة كما يصورها الإسلام في الكتاب والسّنة ٪ الدكتور محمد علي الهاشمي ـ ط دار البشائر الإسلامية، بيروت. الأمومة في القرآن الكريم والسّنة النبوية/ محمد السيد محمد الزعبلاوي ـ ط مؤسسة الرسالة، بيروت. التدريس في مدرسة النبوة/ د. سراج محمد عبد العزيز وزان ـ ط رابطة العالم الإسلامي. المتبرّجات/ فاطمة بنت عبد اللّه ـ ط مكتبة السّنّة، القاهرة. المرأة بين الفقه والقانون/ الدكتور مصطفى السباعي ـ ط المكتب الإسلامي، دمشق. المرأة في الإسلام/ الدكتور معروف الدواليبي ـ ط دار النفائس، بيروت. حياة الصحابة/ الكاندهلوي ـ ط دار القلم، بدمشق. تراجم سيدات بيت النبوة/ الدكتورة عائشة عبد الرحمٰن ـ بنت الشاطىء ـ ط دار الكتاب العربي، بيروت. أطفال الأنابيب

بين العلم والشّريعة/ زياد أحمد سلامة ـ ط دار البيارق، بيروت. تربية الأولاد في الإسلام/ عبد اللّه علوان ـ ط حلب. الطب النبوي في ضوء العلم الحديث/ الدكتور غياث حسن الأحمد ـ ط دار المعاجم، دمشق. الطب النبوي والعلم الحديث/ الدكتور محمود النسيمي ـ ط مؤسسة الرسالة، بيروت. الأسرة في الإسلام ـ في ضوء الكتاب والسّنّة/ الدكتور مصطفى عبد الواحد ـ ط مكتبة المتنبي، القاهرة. المرأة بين البيت والمجتمع/ البهي الخولي ـ ط دار الفتح، بيروت. مكانة المرأة في الإسلام/ محمد عطية الأبراشي ـ ط دار الشعب، مصر. المرأة في التصوّر الإسلامي/ عبد المتعال محمد جبري ـ ط مكتبة وهبة، القاهرة. المرأة في القرآن/ عباس محمود العقاد ـ ط دار الهلال، مصر. الطب الإسلامي/ مختار سالم ـ ط مؤسسة المعارف، بيروت. موسوعة الثقافة العلمية ـ ط دار الكتاب الجديد، مصر. المخدرات الخطر الدّاهم/ الدكتور محمد علي البار ـ ط دار القلم دمشق ودار العلوم، بيروت. أمراضنا وكيفية معالجتها ـ ط دار الآفاق الجديدة، بيروت. آداب الزفاف/ محمد ناصر الدين الألباني ـ ط المكتب الإسلامي. تحرير المرأة في عصر الرّسالة/ عبد الحليم أبو شقة ـ ط دار القلم، الكويت.

فهرس المحتويات